

مكتبة الدراسات الأدبية

١٩

الفن ومذاهبه

في النثر العربي

تأليف

الدكتور شوقي ضيف

الطبعة العاشرة

١١٢
فني

الفن ومذاهبه

في النثر العربي

١٩٢٥ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثالثة

رجعتُ في هذه الطبعة أنظر في فصول هذا البحث أصلح فيها وأنقح ما يحتاج إلى إصلاح وتنقيح ، ورأيت أن أعيد كتابة الفصل الثاني من الكتاب الأول الخاص بالصنعة في النثر الإسلامى ، حتى أضيف إليه زيادات عن الإسلام ومعانيه الروحية ، والقرآن الكريم وهديّه وما كان له من آثار بعيدة في اللغة العربية ، والحديث النبوى وتدوينه وروعة تعبيره . ومضيت أفصل القول في الخطابة بفروعها الثلاثة من سياسية وحقلية ودينية ، ولاحظت أنه أتيح للخطابة الأخيرة خطباء مفوهون ، نوعوا معانيها تنوعاً واسعاً ، وعنوا بأساليبها عناية بعيدة ، وقد هدّتهم فِطَنُهُمْ إلى نمط جديد من الصيغ الصوتية ، هونمط الازدواج وما يُطَوَّى فيه من ترادف موسيقى ، ودار هذا النمط على ألسنتهم ، ولم يلبث الكتاب - وعلى رأسهم سالم وعبد الحميد الكاتب - أن حاكوه في هذا النمط الرائع .

ورأيت أن أبسّط الكلام في الفصل التالى الخاص بالصنعة في النثر العباسى . حتى أوضح كيف تطور المترجمون والمتكلمون - وخاصة المعتزلة - بهذا النثر ، فإذا أسلوب مولّدٌ جديد ينشأ فيه ، وهو أسلوب مبسّط وسط بين لغة البدو الجلفية ولغة العامة المبتدلة ، وفي الوقت نفسه يحتفظ بالجزالة والرصانة والرونق ، مع مرونته وطواعيته لأداء معان ومدلولات لم يكن للعربية بها عهد .

وقد نهض بهذا الأسلوب نخبة من المترجمين في مقدمتهم ابن المقفع الذى طارت شهرته في أوائل العصر العباسى لما أظهر من مهارة في صَبِّ خير ما كانت تحمله لغته الفارسية من ثقافات مختلفة في قوالب عربية أصيلة ، لا يشوبها

أى ضرب من ضروب الرطانة الأعجمية ، فالعربية - عنده - تحتفظ بمشخصاتها وأصولها وأوضاعها فى النحو والصرف والاشتقاق والتركيب ، بينما تتمثل معانى الثقافات الأجنبية تمثلاً دقيقاً فى ألفاظ مألوفة بيّنة واضحة ، مع حرصه على الدقة والإيجاز ، ومع بعده عن التوعر والتعقيد ، ومع النسيج المحكم الدقيق .

ووطّد المتكلمون دعائم هذا الأسلوب العباسى المولّد الحديد ، بما ملكوا من أزمّة العربية وكنوز الفلسفة والثقافات الأجنبية ، وقد أثاروا مباحث كثيرة فى علم الكلام وفى الطبيعة والأخلاق ، ولم يكونوا يصنّفون فحسب ، بل كانوا أيضاً يناظرون ويجادلون الدهرية والزنادقة والملحدّين بهذا الأسلوب الحديد الذى يموج بالألفاظ الجزلة المونقة والمعانى الغزيرة المرتبة فى مقدمات منطقية دقيقة ومقاييس عقلية سديدة . وكانوا يفحصون موادّ تعبيرهم ويمتحنونها ويختبرونها ، حتى يضعوا دقائق معانيهم فى الألفاظ الطليّة التى توائمها ، ودفعهم ذلك إلى أن يسجلوا ملاحظات مختلفة لهم على صحة مخارج الحروف وجمال الألفاظ ووضوح المعانى ومواطن الإيجاز والإطناب ومحاسن التعبير ، وحاولوا الوقوف على ما سبقهم إليه اليونان وغير اليونان من آراء وملاحظات فى هذه الجوانب ، وبذلك كانوا المؤسسين لأصول البلاغة العربية ، وقد انتهى عندهم الأسلوب العباسى المولّد إلى كل ما كان ينتظره من روعة وجمال فى اللفظ والمعنى .

وكل ما زدته فى هذه الطبعة أو صحّحته أو نقّحته إنما دفعنى إليه تحرّرى الدقة ، ومن رأى دائماً أن يعيد المؤلف النظر فى مؤلفاته حين يعدّها للطبع من جديد . وبذلك تنمو الدراسة الأدبية ، ويستوفى الدارس حقوقها بقدر ما يستطيع ، فتكثر الفائدة منها ويزداد النفع . والله أسأل أن يلهمنى السداد فى القول والإخلاص فى الفكر والعمل ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

مقدمة الطبعة الأولى

اتخذتُ في هذا الكتاب السَّيرة التي اتخذتها في كتاب (الفن ومذاهبه في الشعر العربي) فقد درست هناك الشعر في عصوره المختلفة دراسة أتاح لي أن أضع للفن فيه — أو بعبارة أخرى لصناعته — ثلاثة مذاهب ، وهي : الصَّنعة والتصنيع والتصنع . ومذهب الصنعة هو المذهب الذي نجده في أقدم نماذج الشعر العربي ، إذ كان أصحابه يخضعون لطائفة من الرسوم والتقاليد في صنعه ، وهي تقاليد ورسوم تجعل الإنسان يشعر بأن أدبنا العربي منذ أقدم العصور أدبٌ تقليديٌّ ، إذ تتضح فيه عناصر التقليد اتضاحاً تاماً ، غير أن هذه العناصر لا تطفئ على عناصر التحول والتطور فيه . ومن أجل ذلك كنا لا نمضي في درس الشعر العربي بعد خروجه من البادية إلى المدن المتحضرة حتى نرى مذهباً جديداً يخرج في صناعته ، هو مذهب التصنيع الذي كان يقوم على طرائف الزخرف المختلفة من بديع وغير بديع . وتغلغل في العصر العباسي فإذا الحضارة العربية تتعقد تعقداً شديداً ، وهو تعقدٌ لم يلبث أن انتقل إلى الصناعة والفن في الشعر فأهلَّ لخروج مذهب جديد هو مذهب التصنيع الذي كان يقوم على تصعيب طرق الأداء . وقد جمد الفن في الشعر العربي عند هذه المذاهب الثلاثة ولم يتجاوزها إلى مذهب جديد .

وهذه المذاهب التي فسَّرتُ بها الفن في الشعر العربي ومراحلها المتتابعة هي نفسها التي فسرت — على ضوءها — الفن في النثر العربي ومراحلها المتعاقبة ، فقد بدأت صناعة النثر في العصر الجاهلي بصورة فنية لا تأتق فيها ولا تعقيد تبعاً لحياة العرب البسيطة التي لم تكن تعتمد على تصعيب في الأداء ولا على تنميق . وفزعتُ في وصف صورة النثر حيثُشد إلى نصوص الشعر الجاهلي لأنها أكثر صحة مما يضاف إلى هذا العصر من خطابة وسجع كُهنَّان ، ووجدت

فى هذه النصوص ما يصور تصويراً تاماً طبيعة النثر الجاهلى وما كان يوفر له أصحابه من تحبير وتجويد .

ويدور الزمن دورة ، وإذا الإسلام يفتح صفحة مشرقة فى تاريخ العرب ، فقد أخرجهم من الظلمات إلى النور ومن دائرة الشعوب القبلية إلى دوائر الأمم المتحضرة . وقد رأيت النثر يستمر فى أثناء العصر الإسلامى فى الصورة التى رسمها العصر الجاهلى من حيث نسجه وصوغه ، وإن اختلفت موضوعاته ، وتشعبت معانيه ، فقد اتسعت الخطابة اتساعاً شديداً ، وأخذ يظهر بجانبها نوع جديد من النثر ، لم يكن للعرب عهد به ، وهو الكتابة الفنية ، أو ما يسميه بعض الباحثين باسم النثر الفنى . واستوعبتْ - فى دقة - نشأة هذا النوع ، وأثبت أنه لم ينشأ بفضل العناصر التى تحدّرت من أصول أجنبية ، وإنما نشأ بفضل العرب أنفسهم وفى ظل نظمهم السياسية الجديدة . وليس معنى ذلك أنى أنكرت تأثير العناصر الأجنبية فى هذا النوع ، بل لقد أخذتْ تشارك فيه مع مرور الزمن ولكنها مشاركة اتصلت بنموه وتطوره لا بوجوده ونشأته . وما زال هذا النوع يتطور فى العصر الإسلامى حتى وصل إلى عبد الحميد الكاتب فأعطاه صورته النهائية ، وهى صورة اندمجت فى صورة المذهب القديم : مذهب الصنعة والصانين . وقد ذهبت إلى أن عبد الحميد كان يتصل بالثقافة الفارسية مباشرة ، أما الثقافة اليونانية فاتصل بها عن طريق أستاذه سالم الذى كان يعرفها معرفة وثيقة .

ويدور الزمن دورة أخرى ، فإذا بنا نصل إلى العصر العباسى ، ونلتقى بابن المقفع وسهل بن هرون والجاحظ وأضرابهم ممن كانوا يعنون بالكتابات الطويلة ، أو بعبارة أخرى بالرسائل والكتب الأدبية ، وقد حافظتْ هذه الجماعة على إطار النثر الذى تسلمته من عبد الحميد الكاتب ، فلم تخرج به إلى مذهب جديد ، بل عاشت فى إطار مذهب الصنعة القديم ، على الرغم من البون الشاسع بين ثقافتها وثقافة أصحاب المذهب فى العصور السابقة . وقد أوضحت منزلة ابن المقفع وما استطاع أن ينهض به من الملازمة بين العربية وما نقل إليها

من كنوز الآداب الأجنبية ، إذ استطاع أن يحتفظ لها بخصائصها وبأسلوبها الجزل الرصين . أما الجاحظ فعُنيَ ببيان فنه عناية واسعة ، ودرست له (رسالة التربيع والتدوير) دراسة مفصلة ، وذهبتُ في تحليل تكراره المسرف إلى أنه كان يُملى كثيراً من كتبه ، إذ أُملى البيان والتبيين والحيوان والبخلاء ورسالة التربيع والتدوير نفسها ، ومن أجل ذلك اتَّسمَت كتاباته — غالباً — بمياسم كتب الإملاء والمحاضرة من حيث التكرار والاستطراد وما يتصل بذلك أحياناً من خلل في البناء .

ولما تركتُ هذه الجماعة من أصحاب الكتابات الطويلة في العصر العباسي إلى أصحاب الكتابات الرسمية القصيرة ، أو بعبارة أخرى أصحاب الدواوين والكتابة الديوانية ، وجدت هذه الجماعة الثانية تسعى إلى إحداث مذهب جديد ، هو مذهب التصنيع ، وهو مذهب كان يعبر تعبيراً دقيقاً عن الحضارة العباسية وما يطوى فيها من تأنق وتنميق . وما زالتْ مقدماتُ هذا المذهب تراءى — من حين إلى حين — في الدواوين العباسية حتى إذا كان مطلع القرن الرابع للهجرة وجدت السجع يعمُّ في دواوين المقتدر . وما لبث ابن العميد وزير البويهيين أن وصل بهذا السجع إلى ما كان ينتظر له من ترصيع بطرائف البديع المعروفة من جناس وطباق وتصوير . وعللتُ لاكمال المذهب عند ابن العميد بأنه كان يتقن فن التصوير وعلم الحِجَل (الميكانيكا) فذهب يحتال في نماذجه حيلة أدته إلى أن يوفر لها كل ما يستطيع من زخارف السجع والبديع . ووقفت بعد ذلك عند أنصار هذا المذهب من مثل الصاحب بن عباد وأبي إسحق الصائبي والحوارزمي وبديع الزمان ، ولاحظتُ أن بذوراً مكتنئةً للمذهب ثالث أخذت تظهر عند الأخيرين ، وقد بدت في شكل أتم وأوضح عند قابوس بن وشمكير . وما هي إلا أن يدور الزمنُ دورة ، فإذا هذا المذهب تم له صورته عند أبي العلاء ، ونقصد مذهب التصنع الذي كان يقوم على تصعيب طرق الأداء وتعقيدها ضرورياً من التعقيد ، وإن الإنسان ليشعر كأن التعقيد أصبح غاية في نفسه ولنفسه ! واستطردت من أبي العلاء إلى الحريري في آثاره والحصكفي في نماذجه ،

وفسّرت ما نهضها به من تعقيد في أدوات فنهما ووسائله .

ويدور الزمن بعد ذلك في العصور الوسطى دورة بل ما شاء من دورات ، فلا يظهر مذهب جديد في صناعة النثر العربي وصياغته ، بل يجمد الأدباء عند صورة المذهب الأخير ، ويمكثون في إطارها حائرين حتى العصر الحديث . وهذه هي المذاهب أو المراحل التي مرَّ بها الفن في النثر العربي ، فقد بدأ بمرحلة الصنعة ، ثم انتقل إلى مرحلة التصنيع ، وما لبث أن انتهى إلى مرحلة التصنع ، وتحجّر في هذه المرحلة فلم يستطع منها إفلاتاً ولا خلاصاً . وقد ذهبت أدرس هذا النثر في الأندلس ومصر فتعقّبت في الإقليمين نشأته ، وتطوره ، ومناهجه ، وأشهر أساتذته وأعلامه ، وانتهيت من هذا التعقب إلى أن الأندلس ومصر جميعاً لم يستحدثا مذهباً يمكن أن نضمّه إلى جملة المذاهب التي ظهرت في المشرق . وإن الباحث ليشعر كأنما كانت أصول المذاهب المشرقية في صناعة الأدب العربي : شعره ونثره أثبت وأصلب في تاريخ هذا الأدب من أن يصيبها أى إقليم من الأقاليم العربية بضرب واسع من ضروب التحريف والتغيير . وليس معنى ذلك أن مصر والأندلس لم تعبّرا عن شخصيتهما أى تعبير في أدبهما ، بل لقد عبّرتا ولكن في طاقة محدودة وداخل المذاهب المشرقية الموضوعية . وسُقّت بعد ذلك خاتمة عرضت فيها بإيجاز لهضة النثر المصرى الحديث .

وهذه الدراسة المتشعبة للنثر العربي وما مرَّ به من أحداث في عصوره وأقاليمه المختلفة جعلتني أرجع إلى كل ما استطعت من كتب الأدب والتاريخ والجغرافية عند العرب ، وكذلك رجعت إلى طائفة من كتب المستشرقين . وينبغي أن أشير هنا إلى صعوبة هذا البحث وكثرة ما صادفني فيه من مشاكل ، كما ينبغي أن أشير إلى أنه كانت غايته الأساسية — منذ الخطوات الأولى فيه — أن أضع أمام القارئ الصوّر الدقيقة للنثر العربي في مختلف أطواره ومراحله ، وهى صور حاولت أن أحفظ لها بخصائصها ، فلم أعتمد على حكاية إحساسى وشعورى إزاء نماذجها ؛ وأيضاً فلأننى لم أعتمد في مسألة على الفروض والأوهام ، وإنما

اعتمدت على النصوص الحسية نفسها . وكل ما أرجوه أن أكون قد عرّفت
 - بعض التعريف - بالنثر العربي في مختلف مناهجه ومذاهبه ، وهو تعريف
 قصدت به في هذا الكتاب - كما قصدت في كتاب « الفن ومذاهبه في الشعر
 العربي » - أن أحبّ قراءة أدبنا إلى شباب العصر الحديث الذين يؤمنون بفكرة
 المذاهب والمناهج وتطبيقها في الدراسات المختلفة . والله وليّ الهدى والتيسير .

شوقي ضيف

القاهرة في ١١ من أبريل سنة ١٩٤٦ م

الكتاب الأول

مذهب الصنعة

الفصل الأول

الصنعة في النثر الجاهلى

١

النثر الجاهلى

النثر هو الكلام الذى لم يُنظَمْ فى أوزان وقواف ، وهو على ضربين :
أما الضرب الأول فهو النثر العادى الذى يقال فى لغة التخاطب ، وليست لهذا الضرب قيمة أدبية إلا ما يجرى فيه أحياناً من أمثال وحِكَم ، وأما الضرب الثانى فهو النثر الذى يرتفع فيه أصحابه إلى لغة فيها فن ومهارة وبلاغة ، وهذا الضرب هو الذى يُعنى النقاد فى اللغات المختلفة ببحثه ودَرسه وبيان ما مرَّ به من أحداث وأطوار ، وما يمتاز به فى كل طور من صفات وخصائص ، وهو يتفرع إلى جدولين كبيرين ، هما الخطابة والكتابة الفنية - ويسمى بعض الباحثين باسم النثر الفنى - وهى تشمل القصص المكتوب كما تشمل الرسائل الأدبية المحبَّرة ، وقد تتسع فتشمل الكتابة التاريخية المنمقة .

ومن يرجع إلى العصر الجاهلى وأخباره يجد هذا الضرب الأخير من النثر يلعب دوراً مهماً فى حياة العرب حينئذ ، إذ كان عرب الجاهلية مشغوفين بالتاريخ والقصص عن فرسانهم ووقائعهم وملوكهم ، يقطعون بذلك أوقات سمرهم فى الليل وحول خيامهم ، وقد دارت بينهم أطراف من أخبار الأمم المجاورة لهم ممتزجة بالخرافات والأساطير ، ففى السيرة النبوية أن النَّصْر بن الحارث المكي كان يقص على قريش أحاديث عن أبطال الفرس أمثال رُستَم وإسْفَنْدِيَار^(١) وأكثر ما كان يستهويهم من القصص أحاديث قصاصهم عن

(١) السيرة النبوية لابن هشام (طبع الحلبي)

أيامهم وحروبهم في الجاهلية ، مما يصوره لنا كتاب شرح النقائض لأبي عبيدة وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني وقد تلاهما اللغويون والأدباء يعنون بتلك الأيام والحروب عناية واسعة^(١) على نحو ما هو معروف عن ابن عبد ربّه في «العقد الفريد» وابن الأثير في الجزء الأول من كتابه «الكامل» والميداني في الفصل التاسع والعشرين من كتابه «مجمع الأمثال» .

وينبغي أن لا نعلّق أهمية تاريخية أو أدبية على هذا القصص ، فإن الرواة حَرَفُوا فيه كثيراً قبل أن يأخذ شكله النهائي عند أبي عبيدة وغيره من مؤلفي العصر العباسي . وتوضّح ذلك توضيحاً تامّاً قصةُ الزبّاء ملكة تدمر ببادية الشام في القرن الثالث الميلادي ، وهي تلك القصة التي رويت في الكتب العربية عن هشام بن محمد الكلبي^(٢) ، والتي تزعم أنها بنت عمرو بن الظرب العمليقي وأن حروباً نشبت بينه وبين جدّيمة الأبرش ملك الحيرة وتنوخ انتهت بقتل عمرو ، فاحتالت بنته الزبّاء على جدّيمة ، حتى قدم عليها فقتلتها ، وخلفه ابن أخته عمرو بن عدى ، فاحتال بمساعدة أحد أتباعه - ويسمى قصيراً - حتى انتقم منها في مدينتها التي بنّتها على الفُرات ، بأن حمّل إلى حصنها رجالاً في جواليق أو صناديق ، وفتحت له الحصن ، وهي تظنه يحمل بعض عروض التجارة ، وخرج الرجال من الجواليق ، فقتلوا واستولوا على المدينة . وهي أسطورة لا تتفق في شيء ووثائق التاريخ الروماني الصحيحة عن الزبّاء أو كما يسمونها زنوبيا Zenobia زوج أذينة الذي قُتل غدرّاً . وقد نشرت سلطانها على العراق والشام ومصر وآسيا الصغرى ، وصارعت الرومان صراعاً عنيفاً ، حتى تصدى لها «أورليان» وانتصر على جيوشها وحاصر حاضرتها تدمر . وطال الحصار ويشت من النصر فحاولت الفرار ولكن جنوده تعقبوها وأسروها ، وأخذها معه أسيرةً إلى روما حيث قضت بقية أيامها^(٣) .

(١) انظر الفن الأول من المقالة الثالثة في فاس ٤٥/٢٢ .

الفهرست لابن النديم . (٢) راجع الأغاني ٧٠/١٦ وابن الأثير .

(٣) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على (طبع بغداد - ١٩٥٣) ٩٩/٣ وما بعده . (طبعة لندن) ٢٤٧/١ وابن خلدون (طبعة

وكان لا علاقة بين شخصية زنوبيا التاريخية وشخصية الزباء في القصة العربية ، فقد غيِّرت في القصة جميع المعالم التاريخية ، حتى مدينتها تدمر وضع القصاص مكانها مدينتين بنهما على الفرات ، وحتى اسمها وهو « زنوبيا » حرِّف إلى الزباء ، وقد جلبوا جذيمة من الحيرة ليحلَّ محل زوجها أذينة الذي قُتل غدرًا .

وإذا كنا لا نستطيع أن نعتمد على هذا القصص في حوادث التاريخ فأولى لنا أن لا نعتمد عليه في وصف صورة النثر الجاهلي وبيان خصائصه الفنية ، لأنه لم يُكْتَبْ في العصر الجاهلي ولا في عصر قريب منه ، وإنما كُتِبَ في العصر العباسي . ومن أجل ذلك كنا لا نستطيع أن نعتدَّ — من الوجهة الأدبية — بما يروى عن هذا العصر من عناصر القصص والتاريخ ، لأن الرواة حرَّفوا لفظه ، بل لقد حرَّفوا معناه على نحو ما حرَّفوا قصة زنوبيا أو بنت زباى وأخبارها . ولو أن العرب كتبوا تاريخهم وقصصهم في العصر الجاهلي لاعتدنا بهذا اللون من نثرهم ، ولكنهم لم يكتبوا منه شيئاً . أما ما يروى عن هشام بن محمد الكلبي من أنه رأى في بيع الحيرة بعض مدونات استخراج منها أخبار العرب^(١) فإننا لا نستطيع الاعتماد على روايته لأنه متهم في كثير مما يرويه^(٢) ، وحتى لو صحت روايته فأغلب الظن أن ما شاهده من تلك المدونات لم يكن مكتوباً بالعربية ، إنما كان مكتوباً بالسريانية التي كانت شائعة في الحيرة قبل الإسلام^(٣) .

والحق أنه لا يوجد تحت أيدينا دليل مادي على أن العرب تركوا في العصر الجاهلي مدونات تاريخية أو أدبية ، وليس معنى ذلك أن الخطَّ العربي لم يكن قد نشأ ، فالنقوش المكتشفة حديثاً تؤكد أنه تمَّ تكونه في الحجاز منذ القرن السادس الميلادي ، ومنها انتشر في بعض البيئات الصحراوية ، وقد جاء الإسلام

(١) انظر الطبري (طبع ليدن) : القسم ٤٠/١٠ .
الأول ص ٧٧٠ .
(٢) أصل الخط العربي لتحليل زامى ص ٤ .
(٣) أغاني (طبع دار الكتب المصرية)

وفي مكة سبعة عشر كاتباً^(١) ، وفي المدينة أحد عشر^(٢) ، وكان بين البدو من يعرف الكتابة مثل أكتّم بن صيفي^(٣) حكيم تميم وخطيبها ، وكان ابن أخيه حنظلة بن الربيع من كتّاب الرسول صلى الله عليه وسلم^(٤) . ومن الشعراء المتبدين الذين اشتهروا بمعرفة الكتابة في هذا العصر المرقش الأكبر^(٥) وهو من بكر ، ولبيد^(٦) بن ربيعة وهو من بني عامر بن صعصعة . ولعل من الدليل على شيوع الكتابة بين البدو أننا نجد شعراءهم يصفون الأطلال كثيراً بنقوش الكتابة ، يقول المرقش في فاتحة قصيدة له معروفة^(٧) :

الدارُ قَفَرٌ والرَّسومُ كما رَقَشَ في ظهر الأديم قلمٌ

ويقول لبيد في مطلع معلقته :

عَقَتِ الدِّيارُ محلُّها فقامها بمنى تأبَّد غولها ورجامُها^(٨)
فدافعَ الرِّيانَ عرِّيَ رَسْمُها خلَقاً كماضَمِنَ الوحى سِلامُها^(٩)

والوَحْيُ : الكتابة ، والسَّلام : الحجارة البيض والعظام التي كانوا يكتبون عليها ، وكانوا يكتبون أيضاً في الأدم أو الأديم الذي مرّ عند المرقش وهو الجلد المدبوغ ، كما كانوا يكتبون في عُسْب النخل . ويستمر لبيد في معلقته فيقول :

وجلا السيولُ عن الطلول كأنها زُبُرٌ تُجدّ متونَها أقلامُها

-
- (١) فتوح البلدان للبلاذرى (طبعة أوروبا) ص ٤٧١ .
(٢) نفس المصدر ص ٤٧٣ .
(٣) مجمع الأمثال للميداني (طبعة المطبعة الخيرية) ٨٧/٢ وقارن بما جاء في عيون الأخبار لابن قتيبة (طبعة دار الكتب) ٤٢/١ .
(٤) الوزراء والكتاب للجهمشيارى (طبعة الحلبي ص ٢١٢) .
(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة (طبع ليدن) ص ١٠٤ .
(٦) أغاني (طبعة الساسي) ٩٠/١٤ .
(٧) المفضليات (طبعة لايل) ص ٤٨٥ .
(٨) عفت : أرست واحت . تأيد : أنفر وتوحش . محلها ومقامها ومنى وغولها ورجامها : أسماء مواضع .
(٩) مدافع الريان : موضع . خلَقاً : بل ودروساً . الرِّسم : آثار الديار .

والزبير : الكتب . ويقول الأحنس بن شهاب التغلبي ^(١) :
 لابنة حِطَّانَ بنِ عَوْفٍ منازلٌ كما رَقَّشَ العنوان في الرِّقِّ كاتبُ
 والرق : الجلد الرقيق ، ويقول سلامة بن جندل الفارس المعروف ^(٢) :
 لمن طللٌ مثل الكتاب المنمَّقِ خلا عَهْدُهُ بين الصُّلَيْبِ فُطْرُقِ

وقد ردَّد شعراء البادية هذه الصورة كثيراً في شعرهم ^(٣) . وما من ريب في
 أن ذلك يؤكد أن الكتابة كانت معروفة في العصر الجاهلي ، ولكن هذه المعرفة
 شيء وأن العرب أحدثوا بها آثاراً فنية مكتوبةً شيء آخر . هم عرفوها ، ولكنها
 معرفة محدودة ، فلم يكتبوا بها كتباً ولا قصصاً ولا رسائل أدبية ، وإنما كتبوا بها
 بعض أغراض تجارية وأخرى سياسية ، ولذلك لم يكن غريباً أن تشيع في مكة
 لأنها كانت مركزاً تجارياً عظيماً . ويحدثنا الجاحظ أنهم كانوا يكتبون بعض
 عهودهم السياسية ، وكانوا يسمون تلك العهود المكتوبة « مهارق » ^(٤) . وقد جاء
 ذكر هذه المهارق في معلقة الحارث بن حلزة مشيراً بها إلى ما كُتِب من عهود
 بين بكر وتغلب ، إذ يقول :

واذكروا حلَفَ ذِي المجاز وما قُدِّمَ فيه العهودُ والكُفَلَاءُ
 حذرَ الجورِ والتعدَّى وهل ينقُضُ ما في المهارق الأهواءُ

وإذاً فالعرب استخدموا الكتابة في العصر الجاهلي لأغراض سياسية
 وتجارية ، ولكنهم لم يخرجوا بها إلى أغراض أدبية خالصة تتيح لنا أن نزعم أنه
 وُجد عندهم لون من ألوان الكتابة الفنية . ومن المؤكد أن الكتابة لم تكن حينئذ
 تؤدَّى بجانب أغراضها السياسية والتجارية أغراضاً أدبية أو فنية من تجويد
 وتحبير ، إذ لم تكن أكثر من كتابة ساذجة أدَّتْ أغراضاً خاصة في عصرها ،
 وانتهت بانتهاء هذا الغرض .

ومما لا شك فيه أنه لا يوجد تحت أيدينا وثائق نستطيع أن ندَّعي بها أن

(٣) المفضليات ص ٢٦٣ وص ٥٥٩ وما بعدها .

(٤) الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبي) ١/٦٩ .

(١) المفضليات ص ٤١٠ .

(٢) المفضليات ص ٥٦٠ .

الجاهليين عرفوا الكتابة الفنية ، إنما الذى نستطيع أن ندعيه لهم حقاً - عن طريق الوثائق الصحيحة - هو الأمثال ، فقد أكثروا من ضَرْبِهَا ، وهناك كتب مشهورة تتخصص ببحثها . وبجانب الأمثال نعرف أنه كان لهم خطابة وخطب كثيرة ، وقد أخذت الخطابة عندهم صورتين : صورة اجتماعية عامة فى منافراتهم ومفاخراتهم ومجامعهم وأسواقهم وحروبهم ، وصورة خاصة فى سجع الكُهَّان وما كان ينزل على ألسنتهم أثناء تكهنهم .

وقد سلمت لنا طائفة واسعة من الأمثال تناقلتها أجيالهم والأجيال التى تلتها فى الإسلام مما أتاح لها أن تحتفظ بصورتها الجاهلية ، ومعروف أن الأمثال لا تتغير بل تظل طويلاً على هيئتها التى صيغت عليها . وأما الخطابة وسجع الكهان فضاعت نصوصهما إلا قليلاً جداً ، إذ بقيت بعض قطع وبعض صيغ منشورة فى ثنايا الكتب التاريخية والأدبية . وما دمننا بصدد درس النثر الجاهلى فلا بد من تعقب هذه الفروع الثلاثة من الأمثال والخطابة وسجع الكهان ، لنرى - بمقدار ما تُسَعِّفنا النصوص - ما أتيج لكل منها من صناعة فنية وبراعة أدبية .

٢

الأمثال الجاهلية

خَلَفَ لنا عربُ الجاهلية تراثاً كبيراً من الأمثال ، وهى عبارات تُضَرَّبُ فى حوادث مشبهة للحوادث الأصلية التى جاءت فيها ، وقد عُنَى علماء العصر العباسى بدراستها ، ومن سبق إلى ذلك المفضل الضبى وأبو عبيدة ، ثم خَلَفَ من بعدهما خَلَفٌ أشهرهم أبو هلال العسكري فى كتابه « جمهرة الأمثال » والميدانى فى كتابه « مجمع الأمثال » وهو يقول فى مقدمته إنه رجع فى تأليفه إلى ما يربو على خمسين كتاباً . وقد دَرَجَ من أَلْفُوا فى الأمثال على أن يرتبوها حسب

حروفها الأولى على نحو ما ترتَّب المعاجم ألفاظها ، ولذلك نراهم يوزعونها عادة على تسعة وعشرين باباً بعدد أبواب الحروف الهجائية . ثم بعد هذا التوزيع يفسِّرونها ويقصُّون أحياناً حوادثها التي جاءت فيها معتمدين - غالباً - على الظن والتخمين ، مما جعل نيكلسون يذهب إلى أن قيمة الأمثال محدودة بالنسبة إلى العصر الجاهلي^(١) . وحقاً ما يذهب إليه ، فقد طال العهد بين العصر الجاهلي وعصر هؤلاء المفسرين . وإنه لينبغي أن نثني على صنيعهم ، ولكن مع شيء من الحذر في الأخذ بتفسيرهم وقصصهم وما يحكونه من أخبار ، مادامنا نهم القصص الجاهلي وما نُسب إلى عرب الجاهلية من أخبار وأحداث .

ومعروف أن المثل لا يتغيَّر ، بل يجرى كما جاء على الألسنة ، وإن خالف النحو وقواعد التصريف ، فقد جاء في أمثالهم : أعطِ القوس باريها^(٢) بتسكين الياء في باريها ، والأصل فتحها ، وجاء أيضاً في أمثالهم : «أجناؤها أبنائها» جمع جان وبان ، والقياس الصرفي : جناتها بُناتها لأن فاعلا لا يجمع على أفعال . وتقول : الصيفَ ضَيَعَتِ اللبن^(٣) بكسر التاء إذا خوطب بها المذكر والمؤنث والاثنان والجمع . ومعنى ذلك أن المثل لا يغيَّر وأنهم يستجيزون فيه ما لا يستجيزون في سائر الكلام .

وينبغي أن نلاحظ أن بعض الأمثال مبهم غامض ، لا يفهمه سامعه أو قارئه إلا إذا رجع إلى كتب الأمثال يستعين بها في شرح المراد منه ، من ذلك قول العرب : «بعَيْنٍ ما أرينَّاك» فإن معناه أسرع ، وهو معنى لا يفهم من اللفظ بتاتاً ، وقد علق عليه أبو هلال العسكري بقوله : «هو من الكلام الذي قد عُرِفَ معناه سماعاً من غير أن يدلَّ عليه لفظه»^(٤) . ومن هذه الأمثال الغامضة ما اضطرب الشراح في تفسيره على نحو ما نجد في هذا المثل : «لا يعرف

(١) Nicholson, A Literary History of

the Arabs, 1930, p. 31. (٤) جمهرة الأمثال للعسكري على هامش مجمع

الأمثال للميداني ١٦٨/١ . (٢) أي استعن على علك بأهل الحلق والمهارة

(٣) يضرب هذا المثل في طلب الحاجة بعد فوت

الهِرَّ مِنَ الْبِرِّ». فقد ذكر بعضهم أن الهر : السنور ، والبر : الفأرة في لغة ، وقال بعض علماء الكوفة معنى المثل : لا يعرف من يَهْرُ عليه (يكرهه) ممن يهره، وقال آخرون: الهر : دُعاء الغم ، والبر : سَوَقها^(١). على أن هذه الأمثال الغامضة قليلة ، أما الكثرة فواضحة بينة .

وقد أكثر العرب من صنع الأمثال وضرَّ بها في جميع أحوالهم وشئون حياتهم ، وكثيراً ما كانوا يسوقونها في خطاباتهم ، يقول الجاحظ : « كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة ، ولم يكن الناس جميعاً ليمثلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع »^(٢) فقد أودعوها تجاربهم ، فانتمت بالقبول وشاعت بالتداول ، على شاكلة قولهم :

أَيُّ الرَّجُلِ الْمَهْذُبُ — إِيَّاكَ أَغْنَى وَاسْمَعِي يَا جَارَةَ^(٣) — تجوع الحرة ولا تأكل بشدَّ يَسَّهَا^(٤) — رب عجلة تَهَبُ رِيثاً^(٥) — رمتني بدائها وانسلت — لا تعدم الحسنة ذاماً^(٦) ، لكل جواد كِبْوَةٌ ولكل صارم نَبْوَةٌ — مَقْتُلُ الرَّجُلِ بَيْنَ فَكَيْهِ^(٧) — المقدرة تذهب الحفيظة^(٨) — من سلك الجَدَّ^(٩) أَمِنَ الْعِثَارَ — أَسْمَعُ مِنْ فَرَسٍ فِي غَمَلَسٍ^(١٠) — إذا فزع القُوَادُ ذهب الرقاد — الحرُّ حُرٌّ وَإِنْ مَسَّهُ الضَّرُّ — إِنَّمَا الْمَرْءُ بِأَصْغَرِيهِ: قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ — أَسْمَعُ جَعْمَجَمَةً وَلَا أَرَى طَحْنًا^(١١) — مِنْ أَجْدَبٍ انْتَجَعَ^(١٢) — وَيَلِ الشَّجِيُّ مِنَ الْخَلَى^(١٣) — مِنْ اسْتَرَعَى الذُّنْبَ

(١) المزهر للسيوطي (طبعة الحلبي) ٥٠٠/١

(٢) البيان والتبيين للجاحظ (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢٧١/١ .

(٣) يضرب في التعريض بالشيء يبيده الشخص وهو يريد غيره .

(٤) لا تأكل بشدَّ يديها : أي بمن لبن ثديها .

يضرب في صيانة الرجل الحر نفسه عن المكاسب الخسيسة .

(٥) الريث : البطء . أي رب عجلة تلقى صاحبها في بطء فتفوته حاجته .

(٦) الذام : العيب .

(٧) بين فكَيْهِ : أي في لسانه وما يأتي به من الكلام .

(٨) الحفيظة : الغضب . يضرب في الغفوة عند المقدرة .

(٩) الجد : الطريق الواضحة .

(١٠) الغلس : الظلام .

(١١) الجعجمة : صوت الرحي ، والطنن : الدقيق .

(١٢) انتجع : طلب الكلا في مواضعه .

(١٣) الشجى : المهموم ، والخل : الخال من المهموم .

ظلم - لا تلد الحية إلا حية - كل يُجرى في الخلاء يُسر^(١) - قبل الرماء تُملا الكنائس^(٢) .

وهناك جماعة اشتهرت في العصر الجاهلي بكثرة ما انزلت على ألسنتها من هذه الأمثال ، ومن قدمائهم لقمان عاد ؛ تلك القبيلة اليمنية البائدة التي كانت تسكن الأحقاف ، فلما نجد ذكره واضحة على ألسنة الشعراء^(٣) ، يقول الجاحظ : « كانت العرب تعظم شأنه في النباهة والقدر وفي العلم والحكم وفي اللسان والحلم »^(٤) ويقول أيضاً : « من القدماء ممن كان يذكر بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنكراء لقمان »^(٥) . وهو غير لقمان الحكيم الذي جاء في القرآن الكريم^(٦) . ويذهب كاتب مادة لقمان في دائرة المعارف الإسلامية إلى أن شخصية لقمان مرت بثلاث مراحل : (أ) مرحلة جاهلية وفيها يتراءى لنا لقمان عاد المعمّر صاحب قصة النسر ، إذ يزعمون أنه عاش عمر سبعة نسر ، كلما هلك نسر خلف من بعده نسر ، وكان آخرها لبداً الذي ذكره الشعراء كثيراً في أشعارهم^(٧) . (ب) ومرحلة قرآنية ، وفيها يتراءى لنا لقمان صاحب السورة الخاصة به . وقد ربط المفسرون بين لقمان هذا وبين بلعام حكيم بني إسرائيل ، فقالوا إنه لقمان بن باعور بن ناحور بن تارخ ، وهو نفس نسب بلعام^(٨) . (ح) ثم مرحلة متأخرة ، وهي مرحلة نُسج فيها حول لقمان قصص كثير على نحو ما نجد في كتاب « أمثال لقمان » وهو مكتوب بأسلوب ركيك ، يغلب عليه الابتذال .

- (١) الحجرى : الذى يجرى فرسه . يضرب مثلاً للرجل يحمّد بمضّ خلاله ولا يشعر بفضائل غيره .
 (٢) الكنائس : جمع كنانة ، وهى جعبة السهام .
 (٣) البيان والتبيين (طبعة الحلبي) ١ / ١٨٣ - ٣ / ٣٠٤ .
 (٤) البيان والتبيين ١ / ١٨٤ .
 (٥) نفس المصدر ١ / ٣٦٥ .
 (٦) انظر البيان والتبيين ١ / ١٨٤ وراجع تفسير أبي حيان (طبع مطبعة السعادة) ٧ / ١٨٦ وقصص الأنبياء للثعلبي (طبعة القاهرة) ٣٤٠ وخزانة الأدب للبغدادى (طبع بولاق) ٢ / ٧٧ .
 (٧) انظر كتاب المعمرين للسجستاني (طبع مطبعة السعادة) ص ٣ وحياة الحيوان للدميرى (طبع المطبعة الخيرية) ٢ / ٣٠٦ .
 (٨) راجع الثعلبي ٣٤٠ وتفسير أبي حيان ٧ / ١٨٦ .

ولا نستطيع أن نسلم بما تقوله دائرة المعارف الإسلامية إلا إذا سلمنا بأن لقمان عاد هو نفس لقمان المذكور في القرآن ، وليس بين أيدينا ما يثبت ذلك ، بل على العكس نرى علماء العرب يفرقون بينهما دائماً . وقد روت كتب الأمثال عن الأول بعض أمثاله ^(١) ، بينما روى الإمام مالك في كتابه « الموطأ » بعض أمثال لقمان الحكيم .

ومن عُرِفَ بكثرة الحكم والأمثال في الجاهلية أكرم بن صيفي التميمي ^(٢) ، وما ينسب إليه من الحكم : تباعدوا في الديار تقاربوا في المودة — ليس من العدل سرعة العَدْل — لو أنصف المظلوم لم يبق فينا مظلوم . ومن أشهر حكمائهم عامر بن الظَّرَب ^(٣) ، وكان حكماً للعرب تحتكم إليه ^(٤) ، وافتخر به ذو الإصبع العَدُوّاني في بعض شعره ^(٥) ، ولا يكاد يوجد في العصر الجاهلي سيد مشهور أو خطيب معروف إلا وتضاف إليه جملة من الحكم والأمثال .

٣

الصنعة في الأمثال الجاهلية

من يُنعم النظر في الأمثال الجاهلية يجد طائفة منها تُوفّر لها ضروب من القيم التصويرية والموسيقية ، ففيها أحياناً تشبيه واستعارة وكناية وتمثيل ، وفيها أحياناً أخرى صقل وسجع وتنميق . ونحن نصطليح على تسمية هذه القيم الفنية التي تقابلنا في نصوص الأدب الجاهلي نثره وشعره باسم الصنعة . وقد تسربت إلى الأمثال بعض هذه القيم التي كانت تشيع في نثر الجاهليين وشعرهم . وليس معنى ذلك أنهم حققوا لأمثالهم جميعاً ضروباً مختلفة من هذه القيم ، فذلك إنما يظهر في القلة القليلة ، أما الكثرة فمخسولة من كل فن وبيان ، ومرجع ذلك

-
- (١) انظر مجمع الأمثال للميداني ١/٥٦٢٣ - الكتب العربية الكبرى (٤/١٥٥) .
 (٢) راجع مجمع الأمثال ٢/١٤٥ وجمهرة
 الأمثال للعسكري على هامشه ١/١٢٠ وشرح
 (٣) انظر مجمع الأمثال ١/٢٠٢١١/١٨٣
 (٤) البيان والتبيين ٣/٣٨ .
 (٥) أغاني (طبع دار الكتب) ٣/٩٠ .

إلى أن الأمثال تجرى في لغة التخاطب وأحاديث الناس اليومية العادية ، وقلما نَمَقَ أصحاب هذه الأحاديث لغتهم أو حاولوا أن يوفروا لها ضرورياً مع الجمال الفني البديع . ومن ثمَّ كان كثير من الأمثال الجاهلية يخلو خلواً تاماً من المهارة البيانية ، وقد مر بنا أن طائفة منها تخرج على الأصول الصرفية والنحوية ، ومن أجل ذلك قالوا : إنه يجوز فيها من الحذف والضرورات ما لا يجوز في سائر الكلام ^(١) . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الأصل في الأمثال أن لا تكون مصقولة ولا مصنوعة ، لأنها من لغة الشعب ، وقلما نَمَقَ الشعب في لغته ، غير أنه كثيراً ما تصدر الأمثال عن الطبقة الراقية في الأمة : طبقة الشعراء والخطباء ، فتحقق لها هذه الطبقة ضرورياً من عنايتها العامة بفنِّها . وهذا هو مصدر الاختلاط في الحكمم على الأمثال ، فبينما نجد أمثالا غير مصقولة نجد أخرى تفنن أصحابها في صوغها وإخراجها في أسلوب بليغ على شاكلة تلك الأمثال :

أُنْقَى من مرآة الغريبة - كالمستجير من الرمضاء ^(٢) بالنار - إن البغاث بأرضنا يَسْتَنْسِرُ ^(٣) - وراء الأكمة ما وراءها - حلب الدهر أشطُرَه ^(٤) - يَحْبُطُ خبط عشواء ^(٥) - تطلب أثراً بعد عَيْنٍ ^(٦) - في الجريرة تشترك العشيرة ^(٧) عند الصباح يحمد القومُ السُّرى ^(٨) - تحت الرغوة اللبن ^(٩) الصريح - هُدْنَةُ على دَخْنٍ ^(١٠) - حال الجريرى دون القريرى ^(١١) - رَبِّ صَلِّ تحت الراعدة ^(١٢) وقد يَأْتِيكَ بالأخبار من لم تزود ^(١٣) - استنوقَ الجمل ^(١٤) - كذَى العريُّ كَوَى

- | | |
|--|---|
| (١) المزهر للسيوطي ٤٨٧/١ . | (٨) السرى : السير ليلا . |
| (٢) الرمضاء : الأرض شديدة الحرارة . | (٩) الصريح : الخالص . |
| (٣) البغاث : ضعاف الطير . يضرب مثلاً للشخص يكون ضعيفاً ثم يقوى كالنسور في عالم الطير . | (١٠) دخن : حقد . |
| (٤) الأشطر : جمع شطر ، وهي أخلاف الناقة . يضرب مثلاً لمن عرك الدهر . | (١١) الجريرى : غصص الموت ، والقريرى الشعر . |
| (٥) العشواء : الناقة ضعيفة البصر . يضرب مثلاً في التعتُّر . | (١٢) الراعدة : السحابة ، والصلف : قلة الخير والمطر . يضرب مثلاً في البخل مع السعة . |
| (٦) يضرب في فوت الحاجة . | (١٣) تزود : تعطه الزاد . |
| (٧) الجريرة : الجنابة . | (١٤) استنوق : أصبح ناقة . يضرب مثلاً لمن يظن أن فيه شجاعة ثم يظهر جبته ، وكذلك لمن يظن أن عنده رأياً ويظهر عجزه . |

غيره وهو راتع^(١) - لا تكن رطباً فتُعَصَّرُ ولا يابساً فتُكسر - لا تكن كالعنز
تبحث عن المذبة - لو ذات سوارٍ لطمتى^(٢) - المكثار كحاطب الليل^(٣) -
النية ولا الذنية^(٤) .

وما من ريب في أن هذه الأمثال تستحوذ على ضروب من الجمال الفني
يرجع بعضها إلى اختيار ألفاظها وصيغها ويرجع بعضها الآخر إلى ما تعتمد عليه
من تصوير أو سجع وتوقيع . وهذا هو معنى ما نذهب إليه من أن الأمثال
الجاهلية تحتوى في بعض جوانبها آثاراً من الصنعة ، ولعل ذلك ما جعل الفارابى
يقول إنها من أبلغ الحكمة^(٥) ، ويقول ابن المقفع إنها آتق للسمع^(٦) ، بينما
يقول النظم إنها «نهاية البلاغة لما تشتمل عليه من حسن التشبيه وجودة الكناية»^(٧) .

وطبيعى أن تظهر الصنعة في بعض الأمثال الجاهلية ، فقد كان العرب
حينئذ مشغوفين بالبيان والبلاغة ، وصور القرآن الكريم فيهم هذا الجانب ،
فقال جل شأنه : « ولتعرفنهم في لَحْنِ الْقَوْلِ » وقال : (وإن يقولوا تسمع لقولهم)
وقال : (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا) .

وفى جميع آثار نثرهم وشعرهم نجد آثار هذه الرغبة الملحة في استمالهم
الأسماع بجمال منطقهم وخلاصة ألسنتهم ، وقد دفعتهم تلك الرغبة دفعا إلى تحسين
كلامهم وتحرير ألفاظهم حتى في أمثالهم ، وهى لذلك أن كثيراً من بلغائهم
وفصحائهم أسهموا فى صناعة هذه الأمثال ، فكان طبيعياً أن تظهر فيها
خصائصهم الفنية التى يستظهرونها فى بيانهم وتدبيج عباراتهم حين ينظمون
أو يخطبون .

(١) العر : الجرب ، وكانوا يداوونه فى (٤) الذنية : العمل الدنى .

(٥) المزهو ١/٤٨٦ .

(٢) ذات السوار : المرأة . يضربه الرجل الشريف فى ظلم الحسيس له . (٦) الأدب الصغير بتحقيق أحمد زكى ص ٢٨ .

(٣) المكثار : المكث من الكلام ، وشبه بحاطب الليل لأنه ربما نهشته حية أو عقرب . (٧) مجمع الأمثال ١/٥٠ .

الخطابة الجاهلية

كان للخطابة في العصر الجاهلي شأن عظيم ، إذ كانوا يستخدمونها في منافراتهم ومفاخراتهم^(١) ، وفي النصيح والإرشاد^(٢) وفي الحث على قتال الأعداء^(٣) وفي الدعوة إلى السلم وحقن الدماء^(٤) وفي مناسباتهم الاجتماعية المختلفة كالزواج والإصهار إلى الأشراف^(٥) ، وكانوا يخطبون في الأسواق والمحافل العظام والوفادة على الملوك والأمراء ، متحدثين عن مفاخر قبائلهم ومحامدها ، ونحن نعرف قصة وفد تميم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وما كان من قيام عطارذ بن حاجب بن زُرارة خطيباً بين يديه^(٦) . ويقول أوس بن حَجَر في رثاء فضالة بن كَلَدَة^(٧) :

أبا دُلَيْبِجَة من يكنى العشيرة إذ أم من يكون خطيب القوم إذ حفلوا
أما من الخطيب في نار وبلبل
لدى الملوك ذوى أَيْدٍ وأفضال^(٨)
ويقول فيه أيضاً^(٩) :

ألهفاً على حُسْنِ آلائه
على الجابر الحَيِّ والحارب^(١٠)

-
- (١) انظر البيان والتبيين في مواضع متفرقة مثل ١١٨/١ ، ١٣٤/١ ، ٦/٣ .
(٢) تاريخ الطبري : القسم الأول ص ١٧١١ والأغاني (طبع دار الكتب) ١٤٦/٤ والبيان والتبيين ٥٣/١ .
(٣) نقد الشعر لقدامة (طبعة الجوائب) ص ٣٥ وديوان أوس (طبع فيينا) ص ٢٢ .
(٤) أيد : قوة .
(٥) البيان والتبيين ١٨١/١ .
(٦) الحارب : المحارب الفانم .
(٧) انظر البيان والتبيين في مواضع متفرقة مثل ١٠٩/١ ، ١٩٠/١ ، ٢٧٢/٢ والأغاني ٥١/١٥ .
(٨) البيان والتبيين في مواضع متفرقة مثل ٤٠١/١ والمزهر للسيوطي ٥٠١/١ .
(٩) انظر الأماي لأبي على القالي ٩٢/١ الأغاني (طبعة الساسي) ١٣٧/٢٠ .
(١٠) البيان والتبيين ٣٤٨/١ .
(١١) انظر البيان والتبيين ٧٧/٢ وراجع

ورَقِبَتِه جُثَمَاتِ الملو ك بين السُّرَادِقِ والحَاجِبِ (١)
ويَكْفَى المَقَالَةَ أَهْلَ الدَّحَا ل غَيْرَ مَعِيْبٍ وَلَا عَائِبٍ (٢)

ورقبته : انتظاره إذن الملوك ، وقد جعله بين السرادق والحاجب ليدل على مكانه من الملك .

ودلائلٌ مختلفةٌ تدل على أن منزلة الخطيب في الجاهلية كانت فوق منزلة الشاعر ، ويقول أبو عمرو بن العلاء : « كان الشاعر في الجاهلية يقدم على الخطيب ، لفَرْط حاجتهم إلى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ، ويفخم شأنهم ، ويهول على عدوهم ومن غزاهم ، ويهيب من فرسانهم ، ويخوف من كثرة عددهم ، ويهاجم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مَكْسَبَةً ، ورحلوا إلى السوق ، وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر » (٣) وتابعه الجاحظ يقول : « كان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب ، وهم إليه أحوجُ لردّه مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم . فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر » (٤) .

وواضح أن الجاحظ يجعل كثرة الشعر والشعراء وحدها هي السبب في تقدم الخطباء ، أما أبو عمرو فيرد ذلك إلى أن هذه الكثرة استتبعَت تحول الشعراء إلى التكبس بشعرهم ومسارعتهم إلى الطعن في الأعراض . ونظن ظناً أن تفوق الخطيب على الشاعر في الجاهلية يرجع إلى طائفة متشابهة من الأسباب منها أن الخطابة كانت من لوازم سادتهم الذين يتكلمون باسمهم في المواسم والمحافل العظام ، ومن أجل ذلك كانت تقترن بها الحكمة والشرف والرياسة (٥) ، كما تقترن بها الشجاعة ، ويتضح ذلك في مراثيهم ومدائحهم لسادتهم على نحو ما تقدم في رثاء أوس بن حجر لفضالة بن كعدة ، ويقول الأعشى في مديح قوم (٦) :

-
- (١) جثمات الملوك : كبارهم وعظامهم .
(٢) الدحال : الدهاء والمراوغة .
(٣) البيان والتبيين ١/٢٤١ .
(٤) نفس المصدر ٤/٨٣ .
(٥) نفس المصدر ١/١٢٤ والصلاق :
جهير الصوت .

فيهم الخصبُ والسباحةُ والنَجْدُ دةُ جَمْعًا والخاصُ الصَّلاقُ

ويقول زَبَّان بن سِيَّار الغزاري^(١) :

ولسنا كأقوامٍ أجَدُّوا رياسةً يُريغون في الخصبِ الأمور، ونفعُهم
قليلٌ إذا الأموالُ طال هُزالها^(٢)
وقلنا بلا عِيٍّ وسُسنا بطلاقةٍ
إذا النارُ نارُ الحربِ طال اشتعالها

ويقول عامر المحاربي^(٣) :

أولئك قوى إن يَلْدُ ببيوتهم
وكم فيهم من سَيِّد ذى مهابةٍ
وهم يدْعمون القول في كل موطنٍ
بكل خطيب يترك القوم كُظْمًا^(٤)
يقوم فلا يَعْيَا الكلامَ خطيبنا
إذا الكربُ أنسى الجِبْس أن يتكلما
أخو حَدَث يوماً فلن يُتَهَضَّمًا^(٥)
يُهاب إذا مَارِئِدُ الحرب أضرمًا^(٦)
بكل خطيب يترك القوم كُظْمًا^(٧)
إذا الكربُ أنسى الجِبْس أن يتكلما

ويضاف إلى هذا السبب في تفوق الخطيب على الشاعر في الجاهلية اتساع
وظيفته ، إذ كان يفاخر وينافر عن قومه فيشترك بذلك مع الشاعر كما يشترك
معه في الحُص على القتال ، ثم ينفرد بمواقف خاصة به كالوفادة على الملوك
وكالنصح والإرشاد ، وخطبتهم في الإملاك والزواج مشهورة . ومن أهم المواقف
التي كان ينفرد بها أنه كان يدعو إلى السلم وأن تضع الحرب بين القبائل
المتخاصمة أوزارها ، أما الشاعر فلم يكن يدعو إلا إلى الأخذ بالثأر وإشعال
نار الحرب ، ولعل ذلك ما جعل ربيعة بن مَقْرُوم الضبي يقول^(٨) :

ومنى تَقَمُّ عند اجتماعِ عشيرةٍ خطباؤنا بين العشيرة يُفْصَلِ
ويقول أبو زُبَيْد الطائي^(٩) :

وخطيب إذا تَمَعَّرَتِ الأوْجُهْ يوماً في مَاقِطٍ مشهود

- (١) البيان والتبيين ٤/١ .
(٢) يريغون : يدبرون ، والأموال هنا : الإبل
(٣) المفضليات ، القصيدة ٩١ البيت ١٨
(٤) يتهم : ينتقص .
(٥) أضرم النار : أشعلها ، وكانوا إذا توقعوا
حرباً وأرادوا الاجتماع أوقدوا نارا على جبلهم .
(٦) كظما : جمع كاظم ، وهو الساكت غيظاً :
(٧) الجبس : اللثيم المنقطع .
(٨) أغاني (طبع الساسي) ٩٣/١٩ .
(٩) البيان والتبيين ١٧٦/١ وتمعرت الوجوه
تغيرت واصفرت . والمأقط : موضع القتال .

ويقول بشر بن أبي خازم^(١) :

وكنا إذا قلنا : هوازنُ أقبلِ إلى الرُّشدِ لم يأت السدادَ خطيبُها

وتردّد في كتاب البيان والتبيين للجاحظ وغيره من كتب الأدب أسماء طائفة كبيرة من خطباء الجاهلية الذين اشتهروا بالفصاحة ووضوح الدلالة والبيان عما في أنفسهم ، مما جعل الأسماع والقلوب تهش إليهم ، ويعظم في الناس خطرهم ، ويشيع في الآفاق ذكرهم ، وكانوا ينتشرون في الجزيرة بمكة والمدينة وما وراءهما من قبائل البادية ، أما مكة فقد كانت بها دار الندوة ، وهي أشبه بمجلس شيوخ مصغر ، كان يجتمع فيها سادة العشائر القرشية يتشاورون في أمورهم وفي أثناء ذلك يخطبون ويتحاورون^(٢) ، ومن خطبائهم المفوهين عتبة ابن ربيعة ، وهو خطيب قريش يوم بدر ، ومن خطبائها سهيل بن عمرو الأعلم وهو الذي قال فيه عمر للنبي صلى الله عليه وسلم : « يا رسول الله انزع ثنيتيه السفليتين حتى يدلّع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً أبداً ، فقال الرسول عليه السلام : لا أمثل فيمثل الله بي ، وإن كنت نبياً ، دعه يا عمر فعسى أن يقوم مقاماً تحمده »^(٣) . وقد أسلم وحسن إسلامه ، وكانت له مواقف محمودة . ولقريش أيضاً خطباء كان ينفر إليهم العرب أمثال هاشم وأمية^(٤) ونُفَيْل ابن عبد العزّي جد عمر بن الخطاب وإليه نفر عبد المطلب بن هاشم وحرب ابن أمية^(٥) . وأما المدينة فذكر الجاحظ من خطبائها قيس بن الشماس وثابت ابنه خطيب الرسول صلى الله عليه وسلم وسعد بن الربيع وهو الذي اعترضت ابنته الرسول صلوات الله عليه ، فقال لها من أنت ؟ فقالت : ابنة الخطيب النقيب الشهيد سعد بن الربيع^(٦) .

(١) الفضليات ، القصيدة ٩٦ البيت (٤) شرح النقائض لأبي عبيدة (طبعة بيفن)

رقم ٩ . ٢٢٤/١

(٢) السيرة النبوية (طبعة الحلبي) ١٢٤/٢ (٥) تاريخ الطبري : القسم الأول

ص ١٠٩١ .

(٣) البيان والتبيين ٣١٧/١ والثنيان :

(٦) انظر البيان والتبيين ٣٥٨/١ - ٣٦٠

الأضراس في مقدم الفم .

وإذا تركنا مكة والمدينة إلى القبائل المنبطقة في البادية وجدنا ممن اشتهروا فيها بالخطابة ابن عمار الطائي وهو خطيب مذحج كلها^(١) وهاني بن قبيصة خطيب شيان يوم ذي قار^(٢) وزهير بن جناب خطيب كلب وقضاعة^(٣) وربيع بن حذار خطيب بني أسد^(٤) وإليه احتكم الزبرقان بن بدر والمجبل السعدي وعبد بن الطيب وعمرو بن الأهمم أيهم أشعر^(٥) . ومن الخطباء المشهورين في القبائل أيضاً عامر بن الظرب^(٦) أحد حكام العرب في الجاهلية ، ومن كانوا يقضون بينهم في خصوماتهم^(٧) .

ومن اشتهر باللسن والخطابة والشعر لبيد بن ربيعة العامري ، ومن قوله^(٨) :
وأخلف قسّاً ليتنى ولو انّني وأعني على لقمان حكم التدبر
ومن قوله أيضاً^(٩) :

وأبيضَ يحْتَتابُ الحُرُوقَ على الوجى خطيباً إذا التفَّ المجامعُ فيصِلَا

ومن خطبائهم هرم بن قُطَبة الفزاري^(١٠) ، وهو صاحب المناقرة المشهورة بين علقمة بن علاثة وعامر بن الطُفَيْل ، وقد رآه عمر بن الخطاب يوماً في المسجد ، فقال له : « أرايت لو تنافرا إليك - يعني علقمة وعامراً - أيهما كنت تنفر ، فقال : يا أمير المؤمنين لو قلت فيهما كلمة لأعدتها جذعة ، فقال عمر : لهذا العقل تحاكت إليك العرب »^(١١) .

ومن الخطباء البلغاء عمرو بن كلثوم خطيب تغلب^(١٢) . وهيسان بن شيخ

-
- | | |
|--|------------------------------|
| (١) البيان والتبيين ١/٣٤٩ . | (١٠) البيان والتبيين ١/٣٦٥ . |
| (٢) أغاني (طبعة الساسي) ٢٠/١٣٧ . | (١١) البيان والتبيين ١/٢٣٧ . |
| (٣) نفس المصدر ٢١/٦٥ . | (١٢) نفس المصدر ٢/١٤١ . |
| (٤) نفس المصدر ١٠/٦١ والبيان والتبيين ١/٣٦٥ . | |
| (٥) أغاني ١٢/٤٠ ، ٢١/١١٣ . | |
| (٦) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣/٩٠ . | |
| (٧) وافتظر السيرة النبوية ١/١٢٩ والبيان والتبيين ١/٣٦٥ . | |
| (٨) أغاني ٣/٩٠ والسيرة النبوية ١/١٢٨ . | |
| (٩) نفس المصدر ٢١/٦٥ . | |

الذى قال فيه الرسول عليه السلام : رب خطيب من عبّس^(١) ، والعُشْرَاء ابن جابر ، وخويلد بن عمرو خطيب يوم الفِجَار^(٢) وقيس بن خارقة بن سنان ويقال إنه خطب في حرب داحس والغبراء يوماً إلى الليل^(٣) وكل هؤلاء من غطفان . ومن الخطباء حنظلة بن ضرار خطيب بني ضبة ، وقد طال عمره حتى أدرك يوم الجمل^(٤) . ولم تشتهر قبيلة بالخطابة كما اشتهرت إياد وتميم ، ومن إياد قُسْ بن ساعدة الذى قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : « رأيت بسوق عكاظ على جبل أحمر ، وهو يخطب في الناس »^(٥) . ومن خطباء تميم المفوهين ضمرة بن ضَمْرَة^(٦) وأكثم بن صيفي^(٧) وقيس بن عاصم^(٨) وعطارد ابن حاجب بن زرارة خطيب وفد تميم بين يدي الرسول ، وعمرو بن الأَهمم المنقري ، ولم يكن في بادية العرب في زمانه أخطب منه^(٩) . وما من ريب في أن هذه الكثرة من الخطباء — ووراءهم كثير لم نذكرهم — تدل دلالة بينة على ما كانت عليه الخطابة الجاهلية من رقي وازدهار .

وكان للخطباء حينئذ سنن خاصة في أداء خطابتهم ، منها أنهم كانوا يخطبون على رواحلهم في المواسم العظام والجامع الكبار^(١٠) ، وكان من عادتهم لَوْتُ العمامم على رؤوسهم والإشارة في أثناء خطابتهم بالعصى والخاصر والقنن والقضبان والقيسى^(١١) . وفي ذلك يقول لبيد^(١٢) :

ما إن أهاب إذا السُّرَادِقُ غَمَمَهُ قَرَعُ القَيْسِ وأرْعَشُ الرِّعْدِيدُ
وقد حملت الشعوبية حملة شَعَوَاء على العرب لا تتخاذم في خطابتهم

-
- | | |
|--|---|
| (١) البيان والتبيين ١/ ٢٧٣ . | (٨) البيان والتبيين ١/ ٥٣ . |
| (٢) نفس المصدر ١/ ٣٥٠ - ٣٥١ . | (٩) البيان والتبيين ١/ ٣٥٥ . |
| (٣) نفس المصدر ١/ ١١٦ وما بعدها . | (١٠) نفس المصدر ٣/ ٧ . |
| (٤) نفس المصدر ١/ ٣٤١ . | (١١) انظر أوائل الجزء الثالث من البيان والتبيين . |
| (٥) البيان والتبيين ١/ ٣٠٨ - ٣٠٩ . | (١٢) البيان والتبيين ١/ ٣٧٢ ، ٣/ ٩ . |
| (٦) جمهرة الأمثال للعسكري ١/ ١٨٦ . | وغمه : علاه ، وكثر فيه . |
| (٧) البيان والتبيين ١/ ٣٦٥ والأغاني (طبعة الساسي) ١٥/ ٧٠ . | |

المخاصر والعصى ووصل أيمانهم بالقضبان والقسي ، ورد عليهم الجاحظ ردًا طويلاً مفحماً في فاتحة الجزء الثالث من كتاب البيان والتبيين . وفي مواضع كثيرة من هذا الكتاب نرى العرب يمدحون جهارة الصوت وشدته ويعيرون ضيقه ودقته كما يعيرون على الخطيب أن يعترضه البُهر والارتعاش والرعدة أو يعتريه شيء من الحصر والعي ، يقول أبو العيال الهذلي^(١) :

ولا حَصِرَ بخطبته إذا ما عَزَّتِ الخطبُ

وكانوا يكرهون أن يمس الخطيب ذقنه وسِباله وشواربه ، يقول معن بن أوس المنزني في بعض هجائه^(٢) :

إذا اجتمع القبائلُ جنت ردفاً وراء الماسحين لك السبَّالا
فلا تُعطى عصاً الخطباءِ فيهم وقد تُكفَى المقادة والمقالا

وإذا كانوا قد عابوا ذلك في الخطيب فقد مدحوا فيه — على نحو ما يلاحظ ذلك الجاحظ في بيانه — شدة العارضة وظهور الحجة وثبات الجنان وكثرة الرقيق والعلو على الخصوم في مضايق الكلام ومآزق الخصام .

٥

الصنعة في الخطابة الجاهلية

من الصفات التي تميزُ عرب الجاهلية أنهم كانوا يحبون البيان والطلاقة والتجوير والبلاغة ، ودفعهم ذلك إلى الاحتفال بخطاباتهم احتفالاً شديداً ، لا من حيث الصقل وتجديد الألفاظ فحسب ، بل أيضاً من حيث نخرج الكلم ، ولعلمهم من أجل ذلك كانوا يتريدون في جهارة الأصوات كما كانوا ينتحلون سعة الأشداق وهذل الشفاه^(٣) ، حتى إن فريقاً منهم كانوا يتخلَّلون كلامهم بالسنتهم تخلل البقرة الكلاء بلسانها^(٤) ، ومن لم يصنع ذلك عمد

خطيباً .

(١) البيان والتبيين ٣/١ .

(٢) نفس المصدر ٣٧٢/١ والسبال : مقدم

(٣) البيان والتبيين ١٣/١ - ١٤ .

(٤) البيان والتبيين ١/٢٧١ .

الفن ومذاهبه

إلى ضروب من التعجير والتمطيط والجهرة والتفخيم^(١).

وليس بين أيدينا نصوص وثيقة نستطيع بها أن نحكم أحكاماً دقيقة على خطابهم وصناعتهم فيها ، وحقاً نجد بعض خطب مبثوثة في الطبرى والأغانى والأمالى والعقد الفريد ، ولكن هذه الخطب جميعاً ينبغي أن نتلقاها بشيء من الاحتراس ، وخاصة ما رواه الكتاب الأخير من خطب طويلة لهم في وفودهم على كسرى وغير كسرى ، فإن الانتحال ظاهر فيها . أما الخطب الأخرى فأكبر الظن أن الرواة جمعوا بعض شظايا وقطع للقوم ، وزادوا عليها من خيالهم ، ومن ثم لا يصح الاستدلال بهذه الخطب جميعاً على أنها تمثل الخطابة الجاهلية تمثيلاً صحيحاً . وهذا الجاحظ على كثرة ما روى في بيانه من خطب لم يستطع الاستشهاد للجاهليين إلا بجمل وصيغ متفرقة لا تكون خطبة كاملة .

ومهما يكن فنحن نؤمن بأن أكثر ما يروى من الخطابة الجاهلية لا يصح الاطمئنان إليه من الوجهة التاريخية لطول المسافة بين روايته وكتابه ، وإن كان ذلك لا يمنعنا من تسجيل بعض الظواهر والخصائص لتلك الخطابة ، فإن من يرجع إلى ما روى منها في كتب الأدب والتاريخ يلاحظ أن أغلب ما روى من خطب القوم روى مسجوعاً . ويؤكد الجاحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذى روى خطبة قُسم بن ساعدة الإيادى فى سوق عكاظ ، ويقول إنه إسناده تعجز عنه الأمانى وتنقطع دونه الآمال ، ومع ذلك لم يستطع روايتها كاملة إنما روى أجزاء منها ، هى قوله :

« أيها الناس اسمعوا وعوا. من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . آياتٌ محكمات ، مطرٌ ونبات ، وآباءٌ وأمّهات ، وذاهبٌ وآت ، ضوءٌ وظلام ، وبرٌّ وآثام ، لباسٌ ومركب ، ومطعمٌ ومشرب ، ونجومٌ تمور^(٢) وبحور لا تغور ، وسقفٌ مرفوع ، ومِهَادٌ موضوع ، وليلٌ داجٍ ، وسماءٌ ذات أبراج . مالى أرى الناس يموتون ولا يرجعون ، أرضوا فأقاموا ، أم حُبِسوا فناموا . »

(١) راجع البيان والتبيين فى مواضع متفرقة (٢) تمور : تذهب وتجىء .

وانظر ١٢٠/١ وما بعدها .

وروى له الجاحظ أيضاً قطعة من خطبة أخرى على هذا النحو : « يا معشر
إياد ، أين ثمود وعاد ، وأين الآباء والأجداد ، أين المعروف الذى لم يشكر ،
والظلم الذى لم يُنكَر »^(١) .

وواضح أن هذه القطع من خطابة قس بُنيت على السجع . وقد روى
الطبرى كلمة لنُفَيْل بن عبد العزّى فى منافرة عبد المطالب بن هاشم وحرب بن
أمية ، وهى مسجوعة^(٢) كما روى أبو عبيدة فى النقائض منافرة جرير بن
عبد الله البجلي وخالد بن أرطاة الكلبي إلى الأقرع بن حابس ، وهى مسجوعة
أيضاً^(٣) ، وبُنيت على السجع كذلك منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن
الطفيل^(٤) .

ولم نَسَقْ ذلك لنسلم بصحة هذه المرويات من المنافرات وصحة صياغتها ،
ولكننا سَقْنَاهُ لتخلص منه إلى أنه ثبت عند من كانوا يروون المنافرات والخطب
الجاهلية أنها كانت تعتمد اعتماداً شديداً على السجع . ويؤيد ذلك قول الجاحظ
إن « ضَمْرَةُ بن ضَمْرَةَ وهَرَم بن قُطْبَةَ والأَقْرَع بن حَابِس ونُفَيْل بن عبد العزّى
كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع ، وكذلك ربيعة بن حُذَار »^(٥) . وقد اشتمل
هذا النص على خطباء من تميم وأسد وفزارة وقريش ، وفى ذلك ما يدل على
شيوخ السجع فى الخطابة الجاهلية . وما من شك فى أن صناعة السجع تحتاج
إلى قيم موسيقية كثيرة ، حتى تتم معادلاته الصوتية وموازناته الإيقاعية . وكانوا
يدمجون كثيراً من الصور والتشبيهات والاستعارات فى هذا السجع كما كانوا
يدمجون كثيراً من التجويد والتحجير ، ويشهد لهم الجاحظ بما كانوا يعانونه فى
خطبهم وخاصة الطويلة منها إذ يقول : « لم نرهم يستعملون مثل تدبيرهم فى طوال
القصائد وفى صنعة طوال الخطب . . . وكانوا إذا احتاجوا إلى الرأى فى معاظم
التدبير ومهمات الأمور مَيَّسُوهُ »^(٦) فى صدورهم ، وقيدوه على أنفسهم ، فإذا قومه

(١) انظر هذه القطع من خطابة قس فى البيان (٤) أغاني (طبعة الساسى) ١٥/١٥ .

والتبيين ٣٠٨/١ - ٣٠٩ .

(٥) البيان والتبيين ٢٩٠/١ .

(٢) الطبرى ، القسم الأول ص ١٠٩١ .

(٦) ميسوه : ذلوه وأعدوه .

(٣) النقائض لأبي عبيدة ١٤١/١ .

الثقاف وأدخل الكبير وقام على الخلاص أبرزوه محككاً منقحاً ومصنئ من الأدناس مهذباً»^(١) وقد عبّر العرب أنفسهم في شعرهم بصور مختلفة عن مدى تجويدهم في خطابهم . وانظر إلى لبيد يقول لهرم بن قُطَبة في حكومته بين علقمة بن عُلانة وعامر بن الطفيل^(٢) :

إنك قد أوتيتَ حكماً معجِبا فطبق المَفْصِلِ واغنم طيباً
يقول له : احكم بين الرجلين بكلمة فصل تفصل بها بين الحق والباطل
كما يفصل الجزار الحاذق مفصل العظمين .

ويقول لبيد عن نفسه مدلاً ببيانه وبراعته وما أوثق من حسن الجدل والعلو على خصومه^(٣) :

ومقام ضيقٍ فرجته بيانٍ ولسانٍ وجدلٍ

ويقول قيس بن عاصم المنقري التيمي واصفاً ما فيه وفي قومه من الخطابة والفصاحة وإحسان هذا الجانب من البيان والبلاغة^(٤) :

إني امرؤ لا يعتري خلقي دنسٌ يفنّده ولا أفنُّ^(٥)
من منقري في بيت مكرمة والأصل ينبت حوله الغصنُ
خطباءُ حين يقوم قائلهم بيضُ الوجوه مصاقعُ لُسنُ

وعلى نحو ما وصفوا الخطيب بأنه مصقع ولسنٌ وصفوه بأنه مدرةٌ،
يقول زهير بن أبي سلمى في مديح هرم بن سنان^(٦) :

ومدرةٌ حربٍ حميها يتقَى به شديدُ الرّجام باللسان وباليدِ
وواضح أنه يشبه ما يُلقيه من لسانه كلاماً بما يُلقيه من يده سهماً .

ضعف الرأي .

(١) البيان والتبيين ١٤/٢ .

(٦) ديوان زهير (طبعة دار الكتب)

(٢) نفس المصدر ١٠٩/١ .

ص ٢٢٣ . والمldre : الذي يدافع عن قومه ،

(٣) البيان والتبيين ١/٢٦٥ .

الرجام : المراماة في القتال .

(٤) البيان والتبيين ١/٢١٩ .

(٥) يفند : ينقض ويضعف ، والأفن :

وقد وصفوا اللسان بأنه عَضْبٌ وقاطع وجارح ، كما وصفوا الخطيب بأنه
لوذَعَى ، يقول شاعرهم ^(١) :

هو الشجاعُ والخطيبُ اللوذَعِيُّ والفارسُ الحازمُ والشهمُ الأبي

ولعل من الطريف أننا نجدهم يصفون خطابتهم بأنها كالوشى المنمق ،
ففيها تدبيج وتزيين يشبه ما يجدونه في الثياب اليمانية المشاة ، يقول أبو قُرْدُودَةَ
الطائي في رثاء ابن عَمَّارٍ خطيب طيٍّ وقد مات مقتولا ^(٢) :

يا جفنةً كلَّزاء الحَوْضِ قد هدموا ومنطقاً مثل وشى اليمنة الحبيرة ^(٣)

ويقول فيه أيضاً :

ومنطقٍ خرَّقَ بالعواسلِ لذَّ كوشى اليمنة المراحل ^(٤)

فأبو قردودة يحس في خطب ابن عَمَّارٍ ما يحسه في وشى اللحل المنمقة .
وهو إحساس بالغ ، عبَّر به هو وأضرابه عن عنايتهم بخطابتهم ومقدار ما كانوا
يحققون لها من مهارة وصنعة . وبلغ من جمال بعض خطبهم أن اقترحوا لها
أسماء وإن كانوا يحفظونها ويتوارثونها ، لروعة بيانها وجودة فصاحتها وبلاغتها ،
يقول الجاحظ : « ومن خطب العرب العجوز ، وهى خطبة لآل رَقِبة ، ومتى
تكلموا فلا بد لهم منها أو من بعضها ومنها العذراء ، وهى خطبة قيس بن خارجة
في حرب داحس والغبراء ، سميت بذلك لأنه كان أبا عُدْرها » ^(٥) .

والحق أن خطباء العصر الجاهلى نهضوا بخطابتهم نهضة واسعة ، ولذلك
لم يكن غريباً أن يستمع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بعضهم وهو يخطب ،
فيقول : « إن من البيان لسحراً » ^(٦) . ولم يكن هذا البيان الساحر شيئاً خاصاً

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١١/١٥٠ (٤) العواسل : الرماح ، المراحل : جمع مرحل

(٢) انظر في البيتين التالين البيان والتبيين وهو ما نقش فيه تصاوير الرجال .

(٣) ١/٣٤٩ (٥) انظر البيان والتبيين ١/٣٤٨ .

(٦) (٣) الإزاء في البيت : مصب الماء في الحوض ، نفس المصدر ١/٥٣ .

والجمنة : ضرب من برود اليمن .

بهذا الخطيب ، بل كان شيئاً عاماً بين الخطباء ، إذ ذهبوا جميعاً مذهب التجويد والتجبير ، حتى يستميلوا الأسماع ويخلبوا الألباب .

٦

سجع الكهان

كانت عند العرب في العصر الجاهلي طائفة تدعى التنبؤ ومعرفة المغيبات ، وأنها تنطق عن آلهتهم بما سخر لها من الجن التي تسترق لها السَّمْع . فتكشف لها الحُجُب وما تأتي به ألواح الغد . وكانوا يسمونها الكُهَّان ، وواحدهم يسمى كاهناً ، أما تابعه من الجن فيسمى رثياً ، وكانوا يفزعون إليهم لاستشارتهم في الأمور الجُلِّي كإعلان حرب^(١) أو قعود عن نصرة أحلاف^(٢) أو كشف قتل إنسان أو ناقة^(٣) أو خلال بنذر من النذور لأربابهم لا يستطيعون أداءه^(٤) . وقد يلجأون إليهم للحكم بينهم أو للمنافرة^(٥) ، ممثلين لأحكامهم فهي لا تنقض ولا ترد ، وقد يطلبون إليهم تعبير رؤاهم وأحلامهم^(٦) . وهم بدورهم قد يتنبئون لأقوامهم بوقوع كارثة أو حدوث غزو^(٧) .

ولعل في ذلك كله ما يدل على أنهم كانوا يتمتعون بنفوذ واسع ، ولم يكن لهذا النفوذ حدود قبلية ، فكثيراً ما يسيطر الكاهن على مجموعة من القبائل بكهنته ، فتصدر عن رأيه ، وقد تتخطى شهرته إقليمه ، فتقصده العرب من أقاليم نائية ، ككثير من كُهَّان اليمن . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن جمهور كهانهم كانوا يمينيين ، وخاصة من يرجع بهم القصاص إلى الحقب الأولى من العصر الجاهلي . ومن أشهرهم سطيح الذئبي وشق بن مصعب الأنماري وإليهما

-
- (١) أغاني (طبع دار الكتب) ٨٤/٩ . (٥) السيرة الحلبية (طبع بولاق) ٥/١ .
 (٢) أغاني ١٤٠/١١ . (٦) السيرة النبوية ١٥/١ وما بعدها .
 (٣) أغاني ١١٨/١١ . (٧) الأمالي للقالي ١٢٦/١ وانظر السيرة
 (٤) السيرة النبوية لابن هشام ١٦٢/١ . النبوية ١٥/١ ، ٤٣/١ ، ٢٢١-٢٢٢

فرع نصر بن ربيعة ملك اليمن في تفسير رؤيا له^(١) ، وقد أخرجهما القصاص ورواة الأخبار من عالم الواقع إلى عالم الخيال ، فقالوا إن سطيحاً لم يكن فيه عظم سوى جمجمته وإن وجهه كان في صدره ولم يكن له عنق ، ولعله كان أحذب ، أما شق فقالوا إنه كان شقاً أو نصف إنسان له عين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة^(٢) .

ومن كُهانهم المشهورين المأمور الحارثي ، وكان من فرسان مَدْجَج ، وكانت بأمره تتقدم وتتأخر^(٣) ، وخنافر الحميري ، وكان يزعم أنه دخل الإسلام بمشورة رَئِيَّة شصار^(٤) ، وعوف بن ربيعة الأسدي ، وهو الذي أشار على قومه بالثورة على حجر بن الحارث الكندي وقتلته^(٥) . وسلمة الخزاعي الذي تنافر إليه هاشم بن عبد مناف وأمّية بن عبد شمس فنفر هاشم^(٦) ، وسواد بن قارب الدَّوسِي وقد أدرك الإسلام^(٧) ، وعُزَي سلمة وهو أكههم جميعاً^(٨) . ووُجد بجانب هؤلاء الكهنة بعض نُسوة عُرفن بالتكهن من مثل الشعثاء الكاهنة^(٩) ، وزبراء^(١٠) ، وكاهنة ذى الخُلَصَة^(١١) ، والكاهنة السعدية^(١٢) والزرقاء^(١٣) بنت زهير ، والغيطلة القرشية^(١٤) .

وروت كتب الأدب والتاريخ طائفة من أقوال هؤلاء الكهان والكاهنات وخطابهم ، وكلها تلتزم السجع ، وما نشك في أن أكثر ما رُوي عنهم مصنوع ، وإن من الخطأ أن يعتمد باحث على تلك المرويات ويظنها صحيحة النسبة إلى من قيلت على ألسنتهم ، لسبب طبيعي ، وهو أنها لم تكن مدونة ولا مكتوبة ،

-
- (١) الكامل لابن الأثير (طبع ليدن) (٧) السيرة النبوية ٢٢٣/١ .
 (٨) البيان والتبيين ٣٥٨/١ .
 (٩) مجمع الأمثال للميداني ٩١/١ .
 (١٠) الأمالي ١٢٦/١ .
 (١١) مجمع الأمثال ٢٢٣/١ .
 (١٢) نفس المصدر ٥٤/٢ .
 (١٣) أغاني (طبعة دار الكتب) ٨١/١٣ .
 (١٤) سيرة ابن هشام ٢٢١/١ .
 (١) الكامل لابن الأثير (طبع ليدن) ٣٠١/١ .
 (٢) انظر عجائب المخلوقات للزويني (طبعة وستنفلد) ١٧١/١ .
 (٣) الاشتقاق لابن دريد ٢٦٩ وانظر الأمالي ٢٧٦/١ واسمه فيه المأمون .
 (٤) الأمالي ١٣٣/١ .
 (٥) أغاني ٨٤/٩ .
 (٦) السيرة الحلبية ٥/١ .

ومن الصعب أن تحتفظ بها ذاكرة الرواة نحو قرنين من الزمان أو أكثر ، فلا تبدل فيها ولا تحرف ، حتى يخرج العصر العباسي فيدونها اللغويون والأخباريون .

على أننا نستطيع بعد أن نرفض ما يروى من أقوالهم وخطبهم أن نعود فنظن ظناً أنهم كانوا يسجعون في خطابهم ، وإلا لما استقر عند جميع من نحلوهم بعض الأقوال والخطب أنهم كانوا يعتمدون على السجع في كهانتهم ، ومن ثم صاغوا ما نسبوه إليهم من كلام سجعاً خالصاً . ولعل هذا السجع في كلامهم هو الذي دفع بعض المشركين من قريش إلى الظن بأن ما يتلوه الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن إنما هو من كلام الكهّان فقال جل وعز ينقض دعواهم الباطلة : (فذكرْ ، فما أنت بنعمة ربك بكاهنٍ) وقال : (إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعرٍ قليلاً ما تؤمنون ، ولا بقول كاهنٍ قليلاً ما تذكرون) . وقد جاء في الحديث النبوي أن الرسول صلوات الله عليه قضى على رجل في جنين قُتلت أمه بديّة ، فقال الرجل : « أأدى (أأغرم) من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح ولا استهلّ ، أليس مثل ذلك يُطلّ^(١) ؟ فقال رسول الله عليه السلام : إنما هذا من إخوان الكهان ، من أجل سجعه الذي سجع^(٢) » وفي رواية أنه قال له : أسجع كسجع الكهان^(٣) ؟ وفي هذا الحديث أكبر الدلالة وأعظمها على أن الكهان كانوا يستخدمون السجع في كهانتهم ، ويقول الجاحظ : « كان حازي (كاهن) جُهينة وشقّ وسطيح وعزى سلمة وأشباههم يتكهنون ويحكمون بالأسجاع ، ويروى من سجع عزى سلمة قوله^(٤) : ” والأرض والسماء ، والعُقاب والصقّعاء ، واقعةً ببقعاء ، لقد نفرّ المجدُ بنى العُشراء ، للمجد والسّناء ”^(٥) .

(٤) البيان والتبيين ١/ ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٥) الصقعاء : الشمس ، بقعاء : ما أو موضع ، نفرم : حكم لهم بالعلبة ، بنو العُشراء : عشيرة من فزارة ، السناء : الرفعة .

(١) يطل : يهدر دمه .

(٢) صحيح مسلم (طبعة الآستانة) ١١١/٥ وانظر موطأ مالك (طبع حجر بمصر) ١٩٢/٢ .

(٣) البيان والتبيين ١/ ٢٨٧ وإعجاز القرآن

للإبلاقي (طبع مطبعة الإسلام) ص ٣٢ .

وإذا صحت هذه الكلمة لعزى سلمة فإنها ترينا أن الكهان كانوا يعتمدون في كهانتهم على السجع ، كما كانوا يعتمدون على مثل هذه الأقسام والأيمان بالأرض والسماء والطير والشمس وما يتصل بذلك من القمر والنجوم والكواكب والأشجار والرياح وكل ما يظنون أنه يحمل قوى خفية . وأيضاً فإنهم كانوا يعتمدون على الإغراب في ألفاظهم للإيهام والتأثير في نفوس السامعين .

وهذه هي نفس السمات العامة التي يمكن أن نستنبطها من خلال النصوص الكثيرة التي رُويت من سجعهم ، ونحن نرى هذه السمات واضحة في هذه القطعة الصغيرة التي رواها الجاحظ لعزى سلمة ، وهي سمات طبيعية ، إذ كانوا يلجأون إلى الإيهام في أحاديثهم وأقوالهم ، وكانوا يعتمدون في هذا الإيهام على الأقسام واللفظ الغريب ليتيح لهم ذلك ما يريدون من الوهم في أساليبهم ومعاني كلامهم . وأكبر الظن أنهم كانوا يبالغون في ذلك حتى تشبه معانيهم وتغمض دلالاتهم ، فيكثر عند السامعين الفهم ، ويكثر الاحتمال والتأويل . ولعلنا لا نبتعد إذا زعمنا أن الكهان كانوا يبنون سجعهم في كثير من جوانبه على الرمز ، فإن كهانتهم كانت تقتضي أن يختاروا ألفاظاً موهمة توغز بما يريدون دون أن تفصح — في كثير من أحوالها — عن دلالة بينة ومهما يكن فإن حرفة الكهانة في هذا العصر أثمرت ضرباً طريفاً من السجع كان يتكىء على الأقسام والأيمان الموهمة والألفاظ الغريبة .

وأكبر الظن أن فيما قدمنا من حديث عن سجع الكهان وخطابة الجاهليين وما كان من أمثالهم ما يدل دلالة صريحة على أن ما سلم لنا من بقايا نثرهم ، إنما هو شظايا متناثرة من صناعة بليغة كانت تستنفد من أصحابها آماداً واسعة من التعب والعناء والجهد والنشاط .

الفصل الثاني

الصنعة في النثر الإسلامى

١

الإسلام

يفتح الإسلام صفحة جديدة في تاريخ النثر العربى ، هى صفحة دين قويم بُعث به رسول عظيم ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وينقل العرب وغير العرب من حياة القوضى والهمجية والخرافة والوثنية والعداوة والبغضاء إلى حياة مدنية ، قوامها سعادة الجنس البشرى وهنائه .

ولا يمضى نحو عشرين سنة حتى يجمع محمد صلى الله عليه وسلم العرب على هذا الدين الحنيف ويستأصل ما كان فيهم من جذور همجية ووثنية وتفكك وتخاصم ، فيصبحوا بنعمة الله أمة واحدة تتعاون على الخير والبر والتقوى ، ويخروا إلى الأذقان سُجَّدًا خشوعاً لربهم ورهبة من عقابه ورغبة في رحمته التى وسعت كل شئ .

لم يعد العرب قبائل متنازلة ، كما كانوا فى الجاهلية ، يقتل بعضهم بعضاً معظمين للدماء مفاخرين بالأحساب والأنساب ، بل أصبحوا جماعة واحدة رُحَمَاء فيما بينهم ، يسند قوتهم ضعيفهم ، لا يتحاربون ولا يتخاصمون ، بل يتآزرون ويتعاونون ، فلا نهب ولا سلب ، ولا عصبية قبلية ولا دعوة جنسية ، فالمسلمون جميعاً من كل القبائل ومن عرب وغير عرب إخوة لا فضل لغنى على فقير ولا لقوى على ضعيف ، بل هم جميعاً سواء ، ولا شريف ولا مشروف ، ولا حرو ولا عبد . كل منهم يرفع أخاه وحقوقه ، وله حرية ، ولكن بحيث لا تمس حرية الآخرين ، فقد حدد الإسلام هذه الحرية بتكاليفه الدينية بما حرم من ضروب الإثم ما ظهر منها وما بطن .

إنه دين سماوى، تَعَنُّوْ فيه الوجوهُ للحيِّ القيُّوم الذى خلق السموات والأرض وما بينهما، وسَخَّرَ الشمس والقمر كلٌّ يجرى إلى أجل مسمى ، ومدَّ الأرض وجعل فيها رَواسىَ وأنهاراً ومن كلِّ الثمرات ، فهو باعث كل حياة . قد أحاطت قدرته كما أحاط علمه بكل شئ ، فهو القاهر فوق عباده (وعنده مفاتيحُ الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حَبَّةٌ فى ظلمات الأرض ولا رَطْبٌ ولا يابس إلا فى كتاب مبين) . وإنه ليعلم خائنة الأعين وما تُخفى الصدور ، وقد أعذر رسولهُ الكريم وأنذر ، فن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، فإن وراء هذه الحياة حياة أخرى يحاسب فيها المرء على ما قدَّمَتْ يده ، فن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، فإما الجنة والنعيم وإما النار والجحيم . والله مع سلطانه وعدله رحيم ، وعلى المسلم أن يصدع بأوامره ونواهيه فى سره وعلمه ، وأن يسير على هَدًى نبيه وما شرعه للناس ، وأن يأخذ بتعاليمه ووصاياها التى تحقق له السعادة فى دنياه وآخرها .

وفى هذا الدين الكريم عقائد تتصل بوحداية الله والإيمان برسله وكتبه واليوم الآخر ، وأن وراء عالمنا نوعين من الأرواح ، نوعاً خيراً هو الملائكة ، ونوعاً شريعراً هو الشياطين . وفى الدين أعمال تتصل بعبادة الله وطاعته ، هى الصوم والصلاة والزكاة وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً ، وإنه ليدعو من آمن به إلى سيرة مستقيمة فلا بغى ولا عدوان ولا فحش ، ولا قتل ولا نهب ، ولا نيمة ولا غيبة ولا كبر ولا فخر ، بل حياة طاهرة نقية ، خلصت من كل الشوائب ، وهى حياة وضع لها الدينُ نظاماً اجتماعياً سديداً يكفل للجنس البشرى ما يليق به من كمال . إنها رسالة جليلة ، رسالة لم يؤدها أى دين من الأديان على هذه الصورة المثالية ، ومن ثمَّ لم تؤثر فى العرب وحدهم ، بل أثرت فى العالم جميعه ، ودانت لها الأمم فى مشارق الأرض ومغاربها مقرة بجلالها وجمالها .

القرآن الكريم

كتابٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيلٌ من حكيم حميد ، نزل به الروح الأمين على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم منجماً مقسّطاً في ثلاث وعشرين سنة ، حتى تستعد القوى البشرية لتلقى هذا الفيض الإلهي ، وهو معجزة الإسلام الكبرى ، إذ لم يبلغ أى كتاب ديني أو دنيوي ما بلغه من روعة البيان والبلاغة ومَسّ المشاعر وأسْرِ القلوب ، سواء حين يتحدث عن عظمة الله وجلاله أو حين يشرع للناس ما به صلاحُ معاشهم وآخرتهم أو يصور لهم الثواب والعقاب والفردوس والحجيم ، أو يقص عليهم من أنباء الرسل والأولين ما فيه عبرة ومزْدَجَرٌ للمؤمنين .

فقد نزل في أسلوب لا يبارى في قوة إقناعه وبلاغة تركيبه ، حتى ليقول الوليد بن المغيرة أحدُ خصوم الرسول وقد سمعه يتلو من آياته : « والله لقد سمعت من محمد كلاماً ، ما هو من كلام الإنس والجن ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلُوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمُغْدِقٌ » (١) . ويلاحظ الوليد ملاحظة صادقة ، هي أن القرآن لا يماثل كلام الإنس ولا كلام الجن الذي كان يجري على ألسنة كهانهم ، فهو طراز وحده ، له سحره البياني ، بل له إعجازه الذي انقطعت آمالُ العرب دونه في محاكاته أو الإتيان بشيء على مثاله في السيطرة على الألباب والقلوب . وقد تحدّاهم جل وعز أن يجمعوا أمرهم وكيّدهم فيأتوا بسورة من مثله أو بسور تحاكيه ، فعجزوا وذلوا ، يقول سبحانه : (قل لئن اجتمعت الإنسُ والجنُ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) ويقول تبارك وتعالى : (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) . ويشرح ذلك الجاحظ فيقول :

« بعث الله محمداً عليه الصلاة والسلام في زمن أكثر ما كانت العربُ

(١) انظر تفسير الزمخشري في سورة المدثر ،

ومنفذ : كثير المياه .

فيه شاعراً وخطيباً ، وأحكم ما كانت لغة ، وأشد ما كانت عُدَّة ، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته ، دعاهم بالحجة ، فلما قطع العذر وأزال الشبهة ، وصار الذى يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية دون الجهل والخيرة نصبوا له الحرب ونصب لهم . . وهو فى ذلك يحتج عليهم بالقرآن ويدعوهم صباح مساء إلى معارضته إن كان كاذباً بسورة واحدة أو بآيات يسيرة . فكلما ازداد تحدياً لهم بها وتقرباً لهم بعجزهم عنها قالوا له أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف ، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا ، قال : فهاتوا ولو مفتريات ، فلم يَرْمُ ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر . ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامى عليه ويكابر فيه ويزعم أنه قد عارض وناقض . فدلَّ ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم وسهولة ذلك عليهم وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم وعارض الشعراء من أصحابه والخطباء من أمته ، لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله وأبلغ فى تكذيبه وأسرع فى تفريق أتباعه عن بذل النفوس والخروج عن الأوطان وإنفاق الأموال . وهذا من جليل التدبير الذى لا يخفى على من هو دون قریش والعرب فى الرأى والفضل بطبقات ، ولهم القصيد العجيب والرجز الفاخر والخطب الطوال البليغة والقصائد الموجزة ، ولهم الأسجاع واللفظ المنشور . ثم يتحدى به أقصاهم بعد أن ظهر عجز أدناهم ، فمحال — أرشدك الله — أن يجتمع هؤلاء كلهم فى الأمر الظاهر والخطاب المكشوف البين مع التقريع بالتقصير والتوقيف على العجز ، وهم أشد الخلق أنفة وأكثرهم مفاخرة والكلام سيد أعمالهم وقد احتاجوا إليه ، والحاجة تبعث على الحيلة فى الأمر الغامض فكيف بالظاهر الجليل المنفعة وكما أنه محال أن يطيقوه ثلاثاً وعشرين سنة على الغلط فى الأمر الجليل المنفعة كذلك محال أن يتركوه وهم يعرفونه ويجدون السبيل وهم يبذلون أكثر منه .

وكان طبيعياً أن يستكين العرب أمام هذه الذروة الرفيعة من البلاغة والبيان ، وهى ذروة ليس لها فى اللغة العربية سابقة ولا لاحقة ، ذروة جعلت العرب

حين يستمعون إلى آية تعنو وجوههم لربهم ويخرون رُكعاً وسُجّداً مشلوهين
بجماله مبهورين ببلاغته ، وفي ذلك يقول جل وعز : (الله نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ
كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِي تَقْشَعْرُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ
إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ) ويقول : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً
من خشية الله) . ولا يزال هذا الشعور الذي كان يختلج في قلوب العرب الأولين
تحقق به القلوب في كل عصر لما يفتح من آفاق العالم العلوي ، ولما يؤثر به في
صميم الوجدان الروحي . وهو يمتاز بأسلوب خاص به ليس شعراً ولا نثراً
مسجوعاً ، وإنما هو نظم بديع ، فُصِّلَت آياته بفواصل تنتهي بها وتطمئن النفس
إلى الوقوف عندها . وتتنوع الفواصل بين طوال وقصار ومتوسطة بتنوع موضوعاته
وتنوع المخاطبين ، فقد كان يغلب عليه الإيجاز والإشارة في بدء الدعوة قبل
الهجرة ، حين كان يدعو إلى عبادة الله ونبذ الديانة الوثنية ، والإيمان بالبعث
والنشور ، فلما انتقل الرسول عليه السلام إلى المدينة غلب عليه البسط والإطناب
لبیان نُظْم الشريعة وما ينبغي أن يكون عليه نظام الحياة الاجتماعية ، مما تقتضيه
مصالح البشر في حياتهم على اختلاف الأزمنة والأمكنة .

وقد أثّر هذا الكتابُ العظيمُ آثاراً بعيدة في اللغة العربية ، فقد حوّل أديها
من قصائد في الغزل والحماسة والأخذ بالتأثر والفخر ووصف الإبل والخيل
والسيوف والرماح ، ومن حكم متناثرة لا ضابط لها ولا نظام ، إلى أدب عالمي
يخوض في مشاكل الحياة والجماعة ، وينظّم أمورها الدينية والدنيوية . فارتقى
الأدب العربي رقيّاً لم يكن يحلم به العرب ، واتسعت آفاقه . وعادة يشير مؤرخو
هذا الأدب إلى بعض ألفاظه التي ابتدأها ابتداء مثل القرآن والفرقان والكافر
والمشرك والمنافق والصوم والصلاة والزكاة ، فدلّولات هذه الألفاظ لم تكن حتى
كان ، والحق أنه جميعه بألفاظه ومعانيه المختلفة يُعَدُّ ابتداءً ، بما علّم العرب
من أسس الإسلام ومبادئه وبما بيّن لهم من ماهية الحياة بعد الموت ومن البعث
والنشور ورسالة الرسل وعبادة الله الواحد الأحد ، وبما نظم لهم من حياتهم في
الأسرة والجماعة تنظيماً مادياً وأدبياً وعقلياً وروحياً ، تنظيماً يكفل لهم الكمال

البشرى والسعادة في الدارين . وعلى نحو ما جمع العرب على دين واحد جمعهم على لهجة واحدة من لهجات اللغة العربية ، هي لهجة قریش ، وكانت قد سادت في الجاهلية على لهجات القبائل العدنانية الشمالية ، فأتم لها هذه السيادة على لهجات القبائل اليمنية الجنوبية وكانت هي التي حملها العرب معهم في فتوحاتهم ، فانتشرت في العالم الإسلامي جميعه من الصين والهند إلى المحيط الأطلسي وجبال البرانس ، إذ كانت تلاوته قرصاً مكتوباً على المسلمين ، قال جل شأنه : (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً) وقال : (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى) قال : رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى) وبذلك كان للقرآن الكريم الفضل العظيم في حفظ اللغة العربية وذيوعها وانتشارها في ملايين الناس مدى أجيال متعاقبة بل مدى قرون مترادفة إلى اليوم .

فالقرآن هو الذي حفظ اللغة العربية القرون المتطاولة السابقة ، وقد حول العربي من إنسان جاهل يؤمن بالخرافات إلى إنسان محب للعلم مشغوف بالمعرفة ، يطالبها أينما كانت ، ولم يلبث أن فتح له الأرض ، فدخلت إلى العربية أم شاركت في لسانها وأدبها ، وتعاونت في تلك النهضة الروحية والاجتماعية والأدبية والعلمية . ومن الحق أن كل ما كسبته لغتنا من آداب في الشعر والنثر ومن علوم شرعية ولسانية وعقلية فلسفية ، إنما كان بفضل القرآن ، بل لقد تعدت آثاره لغته العربية إلى لغات الأمم الإسلامية التي لا تنطق بلغته . ولتصور العرب لم يرسل إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم ولا نزل فيهم الذكر الحكيم إذن لما فارقت لغتهم جزيرتهم ولظلوا وثنيين في تنابد وشقاق وحروب طاحنة ، بل لعل لغتهم كانت قد اندثرت كما اندثرت لغات قديمة كثيرة ، فالقرآن هو الذي نفخ في روحها ، وهو الذي أتاح لها الحياة على توالي القرون ، وهو الذي نقلها من لغة بداءة إلى لغة مدنية ، حتى أصبحت لغة عالمية لأمم كثيرة اتخذتها لسان ثقافتها وآدابها . ولا يوجد في تاريخ البشرية كتاب له هذه الآثار العظيمة في لغته وتغيير أحوال من آمنوا به ، بل هو يقف وحده في هذا الباب ، إنه مفخرة العرب ومعجزة الإسلام وآيته الباهرة .

الحديث النبوي

حديث الرسول صلوات الله عليه هو الأصل الثاني للإسلام ، وهو يشمل كل ما جاء عنه من قول أو فعل أو تقرير ، وقد يسمّى ذلك السنة . وترجع أهميته إلى أنه يتمم القرآن في بيان أحكام الشريعة الإسلامية ، فالصلاة مثلاً ذُكرت في القرآن مجملة ، فبيّن الحديث كيفيتها وأوقاتها ، وكذلك الشأن في الزكاة فإن الحديث هو الذي بين قواعدها التي يجب اتباعها في جمعتها وتوزيعها . وهناك آيات في الذكر الحكيم يحتمل وجوهاً مختلفة من المعاني ، والحديث هو الذي يشرح المراد منها . وهذا إلى كثير من شئون الدين التي يستقل الحديث ببيانها .

ومنذ عصر الرسول يهتم المسلمون بالحديث عملاً بقوله تعالى : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) فكانوا يأتّمون به كما كانوا يأتّمون بالقرآن الكريم وما شرّع لهم . ويدل على ذلك أكبر الدلالة ما يروى من أن الرسول حين أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن سأله : بم تحكم ؟ قال : بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ، قال : بسنة رسوله ^(١) . فرواية الحديث كانت معروفة في حياة الرسول ، وكانت كل قبيلة تأخذ معها معلماً يعلمها القرآن والسنة النبوية . وكثيراً ما كان يعقب الرسول على أحاديثه وخطبه بقوله : « ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب » ^(٢) . ولما توفي الرسول ، ودخل الموالي في الإسلام أخذوا يحاولون معرفة كل شأن من شئون الرسول ، ليقتدوا به ، ولم يكن العرب يقلّون عنهم شغفاً بتلك السيرة العاطرة .

كل ذلك دفع المسلمين إلى رواية الحديث ، غير أنه لم يدوّن بصفة عامة إلا على رأس المائة الأولى للهجرة ، أما قبل ذلك فكان هناك من يدونونه ومن لا يدونونه . وتروى عن الرسول أحاديث مختلفة يدعو بعضها إلى تدوينه ،

(١) انظر مختصر جامع بيان العلم وفضله (٢) راجع مثلاً خطبة حجة الوداع في البيان لابن عبد البر (الطبعة الأولى) ص ١٢٦ . والتبيين ٣٣/٢ .

ويدعو بعض آخر إلى عدم تدوينه^(١) ، ولعله كان يخشى إن دُوِّنَ أن يختلط بالقرآن أو أن يشغل المسلمين عنه . وفي الوقت نفسه لم يجد مانعاً في بعض الأحيان من أن تكتب عنه بعض الأحاديث التي تتعلق بالأحكام . وإذا انتقلنا إلى عصر الصحابة وجدناهم يكرهون غالباً تدوين الحديث^(٢) ، بينما يعنون بروايته ، وأشار نفر منهم على عمر أن يدونه ، فلبث شهراً يستخير الله في ذلك ، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له ، فقال : إني كنت قد ذكرت لكم من كتاب السنن ما قد علمتم ، ثم تذكرت ، فإذا أناس من أهل الكتاب قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً فأكبّوا عليها وتركوا كتاب الله ، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً^(٣) ومضى الصحابة لا يدونون الحديث تدويناً عاماً مكتفين بروايته ، وظلت هذه هي الفكرة الشائعة في عصر التابعين^(٤) ، ولكن بمضى الزمن تزداد الرغبة في تدوينه ، حتى إذا كان عهد عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الأولى للهجرة رأيناه يأمر بتدوينه^(٥) ، ولا مشاحة في أن أول من دونه تدويناً عاماً هو ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٣ هـ . ومنذ هذا التاريخ أخذ تدوين الحديث يتسع ، وأخذ يصنّف ويؤبّ على الأحكام الفقهية ، حتى يسهل الرجوع إليه في أمور الدين ، على نحو ما نجد في كتاب «الموطأ» للإمام مالك إمام أهل المدينة المتوفى سنة ١٧٩ للهجرة ولا نصل إلى أواسط القرن الثالث حتى يضع فيه ابن حنبل مسنده الكبير ، وتتاو: كتب الصحيح الستة ، للبخاري ومسلم وأبي داود والترمذي وابن ماجه والنسائي .

ووضع حول الحديث منذ العصر الأول في روايته سياج محكم ، حتى لا يدخل فيه الوضع والانتحال ، وحتى تظل الثقة قائمة به ، وخاصة لأنه

- | | |
|--|---|
| (١) انظر تقييد العلم للخطيب البغدادي | (٤) نفس المصدر ص ٤٥ وما بعدها و ص ٩٩ وما بعدها . |
| (طبعة يوسف العش) ص ٢٩ وما بعدها و ص ٦٥ وما بعدها . | (٥) الزرقاني على موطأ مالك (طبع المطبعة الحيرية) ١٠/١ . |
| (٢) نفس المصدر ص ٣٦ وما بعدها . | |
| (٣) نفس المصدر ص ٤٩ وما بعدها . | |

تأخر تدوينه تدويناً عاماً . وقد كُفِّل له من ذلك ما يملؤنا إعجاباً بعلمائه ورواته ، فقد اشترطوا شروطاً كثيرة في حملته ، وأقاموا من أجله علماً برأسه ، يسمى مصطلح الحديث ميزوا فيه بين أنواع صحيحه وضعيفه ، كما ألفوا كثيراً في رجاله ورواته ، حتى يقفوا على درجة صدقهم . وقد أفردوا لضعيفه كما أفردوا لصحيحه مؤلفات كثيرة على نحو ما صنع ابن حبان وغيره ، وكذلك أفردوا مؤلفات لموضوعاته ومفترياته على نحو ما صنع السيوطي في كتابه (الآلئ المصنوعة) .

وبذلك حافظ المسلمون على حديث الرسول صلوات الله عليه ، وإن كانوا قد أجمعوا على أنه في جملته رُويَ بالمعنى ولم يرو باللفظ ، بسبب تأخر تدوينه ، ولعل ذلك ما جعل علماء الكوفة والبصرة وبغداد لا يحتجون به في إثبات لغة العرب والاستدلال على القواعد النحوية واللغوية التي دونوها ، فقد تداوله الأعاجم والمولدون قبل تدوينه تدويناً عاماً .

والذي لاشك فيه أنه عليه السلام لم يكن ينطق إلا عن ميراث حكمة ، وأنه أوتي جوامع الكلم ، وكان يكره الإغراب في اللفظ والتعسف والتكلف ، ويكنى في بيان روعة تعبيره وبلاغة كلامه وتراكيبه ما يقوله الجاحظ في كتابه البيان والتبيين من أنه « لم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة وشيد بالتأييد ويُسرُّ بالتوفيق ، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة وغشَّاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حُسْنِ الإفهام وقلة عدد الكلام . . لم تسقط له كلمة ولا ذلَّتْ به قَدَمٌ ولا بارتْ له حجة ، ولم يقم له خصم ولا أفحمه خطيب ، بل يَسْبُدُّ الخطب الطوال بالكلم القصار . . ولا يحتاج إلا بالصدق ولا يطلب الفلج^(١) إلا بالحق ولا يستعين بالخِلافة . . ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصد لفظاً ولا أعدل وزناً ولا أجمل مذهباً ولا أكرم مطلباً ولا أحسن موقعاً ولا أسهل مخرجاً ولا أفصح معنى ولا أبين في فحوى من كلامه

(١) الفلج : الفوز والظفر .

صلى الله عليه وسلم»^(١) . وقد تداول العرب والمسلمون من كلماته الجامعة بعض أمثال لم يتقدمه فيها أحد ، من ذلك قوله^(٢) :

مات حتف أنفه^(٣) - كل الصيد في جوف الفراء^(٤) - إذن لا ينتطح فيها عنزان - يا خيل الله اركبي - لا يُلْسَعُ المؤمن من جُحْر مرتين - هُدْنَه على دَخَن^(٥) وجماعة على أقذاء - الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة^(٦) - إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى^(٧) - إياكم وخضراء الدمن^(٨) - الآن حمى الوطيس^(٩) .

على أنه ينبغي أن نعرف أن الأمثال لم يعد لها منذ ظهور الإسلام خطورتها في تاريخ النثر العربي ، فقد تغيرت الحياة العربية من قواعدها ، ولم تعد تحتكرها الأمثال ، إذ أخذ العرب يُشغَلُونَ عنها بتلاوة القرآن ورواية الحديث ، واتخذوا منها عبرتهم وموعظتهم ، وحتى الشعر كفَّ كثير من شعرائهم عن نظمها^(١٠) .

-
- (١) البيان والتبيين ١٧/٢ .
 (٢) نفس المصدر ١٥/٢ وما بعدها والحيوان ٣٣٥/١ وزهر الآداب للحصري (طبعة المطبعة الرحمانية) ٢٣/١ ومجمع الأمثال للميداني ٧/١ ، ٢١/١ .
 (٣) مات حتف أنفه : أى على فراشه من غير قتل في الوغى .
 (٤) الفراء : حمار الوحش ، يضرب مثلاً في نفاسة الشيء أو الشخص .
 (٥) دخن : حقد .
 (٦) الراحلة : الصالحة لأن ترحل .
 (٧) المنبت : المسرع بناقته حتى عطبت فلم يقض حاجته ولا سفره . والظهر : الناقة التي يركبها .
 (٨) الدمن : البعر المتلبد . وهو مثل يضرب تنفيراً من المرأة الحسناء تنشأ في منبت السوء .
 (٩) الوطيس : التنور ، يضرب مثلاً على اشتداد الحرب .
 (١٠) أغاني (طبعة الساسي) ٩٤/١٤ .

الخطابة في صدر الإسلام

الرسول صلى الله عليه وسلم أخطبُ العرب قاطبة ، وقد كان يخطب في قریش كثيراً بدعوها إلى دينه الخنيف^(١) والدخول في طاعة الله ومحبته ، ولما هاجر إلى المدينة أصبحت الخطابة فريضة مكتوبة في صلاة الجمعة والعیدین . وبذلك عرف العرب ضرباً منظماً من الخطابة الدينية لم يكونوا يعرفونه في الجاهلية ، إذ كانت خطابتهم — كما أسلفنا — اجتماعية ، وكانت تدور غالباً على المنافرات والمفاخرات ، وقد دعا الإسلام إلى نبذ التفاخر والتكاثر بالأحساب والأنساب ، ومن ثمّ اختنى من حياتهم هذا اللون من الخطابة

وتحتفظ كتب الحديث الصحيحة^(٢) بتقاليد الرسول صلوات الله عليه في خطابته سواء في صلاة الجمعة أو صلاة العیدین ، إذ كان يخطب في الصلاتين خطبتين يجلس بينهما ، وكانتا تدوران على تبیین ما شرع الله لعباده في شؤون دينهم ودنياهم وما ينبغي أن يسود مجتمعهم من مثالية خلقية رفيعة ومن روابط اجتماعية وثيقة . وبجانب ذلك كان الرسول يخطب في الأحداث وعند المناسبات . ومن المحقق أنه خلّف تراثاً ضخماً من الخطب ، غير أن ما احتفظت به كتب الأدب والتاريخ من ذلك قليل ، ولا ترجع قلته إلى قصّر خطبه ، فقد كان يطيل خطبه أحياناً وفي بعض المناسبات إلى ساعات^(٣) يعظ الناس ويدعوهم إلى التفكير في الكون وخالقه ومدبره . وأكبرُ الظن أن خطبه أصابها ما أصاب خطب الجاهلية ، فإنها لم تدوّن حينها ، وبعُد العهد بين عصرها وعصر تدوينها . ومع ذلك فقد احتفظت ذاكرة الرواة ببعضها مما تحمل لنا خصائصها ، من ذلك

(١) السيرة الحلبية ٣٧٩/١ .

ص ٤٠ .

(٢) انظر كتاب الجمعة في صحيح البخاري

(٣) إعجاز القرآن للباقلاني ص ٦٤ .

ومسلم والتنبيه للشيرازي (طبعة ليدن)

أنه خطب بعشر كلمات : حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال ^(١) :
 « أيها الناس ! إن لكم مَعَالِمَ فانتَهِوا إلى معالمكم ، وإن لكم نَهَايةَ فانتَهِوا إلى نهايتكم ، إن المؤمن بين محافتين : بين عاجل قد مضى لا يدري ما الله صانع به ، وبين آجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه . فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشَّيْبَةِ قبل الكِبَرَةِ ، ومن الحياة قبل الموت . فوالذي نفسُ محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار » .

والخطبة على قصرها توضح لنا كيف كان الرسول يعظ أصحابه ويدفعهم دفعاً إلى العمل الصالح ، قبل أن يلبوا داعي الموت ، فتبور تجارتهم ويذهب هباءً عملهم ، وإنهم لمعرضون على ربهم ، فمُوقَدُونَ حسابهم ، فأما من اتبع هدى الإسلام فصيره الجنة التي وصفها القرآن الكريم فأسهب في وصفها ، وأما من أعرض وتولى ولم يذكر اسم ربه ولا صَلَّى ، ولا أخلص عمله لوجهه فصيره النار التي أطنب القرآن في بيان عذابها .

ولم تكن خطبه مواعظ فحسب ، بل كانت أيضاً تشريعاً وتنظيماً للحياة هذه الأمة التي أخرجت للناس في خير مثال تأمر بالمعروف وتتناهى عن المنكر ، ويتعاون أفرادها على البر والخير مما فيه صلاحهم وصلاح مجتمعهم . ولعل خير خطبة تشريعية تصور كيف كان ينظم هذا المجتمع الروحي ويرسي قواعده خطبته في حجة الوداع ، وهي تمضي على هذا النحو ^(٢) :

« الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يَهْدِ الله فلا مُضِلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . أوصيكم ، عبادَ الله ، بتقوى الله وأحسُّكم على طاعته ، وأستفتح بالذي هو

(١) انظر كتاب البيان والتبيين ٣٠٢/١ . (الجلبي) ٢٥٠/٤ والعقد الفريد (طبعة لجنة

(٢) نفس المصدر ٣١/٢ وانظر كتاب الجمعة التأليف والترجمة والنشر) ٥٩/٤ .

في صحيح البخاري والسيرة لابن هشام (طبعة

خير . أما بعد ، أيها الناس ! اسمعوا مني أبين لكم فإني لا أدري ، لعل لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا . أيها الناس ! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى الذي ائتمنّه عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوع^(١) ، وإن أول رباً أبداً به ربا عمى العباس بن عبد المطلب — وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبداً به دم عامر بن ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب — وإن مآثر الجاهلية موضوعة ، غير السّدانة^(٢) والسقاية^(٣) . والعَمْدُ قَوْدٌ^(٤) ، وشبّه العمد ما قتل بالعصا والحجر ، وفيه مائة بغير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس ! إن الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم . أيها الناس (إنما النسيء^(٥) زيادة في الكفر يُضِلُّ به الذين كفروا يجلونه عاماً ويحرمونه عاماً ، ليواطئوا عدة ما حرم الله فيسجلوا ما حرم الله) . إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حُرُمٌ : ثلاثة متواليات وواحد فرْدٌ : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس ! إن لنسائكم عليكم حقاً ، ولكم عليهن حق . لكم عليهن أن لا يُوطئن فرشكم غيركم ، ولا يُدْخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ،

(٥) النسيء : شهر المحرم كانوا يحرمونه عاماً ، وعاماً يجلونه إذا أرادوا الإغارة ، فيقولون إنه بعد صفر ويؤجلونه .

(١) موضوع : ساقط ، ومحرم .

(٢) السّدانة : خدمة الكعبة .

(٣) السقاية : سقاية قريش للحجاج .

(٤) العمد : القتل المتعمد ، القود : قتل

القاتل بقاتله .

ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن^(١) وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح^(٢) ، فإن انتبين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان^(٣) ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله . فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً ألا هل بلّغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس ! إنما المؤمنون إخوة ولا يحلُّ لامرئ مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . فلا ترجعنَّ بعدى كُفَّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده : كتابَ الله . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ، أيها الناس ! إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير . وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . قالوا : نعم ، قال : فليبلغ الشاهدُ الغائبَ .

أيها الناس ! إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث فلا تجوز وصية لوارث في أكثر من الثلث . والولد للفراس وللعاهر الحجر^(٤) . من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرْف^(٥) ولا عدل . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وواضح أن الخطبة تبدأ بحمد الله واستغفاره والتوبة إليه والاستعاذة من شرور النفس وسيئات العمل ونقائصه ، وتقترن بالشهادتين ، وتوصية المسلمين بعبادة الله وطاعته ، كما تقترن بكلمة « أما بعد » . ويمضى الرسول عليه السلام

وللعاهر الحجر ، أى رغم أنفها ، أو لعله يشير إلى رجمها .
(٥) صرف : انصراف ، عدل : عدول . أى لا يقبل منه شيء .

(١) تعضلوهن : تضيّقوا عليهن .
(٢) الضرب غير المبرح : الضرب الخفيف .
(٣) عوان : جمع عانية ، وهى الأسيرة أى هن عندكم بمنزلة الأسرى .
(٤) للفراس أى لصاحبه ، فهو ينسب إليه ،

فبين أن دماء المسلمين حرام كأموالهم ، فلا قتل ولا نهب ولا سلب ، فقد انتهى قتل النفس المحرمة وانتهى قطع الطرق ، وانتهت الخيانات بجميع ضروبها ، فمن كانت عنده أمانة لا يخنها ، بل فليؤدها مستوفاة إلى صاحبها . إنه مجتمع ديني جديد ، تتوثق فيه الروابط ، فلا رباً ولا أخذ بثأر ، وقد تداعت مآثر الجاهلية سوى سدانة الكعبة وسقاية الحجيج ، فهما مآثرتان ضروريتان للجماعة ، وهما لذلك باقيتان . أما شريعة الأخذ بالثأر التي كانت قوام حياتهم في الجاهلية ، فقد قضى عليها الإسلام ، إذ جعل حق الدم للدولة ، فالقاتل المتعمد تقتله الدولة بصاحبه ، أما من قتل خطأ فديته مائة ناقة لا تزيد . ويخوفهم الرسول من الشيطان وما يدعو إليه من الشرور فقد انتهت عبادته ، ولكن لم تنته أطماعه في تضليل الناس عن الجادة . وأيضاً فإنه انتهى عهد التلاعب في الدين وفي الأشهر الحرم .

ولا ينظم الرسول العلاقات بين الفرد وجماعته الكبرى من الأمة فحسب ، بل ينظمها أيضاً بينه وبين جماعته الصغرى من الأسرة ، فيدعو إلى رعاية حقوق المرأة ، وأن يعاملها الرجل برفق ورحمة ، وقد رفع الإسلام من شأنها ووضعها في المكان اللائق بها ، فكفل لها حرية التصرف في مالها كما كفل لها حق اختيار زوجها .

ويدعو الرسول إلى دعم الروابط بين أفراد الأمة ، فالمسلمون جميعاً إخوة متساوون في الحقوق والواجبات ، لا غنى ولا فقر ولا أسود ولا أبيض ، ولا عربي ولا عجمي ، فالجميع سواء ، ولا فضل إلا بالتقوى والعمل الصالح . ويشير إلى ما شرعه القرآن من نظام التوريث الجديد ، ويقرر أن المورث لا يحق له أن يحرم ورثته من ماله ، ويعطيه شيئاً من الحرية ، فيجعل له الحق أن يوصي لورثته ببعض ماله ، ولكن على أن لا يزيد عن ثلثه . ويعرض لمشكلة كبرى من مشاكلهم ، هي الأبناء غير الشرعيين الذبن ولدوا في الجاهلية ، فينسبهم إلى أصحاب الفراش ، وكان من عادتهم أن يُنسبوا إلى غير آبائهم ، فقضى على تلك العادة السيئة حفظاً للأنساب .

وعلى شاكلة الخطبتين السالفتين كانت خطابة الرسول ، فهي إما موعظة حسنة وترغيب وترهيب وبيان لمسئولية المسلم الخلقية وأنه محاسب بين يدي ربه عن كل ما قدم في حياته ، وهو يضع ذلك أمام عينيه ليصلحه ويقوم نفسه ويسمو به في مراقى الكمال . وإما تشريع وتنظيم لمجتمعهم وما ينبغي أن يسود فيه من عوامل الخير ودواعيه ، فالمسلم للمسلم كالبنسيان يشد بعضه بعضاً ، فلا بغى ولا عدوان ، بل تآزر وتعاون في قيام هذا المجتمع السليم .

ومن المحقق أن الرسول كان في خطابته — كما كان في حديثه — لا يستعين بخلابة ولا تزويق ، وقد برئت ألفاظه من الإغراب والتعقيد والاستكراه ، وهي مع ذلك ألفاظ جزلة لها بهاء ورونق ، تعمر بها القلوب والصدور وترتاح إليها الأسماع والأفئدة ، فتجتمع لها النفوس المتباينة الأهواء وتساق إليها بأزماتها ، إذ تلتحم بمعانيها وما تدعو إليه من سبيل الرشاد ، وهي — بلا ريب — مثل أعلى في البراعة والدقة ، ونقصد دقة الحس ولطف الشعور ، ولعل مما يدل على ذلك قوله : « لا يقولنَّ أحدكم خَبِثَتْ نَفْسِي وَلَكِنْ لَيْسَ قَلْبِي لَقِيسَتْ نَفْسِي » ^(١) فقد كره أن يضيف المسلم الخبث إلى نفسه . ونؤمن بأن هذه العناية بحسن منطقهم لم تكن نتاج تحبير أو تفكير إنما كانت نتاج ما خوله الله من نعمته في بيانه الرائع .

وليس في خطبتي الرسول السالفتين سجع ، ومن المؤكد أنه لم يكن يستخدم السجع في خطابته ، بل كان ينفر منه بسبب استخدام الكهان له في الجاهلية على نحو ما مر بنا في الفصل السابق ، ولذلك صَدَّ عنه كما صَدَّ عنه خلفاؤه . رَوَى الطبري أن عمر بن الخطاب سأل صحارا العنبدىَّ البليغ المشهور عن مكران الفارسية أثناء غزو المسلمين لها ، فقال صحار : « يا أمير المؤمنين ! أرض سَهْلُهَا جبال ، وماؤها وَشَلْ ^(٢) ، وتمرها دَقْل ^(٣) ، وعدوها بطل ، وخيرها قليل ، وشرها طويل ، والكثير بها قليل ، إن كثر الجند بها جاعوا ، وإن قلَّوا بها

(١) الحيوان للجاحظ ٣٣٥/١ ولقت (٢) وشل : قليل .
(٣) دقل : أردأ التمر .

النفس : غثت .

ضاعوا . فقال عمر : أسجَّاعٌ أنت أم مخبر ؟ فقال صحرار : بل مخبر «^(١)» .
 وواضح أن عمر أنكر عليه استخدامه للسجع في كلامه . ويروى الرواة أن
 عبد الله بن الزبير تكلم بكلام مسجوع عند معاوية ، فقال له : « تعلمت
 السجاعة عند الكبير »^(٢) . وفي أخبار معاوية أنه كتب إلى رجل كتاباً ،
 فأملى على كاتبه : « لهو أهونُ علىَّ من ذرة » ، أو كلب من كلاب الحرّة »
 ثم استدرك قائلاً لكاتبه : « امحُ من كلاب الحرّة واكتب من الكلاب »^(٣) .
 فالخلفاء كانوا يكرهون السجع لنهي الرسول ، صلوات الله عليه عنه . وليس
 معنى ذلك أنه انمحي محمّداً من خطابة هذا العهد ، فالجاحظ يقول : « كانت
 الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فتكون في تلك الخطب أسجاع كثيرة »^(٤)
 ومن يرجع إلى حروب الردة يرى بعض المتنبيين مثل مسيلمة الكذاب يتكهنون
 ويسجعون في كهانهم ، وكان مسيلمة خاصة « يسجع السجاعات ، ويقولها
 مضاهاة للقرآن »^(٥) ويقول الجاحظ إنه « عدا على القرآن فسلبه وأخذ بعضه
 وتعاطى أن يقارنه »^(٦) .

وقد انتهت هذه الموجة من سجع المتنبيين بانتهاء حروب الردة ، ولكن
 السجع بعامة لم ينته معها تماماً فقد ظلت الخطباء تسجع بين يدي الخلفاء
 على نحو ما يلاحظ الجاحظ .

وإذا نظرنا فيما أثر من خطب عند أبي بكر الصديق ومن تبعه من الخلفاء
 الراشدين وجدناهم يقتلون بالرسول في خطاباتهم ، فهم لا يستخدمون السجع
 فيها ، وهم يفتتحونها بحمد الله وتمجيده والصلاة على رسوله ويوشّونها بآيات من
 القرآن الكريم وبيعض أحاديث نبيه العظيم ، مستمدين من هذين النوعين
 الغريزين في وعظهم وفيما يسوقونه من وصايا وتعاليم . وكان الصديق في الذروة

-
- (١) الطبرى ، القسم الأول ص ٢٧٠٧ وانظر البيان والتبيين ١/ ٢٨٥ .
 (٢) الطبرى ، القسم الأول ص ١٧٣٨ ،
 (٣) البيان والتبيين ١/ ٣٠١ والعقد الفريد ١٩٣٤ .
 (٤) الحيوان ٤/ ٨٩ .
 (٥) الطبرى ، القسم الأول ص ١٧٣٨ ،
 (٦) الحيوان ٤/ ٨٩ .
 (٧) رسائل الجاحظ (طبعة الساسي) ص ١٥٥ .

من البلاغة ومن البيان والفصاحة ، ومن خطبة له ^(١) :

« ألا إن أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك . . ألا إن الفقراء هم المرحومون ، ألا وإنكم اليوم على خلافة النبوة ومفريق المحجة ^(٢) . وإنكم سترون بعدى مُلكاً عَصُوضاً ^(٣) ، ومَلَكاً عنوداً ^(٤) ، وأمة شعاعاً ^(٥) ، ودما مُفَاحاً ^(٦) ، فإن كانت للباطل نزوة ، ولأهل الحق جولة ، يعفو لها الأثر ، وتحيا بها الفن وتموت لها السنن ، فالزموا المساجد واستشروا القرآن واعتصموا بالطاعة ، ولا تفارقوا الجماعة » .

وكان كثيراً ما يخطب في الجيوش الخارجة إلى الغزو فيوصيها ويوصي قادتها باتباع هدى الإسلام وبالجهاد في سبيله وله وصية مشهورة يوصي فيها عمرحين استخلفه عند موته بتقوى الله واتباع الحق حتى لا يُلقي بيده إلى الهلكة ^(٧) وهو في كل ما أثر عنه يحسن اختيار لفظه ، في أسلوب مرسل يشفّ عن دقة حسه ومعرفته بمواضع الكلم ، ولعل مما يدل على ذلك أنه مرّ برجل معه ثوب ، فقال له : أتبيع الثوب ؟ فقال : لا ، عافاك الله ، فقال أبو بكر : لقد علمتم لو كنتم تعلمون ، قل : لا ، وعافاك الله ^(٨) .

وكان عمر بن الخطاب مثل صاحبه في الأفق الأعلى من روعة البيان والخطابة ، وله خطب تدور في كتب الأدب والتاريخ نكتفي منها بهذه القطعة ^(٩) :
« اقدَعُوا ^(١٠) هذه النفوس عن شهواتها ، فإنها طُلعة ^(١١) ، وإنكم إلا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية ، وحادثوها بالذكر فإنها سريعة الدثور ^(١٢) . إن هذا

(١) البيان والتبيين ٤٣/٢ وانظر عيون الأخبار ٢٣٣/٢ والعقد الفريد ٥٩/٤ وما بعدها .
والعقد الفريد ١٤٨/٣ وراجع وصاياها الحربية لقواد جيوشه في عيون الأخبار لابن قتيبة ١٠٨/١ وما بعدها .

(٨) البيان والتبيين ١/٢٦١ .

(٩) البيان والتبيين ٣/١٣٨ وقارن ١/٢٩٨ .

(١٠) اقدعوا : انهوا وكفوا .

(١١) طلعة : تتطلع إلى كل شيء .

(١٢) الدثور : الدروس .

(٢) المحجة : الطريق .

(٣) عضوض : شديد فيه عسف .

(٤) عنود : طاغ .

(٥) شعاع : متفرقة .

(٦) مفاح : سائل مهراق .

(٧) انظر الوصية في البيان والتبيين ٤٥/٢

الحق ثقيل مرىء^(١) ، وإن الباطل خفيف وبىء^(٢) ، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ، ورب نظرة زرعت شهوة وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً .

وله وصايا كثيرة يوصى فيها قواد الجيوش الفاتحة بجنودهم وبمن يغزونهم من الأمم ، ومن أروع وصاياه وصية للخليفة من بعده ، ونسوق منها بعض نصائحه له ، يقول^(٣) :

« أوصيك بتقوى الله لا شريك له ، وأوصيك بالمهاجرين الأولين خيراً : أن تعرف سابقتهم . وأوصيك بالأنصار خيراً ، فاقبل من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم ، وأوصيك بأهل الأمصار خيراً فإنهم ردء^(٤) العدو وجبأة الأموال والنفء^(٥) لا تحمل فيئهم إلا عن فضل منهم . وأوصيك بأهل البادية خيراً . فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام : أن تأخذ من حواشي^(٦) أموال أغنيائهم فتد على فقرائهم . وأوصيك بأهل الذمة^(٧) خيراً : أن تقاتل من ورائهم ، ولا تكلفهم فوق طاقتهم . وأوصيك بتقوى الله وشدة الحذر منه وخافة مقتته أن يطلع منك على ريبة . وأوصيك أن تخشى الله في الناس ولا تخشى الناس في الله . وأوصيك بالعدل في الرعية والتفرغ لحوائجهم وثغورهم^(٨) ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم . . وأمرك أن تشد في أمور الله وفي حدوده ومعاصيه على قريب الناس وبعيدهم . . واجعل الناس سواء عندك لا تبالى على من وجب الحق ، ولا تأخذك في الله لومة لائم ، وإياك والأثرة والمحابة فيما ولاك الله مما أفاء الله على المؤمنين ، فتجور وتظلم ، وتحرم نفسك من ذلك ما قد وسّعه الله عليك » .

-
- (١) يقصد عمر أنه حميد العاقبة .
 (٢) يقصد أنه ونعيم العواقب .
 (٣) البيان والتبيين ٦/٢ وانظر في وصاياه للجيوش عيون الأخبار ١٠٧/١ .
 (٤) رده : معين أى يعينون على العدو .
 (٥) النفء : الغنيمة في الحرب ، والخراج .
 (٦) حواشي الأموال في البادية : صفار الإبل والغنم .
 (٧) أهل الذمة : أهل الكتاب في البلاد المفتوحة .
 (٨) الثغور : جمع ثغر وهو هنا الخلة والحاجة .

والوصية طويلة ، وهى أشبه بدستور قديم ، يضمه عمر مواد الحكم كما فى شريعة الله وسنة رسوله ، وهى تجرى - شأنها شأن خطبه - فى هذا الأسلوب الناصع البرىء من الفضول ومن التكلف ، والذى يملأ السمع بجزائله ورسائنه وقوته ، وكان خطيباً لا يبارى فى مخارج كلامه ، حتى قالوا إنه كان يستطيع أن يخرج الضاد من أى شِدْقِه شاء^(١) . ولم يكن عثمان يبلغ من الفصاحة والبيان مبلغ صاحبيه ، ويروى أنه صعد المنبر ذات يوم ، فأرتجّ عليه ، فقال : « إن أبا بكر وعمر كان يُعدان لهذا المقام مقالا ، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب »^(٢) .

أما على بن أبى طالب فإنه لم يكن يقل عن أبى بكر وعمر شأواً فى خطابته ، وقد أثرت عنه خطب كثيرة ، ولا نقصد الخطب التى يحتوئها بين دفتيه كتاب « نهج البلاغة » فأكثره مصنوع ومحمول عليه . وقد أشار إلى ذلك كثير من العلماء ، واختلفوا هل هو من عمل الشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦ للهجرة أو هو من عمل أخيه الشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ للهجرة ، يقول ابن خلكان فى ترجمة أولهما بكتابه وفيات الأعيان : « قد اختلفت الناس فى كتاب نهج البلاغة المجموع من كلام الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، هل هو جمعه أم جمع أخيه الرضى ، وقد قيل إنه ليس من كلام على ، وإنما الذى جمعه ونسبه إليه هو الذى وضعه » . ويردد هذا الكلام اليافعى فى مرآة الجنان^(٣) وابن العماد فى شذرات الذهب^(٤) ، ويؤكد الذهبى فى ميزان الاعتدال أن الشريف المرتضى هو الذى وضعه^(٥) ، ويذهب مذهبه ابن حجر العسقلانى فى لسان الميزان ، يقول : « من طالع نهج البلاغة جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين على رضى الله عنه ، ففيه السبُّ الصراح والخطأ على السيدين :

-
- (١) البيان والتبيين ١/٦٢ .
 (٢) نفس المصدر ١/٣٤٥ وانظر عيون الأخبار ٢/٢٣٥ والعقد الفريد ٤/٦٦ وزهر الآداب ١/٣٦ .
 (٣) مرآة الجنان (طبعة حيدرآباد) ٣/٥٥
 (٤) شذرات الذهب (طبعة القاهرة)
 (٥) ميزان الاعتدال (طبعة لكهنو)

أبي بكر وعمر رضى الله عنهما ، وفيه من التناقض والأشياء الركيكة والعبارات التي مَنْ له معرفة بنفس القرشيين الصحابة وبنفس غيرهم ممن بعدهم من المتأخرين جزم بأن الكتاب أكثره باطل»^(١) . ويذهب النجاشي المتوفى سنة ٤٥٠ للهجرة في كتابه «الرجال» إلى أن مؤلف الكتاب هو الشريف الرضى^(٢) ، وهذا هو الصحيح بشهادة الرضى نفسه وشهادة شراح كتابه ، فقد ذكر في الجزء الخامس المطبوع من تفسيره أنه هو الذى ألفه ووسمه باسمه نهج البلاغة^(٣) كما ذكر ذلك في كتابه «مجازات الآثار النبوية»^(٤) ونجد ابن أبي الحديد المتوفى سنة ٦٥٥ في شرحه للكتاب يعترف بأن خطبته من عمل الشريف الرضى ، ويذهب ابن ميثم البحراني في شرحه عليه إلى أنه من تأليف الشريف .

وإذن فالكتاب من عمل الشريف الرضى وصنعه ، ويظهر أنه لم يؤلفه جميعاً ، فقد أضاف قبله كثير من أرباب الهوى وفصحاء الشيعة خطباً وأقوالاً إلى علي بن أبي طالب ، يدل على ذلك ما جاء في مروج الذهب للمسعودي إذ يقول : «الذى حفظ الناسُ عن علي من خطبه في سائر مقاماته أربعمائة خطبة ونيف وثمانون خطبة يوردها على البديهة ، تداول الناس ذلك عنه قولاً وعملاً»^(٥) . وكان الشريف الرضى وجد مادة صاغ منها كتابه ، وهى مادة بُنيت على السجع ، وفي ذلك نفسه ما يدل على كذب نسبتها إلى علي ، إذ ليس من الطبيعي أن يسجع على في خطابته ، بينما ينهى الرسول الكريم عن السجع ، ويتحاماها أبو بكر وعمر وعثمان في خطاباتهم .

ومعنى هذا كله أنه لا يصح الاعتماد على هذا الكتاب في تصور خطابة علي وأنه ينبغي الرجوع إلى المصادر الأولى ، مثل البيان والتبيين للعاجظ ، وقد روى

(١) لسان الميزان (طبعة حيدر آباد) الرضى (طبعة النجف) ص ١٦٧ .
 (٢) ٢٢٣/٤ .
 (٣) كتاب الرجال (طبعة بومباي) ص ٢٢ ، ٤١ .
 (٤) مروج الذهب (طبعة باريس) ٤٤١/٤ .
 (٥) الجزء الخامس من حقائق التنزيل للشريف

طرفاً من خطبه وكلامه ومواعظه ، وقد دفعته حروبه مع طلحة والزبير وعائشة ثم مع معاوية إلى أن يكثر من دعوة جنوده إلى جهاد أعدائه وتحسيسهم للكفاح والنضال في سبيل مبدئهم وفكرتهم^(١) .

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل على نهضة الخطابة في هذا العصر الأول من عصور الإسلام ، إذ أتبع لها من نبوة الرسول ورسالته وبيانه وبلاغته ما اتخذته خلفاؤه الراشدون لهم إماماً . وفرق بعيد بين خطب هذا العصر وخطب الجاهلية ، فالأخيرة جمل وصيغ لا رابط بينها تأخذ في الأكثر شكل حكم متناثرة ، يسردها الخطيب سرداً ، أما في هذا العصر فقد أصبح للخطبة غاية دينية واضحة تسمو بالعربي في مراقي الفلاح الروحي ، وقد تخوض في تنظيمات حربية أو اجتماعية . وكل ذلك معناه أنها أصبحت ذات موضوع تدور عليه وأنها رقيت رقياً بعيداً .

٣

الخطابة في العصر الأموي

ازدهرت الخطابة في هذا العصر ، وقد عملت في هذا الازدهار وهيات له أسباب مختلفة ، منها السياسي ، ومنها الديني ، ومنها العقلي ، أما من حيث السياسة فقد كثرت الأحزاب السياسية المعارضة لبني أمية وكثر مشعلو الفتن والحروب الداخلية . ومعروف أن الدولة الأموية قامت على أنقاض فتنة عثمان وما انتهت إليه من حروب صفيين بين علي ومعاوية . وبمجرد أن قبل على^٢ التحكيم خرج عليه فريق من جيشه سُمِّي الخوارج ، وشهروا سيوفهم في وجهه ، وعبثاً حاول العودة بهم إلى صفوفه ، فحاربهم وتصدى له أحدهم فقتله . وخلص

(١) انظر البيان والتبيين ٥٣/٢ وما بعدها للمبرد وعيون الأخبار والطبري في مواضع متفرقة .
وراجع العقد الفريد ٦٦/٤ وما بعدها والكامل

الأمر لمعاوية وخلفائه من بنى أمية فظل هؤلاء الخوارج ينازلونهم ، ويعدون دار المسلمين دار حرب ، فيجب أن يجاهدوهم ، إذ جعلوا الخلافة في قریش وهى ليست حقاً من حقوقها وإنما هى حق لله ، وينبغى أن يليها من يستحقها بمشورة المسلمين ، وأن يكون خيرهم تقوى وزهداً وورعاً ، ولولم يكن قرشياً ، بل لو كان عبداً حبشياً . وقد تعددت فرقهم ، وأهمها الأزارقة في فارس ، والنجدات في اليمامة وحضرموت والبحرين ، والصفارية في الموصل وشمالي العراق ، والإباضية في اليمن وحضرموت .

ولا نتقدم إلى عصر يزيد بن معاوية حتى يرسل شيعة على ابنه الحسين أن يفد عليهم في الكوفة لمبايعته وإعلان الثورة على بنى أمية وصاحبهم يزيد ، وما يكاد يلم بالعراق حتى يقعدوا عن نصرته ، فيُسْفَكُ دمه . ويندمون على ما كان من تضييعه ، ويتجهون إلى الدعوة السرية لأبناء على ، ومن حين إلى حين تنشب ثوراتهم ، ولعل أهمها ثورة المختار الثقفي لعهد مصعب بن الزبير ، ثم ثورة زيد بن على بن الحسين لعهد هشام بن عبد الملك ، وقضى الأمويون على الثورة الأخيرة بينما قضى مصعب على ثورة المختار . وكان هذا الحزب الشيعي يؤمن بأن الخلافة من حق أبناء على فهم ورثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم لذلك ورثتها الشرعيون . وقد ذهبوا إلى أن إمامة على نص عليها الرسول ، ومن هنا تأتى عقيدة الوصية التي يدين بها الشيعة جميعاً ، كما يدينون بعقيدة المهدي ، وهو الإمام المنتظر الذي يخلص العالم مما فيه من شرور . وأسباب مختلفة جعلت الفرس يدخلون في هذه العقيدة ، إذ كانوا قبل الإسلام يؤمنون بتوارث الملك في أسرة بعينها ، على هذا القياس يصبح أحق الأسر القرشية بالملك العربي بنى هاشم وأبناء على خاصة ، فهم أقرب الناس إلى الرسول ، وأيضاً فإن علياً كان يسوى بينهم وبين العرب في الحقوق بينما كان يضطهدهم الأمويون وولاتهم ، ولعل شيئاً من تشيعهم يرجع إلى كرههم لمن غلبهم على بلادهم ، وكأنما رأوا فيه ضرباً من المقاومة لهؤلاء الغالبين .

وبجانب الحزبين السابقين ، حزبي الشيعة والخوارج ، توالى الثورات على

بنى أمية ، فثار عبد الله بن الزبير في الحجاز أثناء خلافة يزيد ، واستقل بها نحو عشر سنوات ، وتبعته العراق ومصر ، إلا أن عبد الملك بن مروان استطاع القضاء عليه . وثار في العراق وإيران عبد الرحمن بن الأشعث ، ودوخ الحجاج طويلا قبل أن يقضى على ثورته . وفي أوائل القرن الثاني للهجرة ثار بالعراق أيضاً يزيد بن المهلب ، وكان مصيره مصير ابن الأشعث . ولا نصل إلى أواخر هذا العصر حتى يُجمع الشيعة أمرهم في خراسان ويؤلفوا جيشاً يقضون به على الدولة الأموية قضاء مبرماً .

وهذه الأحزاب والثورات لم تكن تستعين في انتفاضها على الأمويين بالسيوف فحسب ، بل كانت تستعين بالخطب والخطباء يدعون لها ويحسمون الناس على الانفضاض عن بني أمية . ومن المهم أن نعرف أن السياسة على ألسنة هؤلاء الخطباء كانت تقترن بالدين لسبب بسيط ، وهو أن الخليفة عند المسلمين يعد إمامهم الذي تنتظم به مصالحهم وقواعد ملتهم على مقتضى الشريعة الإسلامية .

وبجانب هذا السبب السياسي الذي دلح الخطابة وسعّر بها الفتن والثورات على الأمويين سبب ديني خالص ، إذ أسست في كل بلد إسلامي مدرسة دينية تعلم الناس أصول دينهم وفروعه ، وكان العلماء القائمون عليها كثيراً ما يختلفون فيتحاورون في وجهات نظرهم^(١) . ولم تلبث أن انبثقت أبحاث كثيرة ومناقشات طويلة في القدر وإرادة الإنسان ومدى حريته وفي الإيمان وهل من الضروري له أن يرافقه العمل ، وفي صفات الله وهل هي عين الذات الإلهية ، وسرعان ما ظهرت فرق الجبرية والقدرية والمرجئة . فكان ذلك باعثاً على ظهور المناظرات ، وهي فرع مهم من فروع الخطابة .

وليس هذا فحسب ما أنتجه الدين في خطابة القوم ، فقد بقي ركنان مهمان هما القصص والوعظ ، إذ كانت هناك طائفة تُعرف بالقُصّاص ، تفسر

(١) ابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ٥ والبيان والتبيين ٢٤٣/١ .

القرآن الكريم ، وتمزج تفسيرها بقصص كثيرة تستمدّها من موروثات أهل الكتب السماوية ، وكانوا يستغلون ميل الناس إلى الأخبار العجيبة فيتزبدون في قصصهم ، وكانت الأحزاب السياسية تتخذ نفراً منهم وسيلة للدعوة لها ولتحميس جنودها حين تثور بالدولة ^(١) ، وكان للأمويين في كل بلد قاصّ يقص على الناس في المسجد الجامع ويدعو إلى طاعتهم ^(٢) . واتسعت بجانب ذلك موجة الزهد والعبادة والنسك ، وتبعها ظهور وعاظ كثيرين ، تموج كتب الأدب بمواعظهم وما كانوا يدعون إليه من الزهد في حطام الدنيا ، ومجاهدة النفس حتى ترفض عرض الحياة وتمتعها الزائلة وتطلب ما عند الله من ثواب الآخرة .

ورافق هذا السبب الديني في ازدهار الخطابة سببٌ عقلي مرده إلى عناصر الثقافات الأجنبية التي أخذ يُدْعَمُ بها العقل العربي منذ هذا العصر الأموي ، مما فتق فيه قوة الجدل والحجاج . ومعروف أن الثقافة لهذا العصر لم يكن يضطلع بها العرب وحدهم ، بل كان يشركهم فيها الموالى الذين اتخذوا العربية لسانهم وقد أخذوا يزودونها بمعارفهم وثقافتهم القديمة . وقد تعود مؤرخو الأدب العربي أن يقفوا في هذا الجانب من التزاوج بين العرب والموالى في الفكر والثقافة عند العصر العباسي ، عصر الترجمة المنظمة لما كان عند اليونان والفرس والهند . وينبغي أن نلاحظ أن هذا العصر الذي نُظِّمَتْ فيه الترجمة سبقه عصر ، هو العصر الأموي ، لم تكن تعرب فيه الكتب إلا نادراً ، كما هو معروف عن خالد بن يزيد بن معاوية وطلبه لما عند الأجانب من معارف ، ولكن كان يعرّب فيه لسان حملة هذه الكتب ، وكانوا سيولاً من شعوب الشرق الأوسط وأمه ، دخلوا في الإسلام ، ودخلت معهم ثقافتهم . وقد أقبلوا على الدراسات الدينية والعقلية يسهمون فيها بالحظ الأوفر ، فإذا قلنا إنهم ارتقوا بالعقل العربي

(١) الطبري ، القسم الثاني ص ٩٥٠ وابن الأثير (طبعة ليدن) ٣٤١/٤ .
الكندى (طبعة جيست) ص ٣١٤ ، وقارن بالهامش في ص ٣٠٤ .

(٢) خطط المقرئ ٢٠٣/٢ والولاء والقضاة

وكل ما أنتجه في ذلك العصر من خطابة وغير خطابة لم تكن مبالغين ،
فقد كثرت المعرفة وتشعبت المعاني ودقَّت الفطن ، ولم يعد لها حدٌّ تنتهى إليه ،
وانسابت من ذلك أسراب كثيرة في خطابتهم ، فصاروا أقدر على البيان والتصرف
في الألفاظ .

وينحىل إلى من يقرأ في أخبار القوم أنهم أصبحوا جميعاً خطباء ، فهم
يخطبون في نظرياتهم السياسية وفي معتقداتهم الدينية ويتناقشون فيها بكل مكان ،
في المسجد الجامع وفي الطرقات والأسواق ، وفي السلم وحين يتحاربون ، ومن
ورائهم القصاص والوعاظ ، وقد جعل ذلك الجاحظ ينهر انبهاراً شديداً ،
فيخص العرب بالخطابة ويرفعهم درجات فوق الفرس واليونان^(١) ، وقد يكون
مصيباً فيما يختص بالفرس ، أما اليونان فأكبر الظن أنه لم يقرأ شيئاً واضحاً عن
خطابتهم ، وإلا ما بالغ في رأيه وذهب هذا المذهب ، فإن من المعروف أن
الخطابة نهضت عند اليونان نهضة واسعة ، إذ كانت لديهم مجالس شورية
وقضائية أعدت لازدهار الخطابة عندهم ازدهاراً أتاح لأرسططاليس أن يكتب
فيها وفي أنواعها وأغراضها وأساليبها كتاباً كبيراً ، وأكبر الظن أن الجاحظ لم
يعرف شيئاً من ذلك كله ، وهو كذلك لم يعرف شيئاً عن خطباء اليونان
المشهورين أمثال ديموستين وبركليس .

ومهما يكن فقد ارتقت الخطابة رقيّاً بعيداً في العصر الأموي ، ونشطت
نشاطاً لعل العرب لم يعرفوه في عصر من عصورهم الوسيطة ، إذ اتخذوها أداتهم
للفخر في آرائهم السياسية والانتصار في مجادلاتهم المذهبية ، وعولوا عليها في
قصصهم ومواعظهم ، وفي وفادتهم على الخلفاء والولاة ، ومن ثم أينعت فيها
فروع ثلاثة ، هي الخطابة السياسية وخطابة المحافل والخطابة الدينية ، ونلم
بكل فرع من هذه الفروع إلمامة قصيرة .

(١) البيان والتبيين ٣/٢٧ وما بعدها .

الخطابة السياسية

كان كل حزب من الأحزاب السياسية يتخذ الخطابة وسيلة إلى نقد خصومه وبيان نظريته السياسية واستمالة الناس إليها وكذلك كان يصنع الثائرون على بني أمية من أمثال يزيد بن المهلب في تحريك الناس إلى الثورة عليهم وكأنما قامت عندهم جميعاً بما تقوم به الصحافة في عصرنا من الدعاية للآراء السياسية ، فانبرى خطباء كل حزب يدعون إلى نظرية حزبهم وبيان أنهم على الحق وخصومهم على الباطل ، فهم الجديرون بأن يعتنق الناس مبادئهم ويدودوا عنها زياداً .

وكان الخوارج يصفون بني أمية بجورهم في الأحكام وتعطيلهم حدود الله ، ويتناولونهم باللسنة حداد وقد يضيفون إلى ذلك مواعظ تصور عمق تدينهم وتمسكهم بالعروة الوثقى ، ومن أشهر خطبائهم قطري بن الفجاءة وتحفظ كتب الأدب له بموعظة رائعة^(١) ، ومن خطبائهم أبو حمزة الخارجي ، وقد روى الجاحظ خطبة طويلة ألقاها في أهل مكة^(٢) ، وهو يفتتحها بالحديث عن رسول الله وهدّيه واقتداء أبي بكر وعمر به ، أما عثمان فعنده أنه أتى بما أحبط به الأوائل ، وأما على فلم يبلغ - في رأيه - من الحق قصداً . ثم اقتصر خلفاء بني أمية خليفة خليفة يثلبه ، إلا عمر بن عبد العزيز فإنه أعرض عنه . وزراه ينحى باللائمة على من يتشيعون لآل البيت ، ثم يصف أصحابه ونضالهم دون عقيدتهم وصفاً رائعاً . ومن خطباء الخوارج المشهورين زيد بن جندب خطيب الأزارقة^(٣) وابن صديقة وكان صُفرياً ناسكاً وشُبَّيْل بن عَزْرَةَ الضُّبَعِي وعمران ابن حطان وحبيب بن حُدْرَةَ الهَلَالِي والمُنْقَعَطِل وعبيدة بن هلال اليشكري^(٤) ومنهم الضحّاك بن قيس ونصر بن مِلْحَانَ^(٥) وعبد الله بن يحيى طالب

(١) البيان والتبيين ١٢٦/٢ والعقد الفريد (٣) البيان والتبيين ٤٢/١ .

١٤١/٤ وعيون الأخبار ٢٥٠/٢ . (٤) نفس المصدر ٣٤٣/١ - ٣٤٧ .

(٢) البيان والتبيين ١٢٢/٢ وانظر العقد (٥) انظر في هؤلاء الخطباء نفس المصدر

الفريد ١٤٤/٤ والأغانى ١٠٤/٢٠ ٣٦٤/٢ وما بعدها .

الحق^(١) والطَّرْمَاح^(٢) وغيرهم كثير .

ولا يقل خطباء الشيعة كثرة عن خطباء الخوارج ، ومن أشهرهم الحسين ابن علي بن أبي طالب وعلي بن الحسين وزيد بن علي والمختار الثقفي وسليمان بن صُرَد وعبدالله بن مطيع وعبيد الله المرِّي ، ومنهم بنو صُوحان : صعصعة وزيد وسَيِّحان . وكانوا يكثر من القدح في بني أمية وأنهم اغتصبوا الخلافة من أصحابها الشرعيين ورثة النبوة وحملة الرسالة القدسية الهادين المهديين والأئمة المنتظرين^(٣) .

ولم تطل مدة عبد الله بن الزبير ومع ذلك فقد ملأ دفاتر العلماء كلاماً^(٤) ، وكان أخوه مصعب واليه على العراق خطيباً مفوهاً وله خطبة جعلها كلها آيات قرآنية^(٥) . وكان حول ابن الأشعث كثير من الخطباء^(٦) ، وكان يزيد بن المهلب خطيباً مفوهاً ، وقد روى الجاحظ بعض خطبه^(٧)

وكان يقف في الصف المقابل من خطباء الأحزاب والثورات خطباء بني أمية يدعون الناس إلى التمسك بجبل الجماعة وتأييد الأمويين في حقوقهم التي اكتسبوها عن آبائهم ، وتقديمهم لهم فروض الطاعة والولاء ، وكثيراً ما يخلطون ذلك بالترهيب والترغيب ، وقد يشيرون إلى مقتل عثمان وأن الأمويين أولياء دمه وورثة خلافته . ولهم مواعظ لا نشك في أنهم قالوها في صلاة الجمعة والعيدين ككثير مما روى عن زياد والحجاج ، وعن بعض خلفائهم وخاصة عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد المشهور . وأكثر خلفائهم كان خطيباً ، ولهم خطب تدور في كتب الأدب والتاريخ . ومن خطبائهم بجانب من قدمنا عتبة بن أبي سفيان وإلى معاوية على مصر وعبيد الله بن زياد وخالد بن عبد الله القسري ويوسف

(٥) البيان والتبيين ٢/٢٩٩ والمقد الفريد

١٣٥/٤ .

(٦) البيان والتبيين ١/٤٨ وانظر ٢/١٥٥ .

(٧) البيان والتبيين ١/٢٩٢ وانظر العقد

الفريد ١٢٧/٤ .

(١) الأغاني ٢٠/٩٨ .

(٢) البيان والتبيين ١/٤٦ .

(٣) الطبري ، القسم الثاني ص ١٩٦١ .

(٤) البيان والتبيين ١/٣١٤ وانظر خطبه في

المقد الفريد ١٠٧/٤ .

ابن عمر الثقفي وسعيد بن العاص وابنه عمرو الأشدق، ومن قوادهم الخطباء موسى ابن نصير وطارق بن زياد اللذان فتحا الأندلس وقتيبة بن مسلم ونصر بن سيار فاتح التركستان .

وعلى هذا النحو كان لكل حزب خطباؤه الذين يذودون عنه وينافحون عن مبادئه ، ولم يكن هناك داع لفكرة أو لنضال في حرب لا يقف في الناس خطيباً ، وقد بعث ذلك على نهضة الخطابة السياسية في هذا العصر نهضة واسعة . ولعل هذه النهضة هي التي جعلت المؤرخين حين يعرضون علينا الآراء السياسية أو المذهبية لزعماء هذا العصر يعرضونها علينا في شكل خطب ، على نحو ما نجد في الطبري وابن الأثير ، فهم إذا أرادوا أن يعرضوا علينا رأياً للحسين ابن علي أو لحفيده زيد أو لأي داع شيعي أو خارجي أو أي ثائر زبيرى وغير زبيرى أو لأي وال أموى أو قائد يقود الجيوش عرضوه في صورة خطبة ، فهم لا يقولون إن فلاناً كان يرى كذا أو كذا ، وإنما يقولون خطب فلان فقال كذا وكذا . فهم لا يتصورون صاحب نحلة سياسية يعرض رأيه في شكل حديث بل لابد أن يعرضه في شكل خطبة يقرع بها الأسماع ويجذب القلوب .

خطابة المخافل

نمت الخطابة الحفلية في هذا العصر بحكم نمو السلطان العربى ، فكانت الرجال والوفود تتقدم على الخلفاء والولاة لأغراض مختلفة : للشكوى أو للاستمناع أو للتهنئة أو للتعزية أو للموعظة أو لغير ذلك من الأغراض . وقد روى في كتب الأدب كثير من أخبار هذه الوفادات . ومن وفد على معاوية النخار ابن أوس العدري^(١) وعمرو بن سعيد الأشدق^(٢) وزرعة بن ضمرة ، وهو الذى كان يقال فيه « لولا غلو فيه ما كان كلامه إلا الذهب » وكان ابنه النعمان من أخطب الناس وقد وقع في يد الحجاج بعد قضائه على ثورة ابن الأشعث

(١) البيان والتبيين ١/٢٣٧ ، ١/٣٣٣ . (٢) نفس المصدر ١/٣١٥ - ٣١٦ .

فتخلص منه بكلام لطيف^(١). ومن وفد على معاوية رَوْح^(٢) بن زنباع وصحار العبدى ، ويروى أن معاوية قال له : ما هذا الكلام الذى يظهر منك ؟ قال : شىء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا^(٣) ومن الوافدين عليه سحبان وائل ، وقد اشتهرت له خطبة خطب بها بين يديه ، وكانت العرب تسميها الشوها من حسنها^(٤) ، ومنهم الأحنف بن قيس سيد تميم ، ومما نطق به فى حضرته ، معبراً عن شكاة لقومه^(٥) :

« إن دافّة دفّت^(٦) ، ونازلة نزلت ، ونائبة نابت ، ونابئة نبئت^(٧) ، كلهم به حاجة إلى معروف أمير المؤمنين وبرّه ، فقال معاوية : حسبك يا أبا بحر ، قد كفيت الشاهد والغائب » .

ولما فكر معاوية فى جعل ابنه يزيد وليّاً لعهد استقدم وفود العرب من الأمصار والبادية ، فكانوا يخطبون بين يديه منوهين بيزيد ، ومبايعين له ، سياسة حكيمة منه ، حتى يبرم الأمر من بعده لابنه^(٨) . ولما توفى وجلس ابنه يزيد مكانه دخل عليه عطاء بن أبى صيفى الثقفى ، فخطب بين يديه بقوله^(٩) :

« يا أمير المؤمنين أصبحت قد رُزئت خليفة الله ، وأعطيت خلافة الله ، وقد قضى معاوية نَحْبَه ، فغفر الله ذنبه ، وقد أعطيت بعده الرياسة ، ووليت السياسة ، فاحتسب عند الله أعظم الرزية ، واشكره على أفضل العطية » .

وكان عبد الملك يجلس للوفود وخطبائها ، ومن وفد عليه سعيد بن عمرو بن

-
- (١) البيان والتبيين ١/٣٥٤ - ٣٥٥ .
 (٢) نفس المصدر ١/٣٥٨ .
 (٣) البيان والتبيين ١/٩٦ وقارن ٤/٤٦ والعقد الفريد ٤/٣١ .
 (٤) نفس المصدر ١/٣٤٨ وانظر زهر الآداب ٤/٣٣ .
 (٥) البيان والتبيين ٢/٨٨ .
 (٦) دافّة دفّت : نازلة شديدة نزلت فاستأصلت ما بأيديهم ، ويمكن أن يكون ذلك استعارة لفقراء البادية الذين أجذبوا ونزلوا بهم .
 (٧) النائبة هنا : الصغار الناشئون ، أما النائبة فيمكن أن يراد بهم الأضياف يتوبون القوم وينزلون بهم .
 (٨) البيان والتبيين ١/٣٠٠ وانظر العقد الفريد ٤/٣٦٩ حيث روى طرقاتاً من تلك الخطب .
 (٩) البيان والتبيين ٢/١٩١ وقارن بزهر الآداب ١/٤٩ .

سعيد ^(١) والهيثم بن الأسود بن العريان ، وقد سأله عبد الملك كيف تجددك ؟ قال : « أجدني قد ابيضّ مني ما كنت أحب أن يسودّ ، واسودّ مني ما كنت أحب أن يبيضّ » ، واشتد مني ما كنت أحب أن يلين ، ولان مني ما كنت أحب أن يشتد ^(٢) . ولما توفي عبد الملك وجلس ابنه الوليد دخل عليه الناس وهم لا يدرون أيهنثونه أم يعزّونه ، فأقبل غيّلان بن سلمة الثقفى فسلم عليه ، ثم قال ^(٣) :

« يا أمير المؤمنين ! أصبحت قد رُزئت خير الآباء ، وُسِّيت خير الأسماء ، وأعطيت أفضل الأشياء ، فعظّم الله لك على الرزية الصبر ، وأعطاك في ذلك نوافل الأجر ، وأعانك على حسن الولاية والشكر ، ثم قضى لعبد الملك بخير القضية ، وأنزله بأفضل المنازل المرضية ، وأعانك من بعده على الرعية » .

ولم يكن يتولى الخلافة أموى إلا وتقدم الوفود عليه من الأمصار ، ويقوم خطباؤها بين يديه مهنتين مبايعين ذاهبين في خطبهم كل مذهب . ومن حين إلى حين كانت تقدم هذه الوفود على الخليفة لترفع مظلمة لها ، أو لتنال بعض الرّفد والعطاء ونجد الوعاظ كثيراً ما يلّمون بمجالس الخلفاء ويعظونهم ، على نحو ما كان يعظ أبو حازم الأعرج سليمان بن عبد الملك ^(٤) ، ولما تولى عمر بن عبد العزيز كان يقدم عليه النساك والزهاد لوعظه ، لما اشتهر عنه من نسكه وعبادته ، من مثل زياد بن أبي زياد ، وكان يلزمه محمد بن كعب القرظي ، وله أخبار معه ومواعظ ^(٥) ، وكان خالد بن صفوان يلزم هشام بن عبد الملك ويعظه ^(٦) .

وعلى نحو ما كانت تقدم الوفود والوعاظ على الخلفاء كانت تفد على الولاة ، ومن وفد على زياد وخطب بين يديه في وفد من قومه عمران بن حطّان ^(٧) ،

-
- (١) البيان والتبيين ١/٣١٦ .
 (٢) نفس المصدر ١/٣٩٩ ، ٢/٦٩ .
 (٣) البيان والتبيين ٢/١٩١ - ١٩٢ .
 (٤) عيون الأخبار ١/٣٤١ .
 (٥) نفس المصدر ٢/٣٤ ، ٣/١٤٣ ،
 (٦) عيون الأخبار ١/٣٤٣ ، ٢/٣٧٠ .
 (٧) البيان والتبيين ١/١١٨ .

وكان الأحنف يفد على ابن الزبير كما كان يفد على معاوية ، ويفد معه خطباء من قومه ^(١) ، وكم من خطيب تخلص من عقاب الحجاج بحسن منطقته ^(٢) ، ولما دخل أيوب بن القيرية عليه قال له : « ما أعددت لهذا الموقف ؟ قال : ثلاثة حروف ، كأنهن ركبٌ وقوف : دنيا وآخرة ومعروف » وقال له . في بعض القول : « أقِلْنِي عَتْرَقِي وَأَسْغِنِي رَيْقِي ، فإنه لا بد للجواد من كَبْشَةٍ ، ولل سيف من نَبْشَةٍ ، وللحليم من هَفْوَةٍ » ^(٣) . وكان كثيراً ما يستنطق الوافدين عليه ^(٤) . ولما ولي عبد الله بن عمر بن عبد العزيز على العراق كان يحضر مجلسه الوعاظ ، ويعظونه ^(٥) كما كانوا يعظون أباه .

ومما يدخل في هذا الضرب من خطابة المحافل خطابة الإملاك والترويج ^(٦) وخطابة الصلح بين العشائر ^(٧) ، وما كان من منازعات ومفاخرات في مجالس الخلفاء ^(٨) ، ويسوق الجاحظ في بيانه أخباراً كثيرة عن هذه الصور من الخطابة وما كان يفترق به بعضها عن بعض ^(٩) .

الخطابة الدينية والوعظ والمناظرات

نمت هذه الخطابة في عصر بني أمية نمواً واسعاً ، فقد كانت فريضة مكتوبة على المسلمين في صلاة الجماعة والعديد من وكان الخلفاء والولاة يؤمّون الناس في تلك الصلاة ، ولذلك نقرأ لكثير منهم خطابات زاهدة ، يحضّون الناس فيها على الانصراف عن الدنيا والتعلق بالآخرة ويحثّونهم على الخير والفضيلة

٧٣/٤ المقد الفريد ١٤٩/٤ وعيون الأخبار

(١) البيان والتبيين ١/٣٠٠ .

٧٢/٤ .

(٢) نفس المصدر ١/٢٥٩ - ٢٦٠ والمقد

(٧) البيان والتبيين ٢/١٣٥ وانظر

الفريد ٢/٤٦٤ .

١٠٥/١ ، ١٧٣/١ .

(٣) البيان والتبيين ١/٣٥٠ وزهر الآداب

(٨) انظر البيان والتبيين ٢/٩٠-٩٢ وانظر

٤٩/٤ وعيون الأخبار ١/١٠٢ .

المقد الفريد ٤/٤ وما بعدها والنزاع والتخاصم

(٤) البيان والتبيين ٢/١٦٤ .

بين بني أمية وبني هاشم للمقريزي .

(٥) البيان والتبيين ١/٢٤ .

(٩) البيان والتبيين ١/١١٦ ، ٦/٣ .

(٦) انظر البيان والتبيين ١/٤٠٤ ،

والأعمال الصالحة . وأخطبُ الخلفاء في هذا الباب عمر بن عبد العزيز ، وله خطب كثيرة ، يدعو فيها الناس إلى طاعة الله والنفور من معصيته وأن يفكروا في الموت وما بعده من البعث والحساب والجنة والنار ، ولعل والياً لم يؤثر عنه من الخطب الدينية ما أثر عن الحجاج ، وكان دائماً يقول : « أيها الناس إن الكفَّ عن محارم الله أيسرُ من الصبر على عذاب الله »^(١) وللولاة من قبله وبعده مواظب ترويه كتب الأدب والتاريخ^(٢) .

وإذا كان هذا اللون من الخطابة قد شاع على ألسنة الخلفاء الأمويين وولاتهم فإن خصوصهم من الخوارج والشيعة كانوا لا يقلون عنهم دعوة إلى التقوى والورع ، بل لعلهم كانوا يتقدمونهم ، إذ لم يكن بأيديهم شيء من الدنيا ، وكانوا يمزجون خطابهم السياسية بالدين ، وقد يجعلونها دينية خالصة ، على نحو ما صنع قطريّ بن الفجاءة في موعظته المشهورة^(٣) ، ، وشداد بن أوس أحد شيعة عليّ في موعظته بين يدي معاوية ، وقد طلب إليه أن يتنقّص عليّاً^(٤) ، وتدور في كتب الأدب كلمات كثيرة لزيد بن علي بن الحسين ، هي من بقايا خطبه^(٥) ، وكان ينازعه جعفر بن حسن بن الحسن بن علي في الإمامة ، فكان الناس يجتمعون ليسمعوا مجاوباتهما ومجادلاتهما في أيهما الأحق بها^(٦) .

غير أن هؤلاء جميعاً لم يتخصصوا بالخطابة الدينية ، ولم يعيشوا لها ، وإنما الذي عاش لها هم القصّاص والوعاظ ، وقد نشأ القصص منذ عصر عمر ابن الخطاب ، فكان هناك قصّاص يقصون في المساجد^(٧) وآخرون يقصون في

(١) البيان والتبيين ١/٣٨٧ .

١/٥٥ .

(٢) نفس المصدر ١/٣٨٧ و ٢/١٤٣ (٥) البيان والتبيين ١/٣٥٣ وزهر الآداب

١/٧٢ .

(٦) البيان والتبيين ١/٣٣٤ وانظر زهر ٢/٢٤٦ ، ١/٢٥١ .

(٣) البيان والتبيين ٢/١٢٦ و عيون الأخبار ١/٧٣ .

٢/٢٥٠ . (٧) طبقات ابن سعد ٥/٣٤١ .

(٤) البيان والتبيين ٤/٦٩ و عيون الأخبار

مقدمة الجيوش الفاتحة ^(١) . واتسعت هذه الموجة اتساعاً شديداً في عصر بنى أمية ، إذ استخدمتها الدولة كما استخدمها خصومها في الدعوة السياسية ، وقد أمر معاوية أن يكون ذلك مرتين في اليوم ، مرة بعد صلاة الصبح ومرة بعد صلاة المغرب ^(٢) ، وعُيِّنَ للقصاص مرتبات خاصة ^(٣) . وكان للخوارج قصاص كثيرون ، أشهرهم صالح بن مسرّح ، وكان يخلط مواعظه وقصصه بالدعوة إلى الجهاد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وما يزال يذم الدنيا والتعلق بها .

وهؤلاء القصاص الرسميون كان يقابلهم قصاص من الناسكين العابدين من مثل الأسود بن سريع ، وهو أول من قَصَّ بالبصرة ^(٤) ومثل زيد بن صوحان في الكوفة ^(٥) وعبيد بن عمير في المدينة ^(٦) ، وكان عبد الله بن عمر يحضر قصصه ووعظه ، ومنهم إبراهيم التيمي وكان الناس ينتفضون أمامه انتفاض الطير ^(٧) ، وسعيد بن جبير ، وكان يقص كل يوم مرتين بعد الفجر وبعد العصر ^(٨) ، وذَرَّ بن عبد الله وكان من أبلغ الناس في القصص ^(٩) ، ومسلم ابن جندب قاص مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ^(١٠) ، ومطرف بن عبد الله الشَّخِير ^(١١) ، ويزيد بن أبان الرقاشي ، وكان قاصاً مجيداً ، ومن قوله ^(١٢) :

« ليتنا لم نُخْلَق ، وليتنا إذ خُلِقنا لم نَعْص ، وليتنا إذ عَصِينا لم نَمُت ، وليتنا إذ مِتنا لم نُبْعَث ، وليتنا إذ بُعِثنا لم نحاسِب ، وليتنا إذ حُوسِبنا لم نَعْدَب ، وليتنا إذ عُدُّبنا لم نخلَّد » .

-
- | | |
|---------------------------------------|-----------------------------------|
| (١) أسد الغابة ٢١٦/٥ . | (٧) طبقات ابن سعد ١٩٩/٦ . |
| (٢) الولاة والقضاة للكندي ص ٣٠٤ في | (٨) ابن سعد ١٨٠/٦ . |
| الهامش وخطط المقرئ (طبعة بولاق) ٢٥٣/٢ | (٩) انظر العقد الفريد ١٩٨/٣ وعيون |
| (٣) الولاة والقضاة ص ٣١٧ . | الأخبار ٢٩٨/٢ . |
| (٤) ابن سعد ج ٧ ص ٢٨ . | (١٠) البيان والتبيين ٣٦٧/١ . |
| (٥) ابن سعد ٨٤/٦ . | (١١) نفس المصدر ٣٦٧/١ وصفة الصفوة |
| (٦) ابن سعد ٣٤١/٥ والبيان والتبيين | ١٤٤/٣ وعيون الأخبار ٢٨٩/٢ . |
| (٧) ٣٦٧/١ . | (١٢) البيان والتبيين ٢٦٢/١ . |

وهو عم الفضل بن عيسى القصّاص المشهور^(١) ، ومن كبار القصّاص مالك بن دينار ، وكان يقول في قصصه : « ما أشدّ فطامَ الكبير »^(٢) . ومن القصّاص أيضاً وهب^(٣) بن منبّه .

وكان هؤلاء القصّاص يمزجون قصصهم بالحديث عن الرسل والأنبياء والأمم الدائرة ، كما كانوا يمزجونه بآى الذكر الحكيم وأحاديث الرسول عليه السلام . وكان بجانبهم كثير من الزهاد الوعاظ مثل رجاء^(٤) بن حيوة والأوزاعي^(٥) في الشام وسعيد^(٦) بن المسيب وأبي حازم^(٧) الأعرج سلمة بن دينار في المدينة . وعبد الله بن عمرو بن العاص في مصر^(٨) وكان العراق يكتظ بهم ، ومنهم ابن شيرمة^(٩) وأيوب السخّتياني^(١٠) ومؤرق العجلي ، وكان يقول : « ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدلّ على ربه »^(١١) . ومنهم بكر بن عبد الله المزني القائل : « أطفئوا نار الغضب بذكر جهنم »^(١٢) والشّعبي^(١٣) ومحمد بن واسع الأزدي ، وكان يقول : « يعجبني أن يصبح الرجل وليس له غدّاء ، ويمسى وليس له عشاء ، وهو مع ذلك راضٍ عن الله »^(١٤) . ومن الوعاظ المشهورين محمد بن كعب القرظي واعظ عمر بن عبد العزيز^(١٥) ومالك بن دينار^(١٦) والحسن البصري هو أكبر وعاظ العصر وقصاصيه ، وكان الوعظ عليه أغلب ، وله مواعظ كثيرة تدور في البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد ، وقد أفرد له ابن الجوزي

-
- | | |
|--|---|
| (١) البيان والتبيين ١/٢٩٠ ، ٣٠٦-٣٠٨ | (٨) عيون الأخبار ٢/٢٩٤ . |
| (٢) وانظر الحيوان ٧/٢٠٤ . | (٩) البيان والتبيين ١/٣٣٦ والعقد الفريد |
| (٣) البيان والتبيين ١/١٢٠ وصفة الصفوة | ٣/١٥٠ ، ٣/١٨٣ . |
| (٤) وما بعدها . | (١٠) انظر صفة الصفوة ٣/٢١٢ . |
| (٥) انظر بعض قصصه الوعظي في عيون | (١١) البيان والتبيين ٢/١٩٨ . |
| الأخبار ٢/٢٧٢-٢٧٦ ، ٢/٢٨٣-٢٨٣ ، | (١٢) نفس المصدر ٣/١٤١ . |
| ٢/٣٢٨ . | (١٣) البيان والتبيين ٢/٣٢٢ وصفة الصفوة |
| (٤) انظر صفة الصفوة ٤/١٨٦ . | ٣/٤٠ . |
| (٥) صفة الصفوة ٤/٢٢٨ . | (١٤) العقد الفريد ٣/١٧٠ . |
| (٦) صفة الصفوة ٢/٤٤ . | (١٥) البيان والتبيين ٣/١٤٣ . |
| (٧) عيون الأخبار ٢/٢٨٦ ، ٢/٣٣٠ | (١٦) عيون الأخبار ١/٥٤ . |
| والبیان والتبيين ٣/١٤٣ والعقد الفريد ٣/١٦٣ . | |

كتاباً ساق فيه وعظاً كثيراً ، وهو لا يبلغ من الثقة به مبلغ المصادر السابقة . ونراه في وعظه دائم التذكير بالبعث ويوم الحساب فكثيراً من الخس على التقوى والعمل الصالح الذى يبتى . وهو يعرض ذلك في صورة من الخوف الشديد ، الخوف من الجحيم ، حتى لكأنه يراها بين عينيه ، وكأن الناس واقفون على شفيرها ، وهو يدعوهم أن يبتعدوا عنها مخافة أن يهوا فيها وهم لا يشعرون . وفي أثناء ذلك يحثهم على التحلى بالفضائل فاتحاً عليهم من جهة أبواب النار ومن جهة ثانية أبواب الرجاء بل أبواب المحبة الإلهية . ونراه يغترف في مواعظه اغترافاً من القرآن الكريم وآيه ، فهو المنيع الذى يستمد منه وعظه وخوفه ورجاءه وحزنه العميق ، ولعله من أجل ذلك كان يقول : « والله يا ابن آدم لئن قرأت القرآن ثم آمنت به ليطولنَّ في الدنيا حزنك وليشتدن في الدنيا خوفك وليكثرن في الدنيا بكائك » (١) .

وعلى هذا النهج نفسه نقرأ مواعظ الوعاظ من حوله التى تتناثر في الكتب الأدبية الآتفة الذكر ، وكانوا كثيراً ما يلُمون بمجالس الخلفاء والولاة فيعظونهم ويبيكونهم ، ويُحدثنا الرواة أن خالد بن صفوان وشبيب بن شيبه والفضل بن عيسى الرقاشى وواصل بن عطاء تباروا في الوعظ بمجلس عبد الله بن عمر بن عبد العزيز حين ولى العراق ، وكان ذلك في سنة ١٢٨ للهجرة ، فبزمهم واصل لطول خطبته ولأنه جانب فيها الكلمات ذات الرائ ، للثقة كانت له فيها ، فكان يتحاشاها في منطقته (٢) .

وخالد بن صفوان وشبيب بن شيبه هما اللذان يقول فيهما الجاحظ : « ما علمت أنه كان في الخطباء أحد كان أجود خطباً من خالد بن صفوان وشبيب بن شيبه ، للذى يحفظه الناس ويدور على ألسنتهم من كلامهم » (٣) ويقول في خالد : « ومن الخطباء المشهورين في العوام والمقدّمين في الخواص خالد بن صفوان . . ولكلامه كتاب يدور في أيدي الوراقين » (٤) وكان الفضل بن عيسى

(١) حلية الأولياء لأبي نعيم (طبعة الخانجي) (٣) نفس المصدر ٣١٧/١ .

(٤) نفس المصدر ٣٣٩/١ - ٣٤٠ .

١٣٣/٢ .

(٢) البيان والتبيين ٢٤/١ .

الرقاشى من أخطب الناس وكان متكلماً ، وكان قاصاً مجيداً ، وكان يجلس إليه عمرو بن عبيد وكثير من الفقهاء ^(١) ولم يكن عمرو بن عبيد يقل عنه بلاغة وبياناً ، أما واصل فلم يكن أبين ولا أجود لساناً منه ، وكان يلنغ في الرأى ، فرام إسقاطها من كلامه ، فلم يزل يكابد ذلك ويناضله ويساجله ، حتى تخلص من تلك المهجنة ، وانتظم له ما حاول ، حتى فى محاجة الخصوم وفى الكلام البديع المرتجل . ويعلل الجاحظ لذلك بأنه « كان داعية مقالة ورئيس نحلة وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل ، وأنه لابد له من مقارعة الأبطال ومن الخطب الطوال ، وأن البيان يحتاج إلى سهولة المخرج وجهارة المنطق وتكميل الحروف وإقامة الوزن ، وأن حاجة المنطق إلى الخلاوة والطلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة وأن ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب وتُشنى به الأعناق وتزيّن به المعانى » ^(٢) فما زال يمرن نفسه على تفادى الكلمات ذات الرأى ، حتى تأتى له ذلك واتسق له ما أراد .

ويقول الجاحظ إن واصلًا كان داعية مقالة ورئيس نحلة ، والمقالة التى يريد بها هى مقالة الاعتزال وهى نفسها النحلة ، ويحدثنا صفوان الأنصارى فى قصيدة مدحه بها وأشدها الجاحظ ^(٣) أنه كان له دعاة خطباء يطوفون بأركان الأرض حتى يبلغوا الصين شرقاً وبلاد البربر غرباً ، ويُشيد ببيانهم وفصاحتهم وما أوتوا من اللسن وبراعة القول وقوة الحجة .

ويلفتنا الجاحظ إلى ما كان ينهض به واصل من الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل ، فقد كان يناظر أصحاب الديانات ، وكان يناظر أصحاب النحل من جماعة المسلمين ، ومن يقرأ فى أخبار هذا العصر يعرف أن المناظرات كانت مشتتة بين الفرق ، اشتعلت أولاً بين الفرق السياسية ، بين فرق الخوارج نفسها ثم بينهم وبين الشيعة ومن يميلون إلى طاعة أولى الأمر من الأمويين ، ثم اشتعلت بين أرباب الفرق الدينية التى كانت تبحث فى العقيدة والإيمان

(١) البيان والتبيين ١/٣٠٦ .

(٢) نفس المصدر ١/٢٥ .

(٣) نفس المصدر ١/١٤ .

وصفات الله ، فكان هناك القدريّة الذين قالوا بحرية الإرادة وعلى رأسهم الحسن البصري ، وكان هناك الجبرية الذين يقولون بتعطيل إرادة الإنسان وأنه مجبر لا حول له على ما يأتي من الأمر ولا قوة ، وكان هناك المرجئة الذين يفصلون بين الإيمان والعمل ولا يحكمون على مسلم في أعماله ، بل يفوضون الحكم إلى ربهم . واحتدم الجدل بين هذه الفرق ، كما احتدم بين الفقهاء في اجتهدهم ومدى أخذهم بالقياس ، فكان الفقهاء يتناقشون ، وكان المتكلمون من أصحاب الفرق الدينية يتجادلون كما كان الخوارج والشيعة والأمويون يتحاورون ، كل يدافع عن رأيه ، ويحاول أن يقنع به خصمه أو خصومه ، وقد وصلتنا أخبار كثيرة عن تلك المحاورات والمجادلات والمناقشات ، فهم يروون أن الفقهاء كانوا يتناقشون في مجلس الشعبي^(١) ، وأن سليمان بن عبد الملك عقد مناظرة بين قتادة والزهرى ، فغلب الأول^(٢) ، كما غلب إياس بن معاوية عبد الله بن شبرمة في مناظرة طويلة ، تناولت اثنين وسبعين سؤالاً^(٣) . وكثيراً ما كان الخوارج يتناظرون مع خصومهم في نظريتهم السياسية وأمور الدين^(٤) ، وكذلك كان يصنع صنيعهم الشيعة ، وخاصة مع المرجئة^(٥) ، وكانت المناظرات بين المرجئة والجبرية والقدريّة مشتعلة في مجالس الوعاظ ، بل لقد وصل شررها إلى مجالس الخلفاء ، إذ يروى أن عون بن عبد الله وموسى بن كثير وعمر بن حمزة وفدوا على عمر بن عبد العزيز وناظروه في الإرجاء^(٦) ، كما يروى أنه ناظر غيلان وصالح بن سويد في القدر^(٧) وكذلك يروى أن الأوزاعي وغيلان تناقشا فيه أيضاً أمام هشام بن عبد الملك^(٨) وقد احتفظ المرتضى في أماليه بمناظرة واصل بن عطاء وعمر بن عبيد في مرتكب الكبيرة أمام الحسن البصري^(٩) ، وكان

- | | |
|---|--|
| (١) البيان والتبيين ٢/٣٢٢ . | (٥) ابن سعد ٦/١٩٢ والبيان والتبيين ٣٥٠/٣ . |
| (٢) البيان والتبيين ١/٢٤٣ . | (٦) ابن سعد ٦/٢١٨ . |
| (٣) ابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ٥ . | (٧) سرح العيون لابن زبابة ص ١٨٤ . |
| (٤) انظر مناظرتهم مع ابن عباس أول خروجهم ومع ابن الزبير ومع عمر بن عبد العزيز في العقد الفريد ٢/٣٨٨ - ٤٠٣ . | (٨) العقد الفريد ٢/٣٧٩ . |
| | (٩) أمالي المرتضى (طبعة الحلبي) ١/١٦٥ . |

الخوارج يكفرونه ، بينما كان الحسن يدعوهم مؤمناً فاسقاً ، وكان واصل يرى أنه في منزلة بين المنزلتين ، وتناظر هو وعمرو بن عبيد في تلك المشكلة واستطاع أن يقنعه بوجهة نظره .

ومن يرجع إلى تلك المناظرة يلاحظ أنها تبدو في أولها تطبيقاً لأشكال القياس المنطقي ، وهي كذلك في أثنائها وفي خاتمتها تستعين بالمنطق . ومما لا ريب فيه أن نفس الفكرة التي انتهى إليها واصل ، وهي أن مرتكب الكبيرة في منزلة بين منزلتي المؤمن والكافر فكرة دقيقة ، لا يصل إليها إلا عقل دُعم بالثقافة ، وتعود النظر العميق والنفوذ إلى دقائق الأفكار والمعاني .

وطبيعي أن نجد الجاحظ مفتوناً أمام قدرة هؤلاء الخطباء الدينين ، فقد أشاد بهم في كل موضع من كتابه البيان والتبيين ، وتحدث عن تصرفهم في الألفاظ والأساليب وكيف صفوها وروّقوها ونخلوها نخلاً ، حتى لا ينطقوا إلا بلبّ اللب ، وإلا بما عليه حلاوة ورشاقة وسهولة وعذوبة .

٤

الصنعة في الخطابة الأموية

رأينا الخطابة تزدهر ازدهاراً رائعاً في العصر الأموي ، وقد صاحب هذا الازدهار عناية واسعة من الخطباء على اختلاف أغراضهم بإحكام خطابهم عن طريق البيان التام والحجة البالغة والألفاظ المونقة ، ولا غرابة في ذلك فإنهم إنما كانوا يريدون بخطبهم في أكثر أحوالها إقناع الناس وإسكات الخصوم واستمالة القلوب ، حتى يصنع فيها صنيع الغيث في التربة الكريمة .

وإذا رجعنا نتصفح آثار الخطباء السياسيين وجدنا خطباء كل حزب يحاولون أن يحققوا لخطبهم كل ما يمكن من آلات البيان والبلاغة ، كل بحسب

طاقته ومواهبه . ونعرض في إجمال لطائفة من هؤلاء الخطباء ، هم زياد والحجاج من خطباء الحزب الأموي وقطرى بن الفُجاءة من حزب الخوارج والمختار الثقفي من حزب الشيعة ، أما زياد فكان حسن الألفاظ جيد المعاني ، كأنما أوتي فصّل الخطاب ، وفيه يقول الشعبي : « ما سمعت منكلاماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً أن يسىء إلا زياداً ، فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً »^(١) . ولعل أشهر خطبة أُثرت عنه هي خطبته الملقبة بالبِترَاء ، وإنما سميت بذلك « لأن خطباء السلف الطيب وأهل البيان من التابعين بإحسان ما زالوا يسمّون الخطبة التي لم يتبدئ صاحبها بالتحميد ، ويستفتح كلامه بالتمجيد : البِترَاء ، ويسمون التي لم توشّع بالقرآن وتزيّن بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم : الشوْهَاء »^(٢) .

ومن يرجع إلى هذه الخطبة^(٣) يلاحظ أن زياداً عُنِيَ بتأليفها عناية شديدة ، فهي مقسمة إلى فقر ، إذ يستهلها ببيان ما انغمس فيه أهل البصرة من الغي والضلال والفسق والفساد منحرفين عن هدى الإسلام والقرآن الكريم . ثم يبين لهم سياسته التي سيأخذهم بها وأنها لين في غير ضعف وشدة في غير عنف ، ثم يأخذ في إنذارهم وبيان العقوبات التي سينزلها على الجانين منهم ومن يعيشون فساداً في الأرض ، ويخرج من ذلك إلى بيان حق أئمتهم عليهم من الطاعة ولزوم الجماعة ويقول إنهم يسوسونهم بسلطان يستمدونه من الله ، فهم ساستهم المؤيدون وكهفهم الذي إليه يأوون ، ويختمها بالوعيد الشديد يشوبه بالترغيب .

وبون بعيد بين هذه الخطبة وخطب الجاهليين ، فقد كانت الأخيرة أمثالا وحكماً ، ولما جاء الإسلام أصبح للخطابة موضوع ديني واضح ، ثم أخذت تتسع منذ الرسول عليه السلام للأحداث ، ولكنها لم تصبح خطابة زمنية على هذا النحو الذي نجده في «البِترَاء» ، والذي أصبحت فيه الخطبة تعرض لسياسة الحكم

الأخبار ٢/٢٤١ ، ٢٤٣ حيث أوردها ابن

قتيبة برواية أخرى والمعقد الفريد ٤/١١٠ .

(١) البيان والتبيين ٢/٦٥ .

(٢) نفس المصدر ٢/٦ .

(٣) البيان والتبيين ٢/٦٢ وانظر ميون

وتدعو لبني أمية وتؤكد حقهم في الخلافة بمثل قوله : « أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونزود عنكم بفسى الله الذي خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل والإنصاف فيما ولينا » وكأنه يقرر هنا نظرية التفويض الإلهي التي عرفها الفرس قبل الإسلام ، فبنو أمية وولاتهم مثل زياد يسوسون الناس بتفويض من الله ، وليس لهم أن يعارضوا وأن ينقضوا هذا التفويض أو تلك السياسة .

والخطبة بلون شك صحيحة النسبة إلى زياد ، فهي تصور سياسته التي تحدثنا عنها كتب التاريخ والتي أجملها في قوله : « لين في غير ضعف وشدة في غير عنف » ثم هي تصور شدته على الجائنين والبقاة ومن كانت تحدتهم نفوسهم بالخروج على بني أمية . وقد بناها جميعها من ألفاظ جزلة مختارة ، ليس فيها غريب مستكره ولا ساقط ردىء ، وإنما فيها القوة والمتانة ، وفيها ضروب من الصور البيانية ، وبعبارة أخرى من التشبيهات والاستعارات ، غير أنه لا يعتمد فيها إلى السجع ، أخذاً بسنة الخلفاء الراشدين في خطابهم . وهي محكمة التنسيق كل فقرة تسلم إلى أختها ، والأفكار تتسلسل في نظام ، مما يدل على أنه لم يكن ذا عقل فطري بسيط ، فعقله مدعم بالفكر الجديد وهو الفكر الذي أخذ يستسيغ ما لدى الأجانب من نظرية التفويض الإلهي وغيرها ، ولكن دون أن يذوب فيهم ، ودون أن ينسى شخصيته العربية وأسابيق قومه المحكم القائم على استخدام اللفظ المصقول الرصين ، الذي يروعنا برونقه وسلاسة نظمه ووضوح دلالاته .

ولم يكن الحجاج يقل عن زياد بياناً وإعراباً عما يخلج في صدره ، ولعل أشهر خطبه تلك التي خطبها في الكوفة حين قدم على العراق والياً من قبل عبد الملك^(١) . حدثت معاصروه أنه دخل الكوفة فجأة حين انتشر النهار ،

(١) البيان والتبيين ٣٠٧/٢ وعيون الأخبار

٢٤٣/٢ والعقد الفريد ١١٩/٤ وما بعدها .

فبدأ بالمسجد فدخله ، ثم صعد المنبر وهو ملثم بعمامة خَضْرَاءَ حمراء ، حتى إذا اجتمع الناس في المسجد قام فكشف عن وجهه ، ثم قال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني^(١)

أما والله إنى لأحتمل الشرَّ بحمَّله .. وإنى لأرى رعوياً قد أينعتْ وحان قِطافُها وإنى لصاحبها ، وإنى لأنظر إلى اللماء بين العمام واللَّحَى ؛ ثم أخذ ينشد أبياتاً تنذر بما سيأخذهم به من عنف ، فهم كما يقول أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق ، وقد نثر عبد الملك جعبة سهامه فوجده أمرها عوداً ، فرماهم به ، ويردد وعيده لهم وتهديده من مثل قوله : «أما والله لألحونكم لحوَّ العصا^(٢) ، ولأعصبنكم عَصَبَ السَّلمة^(٣) ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل^(٤)» وقوله : «أما والله لتستقيمنَّ على طريق الحق أولادعنَّ لكل رجل منكم شغلا في جسده» .

والخطبة سياسية خالصة ، فهي ذات موضوع زمني واضح ، وهي تصور سياسة الحجاج التي اشتهر بها في كتب التاريخ والتي كانت تقوم على العنف الشديد في غير لين ، ولعل ذلك ما أراده الحسن البصري حين قال فيه وفي زياد : «تشبه زياد بعمر بن الخطاب فأفرط ، وتشبه الحجاج بزياد فأهلك الناس»^(٥) .

وعلى نحو ما تصور الخطبة سياسة الحجاج تصور فصاحته وبلاغته وحفظه للشعر الغريب ، إذ اتخذته مقلمة لكلامه ، وكأنما يجعله فاتحة موسيقية له وهي فاتحة يتبدَّى فيها ، ويطلب التشبه بالبلولا في لغته فحسب ،

(١) ابن جلا : كناية عن أنه لا يخفى مكانه ، والثنايا : الشعاب في الجبال .
 (٢) لحا العصا والشجرة لحوا قشرها .
 (٣) السلمة : واحدة السلم ، شجر ذو
 (٤) كانت الإبل الغريبة إذا وردت الماء على
 (٥) البيان والتبيين ٦٦/٢ .

بل أيضاً في ثيابه وملبسه^(١) ، حتى يغرب على السامعين ويروعهم . ولم يكتف بهذا الضرب من الإغراب ، فقد عمد إلى طائفة من الصور الغريبة ، وهي تراكم في الخطبة تراكماً شديداً ، كما تراكم في خطبه الأخرى^(٢) . ولعل مما يتصل بميله إلى الإغراب والتحويل في منطقته ما رواه المبرد من أنه « كان إذا صعد المنبر تكلم رويداً ، فلا يكاد يُسْمَع ، ثم يتزَيَّد في الكلام حتى يخرج يده من مُطْرَفه^(٣) » ويزجر الزجرة فيفزع بها أقصى من في المسجد^(٤) . ومعنى ذلك أنه كان في مظهره أثناء خطابته وفي صوته وفي لفظه وما يحوى من شعر وصور نادرة يريد التحويل على السامعين ويحاول أن يحكم صنعته في الخطابة من جميع أطرافها ، حتى في إشارة اليد وفي الهمس بصوته والجمهور به حتى يخلب القلوب . على أننا نلاحظ أنه كان يتحاشى السجع مثله مثل زياد ، لكنه بعد ذلك كان يعنى باختيار ألفاظه ، ملتسماً منها ما ليس متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً . وهو حقا يعد في الذروة من البلاغة لعصره ، حتى ليقول عنه مالك بن دينار : « ربما سمعت الحجاج يخطب ، يذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم ، فيقع في نفسى أنهم يظلمونه وأنه صادق ، لبيانه وحسن تخلصه بالحجج^(٥) » . وما لا شك فيه أنه يتفوق على زياد في ابتكار الصور والتشبيهات والاستعارات ، ولكن زياداً يتفوق عليه في بناء خطبه وإحكام تأليفها ، بحيث تتتابع في فقر وأجزاء متسلسلة . وليس معنى ذلك أن الحجاج لم يكن يطيل خطبه ، فقد كان كثيراً ما يطنب في خطابته ويسهب إسهاباً شديداً ، وخاصة في مواعظه الدينية^(٦) وقد بقي له منها قطع تدور في كتب الأدب من مثل : « اللهم أرني الهدى هُدى فأتبعه ، وأرني الغي غياً فأجتنبه ، ولا تكلمني إلى نفسى فأضِلَّ ضلالاً بعيداً^(٧) » ومثل : « إنا والله ما خلقنا للفناء ، وإنما خلقنا للبقاء ،

(١) البيان والتبيين ٣٠٨/٢ وعيون الأخبار (٤) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ١٧٣
 (٢) البيان والتبيين ٣٩٤/١ ، ٢٦٨/٢ .
 (٣) انظر البيان والتبيين ١٣٨/٢ والعقد الفريد ١١٩/٤ وما بعدها .
 (٤) نفس المصدر ٢٩٨/٢ .
 (٥) البيان والتبيين ١٣٧/٢ والعقد الفريد (٧)
 (٦) المطرف : الثوب .
 (٧) ١١٥/٤ .

ولأنما ننقل من دار إلى دار»^(١) وكان الحسن البصري يقول فيه «يعظ عظة الأزارقة ويبطش بطش الجبارين»^(٢) «ويُروى أنه قال : «لقد وقَّدتني كلمة سمعتها من الحجاج ، سمعته يقول على هذه الأعواد : إن امرأ ذهب ساعة من عمره في غير ما خُلِقَ له خلُقٌ* أن تطول عليها حسرته»^(٣) .

ومرَّ بنا أنه كان للخوارج خطباء كثيرون مفوَّهون ، وكانوا يعنون عناية شديدة بإعداد كلامهم ، حتى يجذبوا القلوب إليهم ، ولعل ذلك ما جعل عبيد الله بن زياد يقول فيهم : «إن كلامهم أسرع إلى القلوب من النار إلى المشيم» وروى المبرد أن عبد الملك بن مروان أُنِّيَ برجل منهم ، فجعل يبسط له من قولهم ويزيِّن له من مذهبهم بلسان طَلَّقَ وألفاظ مبيَّنة ومعان واضحة ، فقال عبد الملك : «لقد كاد يوقع في خاطري أن اللجنة خُلِّقت لهم وأنى أولى بالجهاد منهم ، ثم رجعتُ إلى ما ثبَّت الله علىَّ من الحجَّة وقرر في قلبي من الحق»^(٤) وفي إحسانهم لخطابهم يقول عبيدة بن هلال^(٥) :

أدباءُ إما جنتهم خطباءُ ضُمَّتْهُمُ كُلُّ كَتِيبَةٍ جَرَّارٍ^(٦)

وكانوا يمزجون خطابهم السياسية بالدعوة إلى الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة وما عند الله من الثواب ، وقد يشنون على أبي بكر وعمر ، ثم يقلِّحون في عثمان ومن جاءوا بعده ، ويحثون على الجهاد ، معلِّنين أنهم على الحق ، أما جماعة المسلمين فاتبعت أهواءها وجارت عن الطريق القاصد . ومن خير ما يصور ذلك خطبة أبي حمزة الخارجي في مكة^(٧) ، وفيها يصف شباب الخوارج هذا الوصف الرائع :

-
- (١) البيان والتبيين ١٦٧/٢ وعيون الأخبار (٥) نفس المصدر ص ٧٠١ وانظر البيان والتبيين ٤٠٦/١ والحيوان الجاحظ ٤٢٣/٦ .
 (٢) البيان والتبيين ١٦٤/٣ .
 (٣) البيان والتبيين ١٩٣/٢ وقَدَّتْني : أفزعتني .
 (٤) الكامل للمبرد ص ٥٧٣ .
 (٥) ضُمَّتْهُمُ : كفلاً .
 (٦) البيان والتبيين ١٢٢/٢ وعيون الأخبار ٢٤٩/٢ والعقد الفريد ١٤٤/٤ والأغاني ١٠٤/٢٠ .

« شبابٌ » والله مكشَّهون في شبابهم غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة وأطلاح^(١) . ينظر الله إليهم في جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مرَّ بآية من ذكر النار شق شقة كأن زفير جهنم في أذنيه ، موصولٌ كلالهم بكلالهم : كلال الليل بكلال النهار . . حتى إذا رأوا السهام قد فُوت^(٢) والرماح قد أُشرعت والسيوف قد انتُضيت ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت استخفوا بوعيد الكتيبة لوعد الله ، ومضى الشاب منهم قدماً حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعت إليه سباع الأرض ، وانحطت عليه طير السماء . فكف من عين في متقار طائر طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله ، وكف من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله .

وواضح أن هذا الوصف يعتمد في جماله على صدق العاطفة وحرارتها ، وقوة العقيدة ومتانتها ، إذ يمثل صاحبه مدى إيمان الخوارج بمذهبهم وكيف باعوا الحياة الدنيا بالآخرة ، حتى أصبح الاستشهاد أمنيتهم والتهافت على نيران الموت طلبيتهم ، وهم لذلك يثورون ثورة جامحة ، يقدسون فيها عقيدتهم ويتفانون في سبيلها صادقين في ذلك عن روح تقوى مفرطة . ولعل ذلك ما جعلهم يكثر من المواعظ الخالصة . وخير من يمثلهم في ذلك قـطري بن الفـجاعة وله موعظة طويلة مشهورة وكلام كثير محفوظ^(٣) ، ونسوق قطعة من موعظته ندل بها على مبلغ تجويده وتحبيره ، يقول^(٤) :

« أما بعد فإنني أحذركم الدنيا فإنها حلوة خضيرة ، حُفَّت بالشهوات وراقت بالقليل وتحببت بالعاجلة وحللت بالآمال وتزينت بالغرور . . مع أن امرأ لم يكن منها في حبرة إلا أعقبته بعدها عبرة ، ولم يلق من سرآئها بطناً إلا منحنه

(١) أنضاء : مهزولون ، أطلاح : مكدودون . (٢) البيان والتبيين ١/ ٣٤١ - ٣٤٢ .
(٣) فوجئت : جعلت لها الأفواق ، وهي مواضع (٤) نفس المصدر ١٢٦/٢ وعيون الأخبار الأوتار في السهام .
٢٥٠/٢ والعقد الفريد ١٤١/٤ .

من ضرأتها ظَهَرًا، ولم تطلَّه^(١) غَيِّثَةً رُخَاءً إلا هطلت عليه مُزْنَةٌ بلاء، وحرى إذا أصبحت له منتصرة ، أن تمسى له خاذلة متنكرة ، وإن جانب منها اعنوذَ بَ واحلَّوْلى ، أمرَّ عليه منها جانبٌ وأوبى^(٢) ، وإن آتت امرأ من غضارتها ورفاهيتها نِعْمًا ، أرهقته من نوائبها نِقْمًا ، ولم يُمس امرؤ منها في جَنَاحِ أَمْنٍ إلا أصبح منها على قوادم^(٣) خوف .. لا خير في شيء من زادها إلا التقوى .

والقطعة — مثلها مثل الموعظة جميعها — تمتاز بأنها تتصل بنفس صاحبها ، وكأنه سكب فيها روحه ، فهو يعبر عن تقوى صادقة تسيل من قلبه ونفسه ، وهو بعد ذلك دقيق في اختيار لفظه ، يعنى برصفه عناية أوسع من عناية أبى حمزة الشارى ، إذ تنقلب عنايته في أكثر الموعظة إلى ضرب من السجع الرشيق . وهذه العناية بالسجع إلى حد بعيد تضافرت معها عناية بالطباق والمقابلة وعناية أخرى بالصور والرسوم المتحركة ، وهو يشبه الحجاج في الجانب الأخير ، غير أنه لا يكتفى به ، بل يضيف إليه فنوناً من المقابلات وضروباً من الإيقاعات الصوتية ، حتى يبلغ ما يريد من التأثير في نفوس سامعيه .

ولم يكن الشيعة أقل من الخوارج وولاية بنى أمية احتفالاً بخطابهم ، ويؤثر عن على بن الحسين أنه قال : « لو كان الناس يعرفون جملة الحال في فضل الاستبانة وجملة الحال في صواب التبيين لأعربوا عن كل ما تخلَّج في صدورهم ولوجدوا من برد اليقين ما يغنيهم عن المنازعة إلى كل حال سوى حالهم .. ولكنهم من بين مغمور بالجهل ، ومفتون بالعجب ، ومعدول بالهوى عن باب الثبوت ، ومصرف بسوء العادة عن فضل التعلم »^(٤) . وكان زيد ابنه جدلاً لساناً يجتذب الناس بحلاوة لسانه وسهولة منطقته وعذوبته^(٥) ، مع قوة الحجج

(١) تطل : من الطل وهو المطر الخفيف . ٥٩/١ .

(٢) أوبى : من الوباء . (٥) البيان والتبيين ١/٥٨ وانظر زهر الآداب

(٣) القوادم : الريش في مقدمة الجناح . ٧٢/١ .

(٤) البيان والتبيين ١/٨٤ وزهر الآداب

وكثرتها ، ومع الجزالة والفخامة^(١) ، ومن خطباء الشيعة وكبار دعاةهم في هذا العصر المختار الثقي ، وكان خارجياً ، ثم صار زبيرياً ، ثم صار رافضياً^(٢) ، وقد ثار في العراق ثورة عنيفة ، غير أن مصعب بن الزبير قضى عليه في سنة ٦٧ للهجرة . وكان يذهب في سيرته وخطابته مذهباً قريباً من مذهب الكهنة في الجاهلية ، فكان يزعم لأصحابه أنه يوحى إليه ، وكان يتخذ السجع دلالة على هذا الوحي ، وفي ذلك يقول ابن قيس الرقيات :

والذي نغصَّ ابنَ دومة ما توحي الشياطينُ والسيوفُ ظمَاءُ

وكان يتخذ لأنصاره كرسياً قديماً العهد غطاءً بالديباج ، وكان يقول لهم : « إن محله فيكم محل السكينة في بني إسرائيل »^(٣) وروى المبرد كثيراً من شعودته وكيف كان يدعى أنه يُلهم ضرباً من السجع لأمر تكون ثم يحتال فيوقعها ، فيقول للناس : هذا من عند الله عز وجل . ومن يرجع إلى سجعه يجده يعتمد فيه على الأقسام والإبهام والإغراب على نحو ما كان يعتمد على ذلك الكهنة قديماً من مثل قوله^(٤) :

« أما وربُّ البحار ، والنخيل والأشجار ، والمهامه^(٥) والقفار ، والملائكة الأبرار ، والمصطفين الأخيار ، لأقتلنَّ كلَّ جبَّار ، بكلِّ لدنٍ خَطَّار^(٦) ، أومهتْ بشار^(٧) ، في جموع من الأنصار ، ليسوا بميل أغمار^(٨) ، ولا بعزل^(٩) أشرار . حتى إذا أقمت عمود الدين ، ورأيت شعب^(١٠) صدع المسلمين ،

(١) البيان والتبيين ٣٠٩/١ - ٣١٠ ،

٣٢٥/١ والعقد الفريد ٣٢/٤ .

(٢) الكامل للمبرد ص ٥٩٦ .

(٣) نفس المصدر والصفحة وانظر الحيوان

للجاحظ ٢٧١/٢ .

(٤) الطبري ، القسم الثاني ص ٥٣٦ .

(٥) المهامه : الفياق والقفار .

(٦) لدن : الرمح القاطع لئنه وحدته ،

والخطار : الضارب .

(٧) مهتد : السيف ، بشار : قاطع .

(٨) ميل : جمع أميل وهو الجبان أو من

لا سلاح معه ، الأغمار : جمع غمز ، وهو

ناقص التجربة .

(٩) عزل : جمع أعزل : وهو من ليس معه

سلاح .

(١٠) شعب : ثلثة . ورأب الصدع :

أصلحه .

وشفيت غليل صدور المؤمنين ، وأدركت بثأر النبيين ، لم يكبر على زوال الدنيا ، ولم أحفل بالموت إذا أتى .

وكان المختار يكثر من هذه الأسجاع ويتشبه فيها بصنيع الكهان ، وهذا هو لائحته الذي كان يردده في خطبه التي رواها له المؤرخون ، وكان يوفر من غير شك في أثناء ذلك لكلامه ضرورياً مختلفة من التكلف حتى يحقق ما يريد من الإيهام البعيد .

وإذا تركنا خطباء الأحزاب السياسية إلى خطباء المحافل وجدناهم يحاولون جاهدين التأني في خطاباتهم^(١) ، وهذا طبيعي لأن خطاباتهم محدودة ، إذ لا تتجاوز في كثير منها كلمات معدودة ، وكانوا يلقونها بين أيدي الخلفاء والولاة ، فكانوا يطلبون فيها أن تروعهم وتستميل إليهم قلوبهم ، ولعلمهم من أجل ذلك كانوا يلتزمون فيها السجع حتى يستموا لها كل حلية صوتية ممكنة . وأشهر خطباء المحافل في هذا العصر ، كما أسلفنا ، الأحنف بن قيس زعيم تميم البصرة ، فقد كان يفد لقومه على معاوية ، فيلقى إليه بحاجاتهم في عبارات مسجعة منمقة على شاكلة قوله^(٢) :

« يا أمير المؤمنين ! أهل البصرة عدد يسير ، وعظم كسير ، مع تتابع من المحول ، واتصال من الذحول^(٣) ، فالكثر فيها قد أطرق^(٤) ، والمقل قد أملق^(٥) ، وبلغ منه الخنق ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنعش الفقير ، ويَجْبِر الكسير ، ويسهل العسير ، ويأمر بالعطاء ، ليكشف البلاء ، ويزيل اللأواء^(٦) ، وإن السيد من يعم ولا يخص ويدعو الجفلى^(٧) ، ولا يدعو النقرى^(٨) ، وإن أحسن إليه شكر ، وإن أسىء إليه غفر ، ثم يكون من وراء

(١) البيان والتبيين ٢٠٤/١ وما بعدها . (٥) أملق : افتقر .

(٢) زهر الآداب للحصري (طبعة المطبعة . (٦) اللأواء : الشدة .

(٧) الدعوة الجفلى : الدعوة العامة . (٨) النقرى : الدعوة الخاصة ، دعوة الأفراد .

(٣) الذحول : الشارات ، والمحول : الجذب . (٤) أطرق : ضعف وهزل .

ذلك لرعيته عماداً يدفع عنهم الملهمات ، ويكشف عنهم المضللات .

وليس الأحنف وحده الذى كان يسجع بين خطباء المحافل ، فقد كانت عامتهم تذهب هذا المذهب من التحبير وتنميق الكلام . واستمر ذلك ستمهم طوال عصر بنى أمية كما كان سمة أعراب البادية غالباً حين ينزحون من باديتهم إلى المدن ، فيتحدثون بين أيدي الخلفاء والولاة ، وقد فتح الجاحظ لهم فصلاً في بيانه استعرض فيه طائفة من أقوالهم ^(١) ، وهى جميعها تدخل في هذا الأسلوب المسجع وما يُطَوَّى فيه من جمال الصياغة ، ويعبر الجاحظ عن انبهاره إزاء ما يروى من كلام هؤلاء الأعراب ، فيقول : « ليس فى الأرض كلام هو أمتع ولا آنتى ولا ألد فى الأسماع ولا أشد اتصالاً بالعقول السليمة ، ولا أفتق للسان ، ولا أجود تقويماً للبيان ، من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء » ^(٢) . ويقال إن خالد بن صفوان تكلم فى صلح بكلام لم يسمع الناس قبله مثله ، فإذا أعرأى فى بَسْت ^(٣) ، ما فى رجله حذاء ، فأجابه بكلام أروع من كلامه وأعجب ^(٤) .

وقد خطا خطباء القصص والمواظ بخطاباتهم خطوات واسعة نحو الصقل والتجويد لأساليبهم وتلوين معانيهم وتنويعها وتفريعها فروعاً كثيرة . ولم يكن الوعاظ يخطبون وقوفاً إلا فى صلاة الجماعة والعيدى ، أما بعد ذلك فكان مثلهم مثل القصاص يخطبون غالباً وهم جالسون وحولهم الناس يتحلقون ، وهم يسوقون إليهم مواعظهم . فخطاباتهم كخطابة القصاص كانت فى الأغلب خطابة جالسة ، أو قل كانت أشبه بالمحاضرات والإملاءات . وليس هذا هو كل ما يفرق بين خطاباتهم والخطابة السياسية ، فهناك فرق آخر مهم يتصل بجمهور المستمعين إلى الطرفين ، إذ كان خطباء السياسة يتجهون بخطاباتهم إلى العرب وجيوشهم المقاتلة ، أما خطباء الوعظ والقصص فكانوا يخطبون الهيئة الاجتماعية

(١) البيان والتبيين ١/٢٨٤ وما بعدها وانظر (٣) البت : كساء غليظ .

(٢) ٢٩٧/١ وما بعدها ، ٤٠٨/١ . (٤) البيان والتبيين ١/١٧٣ .

(٢) البيان والتبيين ١/١٤٥ .

كلها على اختلاف طبقاتها من خاصة وعامة ومن عرب وموال . ولذلك هبطوا بأساليبهم قليلا عن مستوى أساليب الخطابة السياسية ، حتى تفهمهم جميع الطبقات ، وحتى لا يرتفعوا بكلامهم عن فئات العامة ، ومع هذا الهبوط لم يخرجوا إلى كلام السوق ، بل وازنوا موازنة دقيقة بين كلامهم ومستوى الفصاحة ، فأخلوه من الألفاظ الغريبة ، وفي الوقت نفسه لم يسقطوا به إلى ألفاظ مبتذلة . وألجأهم ضيق معانيهم إلى التنوع فيها والتفريع والتوليد ، كما ألجأهم إلى ضروب من الترداد والتكرار والترادف ، لم يلبثوا أن تحولوا بها إلى صورة من الأسلوب المزدوج ، الذي يقف في منزلة وسطى بين أسلوب السجع والأسلوب المرسل . ولا نغلو إذا قلنا إنهم هم الذين هيئوا لبروز هذا الأسلوب الذي شاع فيما بعد بين الكتاب مثل عبد الحميد الكاتب والجاحظ ومن جرى مجراهما . ونراهم يستخدمون ضروبا من التصوير أو من التشبيهات والاستعارات ، وهم يستلهمون في كثير من جوانبها آى الذكر الحكيم كما يستلهمونها في أكثر معانيهم ، وقد جعلهم حديثهم عن الثواب والعقاب والجنة والنار والطاعة والعصيان والحياة والموت والإيمان والكفر أن يقيموا كلامهم على الطباق والمقابلة ، مثل قول الحسن البصرى : « بعْ دنيالك بأخرتك ترجعهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنيالك فتخسرهما جميعاً ، وإذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه وإذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم به ، الشَّواء هاهنا قليل ، والبقاء هناك طويل ، فعخذوا صفاء الدنيا وذرروا كدرها »^(١) وقوله : « إن خوفك حتى تلقى الأمن خير من أمنك حتى تلقى الخوف »^(٢) .

والحسن البصرى خير من يصور أسلوب الوعاظ المبني على الازدواج واستخدام بعض الصور وتلوين الكلام بألوان الطباق والمقابلة ، مما يمثل تلك الصناعة المحكمة ، ويغلب الحزن على مواعظه كما يغلب ترداد معنى الخوف والرجاء ، ووصفه بعض معاصريه ، فقال : « كان إذا أقبل فكأنما أقبل من دفن حميمه ، وكأنه إذا جلس فكأنه أسير قد أمر بضرب عنقه ، وكان إذا

(١) البيان والتبيين ١٣٢/٣ .

(٢) العقد الفريد ١٧٨/٣ وانظر ٢١٤/٣ .

ذُكرت النار عنده فكأنها لم تخلق إلا له^(١). ويموج كتاب البيان والتبيين وكتاب عيون^(٢) الأخبار والعقد^(٣) الفريد بمواعظه ومواعظ معاصريه .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن هؤلاء الوعاظ هم الذين ألانوا أساليب اللغة العربية وحملوها من الطاقات ما تستطيع به التعبير عن المعاني الدقيقة ، وكانت كثرتهم من الأجانب ، وكانوا مثقفين ثقافة واسعة ، وكانوا أصحاب فطن بارعة ، ففتحوا أبواباً لا حصر لها من الجدل في مسائل الدين والعقيدة ، وتحولوا بمعانيهم يفرعون فيها ويولدون ويأتون بكل جديد مستطوف وبديع مستحسن .

وكان بين هؤلاء الوعاظ من بلغ من الخلق أن جعل مواعظه كلها سجعاً خالصاً كأسرة الرقاشين ، وهي أسرة فارسية كانت تحترف القصص في هذا العصر كما كانت تحترف السجع ، ويقال إنها كانت معروفة في أمتها بالخطابة ، فلما دخلت في الإسلام قامت في لغتنا مقامها في لغتها الأصلية ، وكأنما نزع أفرادها ذلك العرق القديم ، ومنها يزيد بن أبان الرقاشي وكان قاصصاً مجيداً وكان يتكلم في مجلس الحسن البصري ، وكان عابداً زاهداً ، وهو عم الفضل بن عيسى الرقاشي ، وفيه يقول الجاحظ : « كان الفضل سجعاً في قصصه .. وهو الذي يقول : سَلَ الأرض فقل .. من شَقَّ أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجنَى ثمارك ، فإن لم تُجَبِك حواراً أجابتك اعتباراً »^(٤) وكان خالد بن صفوان التميمي يسجع كثيراً^(٥) كما كان يسجع غيره من العرب ، ومعنى ذلك أن الرقاشين لم يستحدثوا السجع في وعظهم ، وإنما نسجوا فيه على منوال طائفة من فصحاء العرب وبلغائهم .

ومهما يكن فإن الخطباء الوعاظ والقصاص نموا التحجير البياني ، وكثيراً ما يقف الجاحظ في بيانه متعجباً من قدرتهم البلاغية ، وقد تعجب طويلاً

(١) البيان والتبيين ١٧١/٣ .

(٢) انظر ٣٤٤/٢ وفي مواضع متفرقة .

(٣) ٣٠٦-٣٠٨ وراجع زهر الآداب ٢٢٠/٣

(٤) انظر فهرس الأعلام الملحق بالكتاب .

(٥) البيان والتبيين ٩٣/٢ ، ١٦٤/٣ .

من بلاغة واصل بن عطاء وكيف استطاع أن يترع الرأ من خُطْبَه للثغته فيها على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع .

ولم يكن واصل وحده هو الذى أحرز هذا المقدار من البلاغة والبيان ، بل لقد أحرزَه عامة القصاص والوعاظ ، وقد تحولوا يعلمون شباب البصرة والكوفة كيف يتفوقون فى الخطابة ، وكانوا يسألونهم أسئلة كثيرة عن أساليبها وألفاظها وكيف ينبغ الخطيب ، وما ينبغى أن يراعيه فى هيئته وإشاراته ومنطقه ، وكيف يقنع خصومه فى الجدل ويسكتهم ؟ ومتى يستحب الإيجاز فى الخطبة ؟ ومتى يستحب الإطناب ؟ وكيف يلائم الخطيب بين ألفاظه ومعانيه ؟ وكيف يوازن بين كلامه وبين طبقات السامعين ؟ وكيف يجعل لكل طبقة كلاماً ولكل حالة مقاماً ؟ وكيف يقنع خصومه فى المناظرة ويلزمهم الحجة ؟

وهياً ذلك كله لاستنباط طائفة من الوصايا البلاغية نجدها مثورة فى كتاب البيان والتبيين تجرى على ألسنة هؤلاء الوعاظ وخاصة من كانوا يقارعون الخصوم ويمجادلونهم ، ونقصد المتكلمين الذين تناقشوا فى القدر والعقيدة طويلاً ، والذين نصبوا أنفسهم لارد على خصوم الإسلام .

ولعل مما يدل على صحة ما نزع من ذلك أن أقدم النصوص التى تتصل بمাহية البلاغة تضاف إلى واعظ من هؤلاء الوعاظ المتكلمين وهو عمرو بن عبيد ، فقد روى الجاحظ أنه قيل له ما البلاغة ؟ فقال لسائله (١) :

« ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار ، وما بصرك مواقع رشدك وعواقب غيبك ، قال السائل : ليس هذا أريد .. قال عمرو : فكأنك إنما تريد تخير اللفظ ن حسن إفهام ؟ قال : نعم ، قال : إنك إن أردت تقرير حجة الله فى عقول المكلفين ، وتخفيف المثونة على المستمعين ، وتزيين تلك المعانى فى قلوب المريرين ، بالألفاظ الحسنة فى الآذان ، المقبولة عند الأذهان ، رغبة فى سرعة

(١) البيان والتبيين ١١٤/١ وانظر المقد

الفريد ٢٦٠/٢ وزهر الآداب ٩٤/١ .

استجابتهم ونَفَى الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة ، على الكتاب والسنة كنتَ قد أُوتيتَ فصل الخطاب ، واستحققت على الله جزيل الثواب .

وعلى هذا النحو كان الشباب يتعلمون على هؤلاء الوعاظ كيف يبلغون ما يريدون من حسن الإفهام ومن البيان والطلاقة ، وكيف يحصلون ذلك ويميزونه مع جمال الخارج والسلامة من التكلف ، وكان الوعاظ من جانبهم لا يزالون يقدمون لهم النصح والإرشاد ، وقد يدعونهم إلى المناظرة بين أيديهم طلباً لترويضهم وتقرينهم ، على نحو ما صنع الحسن البصري بواصل وعمر بن عبيد إذ دعاهما في مجلسه للمناظرة في مرتكب الكبيرة والوصف الذي يستحقه ، حتى يحدقوا الجدال ومناقشة الخصوم والاحتجاج عليهم . وإذا لم يدعهم إلى الكلام بين أيديهم نثروا عليهم وصاياهم على نحو ما نجد في وصية شبيب بن شيبه التي يذكر فيها أن الناس يعجبون بجودة الابتلاء ، أما هو فيعجب بجودة الخاتمة ، ويقول إذا ابتلى الخطيب بمقام لا بد له فيه من الإطالة فيأياه والإسهاب إلى درجة الخطل^(١) . ويقول خالد بن صفوان : « اعلم — رحمك الله — أن البلاغة ليست بنخفة اللسان وكثرة الهذيان ، ولكنها بإصابة المعنى والقصد إلى الحمجة »^(٢)

ولعل في كل ما قلنا ما يصور كيف ارتقت الخطابة في بيئات الوعاظ والقصاص ، فقد أخذوا يتدارسونها ويبحثون في أدواتها ووسائلها ، وانبعثوا يخطبون في كل مناسبة ومقام ، موازين بين معانيهم وألفاظهم ، وبين كلامهم ومن يخاطبونهم به من العامة والخاصة . وكان خطباء السياسة من حولهم لا يزالون يجودون في خطاباتهم ، وكذلك كان شأن خطباء المحافل ، حتى يقولون إن شباب الكتاب في دواوين الحلقات كانوا يحضرون — إذا قدمت الوفود — لاستماع بلاغة خطبائهم^(٣) .

والحق أن هذه البيئات جميعاً أتاحت للخطابة في هذا العصر ازدهاراً عظيماً ، لعلها لم تعرفه في أى عصر من العصور الإسلامية الوسيطة ، فقد

(٣) العقد الفريد ٤/٤٤٩ .

(١) البيان والتبيين ١/١١٢ .

(٢) العقد الفريد ٢/٢٦١ .

تعاونت جهود خطباء السياسة والمحافل وتعاون معهم الوعاظ والمتكلمون على النهوض بها ، بل لقد نفذ الأخيرون إلى وضع قواعد وتعاليم فيها كانت مقلمة للأبحاث البلاغية التي عرفت في العصر العباسي .

٥

الكتابة في صدر الإسلام

اتخذ الإسلام الكتابة دعامة من دعائمه ، فقال جل شأنه في أول آية نزلت على رسوله صلى الله عليه وسلم : (اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) وأقسم سبحانه وتعالى بالقلم فقال جلَّ وعز : (ن والقلم وما يسطرون) كما أقسم بالكتاب فقال : (والطور وكتاب مسطور في رق منشور) . وجاءت في الذكر الحكيم كلمات اللوح والقرطاس والصحف من مثل : (بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ) ومثل : (ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) ومثل : (إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى) .

وشجع الرسول عليه السلام على تعلم الكتابة بطرق مختلفة ، فمن ذلك أنه جعل فداء بعض أسرى قريش في بدر ممن تعلموا الكتابة أن يعلموها عشرة من صبيان المدينة^(١) . ويجانب ذلك نرى الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو بعض أصحابه إلى تعلم اللغات الأجنبية ، ففي البخارى عن زيد بن ثابت : أتى بي النبي صلى الله عليه وسلم حين مقلمه المدينة ، فقيل : هذا من بني النجار ، وقد قرأ سبع عشرة سورة (من القرآن الكريم) فقرأت عليه ، فأعجبه ذلك ، فقال : تعلم كتاب يهود ، فإني ما آمنهم على كتابي ، ففعلت ، فما مضى

(١) فجر الإسلام لأحمد أمين ص ١٧٠ .

لى نصف شهر حتى حذفته ، فكنت أكتب له إليهم ، وإذا كتبوا إليه قرأت له»^(١) . وقد حرص القرآن على اتخاذ الكتابة في المعاملات ، يقول جل شأنه : (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يآب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليُمَلِّل الذي عليه الحق) .

وكان للرسول صلى الله عليه وسلم جماعة من الكتّاب تخصصوا بكتابة الوحي ، وكان على رأس هذه الجماعة عثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب ، وكانا إذا غابا كتب له أبي بن كعب وزيد بن ثابت . وكان يكتب له بين يديه في حوائجه خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان . وكان المغيرة ابن شعبة والحسين بن نعيم يكتبان ما بين الناس . وكان عبد الله بن الأرقم ابن عبد يغوث والعلاء بن عقبة الحضرمي يكتبان بين القوم في قبائلهم ومياهم . وكان حفظة بن الربيع ابن أخي أكم بن صَيْق خليفة كل كاتب من كتّاب الرسول إذا غاب عن عمله ، فغلب عليه اسم الكتّاب^(٢) .

ونرى من ذلك أن الكتابة أخذت تستخدم استخداماً واسعاً لا في كتابة القرآن الكريم فحسب ، بل في كتابة كثير من شئون المسلمين ، وكان الرسول عليه السلام يكتب كثيراً من عهود الأمان ومن المعاهدات ، كما كان يكتب الأمراء والملوك من العرب وغيرهم يدعهم إلى الإسلام ، وتزخر السيرة النبوية لابن هشام وكتب الحديث والتاريخ بهذه الكتب ، وقد جمعها محمد حميد الله الحيدر آبادى في كتابه النفيس « مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة » . وقدم لها بدراسة وقف فيها عند معيار الوضع والصحة ، وما دخلها من الانتحال . وقد يكون من صحيحها الذى سلم على الزمن كتابه^(٣) صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار واليهود ممن كانوا بالمدينة حين نزوله

(٣) انظر مجموعة الوثائق السياسية في العهد

النبوي والخلافة الراشدة (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١ .

(١) فجر الإسلام ص ١٧١ .

(٢) انظر في ذلك الوزراء والكتّاب للجيشياري

(طبعة الحلبي) ص ١٢ .

فيها وكذلك معاهدته التي كتبها بينه وبين قريش عام الحُدَيْبِيَّةِ، وهي تَمْضِي على هذه الصورة^(١) :

« هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو : اصطالحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض . على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه ردّه عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه . وأن بيننا عيْبة مكفوفة^(٢) ، وأنه لا إغْلال ولا إغْلال^(٣) . وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخله ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه » .

وواضح أن الرسول عليه السلام لا يُعْنَى في هذه المعاهدة بتحجير فني ، بل هو يؤدي غرضاً سياسياً في صورة موجزة ، وكذلك كان شأنه في كتبه التي كان يرسلها إلى أمراء العرب ، ونسوق لذلك مثلاً كتابه الذي أرسله إلى وائل ابن حُجْر الحضرمي وقومه إذ يقول عليه السلام^(٤) :

« من محمد رسول الله إلى الأقبال العباهلة^(٥) من أهل حَضْرَمَوْت بِإِقَام الصلاة وإيتاء الزكاة ، في التَّيِّعَةِ^(٦) شاة ، والتَّيِّسَةِ^(٧) لصاحبها ، وفي السيَّوب^(٨) الخمس ، لا خِلَاط^(٩) ، ولا وِرَاط^(١٠) ، ولا شِنَاق^(١١) ، ولا شَغَار^(١٢) ،

(١) نفس المصدر ص ١٣ وراجع الطبري ، القسم الأول ص ١٥٤٦ .

(٢) العيبة : الحقيبة ، والعيبة المكفوفة هنا يراد بها الذبة التي لا تنكث .

(٣) إغلال : سرقة ، إغلال : خيانة .

(٤) انظر حميد الله ص ١٢٨ والبيان والتبيين ٢٧/٢ والعقد ٤٨/٢ .

(٥) الأقبال : ملوك الجنوب وأمرؤهم ، العباهلة : العظام الثابت ملكهم .

(٦) التيعة : الأربعون من الغنم ، وهو أقل ما تجب فيه الزكاة .

الفن ومذاهبه

(٧) التيعة : الشاة الداجنة غير السائمة أو الراعية .

(٨) السيوب : جمع سيب ، وهو المال المدفون أو المعدن .

(٩) الخِلَاط : أن تخلط الغنم أو الإبل بغيرها لتمنع من الزكاة .

(١٠) الوراظ : أن توضع الغنم أو الإبل بعيداً عن أعين من يجمعون الزكاة .

(١١) الشناق : الخِلَاط .

(١٢) الشغار : زواج في الجاهلية أبطله الإسلام .

فن أجبي^(١) فقد أرزى^(٢) . وكل مسكر حرام .

والرسول صلى الله عليه وسلم لا يعمد في هذا الكتاب إلى تزويق ، إنما يعمد إلى فكرته وتبليغ دعوة الإسلام ورسالته في غير إسهاب ، وفي غير صنعة أو تكلف ، فكان كما قال جل شأنه : (قل ما أسألكم عليه من أجرٍ وما أنا من المتكلفين) فكان يقصد إلى غرضه بالحروف القليلة والكلمات اليسيرة .

وتبعه الخلفاء الراشدون يهتدون بهديه في كتابتهم وما يعتقدون من معاهدات^(٣) ، فهم لا يقصدون إلى تنميق ، إنما يقصدون إلى إبلاغ أفكارهم في عبارات واضحة الدلالة . وليس من ريب في أننا لا نصل إلى عصر عمر حتى تكثر المكاتبات السياسية ، فهو يكتب قواده وولاته ، وهم يكتبونه كلما جدت مشكلة ، وكان يكتب إليهم أحياناً في سياستهم لمن يحكمونهم ، وكتابه إلى أبي موسى الأشعري في القضاء ذائع مشهور^(٤) .

ونظن ظناً أن عمر وغيره من الخلفاء الراشدين ، وولاتهم ، وقوادهم ، لم يقصدوا في كتابتهم إلى أي ضرب من ضروب التزيين والتنميق ، فقد كان حسبهم أن يؤدوا أغراضهم في لغة جيزة متينة ، وإن كان ذلك لم يمنع بعض المؤرخين والأدباء أن يدخلوا الزينة والتنميق على بعض ما روه لهم . من ذلك الكتاب الذي ينسب إلى عمرو بن العاص أنه أرسله إلى عمر في وصف مصر ، والذي يقول فيه : « مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر وعرضها عشر » إلى آخر ما في هذا الكتاب من عبارات أنيقة^(٥) ، فإنه واضح الانتحال على ابن العاص .

وينبغي أن نعرف أن المكاتبات في صدر الإسلام لم تحفظ في سجلات

(٤) البيان والتبيين ٤٨/٢ ، ٢٩٣ وعيون الأخبار ٦٦/١ .

(٥) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (طبعة دار الكتب) ٣٢/١ .

(١) أجبي : من الإجباء وهو بيع الزرع قبل أن يبدو صلاحه .

(٢) أرزى : من الرزأ .

(٣) انظر القسم الثاني من كتاب حميد الله .

خاصة ، وكان ذلك سبباً في أن تناولها غير مؤرخ وأديب بالتبديل والتحسين ، ومن ثم كان الكتاب الواحد يُروى روايات مختلفة باختلاف الكتب التي ترويه ، وحسب ذوق الراوى وقدرته البَيانية .

٦

الكتابة في العصر الأموى

وإذا انتقلنا إلى عصر بنى أمية وجدنا الكتابة ترقى رقيّاً عظيماً ، فقد جدّ كثير من المشكلات ، وتعقدت الحياة من جميع أطرافها المادية والسياسية والعقلية ، إذ تحضر العرب ، وأخذوا يستعبرون كثيراً من النظم الأجنبية ومواد الثقافات لدى الأمم المفتوحة .

ونستطيع أن نميز ثلاثة جداول مهمة كانت تمد الحياة العربية في العصر الأموى ، وهى جدول جاهلى يتمثّل في الشعر والأيام وتقاليد الجاهليين ، وأقبل كثير من العلماء على هذا الجدول يعبّون منه ، مما هيا لتسجيل الحياة الجاهلية ، وجدول إسلامى يتمثل في تاريخ الإسلام وخطوبه وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وغزواته وأحاديثه وسيرة الخلفاء الراشدين وفتوحاتهم ، ثم ما كان من أحزاب سياسية وما لكل حزب من آراء في السياسة والحكم ، وجدول أجنبى يتمثل في معرفة شئون الأمم المفتوحة ونظمها السياسية والاجتماعية والاستعارة منها حسب الحاجة . ولعل أول ما كان من هذه الاستعارة اتخاذ عمر لديوان العطاء أو ديوان الجيش^(١) ، وقد خلفه جيل كانت استعارته أقوى وأكبر ، ونستطيع أن نرمز لصنيع هذا الجيل بما كان من اتخاذ معاوية لدواوين الخراج والخاتم والرسائل^(٢) ، ثم بما كان من تأليف زياد بن أبيه لكتاب في

(١) الوزراء والكتاب للجهشياري (طبعة (٢) نفس المصدر ص ٢٤ .

الجلبي) ص ١٧ .

المثالب ^(١) . وكلما مضينا في العصر اتسعت التأثيرات بما لدى الأجانب ، فقد كان العرب ناشرين للدين الإسلامي ، وقد اتصلوا بيهود ومجوس ونصارى وحدثت بينهم وبين هؤلاء جميعاً أحاديث ومناقشات ومحاورات تسرب إليهم في أثنائها كثير من الفكر الأجنبي وخاصة من شُعب الفكر اليوناني في الفلسفة والمنطق ، وقد أخذوا يقفون على طرق استغلال الأرض وغير ذلك من مسائل الحياة العملية ، وعاشوا في القصور وقام الأجانب على خدمتهم وتبشيرة حياتهم المادية ، واطلعوا على نظم التعليم عندهم وما أنشأوا من مدارس ، وطلب خالد ابن يزيد بن معاوية أن تترجم كتب في الكيمياء ^(٢) ، وأمر عمر بن عبد العزيز بترجمة كتيب في الطب ^(٣) .

ومعنى ذلك كله أن الكتابة نمت في العصر الأموي نمواً واسعاً ، فقد عرف العرب فكرة الكتاب وأنه صحف يجمع بعضها إلى بعض في موضوع من الموضوعات ، وقد ألفوا فعلاً كتباً كثيرة ، بعضها ديني خالص يتصل بمسائل الفقه والتشريع الإسلامي ، بمن ذلك أننا نجد الرواة ينسبون إلى هشام بن عروة بن الزبير أنه قال : « أحرق أبي يوم الحرّة كتب فقه كانت له » ^(٤) ونعرف أن موقعة الحرّة كانت لعهد يزيد بن معاوية ، وقد ترك زيد بن علي مؤسس مذهب اليزيدية مختصراً في الفقه ^(٥) ، ومرّبنا أن المحدثين طوال القرن الأول للهجرة كانوا يختلفون فيما بينهم ، منهم من يكتفي برواية الحديث ومنهم من يدونه ، حتى إذا وصلنا إلى رأس المائة أمر عمر بن عبد العزيز بتدوينه تدويناً عاماً ، ومن أوائل من بادروا إلى جمعه ابن شهاب الزهري ^(٦) المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة .

وقد نشطت الكتابة التاريخية ، فكتب المؤرخون في مغازي الرسول عليه

-
- (١) الفهرست لابن النديم (طبعة مصر) (٤) طبقات ابن سعد ١٣٣/٥ .
 ص ١٣١ .
 (٢) الفهرست ص ٣٣٨ .
 (٣) تاريخ الحكماء (مختصر الزوزني) طبع
 (٤) الزرقاني على موطأ مالك (طبع المطبعة
 الخيرية) ١٠/١ .
 (٥) راجع كلمة فقه في دائرة المعارف
 الإسلامية .
 (٦) ليجز ص ٣٢٤ .

السلام ، وعلى رأسهم أبان بن عثمان^(١) وعروة بن الزبير ، وهو أول من صنف في تلك المغازي^(٢) ، ثم الزهري^(٣) ، وكلهم من المدينة ، وهذا طبيعي فهمي دار النبوة ، وبيت السيرة الذكية . وقد أخذ بعض هؤلاء المؤرخين يتحدثون عن الخلفاء الراشدين والأمويين .

وبجانب مؤرخي السيرة النبوية نجد مؤرخين من اليمن يهتمون بتاريخ موطنهم ، وفي مقدمتهم عبيد بن شَرِيَّة الجُرهمي الذي وفد على معاوية وأدرك خلافة عبد الملك بن مروان ، وهو صاحب « كتاب الملوك وأخبار الماضين »^(٤) ألفه لمعاوية ، وطبع حديثاً في الهند باسم « أخبار عبيد بن شَرِيَّة الجُرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها » ومن يطلع عليه يجد الخرافة تغلب على أخباره . وتشتهر اليمن في هذا العصر بقُصَّاصها مثل تميم الداري ، وأشهرهم وهب بن منبّه الذي توفي سنة ١١٤ للهجرة ، وقد كتب كثيراً عن عرب الجنوب كما كتب عن مغازي الرسول ، وأهم من ذلك أنه عُنِيَ بجمع أخبار أهل الكتاب وما يتصل بها من الإسرائيليات^(٥) ؛ وهو مثل عبيد في ملء كتاباته التاريخية بالخرافات ، كما يلاحظ ذلك كل من يقرأ في الكتاب المنسوب إليه المسمى « كتاب التيجان في ملوك حمير » .

ونحن لا نصل إلى أواخر هذا العصر حتى نجد العراق تُعنى بهذه المادة التاريخية جميعها ، كما تعنى بتاريخ القبائل الشمالية وأنسابها وأيامها ، وأيضاً فلمّا عنيت بتاريخ الأحداث في عصر علي بن أبي طالب ثم في عصر بني أمية . وكان مما زاد في هذه العناية وخاصة بتاريخ العرب في الجاهلية وأيامهم وملوكهم وأمرائهم وشعرائهم وخطبائهم قيام علم اللغة وتوفير أصحابه على دراسة أحوال الجاهليين . ولا نلبث أن نجد مؤرخاً كبيراً هو أبو مخنف^(٦) يعنى بتأليف

-
- (١) انظر ترجمة أبان في دائرة المعارف الإسلامية وطبقات ابن سعد ١١٢/٥ .
 (٢) كشف الظنون (الطبعة القديمة) ٦٤٦/٥
 (٣) انظر ترجمة الزهري في دائرة المعارف الإسلامية .
 (٤) الفهرست ص ١٣٢ .
 (٥) كشف الظنون ٤٠/٥ .
 (٦) راجع ترجمة أبي مخنف في معجم الأدباء (طبعة القاهرة) ٤١/٧ .

كتب كثيرة يقال إنها بلغت اثنين وثلاثين كتاباً ، وأكثرها يتحدث فيه عن أحداث القرن الأول للهجرة ، واحتفظ الطبرى بكثير مما كتبه في تلك الأحداث . ولعل من الطريف أن نلاحظ أن هذه النزعة لكتابة التاريخ عند العرب ظهرت في ظروف مشبهة لظهورها عند اليونان ، فإن من المعروف أن اليونان لم يعنوا بكتابة تاريخهم إلا بعد حروبهم مع الفرس واتصالهم بالعالم الخارجى ، وكذلك كان الشأن عند العرب فلم يعنوا بكتابة تاريخهم إلا بعد حروبهم مع الأمم الأجنبية وفتحهم . وينبغى أن نعرف أن هذا النثر التاريخى عند العرب نثر عربى خالص ، فهم لم يستعيره من الأجانب ، بل مثلهم فيه مثل اليونان الأقدمين فى نثرهم ونشأتهم فى حجبهم .

وليس معنى ذلك أن الكتابة التاريخية عند العرب لم تتأثر بعناصر أجنبية فى هذا العصر المبكر ، بل لقد أخذت تتأثر بهذه العناصر كما مر بنا عند وهب بن منبه وأضرابه ممن كانوا يتحدثون عن الملوك الأوائل وعن قصص الأنبياء وأخبار شعوبهم ، غير أن هذه العناصر لم توجد هذه الكتابة من عدم ، بل لقد وقف تأثيرها عند تنميتها والتطور بها مع الزمن ، كان موضوعها فى كثير من جوانبها عربياً خالصاً يتصل بسيرة الرسول وأحداث الإسلام أو يتصل بأيام العرب فى الجاهلية وأخبار قبائلهم وملوكهم . وكلما تقدمنا فى الزمن اتسعت هذه العناصر الأجنبية ، فشملت تاريخ الفرس وتاريخ الأمم المفتوحة .

وإذا تركنا الكتابة التاريخية إلى الرسائل وجدناها مثل الخطابة التى عاصرتها ، فقد كانت هناك رسائل سياسية تصدر عن دواوين الخلفاء والولاة أو عن خصومهم ، ورسائل اجتماعية يتبادلها الناس فى أمور حياتهم الشخصية ، ورسائل دينية ، منها ما يأخذ شكل الموعظة ، ومنها ما يأخذ شكل الحوار والجدل ، حين يتعرض شخص للرد على صاحب نحلة من النحل .

وقد نهضت الرسائل السياسية فى هذا العصر نهضة واسعة ، وهى نهضة تُردُّ إلى سببين : أما السبب الأول فهو أن كثيراً ممن كانوا يكتبونها كانوا يُعَدُّون فى الذروة من الفصاحة والبيان لهذا العصر أمثال زياد والحجاج وقطربى بن

الفجاءة واختار الثقفى ، وأما السبب الثانى فقيام ديوان الرسائل وظهور طبقة من الكتاب المحترفين فى هذا الديوان ، لا فى دواوين الخلفاء وحدهم ، بل أيضاً فى دواوين الولاة ، وكان قادة الجيوش أيضاً يتخذونهم ، ليراسلوا عنهم من يريدون مراسلته . ومعروف أن ديوان الخراج كان يقوم عليه فى أول الأمر كتاب من الأجانب ، يكتبون فيه بلغاتهم الأصلية ، حتى إذا كان عصر عبد الملك نُقل هذا الديوان إلى العربية ، فأصبح الشأن فيه كالشأن فى ديوان الرسائل يليه العرب ، ولم يلبث الأجانب أن سعوا إلى تعلم العربية وشاركوا فى ديوان الرسائل نفسه .

ويقدم لنا كتاب الوزراء والكتّاب للجهشيارى أثباتاً طويلة بأسماء من كانوا يلون الديوانين : ديوان الرسائل وديوان الخراج ، وهى أثبات تدل دلالة قاطعة على أن من نهضوا بالكتابة السياسية فى هذا العصر إنما هم العرب ، وظلوا على ذلك طويلاً ، حتى أوشك القرن الأول للهجرة على الزوال ، فشاركهم الأجانب مشاركة بدت قاصرة فى أول الأمر ، حتى إذا كان عصر هشام ابن عبد الملك (١٠٤ - ١٢٤ هـ) وجدنا على ديوانه مولى كان يحسن اليونانية وينقل عنها بعض رسائل وهو سالم ، الذى تخرج على يديه عبد الحميد الكاتب الفارسى الأصل .

ومعنى ذلك أن كتابة الرسائل السياسية الرسمية نشأت فى حِجر العرب ، ونمت تحت أيديهم ، فقد أخذت فى الظهور منذ صدر الإسلام ومنذ أن جدّت تلك المشكلات التى اقتضت أن يكتب فيها الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه ، وبمضى الزمن أخذت مشاكل الدولة فى التعقد ، كما أخذ العقل العربى ينمو ويرقى ، فنمت ورقيت معه تلك الصناعة ، وتوفر عليها جماعة من بلغاء الخطباء كما توفرت عليها جماعة من الكتّاب المحترفين الذين توظفهم الدولة للعناية بها ، وحقاً يقال إن العرب استعاروا نظم الدواوين من لدن الفرس^(١) ،

(١) الوزراء والكتّاب للجهشيارى

ص ٢ وما بعدها .

ولكن الفرس مثلهم مثل غيرهم من الموالى لم يوجدوا لهم هذا الفن من كتابة الرسائل السياسية ، إنما أوجدته حياتهم وضرورتها السياسية والإدارية . ومن هنا كنا نرفض رفضاً باتاً رأى بعض المستشرقين الذين يزعمون أن العرب استعاروا كتابتهم السياسية الفنية أو نثرهم السياسى الفنى من لدن الفرس^(١) ، فالعرب لم يستعيروا من الفرس ولا من غيرهم نثرهم كما أنهم لم يستعيروا منهم ولا من غيرهم شعرهم ، وكل ما يمكن أن يلاحظ أنهم أخذوا مع الزمن يتأثرون فى نثرهم وشعرهم جميعاً بالأجانب من الفرس وغير الفرس ، وتمّ ذلك بحكم التطور واشتراك هؤلاء الأجانب معهم فى أدبهم ، وما كان من نقل ثقافتهم إلى العربية .

ونحن لا نغلو هذا الغلو الذى جعل بعض المعاصرين يذهب إلى أن العرب عرفوا الكتابة الفنية أو النثر الفنى منذ العصر الجاهلى^(٢) ، فما تحت أيدينا من وثائق ونصوص حسية لا يؤيد ذلك إلا إذا اعتمدنا على الفرض والظن ، والحق أن ما تحت أيدينا من النصوص الوثيقة يجعلنا نقف فى مرحلة وسطى بين الرأيين ، فلا نتأخر بنشأة الكتابة الفنية عند العرب إلى العصر العباسى عصر التأثير الواضح بالفرس ، ولا نتقدم بها إلى العصر الجاهلى ، بل نضعها فى مكانها الصحيح الذى تؤيده المستندات والوثائق ، وهو العصر الإسلامى ، حيث أخذت فى الظهور منذ صدره ، كما أخذت فى النمو والازدهار كلما تقدمنا مع الزمن . وإذا كان للفرس أو لغيرهم من الموالى فيها من فضل فهو فضل المشاركة فى النمو بها ، بالضبط على نحو ما صنعوا بالشعر فى العصر العباسى ، ولعل من المهم أن نعرف أن العرب لم يأخذوا عن الفرس فلسفة ولا نحتاً ولا تصويراً ولا شعراً ولا أى فن من الفنون .

وعلى نحو ما نشأت الكتابة السياسية الرسمية ونمت نشأت الكتابة الاجتماعية أو الشخصية وأخذت فى النمو منذ عصر الفتوح ، فإن تفرق العرب فى البلدان

2me. trimestres, 1927).

(١) انظر النثر الفنى لزكى مبارك ١/٣٤ ،

(٢) النثر الفنى ١/٣٣ - ٤٣ .

١/٤٣ وراجع بحثاً لموسى نشره فى :

الإسلامية دفعهم دفعاً إلى أن يتكاتبوا في مهامهم وشئونهم الشخصية وفي التهانى والتعزية وفي العظة والعبرة^(١). ومن غير شك كثر ذلك مع مر الزمن ، وإن كانت الكتب الأدبية والتاريخية لم تعن بتلك المكاتبات قدر عنايتها بالوسائل السياسية ، لأنها في الغالب لا يتعلق بها تاريخ ، وأيضاً فإن أصحابها لم يكونوا يقرعونها في الناس ولا كانوا يسجلونها ، ومع ذلك نجد آثاراً منها ، يرجع بعضها إلى صدر الإسلام ، وبعض آخر يرجع إلى عصر بنى أمية ، وربما كان أبرز كتّابها عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر .

أما الكتابة الدينية فقد أصابها ما أصاب الخطابة الدينية من الرقي والازدهار ، لسبب بسيط وهو أن كتّابها كانوا هم أنفسهم الذين مرّنوا على الخطابة والجدال والحوار في المسائل الدينية والمذهبية ، فأضفوا على كتابتهم نفس الصورة البيانية التي أضفوها على خطابهم ، مما نجده ماثلاً في كتابات الحسن البصري وغيلان الدمشقي وغيرهما من الوعاظ وأصحاب النحل الذين نهضوا بتمرين اللغة العربية على كثير من المعانى الدقيقة موازنين بين معانيهم وبين ألفاظهم وما تحتاجه لتأثيرها على وجدان السامع والقارئ من حلاوة وعذوبة .

٧

الصنعة في الكتابة الأموية

رأينا الكتابة في العصر الأموي تعالج موضوعات علمية وتاريخية ، كما تعالج رسائل سياسية واجتماعية ودينية ، وليس بين أيدينا وثائق صحيحة تصور كيف كانوا يعالجون مسائل العلم والتاريخ ، وحقاً مر بنا أنه طُبِعَ لعبيد بن شَرِيَّة كتابٌ في أخبار اليمن كما طبع لوهب بن منبه كتابه التيجان في ملوك حمير .

(١) انظر رسالتين متبادلتين بين الصحابين :

أبي الدرداء و سلمان الفارسي في العقد الفريد

ولكن الكتابين جميعاً مشكوك في صحة نسبتها إليهما . وربما كان أصح منهما وأوثق ما احتفظ به الطبرى في تاريخه الكبير . على أن من يرجع إلى ما رواه عن مؤرخي تلك الفترة يلاحظ أن الكتابة التاريخية كانت لا تزال في أول نشأتها ، وأنها لم تتطور بالسرعة التي تطورت بها الرسائل السياسية والدينية . ومن يقرأ ما أثير من رسائل سياسية لهذا العصر يستطيع أن يلاحظ في وضوح أنها كانت تجرى أول الأمر في الصورة التي كانت تجرى فيها لعهد صدر الإسلام ، فكاتبها أو مملها لا يتأق فيها ولا يقصد إلى تفنن أو زخرف فنى خاص ، إنما يقصد إلى أداء غرضه في عبارة جزلة مصقولة يغلب عليها الإيجاز .

غير أننا لا نكاذ نتجاوز منتصف القرن الأول للهجرة ، حتى تتكامل الرغبات للعناية بتلك الرسائل عناية توفّر لها ضروباً من التجويد والجمال الفنى ، وكأنما لم تعد الغاية أن تؤدي أغراضها فحسب ، بل أضيف إلى ذلك غاية أخرى أن تروّع القارئ والسامعين بتجويرها وتنميقها ، وكأنها قطعة موسيقية أو لوحات تصويرية . ولم يقفوا بذلك عند ظاهرها ، فقد أخذوا ينوعون في معانيها ويفرّعون ، ويطنبون صوراً مختلفة من الإطناب ، وسرعان ما نسمع أن عمرو بن نافع كاتب عبيد الله بن زياد والى العراق (٦٠-٦٤هـ) كان يطيل في رسائله طويلاً شديداً^(١) . وظاهرة الطول ظاهرة جديدة لم يكن يعرفها العرب في أديهم إذ كانوا يوجزون قبل عصر عبيد الله بن زياد في شعرهم ونثرهم جميعاً ، أما منذ هذا العصر فقد استمرت ظاهرة الإيجاز في الشعر ، بينما حلت محلها ظاهرة معاكسة في النثر ، وهى ظاهرة لا شك في أنها وليدة التطور العقلى الذى أصابه العرب ، فإذا هم يستطيعون أن يبسطوا آراءهم السياسية وأن يفصلوا في معانيها ضروباً مختلفة من التفصيل .

وإذا مضينا إلى عصر الحجاج وأغفلنا النظر عن طول الرسائل السياسية وما يُطوَى فيه من صنعة في بسط التعبير ومدّه ونظرنا في الصياغة والأسلوب

(١) تاريخ الطبرى ، القسم الثانى ص ٢٧٠ .

لاحظنا أن بعض هذه الرسائل كان يعتمد على السجع ، فكان الحجاج نفسه يسجع أحياناً كما كان يسجع بعض من ي كاتبونه ، ومن خير ما ي تصور ذلك رسالتان احتفظ بهما الجاحظ في بيانه ، وهما متبادلتان بينه وبين قَطْرِي بن الفُجاءة، وقد بُنيتا على السجع الخالص^(١) . وحقاً نجد المختار الثقفى يسجع في رسائله^(٢) ، ولكنه كان يبدو شاذّاً بعض الشيء في هذا الاتجاه ، أما في عصر الحجاج فيظهر أن كثيراً من الكتّاب كان يبنى كتابته عليه، ولعلّ مما يدل على ذلك أن نجد ابن الأشعث حين ثار على الحجاج وأعد جيشاً لحربه ، يقول لكتابه ابن القرية: « إني أريد أن أكتب إلى الحجاج كتاباً مسججاً أعرفه فيه سوء فعاله وأبصره قبح سريره » ويصدق ابن القرية بأمره ، ويرد عليه الحجاج برسالة مسجوعة أيضاً^(٣) . وقد لا يسجع الكاتب ، ولكنه لا يزال يفكر في طريقة يلفت بها القارئ والسامع ، فقد حدثنا الرواة أن يزيد بن المهلب في أثناء بعض حروبه فكر أن يكتب إلى الحجاج كتاباً ، وكان يكتب له يحيى بن يعنمر ، وهو عربى ومن أوائل من عُنوا بوضع قواعد العربية^(٤) فلما أمره يزيد بالكتابة إلى الحجاج وأن يعلمه بما صنعوا في الحرب كتب إليه هذه الرسالة القصيرة^(٥) :

« إنا لقينا العدو ، فنحننا الله أكتافهم ، فقتلنا طائفة وأسروا طائفة ، ولحقنا طائفة برعوس الجبال وعرائر^(٦) الأودية وأهضام^(٧) الغيطان ، وبيتنا بعُرْعرة^(٨) الجبل ، وبات العدو بحضيضه » .

ولما قرأ الحجاج الرسالة أعجب بها إعجاباً شديداً ، وأرسل إلى يحيى يطلبه على البريد ، فلما جاءه سأله : من أين لك هذه الفصاحة ؟ وهى فصاحة

(١) البيان والتبيين ٣١٠/٢ .

كرنكو (ص ٢٢ .

(٢) انظر الطبرى في سنة ٦٦ هـ .

(٥) البيان والتبيين ٣٧٧/١ .

(٣) الأخبار الطوال للدينورى (طبع ليدن)

(٦) عرائر الأودية : أسافلها .

(٧) أهضام الغيطان : مداخلها .

ص ٣٢٣ .

(٨) عرعة الجبل : أعلاه .

(٤) أخبار النحويين البصريين للسيرا (طبعة

كانت تعتمد على اللفظ الغريب . ونحن لا نُشغى على الإغراب في الألفاظ ولكننا نستدل من هذه الرسالة الموجزة على أن الكتّاب في عصر الحجاج كانوا لا يزالون يفكرون في صنعة أساليبهم ، فتارة يعمدون فيها إلى السجع ، وتارة يعمدون فيها إلى الإغراب اللفظي . فالكاتب لا يفكر في أداء معانيه فحسب بل يفكر في تنميقها وتزيينها بضروب من الحلية ، كل حسب ذوقه ، وكان يحيى بن يعمر لغويّاً ، وكان ذوقه ذوق لغويين فعمد إلى ألفاظ غير مألوفة كى يروع الحجاج ويملك عليه لُبّه ، ونفذ فعلاً إلى ما أراد ، إذ كان الحجاج يميل أحياناً إلى التفاسيح بالغريب ، على نحو ما مر بنا في خطبته بالكوفة التي بدأها بأرجاز تزرخ باللفظ الحوشى .

ولم يكن الحجاج يعمد إلى السجع في كتبه ورسائله دائماً ، بل لعل ذلك إنما كان في القلة وفي الحين بعد الحين ، أما الكثرة فتخلو من السجع . وليس معنى هذا أنه كان يتخلص من محاولة التأنق والتنميق ، فقد كان يسعى إلى تحقيق ذلك دائماً ، وكان يتخذ إليه الإغراب في اللفظ حيناً ، وحيناً يتخذ ما سبق أن لاحظناه في خطبته من الصور والاستعارات الطريفة ، ومن خير ما يصور ذلك عنده ما رواه الجاحظ في خاتمة بيانه من أنه كتب إلى عبد الملك بهذه الرسالة (١) :

« أما بعد فإننا نخبر أمير المؤمنين أنه لم يُصب أرضنا وابل (٢) منذ كتبت أخبره عن سُقيا الله إيانا ، إلا ما بَلَّ وجه الأرض من الطَّشِّ والرَّشِّ والرَّذاذ (٣) ، حتى دَقَّعت (٤) الأرض واقشعرت (٥) واغبرت (٦) ، وثارت في نواحيها أعاصيرُ تذرو (٧) دُقاق الأرض من ترابها ، وأمسك الفلاحون بأيديهم من شدة الأرض واعتزازها (٨) وامتناعها . وأرضنا أرضٌ سريعٌ تغيرها ، وشيكٌ تنكُّرها ، سيئٌ ظَنُّ

(١) البيان والتبيين ٩٩/٤ .

(٥) اقشعرت : تقبضت من الجذب .

(٢) وابل : مطر شديد .

(٦) اغبرت : من الغبار .

(٣) الطش : المطر القليل : ونحوه الرش

(٧) تذرو : تسق وتحمل .

(٨) اعتزازها : امتناعها ، أولعله من المزاز

(٤) دقعت الأرض : أصبحت لا نبات فيها .

وهي الأرض الصلبة .

أهلها عند قحوط المطر ، حتى أرسل الله بالقبول^(١) يوم الجمعة ، فأثارت زَبْرَجاً^(٢) متقطعا متمصراً^(٣) ، ثم أعقبته الشمال^(٤) يوم السبت ، فطَحَطَحَتْ^(٥) عنه جَهَامه^(٦) ، وأَلَقَتْ متقطعة ، وجمعت متمصرة ، حتى انتضد^(٧) ، فاستوى ، وطما وطحا^(٨) ، وكان^(٩) جَوْنَا^(١٠) مُرْتَعِنَا^(١١) قريباً رواعده . ثم عادت عوائده بوابل منهمل منسجل^(١٢) ، يردف^(١٣) بعضه بعضاً ، كلما أَرَدَفَ شُؤْبُوبٌ أَرْدَفْتَه شَأْيِب^(١٤) بشدة وقعه في العراض^(١٥) . وكتبت إلى أمير المؤمنين وهي ترمي بمثل قِطْعِ الْقُطُنِ ، قد ملأ اليَسَاب^(١٦) ، وسدَّ الشعاب^(١٧) وسقى منها كلُّ ساقٍ . فالحمد لله الذي أنزل غَيْثَه ، ونشر رحمته من بعدما قَسَنُوا^(١٨) وهو الولي الحميد . والسلام .

وواضح أن هذه الرسالة ليست مسجوعة ، ولكنها مع ذلك قد أحكمت صنعتها ، سواء من حيث اختيار ألفاظها والذهاب بها مذهب الغريب المقبول ، أو من حيث دقتها في تصوير الجذب ثم نزول الغيث ، وهو تصوير لاشك قد فكر فيه الحجاج طويلاً ، قبل أن يحكمه ويضبط التشبيهات والاستعارات التي تمثلها ، وكأنه شاعر يجمع أشنات خياله ، ليؤلف هذه اللوحة البديعة .

ولم تبلغ صناعة الرسائل هذا المبلغ من الإتقان عند الحجاج وحده ، فقد كان يشركه في ذلك معاصروه من الولاة والقواد وكتّابهما ، بل من الخلفاء

- | | |
|--|--|
| (١) القبول : الريح الشرقية . | (١٠) الجون : الأسود . |
| (٢) الزبرج : السحاب الرقيق الخفيف . | (١١) مرتعناً : مسترسلاً ساقلاً . |
| (٣) متمصراً : متقطعاً . | (١٢) منسجل : منصب . |
| (٤) الشمال : الريح الشمالية . | (١٣) يردف : يتبع . |
| (٥) طحطحت : فرقت وبددت . | (١٤) الشأيب : جمع شُؤْبُوب وهو الدفعة من المطر . |
| (٦) الجهام : السحاب لأماء فيه . | (١٥) العراض : جمع عرض بضم العين وهو الناحية . |
| (٧) انتضد : تراكت طبقاته بعضها فوق بعض . | (١٦) اليباب : الخالي الذي لا شيء فيه . |
| (٨) طما : امتلأ وزخر ، وطحا : انبسط وملاً الجو . | (١٧) الشعاب : المسالك والسبل . |
| (٩) كان هنا بمعنى صار . | (١٨) قنطوا : يثسوا . |

أنفسهم ، فقد روى الجاحظ في بيانه رسالتين متبادلتين بين عبد الملك بن مروان وعمر بن سعيد بن العاص حين ثار عليه ، وليستا مسجوعتين ، ولكن أثر الصنعة والتألق باد عليهما^(١) ، ومعنى ذلك كله أن الكتّاب أصبحوا منذ هذه الحقبة من العصر يتفننون في رسائلهم ، ويحاولون جاهدين أن تلمع عليها أثارة من الجمال الفني .

وإذا مضينا إلى أوائل القرن الثاني للهجرة وإلى عصر هشام بن عبد الملك (١٠٤-١٢٤هـ) وجدنا على رأس ديوانه مولى له يسمى سالماً^(٢) ينهض بكتابة هذه الرسائل السياسية نهضة واسعة ، وكان يعرف اليونانية وترجم منها بعض رسائل لأرسططاليس^(٣) ، وعده صاحب الفهرست أحد البلغاء العشرة الأوّل في تاريخ العرب وأدبهم^(٤) ، ويقول إن له رسائل تبلغ نحو مائة ورقة^(٥) ، غير أن هذه الرسائل لم تصلنا ، ولولا أن الطبري احتفظ لنا برسالة كتبها عن هشام إلى خالد القسري^(٦) لم نكد نعرف شيئاً واضحاً عن فنه وبيانه ، ومن يرجع إليها يلاحظ أنه عني بأسلوبه عناية تشبه عناية الوعاظ من أمثال الحسن البصري بأسلوبهم وما كانوا يوفرون له من الازدواج والترادف الصوتي ، وكان يتكى على الحال اتكاء شديداً في صياغته .

وليس تحت أيدينا من النصوص ما نستطيع به أن نحكم على مدى التأثير اليوناني في كتابة سالم ، وإن كان يُظنّ أن هذا التأثير كان عميقاً ، وقد تخرّج عليه عبد الحميد أنه كتّاب العصر وأشهرهم ، وسنعرض له عما قليل . على أنه ينبغي أن نلاحظ هنا شيئاً مهماً ، وهو أن التأثير الأجنبي في الكتابة العربية الفنية لم يدخل أول الأمر عن طريق الفرس وكاتبهم ابن المقفع ، مما جعل بعض المستشرقين يزعم أنهم هم الذين أعاروا العرب هذا الفن النثري ، بل لقد دخل كما نرى الآن عن طريق سالم الذي كان يحذق اليونانية . ولعل في ذلك ما يدل

(١) البيان والتبيين ٨٧/٤ .

(٤) الفهرست ص ١٨٢ .

(٢) الوزراء والكتّاب للجهشياري ص ٦٢ .

(٥) الفهرست ص ١٧١ .

(٦) الطبري ، القسم الثاني ص ١٦٤٢ .

(٣) الفهرست ص ١٧١ .

على ما نذهب إليه من أن الكتابة الرسمية الفنية عند العرب لم تأت من الخارج ، فقد نشأت في حجوهم بحكم حياتهم الإسلامية والسياسية الجديدة ومشاكلها المختلفة ، فالأجانب لم يبتكروها لهم ، بل كل ما هنالك أنهم أسهموا معهم فيها ، وتأخر هذا الإسهام إلى أن ظهر سالم وأشباهه .

ولم تكن الرسائل السياسية وحدها هي التي يطرد لها النمو والازدهار ، بل شاركتها في ذلك الرسائل الاجتماعية أو الشخصية ، لسبب بسيط ، وهو أن من كانوا يكتبونها كانوا يعيشون في تلك الحقب التي أخذ البلاغ يهتمون فيها بتنميق أساليبهم وإيداعها ضرورياً من البيان والفصاحة ، ونسوق مثلاً لها رسالة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى رجل من إخوانه ^(١) :

« أما بعد فقد عاقني الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك . ابتدأتني بلطف عن غير خبرة ، ثم أعقبني جفاء عن غير ذنب ، فأطمعني أولك في إخالتي وأياستني آخرك من وفائتي ، فلا أنا في اليوم مجمع لك أطراحاً ، ولا أنا في غد وانتظاره منك على ثقة . فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة فيك ، فأقمنا على ائتلاف ، أو افترقنا على اختلاف . والسلام » .

والرسالة على قصرها يتضح فيها جهد كاتبها في تحييرها ، فقد بناها على الطباق والمقابلة بين المعاني والألفاظ ، والتوازن بين العبارات والكلمات الفصيحة ذات المحاج الحسنة ، وكان شاعراً بيبناً وخطيباً لسيناً ، فأضنى من لسنه وبيانه على رسالته .

وإذا تركنا الرسائل الاجتماعية الشخصية والسياسية الرسمية إلى الرسائل الدينية والجدلية وجدنا أصحابها هم أنفسهم أرباب البيان والبلاغة من الخطباء المفوهين أمثال الحسن البصري وغيلان الدمشقي .

وكانت هذه الرسائل تستخدم الأسلوب المزدوج الذي يأخذ بأطراف من التصوير والطباق ، والذي سبق أن لاحظناه في خطابة الحسن البصري

(١) البيان والتبيين ٢/ ٨٤ - ٨٥ وزهر

الآداب ١/ ٧٨ .

وأضرابه ، ونسوق مثاليين منه ، أما أولهما فما كتب به الحسن إلى عمر بن عبد العزيز في صفة الإمام العادل ، وهو يطرد على هذه الشاكلة ^(١) :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قِوَام كلِّ مائل وقَصْد كلِّ جائر ، وصلاح كلِّ فاسد ، وقوة كلِّ ضعيف ، ونصف كلِّ مظلوم ، ومفزع كلِّ ملهوف . والإمام العَدْلُ يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على لبله ، الرفيق بها ، الذي يرتاد لها أطيب المراعى ، ويدودها عن مراتع الهلكة ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقر ^(٢) . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده ، يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم في حياته ، ويدنّخر لهم بعد مماته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرّة بولدها ، حملته كرهاً ، ووضعت كرهاً ، وربّته طفلاً ، تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تاره ، وتغضمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغمُّ بشكايته . . »

وتحمل هذه القطعة من الرسالة كل الخصائص التي سبق أن تحدثنا عنها في خطابة الحسن ، ففيها الازدواج والترادف الصوتي والتكرار ، وفيها التقابل والطباق والتشبيهات وغير ذلك من حُلّى بيانية . وقد مضى الحسن يقتبس فيها من آى الذكر الحكيم ما يصور به فكره ويوشى به تعبيره . أما المثال الثانى فنسوقه من رسائل غيَّيلان الدمشقي ، إذ يقول ^(٣) :

« إن التراجع في المواعظ يوشك أن يُذهب يومها ويأتى يوم الصاخة ^(٤) ، كل الخلق يومئذ مُصَيِّخ ^(٥) ، يستمع ما يُقال له ويُقضى عليه (وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً) . فاصمّت اليوم عما يُصمّتك يومئذ ، وتعلّم ذلك حتى تعلمه ، وابتغى حتى تجده ، وبادر قبل أن تفجأك دعوةٌ

(٤) يوم الصاخة : يوم القيامة .

(٥) مصيخ : مرهف أذنه وسمعه .

(١) العقد الفريد ١/٣٤ .

(٢) القر : البرد .

(٣) عيون الأخبار ٢/٢٤٥ .

الموت ، فإنها عنيقة إلا بمن رحم الله . ويا رَبَّ متعبد لله بلسانه معاد له بفعله ، ذلول في الانسياق إلى عذاب السَّعِير في أمنية أضغاث ^(١) أحلام يَعْبُرُها بالأمانى والظنون ، فاعرف نفسك » .

وهذه القطعة بدورها ترينا مدى احتفال الوعاظ برسائلهم وما كانوا يؤدون فيها من ضروب الجمال الفني ، ويقول صاحب الفهرست إن رسائله كانت في ألنى ورقة ^(٢) . ولا نرتاب في أن هذه الرسائل وما يماثلها من مواعظ الحسن البصرى وأضرابه هي التي استعار منها سالم وتلميذه عبد الحميد أسلوبهما الكتابي في الرسائل السياسية ، فإننا نجدهما يكتبان من نفس النمط ونفس النموذج ، وهو النموذج الذي شاع طوال القرن الثاني بين الكتاب العباسيين وعلى رأسهم الجاحظ ، ونقف قليلا لتحدث عن عبد الحميد الكاتب في إيجاز .

٨

عبد الحميد الكاتب وخصائصه الفنية

هو عبد الحميد بن يحيى مولى العلاء بن وهب القرشي ، ويقول من كتبوا عنه إنه يرجع إلى أصول فارسية ^(٣) ، وإنه كان من أهل الأنبار وسكن الرقة ^(٤) ، وكان في أول أمره ينتقل في البلدان معلماً في الكتاتيب ^(٥) ثم التحق بديوان الرسائل في دمشق لعهد هشام بن عبد الملك ، حيث خرجته ختته سالم مولى هشام ورئيس هذا الديوان ^(٦) . واتصل بمروان بن محمد وكتب له أيام كان

(١) أضغاث : أخلاط .

الميمنية ٣٠٧/١٢ .

(٢) الفهرست ص ١٧١ .

(٥) نفس المصدر ٣٠٧/١ والفهرست ١٧٠ .

(٣) المسالك والممالك للإصطخرى (طبعة

(٦) وفيات الأعيان ٣٠٧/١ والوزراء

والكتاب ص ٦٢ .

ليدن) ص ١٤٥ .

(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان (طبعة المطبعة

والياً ، فلما صارت إليه الخلافة أقامه على ديوانه ، فمضى بالعمل فيه خير نهوض .

ولما دارت الدوائر على مروان وانتصرت عليه الجيوش العباسية بقيادة أبي مسلم الخراساني في موقعة الزاب ظل مخلصاً له وفياً ، ففر معه إلى مصر حيث قُتلا في موقعة بوصير^(١) . ويروى المسعودي أن مروان قال له حين أيقن بزوال ملكه : قد احتجت أن تصير مع عدوي وتظهر الغدر بي ، فإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابتك يدعوانهم إلى حسن الظن بك ، فإن استطعت أن تنفني حياتي صنعت ، وإلا لم تعجز عن حفظ حرّمي بعد وفاتي ، فقال له عبد الحميد : إن الذي أشرت به عليّ أنفع الأمرين بك وأقبحهما بي ، وما عندي إلا الصبر ، حتى يفتح الله أو أقتل معك ، وأنشد :

أسرّ وفاء ثم أظهر غدره ففني لي بعذر يوسع الناس ظاهره^(٢)

وفي ابن خلكان رواية أخرى تزعم أن عبد الحميد اختفى بعد مقتل مروان في الجزيرة ، فوقف عليه السفاح وعذبه حتى مات^(٣) ، ويروى الجهمي أنه اختفى عند ابن المقفع ففاجأهما الطلب ، وأخذ عبد الحميد^(٤) . والصحيح ما ذكرناه أولاً من أنه قُتل في بوصير مع مروان .

وعبد الحميد أبلغ كتاب الدواوين في العصر الأموي وأشهرهم ، وقد ضُربت ببلاغته الأمثال ، فقليل فتحت الرسائل بعبد الحميد ، وخُتِمت بابن العميد^(٥) ، ويقول ابن النديم : «عنه أخذ المترسلون ، ولطريقته لزمو ، وهو الذي سهّل سبيل البلاغة في الترسل»^(٦) . ويزعم المسعودي أنه أول من استخدم التحميدات

(١) وفيات الأعيان ٣٠٧/١ .

ص ٧٩ .

(٢) مروج الذهب للمسعودي (طبعة دار

(٤) الوزراء والكتاب ص ٨٠ .

الرجاء) ١٧٨/٣ والكتاب ص ٧٩

(٥) اليتيمة للعلابي (طبعة الصاوي)

١٣٧/٣ .

وعيون الأخبار ٢٦/١ .

(٦) الفهرست ص ١٧٠ .

(٣) وفيات الأعيان وانظر الوزراء والكتاب

في فصول الكتب^(١) . والحق أنه القمة التي وصلت إليها الكتابة الفنية في العصر الأموي ، إذ كان زعيم البلغاء في عصره غير مدافع . وقد بقيت منشورات من رسائله تشهد بفصاحته ولسّنه ومقدرته على التعبير والبيان مع الفخامة والطلاوة ، من ذلك رسالة وجهها إلى عُمّال مروان بن محمد بالأمصار يأمرهم بمحاربة لعبة الشطرنج ، ورسالة ثانية يصف فيها رحلة صيد وقد تأثر فيها تأثراً شديداً بوصف شعراء الجاهلية للصيد وكلابه وجوارحه . ورسالة ثالثة تقدم بها إلى الكتّاب^(٢) ، ضمنها وصايا مختلفة لهم ، وهي تدل على نحو طبقتهم وأنهم أصبحوا يؤلفون جماعة بارزة في حياة الدولة ووظائفها وأعمالها المتنوعة . ونراه يستلها بأن صناعتهم أشرف الصناعات ، إذ بهم ينظم الملك ويتدبرهم وسياستهم يستقيم الحكم ، وينصحهم أن يتحلوا بخلال الخير ونخصال الفضل ، ويخوض فيما ينبغي أن يتقنوه من صنوف المعرفة والثقافة ، يقول :

« فنافسوا معشر الكتّاب في صنوف العلم والأدب ، وتفقهوا في الدين ، وابدعوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ، ثم العربية فإنها ثِقاف ألسنتكم ، وأجيدوا الخطَّ فإنه حِلْيَة كُتُبكم ، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك مُعين على ما تسمون إليه بهمكم ، ولا يضعفنَّ نظركم في الحساب فإنه قوام كُتّاب الخراج منكم » .

وفي ذلك الدلالة البينة على أن الكاتب في عصر عبد الحميد كان لا يستطيع أن يحسن وظيفة الكتابة إلا إذا أُلِمَّ بالثقافة الإسلامية وثقافة العرب الأدبية من خطابة وغير خطابة ومن أيام وغير أيام ، وأخبار الأمم الأجنبية ومعارفها ، ولا بد أن يعرف الحساب وأن يروى الأشعار ويقف على غريبها ومعانيها ، فيفيد منها كما أفاد عبد الحميد نفسه في رسالة الصيد إذ نثر فيها كثيراً من معاني الشعر القديم . فالكتابة لم تعد عملاً سهلاً بسيطاً ، بل أصبحت عملاً معقّداً ، لا بد فيه من إعداد ومن تثقف تام بالقرآن الكريم وأوامر الشريعة وبالأدب العربي

(٢) الوزراء والكتاب ص ٧٣ وما بعدها .

(١) مروج الذهب ٣/ ١٧٨ .

وكنوزه الثرية والشعرية والآداب الأجنبية . وليس هذا كل ما يلفتنا في الرسالة ، فقد تحدث عبد الحميد طويلاً عما ينبغي أن يأخذ به الكاتب نفسه في سياسة الناس وتديير شؤونهم ، كما تحدث عما يمكن أن نسميه آداب اللياقة بالقياس إلى الخلفاء . والرسالة في مجموعها تتصل مباشرة بما أثر من وصايا ملوك الفرس لكتّابهم ، مما رواه الجهمشيري في مقدمة كتابه الوزراء والكتاب ، ولذلك كنا نظن ظناً أن عبد الحميد يتأثر فيها بتلك الوصايا ، ولعل هذا هو الذي جعل صاحب الصناعتين يزعم أنه « استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي ، فحوّلها إلى اللسان العربي » ^(١) ونصّ الجاحظ في بيانه على أنه ترجم بعض كتب من الفارسية ^(٢) ، ولابد أن تكون هذه الكتب متصلة بعمله من الكتابة الأدبية . وربما كان من أطرف ما نقرؤه في رسالته إلى الكتّاب الآنف الذكر أننا نراه يدعوهم إلى تأليف ما يشبه النقابة في عصرنا ، فقد طلب إليهم أن يعطفوا على من يَسْبُو به الزمان منهم ، وأن يواسوه ، حتى يرجع إليه حاله ويثوب أمره . والرسالة بذلك دستور واسع للكتّاب يصور واجباتهم الخلقية والثقافية ، وعلى هديها كُتبت فيما بعد كتب أدب الكاتب والكتّاب لابن قتيبة والصولي وغيرهما .

وربما كانت أهم رسالة سياسية وصلتنا عنه رسالته التي بعث بها عن مروان ابن محمد إلى ابنه وولي عهده عبد الله حين وجّهه لمحاربة الضحّاك بن قيس الشيباني الخارجي الذي ثار في العراق وامتدت ثورته إلى الموصل عام ١٢٨ للهجرة ، وهي رسالة كبيرة ، وكأن عبد الحميد أراد بها أن يضع دستوراً لتنظيم قواد الدولة لجيوشهم من الوجهتين : المادية والحربية ، والرسالة تقع في نحو أربعين صحيفة ، فهي أطول رسالة أثرت عن عصر بني أمية ، إذ امتد فيها نفس عبد الحميد إلى كثرة واسعة من الصحف ، فصّل فيها الحديث عن آداب القادة وتصريفهم للمسائل الحربية ، وأطال في بيان ذلك ، حتى غدت

(١) الصناعتين لأبي هلال العسكري (طبعة البيان والتبيين ٢٩/٣ .
الجلد) ص ٦٩ .

الرسالة أشبه ما تكون بكتاب مستقل .

وهذا الطول المسرف في الرسالة جعل خصائص عبد الحميد في منه الكتابي تبدو واضحة تمام الوضوح ، إذ نرى الخاصة من خصائصه تنبسط تحت عين القارئ انبساطاً واسعاً . وقد قسمها ثلاثة أقسام كبيرة قسم يصور القائد وما ينبغي أن يكون عليه من آداب في سلوكه مع نفسه ثم مع حاشيته ورؤساء جيشه ، وأثر الثقافة الفارسية وما عرف عن آداب الفرس في الملك والسياسة بين في هذا القسم . أما القسم الثاني فخاص بسياسة القائد لجيشه وما ينبغي أن يتخذ فيه من شرطة وقضاة ورجال مال . وأما القسم الثالث فقد تحدث فيه عن التنظيم الداخلي للجيش وكيفية إعداده في وحدات كل وحدة مائة ، وهو نفس النظام الحربى الذى كان متبعاً عند البيزنطيين ، مما جعل طه حسين يظن أن عبد الحميد يتأثر في هذا النظام برسائل الحرب عند اليونان . وذهب يلتمس صلة عبد الحميد بالثقافة اليونانية في تقسيم كلامه إلى فصول بحيث يؤدى كل فصل فكرة تامة . وهى خاصة في رأيه من خصائص النثر اليونانى القديم ، وأيضاً فإنه وجده يستخدم الحال استخداماً مسرفاً ، على شاكلة استخدام اليونان له ، يقول : « وهو لا يقتصد في استعمال الحال ، وإنما هو يعتمد عليها في تحديد فكرته وتوضيحها وتقييدها وتجميل الكلام وإظهار الموسيقى » (١) .

وأغلب الظن أن عبد الحميد في ذلك كله إنما كان يقلد أستاذه سالماً في كتابته ، فصلة سالم باليونانية مقررة ، ومرراً بنا أنه كان يسرف في استخدام الحال كما تشهد بذلك إحدى رسائله ، وقد أثرت عن ابنه عبد الله رسالة (٢) تسرف أيضاً في استخدام الحال وكأنها كانت لازمة من لوازم سالم ، وتأثر به فيها تلميذان له ، أحدهما من بيته وهو ابنه عبد الله وثانيهما من غير بيته وهو عبد الحميد . أما مسألة تنظيم الجيوش إلى وحدات كل وحدة مائة فلعل عبد الحميد عرفها كما عرفها معاصروه عن طريق ما كانت تتبعه الجيوش البيزنطية في عصره

(٢) الكامل للمبرد ص ٧٩٣ .

(١) من حديث الشعر والنثر لطلح حسين

ص ٤٠ وما بعدها .

في عصره من تنظيم حربى وكانت الحرب قائمة بينهم وبين العرب لا يهدأ أوارها . ونحن نقف في منزلة وسطى بين طه حسين ومن كتبوا عن عبد الحميد من القدماء ، فقد أجمعوا على أنه كان فارسياً وأنه نقل عن الفرس بعض رسائل أدبية ، وإذا فهو في نثره يتأثر الفرس تأثيراً مباشراً لا شك فيه ، أما تأثيره باليونان فلعله جاءه عن طريق أستاذه سالم الذى كان يحدق اليونانية ، وهى تظهر عنده في التزامه المنطق الدقيق في تقسيم كلامه إلى أجزاء متميزة وفقر متناسقة ، لا يظهر فيها أى نبوءة ، ولا يداخلها أدنى شيء من استطراد أو تشعث . وفي رأينا أن سالماً هو الذى اتبع ذلك أولاً في رسائله بحكم ثقافته اليونانية ، ثم حاكاه تلميذه ، كما حاكاه في لازمة الحال وفي أسلوبه الموسيقى الذى يقوم على الازدواج والترادف الصوتى ، وهو أسلوب سبق إليه الوعاظ من أمثال غيلان الدمشقى والحسن البصرى ، ونقله عنهم سالم في كتاباته ، وجاراه تلميذه عبد الحميد فيه ، حتى أوفى به على غايته ، فبهر معاصريه ومن خلفهم . وانظر إليه يقول في مطلع هذه الرسالة السياسية الطويلة^(١) :

« اعلم أن للحكمة مسالك تفضى مضائق أوائلها بمن أمها سالكاً ، وركب أخطارها قاصداً ، إلى سعة عاقبتها ، وأمن سرّحها^(٢) ، وشرف عزها ، وأنها لا تُعار بسخف الخفّة ولا تنشأ بتفريط الغفلة . . واعلم أن احتواءك على ذلك وسبقك إليه بإخلاص تقوى الله في جميع أمورك موثراً بها ، وإضمار طاعته منظوياً عليها ، وإعظام ما أنعم الله به عليك شاكرّاً له ، مرتبطاً فيه بحسن الحياطة له والذب عنه من أن تدخلك منه سامة ملال ، أو غفلة ضياع أو سِنَّةُ تهاون ، أو جهالة معرفة ، فإن ذلك أحقُّ ما بُدئ به ونُظر فيه معتمداً عليه بالقوة والآلة والعُدَّة ، والافتراق به من الأصحاب والحامّة ، فتمسك به لاجئاً إليه ، واعتمد عليه موثراً له ، والتجئ إلى كنفه متحيزاً إليه ، فإنه أبلغ ما طُلب به رضا الله ، وأنجحه مسألة ، وأجزله ثواباً ، وأعوذه نفعاً ، وأعمه صلاحاً » .

(١) صبح الأعشى للقلقشندي ١٩٥/١٠ (٢) السرح : المال السائم .

وما بعدها .

وواضح أن عبد الحميد يعتمد على خاصة الترادف الموسيقى ، فالفكرة تؤدَّى لا في عبارة واحدة ، وإنما في عبارتين أو عبارات ، حتى يكتسب الأسلوب ضرباً من التوقع والتعادل الصوتي ، فإذا العبارات تتلاحق متوازنة متعادلة تعادلاً موسيقياً رائعاً ، يُرضى الأذن والشعور . وهو أثناء ذلك يعتمد على الحال اعتماداً مسرفاً لا نعرفه عند الوعاظ ولا عند من سبقوهم وعاصروهم من الخطباء ، إنما نعرفه عند سالم وابنه عبد الله ثم عند صاحبنا ، وكأنها أصبحت لازمة من لوازم تلك المدرسة .

ويوشى عبد الحميد أسلوبه بجلية التصوير وما يدمج فيه من استعارات ، وجلية الطباق والمقابلة ، بالضبط على نحو ما كان يصنع الحسن البصري وغيلان الدمشقي وأضرابهما في رسائلهم ومواعظهم ، ومن رسائله الطريفة التي تصور مهارته البيانية تصويراً دقيقاً رسائله الشخصية إلى أهله ، وهو منهزم مع مروان يعزِّبهم عن نفسه^(١) :

« أما بعد فإن الله جعل الدنيا محفوفةً بالكره والسرور ، وجعل فيها أقساماً مختلفة بين أهلها ، فمن درَّت^(٢) له بحلاوتها وساعده الحظُّ فيها سكن إليها ، ورضى بها ، وأقام عليها ، ومن قرصته بأظفارها ، وعضَّته بأنيابها ، وتوطَّأته بشِقْلها ، قَلَّاهَا^(٣) نافرأ عنها ، وذمَّهَا ساخطاً عليها ، وشكاها مستريداً منها . وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها وأرضعتنا من درَّهَا أفأويق^(٤) استحليناها ثم شَمَسَتْ^(٥) منا نافرة ، وأعرضت عنا متنكرة ، ورحمتنا^(٦) مولَّية ، فُلُحَّ عذْبها ، وأمرَّ حلُّوها ، وخشَّنْ لينا ، ففرَّقتنا عن الأوطان ، وقطعتنا عن الإخوان . فدارُنَا نازحة ، وطَّيِّرنا بارحة^(٧) ، قد أخذت كل ما أعطت ، وتباعدت مثلما تقربت ، وأعقبت بالراحة نصباً^(٨) ، وبالجلد^(٩) همّاً ، وبالأمن خوفاً ،

(١) الوزراء والكتاب للجهشياري ص ٧٢ .
 (٢) درت : من الدر وهو اللبن .
 (٣) قلاها : أبغضها .
 (٤) أفأويق : ما يتجمع في الضرع من اللبن الذي يحلب .
 (٥) شمسَتْ : من شمس الفرس إذا منع ظهره .
 (٦) رحمتنا : من رجه الفرس إذا رفسه .
 (٧) الطير البارحة : التي تمر من اليمين إلى اليسار ، وكان العرب يتشاءمون بها .
 (٨) نصباً : تعباً .
 (٩) الجلد : السرور .

(٥) شمسَتْ : من شمس الفرس إذا منع ظهره

وبالعز ذلاً ، وبالجدّة ^(١) حاجة ، والسَّراء ضرّاً ، وبالحياة موتاً ، لا ترحم من استرحمها ، سالكة بنا سبيل من لا أوبة له ، منفيين عن الأولياء ، مقطوعين عن الأحياء » .

وخصائصُ عبد الحميد جميعها واضحة في هذه الرسالة القصيرة ، ففيها لازمة الحال ، وفيها جودة التقسيم ودقة المنطق ، وفيها الطباق ومقابلاته والصور وألوانها وخاصة لون الاستعارة ، وفيها الازدواج والترادف الموسيقى الذى يتيح لعباراته فنوناً مختلفة من الإيقاعات والموازنات الصوتية . وبذلك كنت تقرأه ، فيلذ عقلك لدقة معانيه ، ويلذ شعورك لجمال تصويره وجمال موسيقاه .

ونحن لا نقول كما قال السابقون إن الرسائل بُدئت بعبد الحميد ، فقد بدأت منذ فاتحة العصر الإسلامى ، وقام عليها بلغاء كثيرون أتاحوا لها النماء وضروباً من الازدهار . ومن ثمّ كنّا نرفض أوليته في الرسائل ديوانية وغير ديوانية ، ولكننا بعد ذلك نثبت له أنه كان القمة التى وصلت إليها نهضة الكتابة في العصر الأموى ، لما صارت إليه عنده من هذا اليسر وتلك المرونة في أداء المعانى التى كان يحتلها من الأدب الفارسى والتى كان يعبر عنها تعبيراً منطقيّاً دقيقاً ، لا استطراد فيه ولا حشو ولا نبوّ بأى وجه من الوجوه ، وأيضاً لما أتاح لها من هذا الأسلوب التصويرى الموسيقى ، فإذا الكتابة عنده تروق العين والأذن كما تروق العقل والقلب . ومن غير شك هيات لذلك كله عنده بيئات الوعاظ ، كما هيا له أستاذه سالم ، ولكن ذلك لا يضيره ، فحسبه أنه كان يملك لغته ويصرفها في أداء معانيه كما يشاء ، كما كان يملك أسلوبه وينظّمه تنظيماً تصويرياً وموسيقياً بديعاً ، مما جعله ينفذ بصنعة الرسائل إلى كل ما كان يريده أصحابها من تنويع في معانيها على أساس من المنطق الدقيق وجمال في أساليبها على أساس من التصوير الطريف والإيقاع الصوتى الأنيق .

الفصل الثالث

الصنعة في النثر العباسي

١

النثر العباسي

خَلَفَت الدولة العباسية دولة بني أمية ، واتخذت بغداد حاضرة لها تاركة شئون الحكم للفرس الذين قضوا قضاء مبرما على الأمويين ، وبذلك أصبحوا هم السادة الحقيقيين . فلم يعد العرب يتصدرون مكان السيادة ، ولم تعد لهم أرستقراطيتهم كما كان شأنهم في العصر الأموي ، فقد إبعدوا غالباً عن المناصب الكبرى في الإدارة والجيش ، وأصبحوا لا يستطيعون الدخول على الخليفة إلا إذا أذن لهم الموالى من الفرس ، أمثال البرامكة وبني سهل ، ممن أمسكوا بزمام الأمور .

وبذلك عمت الروح الفارسية في الحياة العباسية ، حتى الخليفة نفسه لم يعد كأسلافه الأمويين يمثل شيخاً كبيراً من شيوخ القبائل العربية ، بل أصبح خلفاً للملك الفرس الساسانيين ، فله وزراؤه وحجابه وبلاطه ، وله نفس التقاليد الفارسية في التشريقات ، ويعيش معيشة مترفة ، وإذا كان أبو جعفر المنصور عُرِفَ بالاعتدال في الاتصال بهذه الحياة الجديدة فإن من خلفوه أقبلوا عليها إقبالا شديداً .

وكان تقدم الفرس على العرب في شئون الحكم سبباً في اصطدام هائل بين العرب والموالى ، وسرعان ما ظهرت نزعة الشعوبية ^(١) ، إذ أخذ جماعة من علماء العجم وأدبائهم يطعنون في عرب الجاهلية لبعدهم عن أسباب الحضارة

(١) انظر الفصل الخاص بهذه النزعة في الجزء الأول من ضحى الإسلام .

والثقافة ، وطعنوا عليهم أيضاً في كل ما يتصل بهم من فضائل خلقية ومن خطابة وغير خطابة منوهين بفضائل الفرس وغيرهم من شعوب الحضارات القديمة وما اشتهرت به من عمارة وفنون وعلوم . واتخذ ذلك شكل نزاع ضخم ، فألفت كتب كثيرة في مثالب العرب ، وكتب أخرى كثيرة في فضائل الفرس وغيرهم . ومن أشهر هؤلاء الشعوبيين في العصر العباسي الأول أبو عبيدة معمر بن المثنى وأصله من يهود فارس ، وهو من أشهر العلماء في اللغة والأخبار ، وكان يتعصب للفرس على العرب ، فألف في فضائل الأولين كتاباً^(١) ، أما الأخيرون فألف كتاباً في مثالبهم^(٢) . وشركه في كتابة المثالب والتأليف فيها الهيثم بن عدى^(٣) . ومن اشتهر بهذه النزعة سهل بن هرون ، كاتب البرامكة ثم أخذ أصحاب خزانة الحكمة للمأمون . ومنهم علان الشعوبي وكان ورّاقاً في خزانة المأمون ، وقد جمع في كتابه « حلبة المثالب » جملة المطاعن على القبائل العربية في زمن الجاهلية^(٤) . ولم يقف أنصار العرب صامتين إزاء هذه النزعة ، فقد أخذوا يردون على أصحابها ، ومن أشهر من اضطلعوا بهذا الرد مدافعين عن العرب الجاحظ في فاتحة الجزء الثالث من البيان والتبيين ، وصنع صنيعة ابن قتيبة في رسالة له سماها كتاب العرب^(٥) .

ترجم الفرس كثيراً من تراثهم إلى العربية^(٦) ، ومن أشهر من قاموا بهذا الصنيع عبد الله بن المقفع وآل نوبخت^(٧) ، ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق أثر في اللغة البهلوية إلا ترجم إلى العربية سواء تعلق بتاريخ الساسانيين أو بأدبهم ، ومن ثمّ بالغ بعض المحدثين فيما كان للثقافة الفارسية من أثر في العقل العربي ،

-
- (١) الفهرست ص ٧٩ - ٨٠ وراجع ترجمته في إنباه الرواة ٢٧٦/٣ .
 (٢) انظر طبقات النحويين واللغويين للزبيدي (طبعة الخانجي) ص ١٩٣ .
 (٣) الفهرست ص ١٤٥ ومعجم الأدباء ٣٠٩/١٩ .
 (٤) الأغاني (طبع الساسي) ١٥٠/١٢ .
 (٥) انظر هذه الرسالة في كتاب رسائل البلغاء نشر كرد علي .
 (٦) انظر في ذلك الفصل الخاص بالثقافة الفارسية في الجزء الأول من ضحى الإسلام .
 (٧) انظر في النقطة من الفارسية إلى العربية الفهرست ٣٤١ وما بعدها .

ومن الغلاة في ذلك إنيسترانسيف ، فقد أكبر في كتابه « الأثر الإيراني في الأدب الإسلامي » من شأن هذه الثقافة وتأثيرها في العرب معتمداً في ذلك على ما يحصيه ابن النديم في فهرسته من أسماء الكتب الفارسية المترجمة ، وهي كثيرة هناك كثرة غامرة ، إلا أن هذه الكثرة يجب أن نحلها ، فالمسألة مسألة كيف لا كم ، وربما كانت أهمية هذه الثقافة لا ترجع إلى ما تُرجم للفرس أنفسهم ، وإنما ترجع إلى ما ترجم إلى لغتهم عن غيرها ، فقد كانت وسيطاً مهماً في نقل كثير من آداب الهند ومعارفها مثل كتاب كليلة ودمنة الذي نقله ابن المقفع ، وكذلك كانت وسيطاً في نقل بعض الكتب اليونانية مثل منطق أرسطو الذي ترجمه عبد الله بن المقفع ، أو ابنه ^(١) ، على أنه ينبغي أن نشير إلى أنه دخل عن طريق الترجمة من الفارسية كثير من تعاليم الفرس الدينية القديمة عند زرادشت وماني ومزدك ، بل ترجموا كتاب زرادشت المسمى أشتا كما ترجموا كتباً أخرى لماني ومزدك ، مما كان سبباً في ازدياد جماعة الزنادقة ، وكانوا يتظاهرون بالإسلام ويبطنون أديانهم المجوسية القديمة ، وكانت عين الدولة بقطعة فأقام المهدي ديواناً خاصاً بمحاكمهم ، وقُتِلَ ابن المقفع وكثيرون غيره . وقد انبرى علماء الكلام ، وخاصة المعتزلة يردون على هؤلاء الزنادقة وما زعموا من إثنائية ومذاهب دهرية .

ولا تقل أهمية الثقافة الهندية ^(٢) عن الثقافة الفارسية ، إذ ترجم العباسيون عنها كثيراً من الحكم والقصص ، ومن الفلك والرياضة والطب . وقد ترجم إبراهيم الفزاري للمنصور كتاب الفلك الهندي المعروف باسم « السند هند » يعاونه في ذلك بعض علماء من الهنود ، واجتلب يحيى بن خالد البرمكي مجموعة من أطبائهم إلى بغداد ، وأمرهم بنقل بعض كتب الطب الهندية ، ويظهر أنه كان هناك مترجمون كثيرون يحسنون النقل عن السنسكريتية ، وما نقلوه صحيفة في

(١) راجع التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية (٢) انظر الفصل الخاص بهذه الثقافة في الجزء لعبد الرحمن بدوي ص ١٠١ وما بعدها .
الأول من ضحى الإسلام .

البلاغة احتفظ بها الجاحظ في بيانه^(١) ، ومن المؤكد أن كثيراً من تأملاتهم فيما بعد الطبيعة أخذ طريقه إلى العربية ، وكان له صداه الواسع في الصوفية الإسلامية . وقد لعبت نظريتهم في التناسخ وبعض مذاهبهم الدهرية مثل السُّمْنِيَّة دوراً هي الأخرى في نزعات الزندقة والإلحاد .

على أن هاتين الثقافتين الهندية والفارسية لا تقاسان في أهميتهما إلى الثقافة اليونانية^(٢) التي دخلت في العربية لهذا العصر ، وكانت ماثوثة في مدارس جُندِيسابور والرُّها وحرَّان ونصّيبين ، كما كانت ماثوثة في الكنائس الشرقية والغربية ، وكان للسوريان الفضل الأول في نقل محتوياتها إلى العربية ، وبدأ ذلك منذ عصر المنصور ، إذ استدعى من جنديسابور أسرة بَخْتِيشوع ، ليتولى بعض أطبائها علاجها ، وجَدَّتْ هذه الأسرة كما جدَّ غيرها من السوريان في ترجمة الفلسفة اليونانية ، وبلغت هذه الترجمة أوجها في عهد المأمون ، فقد اتخذ في قصره خزانةَ الحكمة وأخذ يضم إليها كنوز المعرفة العربية والأجنبية ، وشجَّع على النقل والترجمة ، وطلب من آسيا الصغرى ومن بيزنطة نفسها المصنفات اليونانية ، وفي عهده لمع اسم أبي يوسف يعقوب الكندي أول فلاسفة العرب المهمين وأحد العقول الكبرى في تاريخ العالم .

والذي لا ريب فيه أن هذه الثقافات الدخيلة التي نُقِلَتْ إلى العربية وسَّعَتْ طاقاتها ، بما اكتسبت من المعاني العقلية والفلسفية ، وقد أصبح النثر العربي نثر ثقافة متشعبة ، تمدها روافد كبيرة من إيران والهند واليونان ، وليس ذلك فحسب ، فقد أخذت تدخل في هذا النثر طرائق النظر الأجنبية وأساليب الأجانب في تفكيرهم ، والذي لا ريب فيه أيضاً أنه قام على هذا العمل نُخْبَةٌ من رجال الفكر الذين يحسنون اللغتين المنقول عنها والمنقول إليها فإذا هم يستخدمون أسلوباً مولَّداً جديداً يحتفظون فيه للعربية بصورتها النحوية والتركيبية . ونحن لا نستطيع أن نقف على مدى إحسانهم في هذا الأسلوب إلا إذا لاحظنا أن

(١) البيان والتبيين ٩٢/١ وانظر زهر (٢) انظر الفصل الخاص بهذه الثقافة في الجزء الأول من ضحى الإسلام .

لغتنا لم يصبها أثناء ذلك شيء من الفساد ، فقد عمدوا إلى تخصيص بعض ألفاظها للدلالة على المصطلحات الفلسفية والعلمية الجديدة ، وكان إذا اضطرب معنى لفظ أجنبي إلى الاحتفاظ به عَرَّبُوهُ ، كما حدث في أسماء كثير من النباتات والأحجار والعقاقير والأمراض وبعض أسماء الآلات أو أسماء بعض العلوم . وكانوا كثيراً ما يضيفون صيغاً جديدة ، ولكنهم لم يبتعدوا بها عن تركيب العربية . ومن يقرأ كتب ابن المقفع ، وهو من أوائل المترجمين يرى كيف استطاع أن يُضنى على أساليبه الطوابع العربية تامة كاملة .

وبذلك اتسعت لغة الصحراء ، وأصبحت لغة ثقافية ذات أسلوب مرن يستوعب كل ما لدى الأجانب من كنوز المعرفة ومذاهب الفلسفة مما كان له أثره في الأدب نثره وشعره ، كما كان له أثره في العلوم الإسلامية كعلم الكلام والفقه ، وحتى في علم اللغة نفسه وما اتصل به من علم النحو ، فقد وضع الخليل خطة أول معجم في العربية وهو «معجم العين» ورتبه على مخارج الحروف بالضبط كما يرتب الهنود حروف لغتهم . وكان يعرف علم الموسيقى ، وعلى هديه أو باستيحائه وضع عروض الشعر وموازينه . ولا ننسى المنطق اليوناني فصلته بالنحو العربي مقرر . ومعنى ذلك أن العلوم المنقولة أثرت في تلك العلوم اللغوية ، كما أثرت في جميع العلوم العربية الإسلامية الخالصة ، وليس من باب الاتفاق أن يأخذ فقهاء العراق بالقياس وأن يسموا بأصحاب الرأي . وقد أخذ المؤرخون يكتبون في التاريخ على ضوء ما قرأوا عند الأمم الأجنبية من كتاباته ، مما أتاح للطبرى أن يكتب موسوعته التاريخية الكبرى .

وعلى هذا النحو أصبح النثر العربي في العصر العباسي متعدد الفروع ، فهناك النثر العلمي والنثر الفلسفي والنثر التاريخي ، والنثر الأدبي الخالص ، وكان في بعض صورته امتداداً للقديم ، وكان في بعضها الآخر مبتكراً لا عهد للعرب به ، على شكلة ما هو معروف في كتابات سهل بن هرون والجاحظ . وظلت الخطابة مزدهرة في أوائل هذا العصر ، وإن كان قد أسرع الدبول إلى الخطابة الحفلية ، إذ لم تعد القبائل تَقْدُمُ بوفودها على الخلفاء كما كان الشأن في عصر

بنى أمية . أما الخطابة السياسية فظلت فترة نشيطة ، بحكم دعوة بنى العباس لأنفسهم ، حتى إذا استقام لهم الأمر أصابها ما أصاب الخطابة الحفلية من الذبول ، ومن خطبائهم المفوّهين أبو العباس السفاح والمنصور والمهدى والرشيد والمأمون^(١) . ثم غلبت العجمة على خلفائهم ، فلم يعودوا يخطبون في أيام الجمع والأعياد إلا ما كان من الخليفة المهتدى^(٢) (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ) وفي أخبار الرشيد أنه عهد إلى الأصمعي أن يحفظ ابنه الأمين خطبة يخطب بها الناس في يوم الجمعة^(٣) . أما خطابة الوعاظ فيظهر أنه ظل لها غير قليل من الازدهار ، فقد كان خلفاء بنى العباس يستنئون بخلفاء بنى أمية في استقبال كثيرين منهم ، وكان المنصور خاصة يوسع لهم في مجالسه ، وفي كتب الأدب أطراف من تلك المواعظ ، يُنسب بعضها إلى شبيب بن شيبة^(٤) ، وبعض آخر ينسب إلى عمرو بن عبيد^(٥) أو إلى الأوزاعي^(٦) أو إلى غيرهم .

وكان المهتدى مثل أبيه يستدعى هؤلاء الوعاظ ويستمع إليهم ، ويروى أن صالح بن عبد الجليل وعظه يوما حتى سالت دموعه^(٧) ، وكان الرشيد يقتدى به ، فكان يعظه ابن السماك^(٨) وغيره . وروى ابن قتيبة في عيون الأخبار وابن عبد ربه في العقد الفريد كثيرا من كلام هؤلاء الوعاظ . وكان وراءهم كثير من القصّاص الذين يقصون على الناس في المساجد الجامعة ، ومن أشهرهم موسى ابن سيار الأسوارى « وكان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس في مجلسه المشهور به ، فتقعد العرب عن يمينه وتقعد الفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ، ويفسرهما للعرب

-
- | | |
|---|---|
| (١) انظر في خطبهم عيون الأخبار ٢/٢٥١ | (٥) عيون الأخبار ٢/٣٣٧ والعقد الفريد ٣/١٦٤ وزهر الآداب ١/٩٤ . |
| (٢) العقد الفريد ٤/٩٧ وراجع البيان والتبيين ١/٣٣١ . | (٦) العقد الفريد ٣/١٦٣ وعيون الأخبار ٢/٣٣٨ . |
| (٣) مروج الذهب للمسعودي (طبعة باريس) ٢/٨ . | (٧) عيون الأخبار ٢/٣٣٣ والعقد الفريد ٣/١٥٨ . |
| (٤) الفرج بعد الشدة للتزحني ٢/٢٠ . | (٨) العقد الفريد ٣/١٦٤ . |
| (٥) البيان والتبيين ٢/١٩٨ . | |

بالعربية ثم يحوّل وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يُدْرَى بأيّ لسان هو أبين . ومنهم عمرو بن فائد الذي ظل يفسر القرآن الكريم للناس ستاً وثلاثين سنة ، وما ختمه حتى مات لأنه كان حافظاً للسير ولوجوه التأويلات ، فكان ربما فسر آية واحدة في عدة أسابيع . ومنهم القاسم بن يحيى الضرير الذي لم يكن في القصاص مثله . ومنهم صالح المُرّي وكان صحيح الكلام شديد التأثير في سامعيه ^(١) .

واتسعت في هذا العصر المناظرات الكلامية ، وحمل لواءها المعتزلة من أصحاب واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ، ولم يكن همهم أن يردوا على مخالفهم من الجهمية أصحاب جهم بن صفوان الذي كان يقول بالجبر، والمرجئة الذين قالوا بأنه لا يجوز تكفير المسلم ولا الحكم على أعماله ، حتى لو ارتكب كبيرة . لم يكن همهم أن يردوا على هاتين الفرقتين فقط ، بل انصرف همهم إلى الرد على الدهرية والزنادقة ، ونراهم في عصر المأمون يدعون إلى أن القرآن ليس أزلياً ، إنما هو مخلوق ، واستطاعوا أن يؤثروا في المأمون حتى اعتنق فكرهم وأعلنها عقيدة رسمية للدولة ، وأخذ في امتحان مَنْ يؤمنون بها في آفاق دولته ، على نحو ما كان يمتحن جده المهديّ الناس في عقيدة المانوية . وتبعه المعتصم في تلك السيرة ، حتى إذا ولي المتوكل ترك الناس وشأنهم .

ولا نبالغ إذا قلنا إن المتكلمين من معتزلة وغير معتزلة نهضوا بالنثر العباسي نهضة رائعة ، فقد كان المتكلم لا يحسن الكلام والاحتجاج لآرائه إلا إذا أخذ نفسه بثقافة فلسفية واسعة ، يقول الجاحظ : « ولا يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام متمكناً في الصناعة ، يصلح للرياسة ، حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة ، والعالم عندنا هو الذي يجمعهما » ^(٢) ولم يكونوا يتشققون بالثقافة الفلسفية وحدها ، بل كانوا يتشققون أيضاً بكل ضروب الثقافات التي عُرِفَ لعصرهم ، حتى يجمعوا « التدابير العجيبة ، والعلوم الغريبة ،

(١) انظر في هؤلاء القصاص البيان والتبيين (٢) الحيوان ١٤٣/٢ .

٣٦٨/١ وما بعدها .

وآثار القول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ، والحكم الرفيعة ، والمذاهب القويمة ، والتجارب الحكيمة ، والأخبار عن القرون الماضية والبلاد النازحة والأمثال السائرة»^(١) . ويعترف الجاحظ بقيمة ذلك كله فيقول : « ولولا ما أودعت لنا الأوائلُ في كتبها ، وخلّدت من عجيب حكمتها ، ودوّنت من أنواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، ونحننا بها كل مستغلق كان علينا ، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم ، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم لقد خَسَّ حظنا من الحكمة ، ولضعف سببنا إلى المعرفة . ولو لجأنا إلى قدر قوتنا ومبلغ خواطرنا ومنتهى تجاربنا لما تدركه حواسنا وتشاهده نفوسنا لقلّت المعرفة وسقطت الهمة وارتفعت العزيمة ، وعاد الرأي عقيماً ، والخطر فاسداً ، ولكلّ الحَدُّ وتبلّد العقل »^(٢) .

والجاحظ المتكلم لا يعبر بهذا الكلام عن وجهة نظره وحده ، وإنما يعبر عن وجهة نظر المتكلمين جميعاً لعصره ، فقد انكبوا على قراءة الكتب المترجمة من الفلسفة وغير الفلسفة ، ففتقت عقولهم وفتحت لهم مسالك وأبواباً من الفِطْن وقد أقبلوا في شوق شديد على التثقف بالإسلام وتعاليمه ، وباللغة العربية وكنوزها النثرية والشعرية . ويكفي أن يقرأ الإنسان «البيان والتبيين» للجاحظ وكذلك «الحيوان» ليقف على مدى ثقافته العربية . وهي في الكتاب الأخير تعانقها ثقافة عامة واسعة .

ولا نقرأ فيما خلفه هؤلاء المتكلمون حتى يبهزنا لسنّهم وقدرتهم على الحجاج والإقناع ، وقد كانت المناظرة في موضوع من الموضوعات تنعقد أحياناً بين اثنين منهم ، فتظل أياماً لا في أصول الدين ولا في الرد على الملحدين فحسب ، بل في كل موضوع يمكن أن يفد إلى أذهانهم . وقد ملأ الجاحظ نحو مجلد من كتابه الحيوان بمناظرة انعقدت بين معبد والنظام في الكلب والديك أيهما أفضل ، وظلّ يورد أدلة كل منهما في صورة رائعة ، وهي صورة تدل دلالة بيّنة على مدى ما أصابه هؤلاء المتكلمون من تنويع لأفكارهم وتصحيح لمقدماتهم

(١) الحيوان ٤٢/١ .

(٢) الحيوان ٨٥/١ .

وتصريف لأساليهم وألفاظهم . وإذا كانت القدرة البيانية بلغت باثنين منهم هذا المبلغ في مساوئ الديك ومحاسنه ومنافع الكلب ومضاره ، فما بالك بما كان يجرى بينهم في مسائل الدين واستقصاء كل مسألة وجمع معانيها وترتيب أفكارها وألفاظها ؟ ومن يقرأ ما يرويه الجاحظ عن النظام في كتابه الحيوان يعجب أشد العجب من استنباطه للمعاني والأدلة ، سواء تحدث في الحيوان أو في الرد على الدهرية والماتوية أو على خصومه من المتكلمين أو في بيان نظرياته في الروح والحواس والتولد والجسم والعرض والخير والشر والاستطاعة والكمون والتدخل والحركة والسكون . ويشيد به الجاحظ في غير موضع من حيوانه ، ومن قوله فيه وفي المتكلمين : « إنه لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل . . . ولولا أصحاب إبراهيم (النظام) وإبراهيم لهلكت العوام من المعتزلة ، فإنه قد أنهج لهم سبلا ، وفتق لهم أمورا ، واختصر لهم أبوابا ، ظهرت فيها المنفعة ، وشملتهم بها النعمة » ^(١) وقال في موضع آخر : « كان إبراهيم مأمون اللسان قليل الزلل والزبغ . . . وإنما كان عسيبه الذي لا يفارقه . . . جودة قياسه على العارض والباطن والسابق الذي لا يوثق بمثله » ^(٢) فهو يأخذ عليه أنه كان لا يصحح مقدمات القياس . وأكبر الظن أنه إنما كان يلجأ إلى ذلك حين تعوزه الحجة ، فكان يراوغ ويعتل ، حتى يشكك خصمه وسامعيه ، وكان يذهب هذا المذهب نفسه خاله أبو الهذيل العلاف ، وكان يقول : خمسون شكاً خير من يقين واحد ^(٣) أما النظام فكان يقول : لم يكن يقين قط حتى كان قبله شك ، ولما قال أبو الجهم للمكي : أنا لا أكاد أشك قال المكي : وأنا لا أكاد أوقن ، وكانوا يقولون : « العوام أقل شكوكاً من الخواص » ، لأنهم لا يتوقفون في التصديق والتكذيب ولا يرتابون بأنفسهم ، فليس عندهم إلا الإقدام على التصديق المجرد أو على التكذيب المجرد ، وألغوا الحال الثالثة من الشك التي تشتمل على طبقاته ^(٤) .

(١) الحيوان ٢٠٦/٤ .

(٣) الحيوان ٦٠/٣ .

(٢) الحيوان ٢٢٩/٢ .

(٤) الحيوان ٢٥/٦ وما بعدها .

لم يعد هناك شيء لا يقبل الشك والجدل في هذه البيئة التي استطاعت حقاً أن تمرن اللغة العربية على أداء معان لم تتعود أدائها ، وإنك لتقرأ كلامها فلا تشعر بأى تكلف أو شفقة أو التواء أو عُسْر ، فقد أصبحت اللغة طيعة على ألسنتهم ، وأصبحت مرنة مرونة عجيبة ، سواء تكلموا في مسائل فلسفية عويصة أو في مسائل كلامية دقيقة ، وتحس حقاً كأنهم بحار تتدفق فلا تعثر ولا تنوقف . وقد وقف الجاحظ في البيان والتبيين يُشيد إشادة رائعة ببلاغتهم ^(١) ، وعرض لأحدهم ، وهو ثُمَامَة بن أَشْرَس فوصفه بقوله : « ما علمت أنه كان في زمانه قَرَوِيٌّ ولا بَلَدِيٌّ كان بلغ من حُسْن الإِفْهَام مع قلة عدد الحروف ولا من سهولة المَخْرَج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه . وكان لفظه في وزن وإشارته ومعناه في طبقة لفظه ، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك ، وقال بعض الكتّاب : معاني ثُمَامَة الظاهرة في ألفاظه ، الواضحة في مخارج كلامه ، كما وصف الحَرِيْميُّ شعر نفسه في مديح أبي دُلَيف ، حيث يقول :

له كَلِمٌ فيك معقولةٌ إزاء القلوب كركبٍ وقوفٍ ^(٢)

وهذا الوصف الذي وصف به الجاحظ ثُمَامَة ينطبق على كل متكلم في عصره ، فقد مرونا على الجدال ومكايلة الألفاظ وموازنة المعاني وعرضها بنحفيات حدودها ودقائقها ، والحوار فيها والجدال ومحاوله إقناع الخصم وإسكاتهم وبلغوا من ذلك كل مبلغ ، حتى سُمُّوا المتكلمين فهم أرباب الكلام وأصحابه الذين يعرفون كيف ينصبون أنفسهم للدفاع عن آرائهم ، وكيف يقدمون البراهين الواضحة والحجج الصحيحة .

واقرأ في كتاب الحيوان للجاحظ فلن تجد موضوعاً إلا خاضوا فيه واستخرجوا منه معانيه ، حتى لتظن أنه لم يكن هناك أديب بارع إلا وتسهبه تلك الجماعة وتجذبه إلى ميادينها ، ليجت في الأسباب الكونية ومسبباتها والعلة ومعلولاتها ، ويدخل في صفوف هؤلاء الذين ملأوا قلوب الناس إعجاباً بمنظراتهم ومجادلاتهم

(١) البيان والتبيين ١/ ١٣٩ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ١١١ .

التي اتسعت لكل جوانب المعرفة ديناً وغير دين .

وقد دعتهم رغبتهم في إحكامهم لمناظراتهم ومناقشاتهم أن يبحثوا بحثاً واسعاً في بلاغة الكلام وكيف يبلغ المتكلم بكلامه الكفاية وغاية الحاجة ، بل كيف يروع السامعين ببيانه وحلاوة ألفاظه وحسن مخارج حروفه ، حتى تسكن القلوب إليه وتثلج الصدور . ويزخر كتاب البيان والتبيين بوصاياهم التي كانوا يسوقونها إلى تلاميذهم في مجالسهم ، وكثيراً ما كانوا يدعون هؤلاء التلاميذ إلى المناظرة بين أيديهم ، ليمرنوهم ويدربوهم ، وليروا مقدار براعتهم ، وهم أثناء ذلك يبدون ملاحظات مختلفة على إشاراتهم وحركاتهم وأصواتهم وعلى ألفاظهم وأقوالهم وأساليبهم وعلى براهينهم وأدلتهم وأقيستهم وعللهم وما يداخل ذلك كله من فلتات خطأ وسقطات وهم . وبذلك كانوا أول من وضع قواعد البيان العربي ، وقد أخذوا أثناء هذا الوضع يحاولون الاطلاع على ما عند الأجانب من هذه القواعد ، يقول الجاحظ في بيانه : « قيل للفارسي : ما البلاغة ؟ قال معرفة الفصل من الوصل ، وقيل لليوناني ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الأقسام واختيار الكلام ، وقيل للرومي ما البلاغة ؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة ، وقيل للهندي ما البلاغة ؟ قال : وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة ، وقال بعض أهل الهند : جُمعَ البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة ، ثم قال : ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها ، إذا كان الإفصاح أوعر طريقة ، وربما كان الإضراب عنها صفحاً أبلغ في الدرك وأحق بالظفر » ^(١) . ويقول الجاحظ إن معمرًا المتكلم قال لبهلة الهندي ما البلاغة عند أهل الهند ؟ قال بهلة عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة ، ولكن لا أحسن ترجمتها ولم أعالج هذه الصناعة فأثقت من نفسي بالقيام بخصائصها وتلخيص لطائف معانيها . ويكتفى معمر بالصحيفة التراجمة فإذا فيها : « أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد

الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوق. ويكون في قواه فضلُ التصرف في كل طبقة . . . ومن قد تعود حذف فضول الكلام وإسقاط مشتركات الألفاظ وقد نظر في صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة لا على جهة الاعتراض والتصفح ، وعلى وجه الاستطراف والتطرق . . . ويكون لفظه مونقاً ، ولهول تلك المقامات معاوداً . ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم ، وللحمّل عليهم على أقدار منازلهم « (١) .

ومعنى ذلك كله أن المتكلمين لم يكتفوا بملاحظاتهم الشخصية في بلاغة الكلام ، بل طلبوا ما عند الأجانب ، وبلغ الجاحظ وغيره منهم على فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وهي صريحة في الصحيفة الهندية ، وأغلب الظن أنها تسربت إليهم أيضاً في بعض ما تُرجم لأفلاطون من محاورات أو لأرسططاليس من كلام في الخطابة ، وربما سمعوها من المسيحيين السريان الذين كانوا يكثر من جدالهم . ويحدثنا الجاحظ أن بشر بن المعتزمر بإبراهيم بن جبلة وهو يعلم بعض الفتيان الخطابة ، فدفع إليه بصحيفة من تحبيره (٢) ، تجمع قواعد البلاغة وكيف يحسن الخطيب في خطابته ، متحاشياً التورع وجالبا الألفاظ التي تروق السامع ، وقد بنيت الصحيفة على فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال وأن واجب الخطيب أن يلائم بين موضوعه ومعانيه وبين ظروف السامعين ، فإن إحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال ، فلا يكلم الخاصة بكلام العامة ولا العامة بكلام الخاصة ، بل يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وأقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً يلائمها ، حتى تفهم عنه ، وحتى يصل إلى ما يريد من استحالتها بلطف مداخله وعذوبة ألفاظه .

ونفذوا في أثناء هذه الوصايا إلى وضع كثير من مصطلحات البيان العربي ، ومن يرجع إلى الحيوان والبيان والتبيين يجد اصطلاحات التشبيه والحقيقة والمجاز

(٢) البيان والتبيين ١/ ١٣٥ وما بعدها .

(١) البيان والتبيين ١/ ٩٢ .

والاستعارة والكناية والالتفات وحسن الخروج والاعتراض وتأکید المدح بما يشبه الذم والإيجاز والإطناب والاقتناس ، كل ذلك يدور فيها ، وقد وقف الجاحظ طويلاً في فاتحة البيان عند فصاحة الألفاظ وتناثر الحروف وصنوف اللثة فيها . فإذا قلنا إن هذه البيئة هي التي وضعت قواعد البلاغة والفصاحة لم نكن مبالغين ، وإذا قلنا أيضاً إن هذه البيئة هي التي أتاحت للغة العربية مرونة الأساليب على أداء المعاني الدقيقة لم نكن مغالين ، بل إننا نقول إنها هي التي وضعت نماذج التعبير العباسي البليغ ، فقد كانت تنسج الألفاظ المتنوعة الوحشية عن كلامها كما كانت تنفي الساقط السوقي ، فاختارت بذلك لغة متوسطة تقوم على الألفاظ الرشيقة ذات المخارج السهلة ، كما تقوم على ضرب من التلاؤم الموسيقي هو نفسه الذي لاحظناه قبلاً عند أسلافها من وعاظ العصر الأموي ، والذي يكسو الكلام كسوة الازدواج والترادف الصوتي البديع .

وكان كبار الأدباء في القرن الثاني جميعه يتخلون هذا الأسلوب الفصيح الوسطَ إمامهم ومثلهم ، سواء أكانوا مترجمين مثل ابن المقفع أم مدبجّين لرسائل أدبية طريفة مثل سهل بن هرون ، وقد بلغ القمة التي كانت تنتظره عند الجاحظ المتكلم ، وهو أسلوب كان يوازن موازنة دقيقة بين طرافة المعاني وإثارة الجمال في نفس القارئ والسامع ، ولكن بدون كدٍّ ومجاهدة ، ولذلك نسلك أصحابه في مذهب الصنعة ، فهم لا يبالغون في تكلفهم ولا يستدعون الألفاظ من بعيد ولا يدققون فيها كل التدقيق ولا يصفونها كل التصفية .

وبينما كان هذا المذهب قائماً عند المتكلمين وكبار الأدباء والمترجمين كانت طلائع مذهب ثان من التصنيع والتجميل تأخذ طريقها في بيئة الكتّاب الرسميين من أصحاب الدواوين ، فقد أخذوا يهذبون لغة رسائلهم السياسية غاية التهذيب ، وما زالوا يبالغون في أناقة تعبيرهم ودقة أذواقهم ، حتى انفصلوا انفصالاً تاماً عن أسلوب الازدواج إلى أسلوب كله قطع زخرفية أنيقة ، أو عبارة أخرى أسلوب كله سجع وتنميق . وسنعرض لهذا المذهب في موضع آخر أما الآن فنُعنى بأهم من نموا مذهب الصنعة في العصر العباسي بتأثير الثقافات الأجنبية الدخيلة ،

وهم ابن المقفع وسهل بن هرون والجاحظ وكان أولهم مترجماً ، أما سهل والجاحظ فكانا أدبيين يعنيان بكتابة الرسائل والكتب الأدبية ، ولعلهما من أجل ذلك كانا يهتمان بفنهما وتجويد أساليبهما أكثر من اهتمام ابن المقفع ، إذ كان اهتمامه ينصبُّ غالباً على ما يترجمه ونقل معانيه ، لا على طريقة الأداء والتجوير فيه .

٢

ابن المقفع : أصله وحياته وزندقته

ابن المقفع فارسي الأصل ، اسمه رُوزبه^(١) بن داذويه ، كان أبوه من قرية تسمى جور^(٢) من أعمال فارس على مقربة من شيراز . وانتقل إلى البصرة ، والتحق بديوان الخراج لعهد الحجاج ، فاحتجن (اختلس) مالا ، فضربه الحجاج حتى تقفَّعت (يبست) يده ، فلُقِّبَ بالمقفع^(٣) ، ولم يسلم ، بل استمر مجوسياً مانوياً ، وعلى دينه نشأ ابنه روزبه ويظهر أنه عُني بتأديبه كما عُني بتعليمه العربية ، وساعده على ذلك أن ولّاهما كان في آل الأهم ، وهم يشتهرون بالفصاحة من قديم^(٤) .

ولم يمض زمن كبير حتى ظهرت مخايل الفصاحة والبلاغة على ابن المقفع ، فكتب لعمر بن هبيرة في دواوينه على كرمان^(٥) بفارس ، ثم كتب لابنه يزيد حين ولي العراق من قبيل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، كما كتب لأخيه داود^(٦) . وجعلته وظيفته تلك يفيد أموالاً ، كان يبسرُّ بها طائفة من أصدقائه ، يقول الجهشيارى : « وكان سرياً سخياً ، يطعم الطعام ، ويتسع على كل من احتاج إليه . . وكان يُجرى على جماعة من وجوه أهل البصرة والكوفة ما بين

(٤) البيان والتبيين ١/ ٣٥٥ .

(١) الفهرست ص ١٧٢ .

(٥) الوزراء والكتاب ص ١٠٩ .

(٢) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٠٩ .

(٦) الفهرست ص ١٧٢ .

(٣) الفهرست ص ١٧٢ .

الخمسمائة إلى الألفين في كل شهر^(١) .

ولما قامت الدولة العباسية كتب لعيسى بن علي عم المنصور^(٢) ، وعلى يديه أعلن إسلامه وتسمى باسم عبد الله واكتفى بأبي محمد^(٣) ، ويقال إنه حين حاول إعلان إسلامه سأله عيسى أن يؤجل ذلك إلى الغد ، حتى يكون ذلك في حفل يحضره القواد والرؤساء ، ثم حضر طعامُ العشاء ، فجلس يأكل ويزمزم على عادة المجوس ، فقال له عيسى أتصنع ذلك وأنت على عزَم الإسلام ؟ فقال : أكره أن أبيت على غير دين ! وظل يعمل في خدمة عيسى حتى قتله سفيان بن معاوية وإلى البصرة من قبل المنصور . وهنا يختلف الباحثون في سبب قتله ، فيزعم قوم أنه قُتل لزندقته ، ويؤكد الجهمشياري وكثير من المؤرخين أن السبب في قتله ما كان من تشدده في كتابة الأمان الذي كتبه لعبد الله بن علي أخى عيسى وعم المنصور فإنه حين فشلت ثورته على ابن أخيه هرب منهزماً من أبي مسلم الخراساني وقصد أخويه عيسى وسليمان بالبصرة ، فكاتبا المنصور في أن يؤمّنه ، ورضى بإعطائه الأمان ، فأمر عيسى ابن المقفع بعمل نسخة لهذا الأمان ، فعملها ووكتدها واحترس من كل تأويل يجوز أن يقع عليه فيها . . . وكان الذى شق على أبي جعفر ما جاء في أسفل الأمان من أنه إذا غدر بعمه عبد الله فهو نفي من أبيه ومولود لغير رِشْدَةٍ ، وقد حَلَّ لجميع أمة محمد خلعه وحربه والبراءة منه ، ولا بيعة له في رقاب المسلمين ولا عهد ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من طاعته وإعانة من ناوأه من جميع الخلق ، وأنه إن فعل كان كافراً بجميع الأديان ، ونسأفه طوائق وعبيده أحرار . فغضب المنصور حين قرأ هذا الأمان وسأل عن كاتبه ، ف قيل له : ابن المقفع ، فقال : أما أحد يكفينيه ؟ وكتب فيه إلى سفيان بن معاوية ، وتصادف أن كان يضطغن عليه ، فاستغل الفرصة وطلبه ، فلما قدم عليه أمر بتسنُّور فسُجِّر ، ثم أخذ يقطعه عضواً

(١) الوزراء والكتاب ص ١٠٩ .

ص ١٠٣ .

(٢) الفهرست ص ١٧٢ والوزراء والكتاب .

(٣) الفهرست ص ١٧٢ .

عضواً ويرى به في التنوير^(١) . وأكبر الظن أن هذا هو السبب الصحيح في مقتل ابن المقفع ، فالجاحظ يقول في بعض رسائله إنه أغرى عبد الله بن علي بالمنصور فقُطِن له ، وقُتِل^(٢) ومن المحقق أن الجاحظ لا يريد بإغرائه سوى ما كان من كتابة أمانه على هذا النحو الذي ضيقت فيه على المنصور ، ويقول ابن خلكان إن ذلك كان عام ١٤٢ أو ١٤٣ أو ١٤٥ . ومعنى ذلك أنه لم يعيش في الدولة العباسية إلا نحو عشر سنين .

واشتهر ابن المقفع بأنه كان زنديقاً ، وأنه إنما اتخذ الإسلام قناعاً لزندقته ومناوئته ، ومن أكد ذلك أبو الفرج الأصبهاني^(٣) والبيروني^(٤) وابن خلكان^(٥) وصاحب خزائن الأدب^(٦) . ويقول المرتضى في أماليه : روى عن المهدي أنه قال : « ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع »^(٧) ويقول المسعودي : « أمعن المهدي في قتل الملحدين لظهورهم في أيامه وإعلانهم باعتقاداتهم في خلافته ، لما انتشر من كتب ماني وابن ديصان ومريقون مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره وترجم من الفارسية والفهلوية إلى العربية »^(٨) . وفي الفهرست أنه ترجم كتاباً في سيرة مزدك^(٩) ، ويقال إنه مرّ بيت نار للمجوس بعد أن أسلم فلما رآه تمثل :

يا بيتَ عاتكةَ الذي أتغزلُ حذرَ العدا وبك الفؤادُ موكلُ
إني لأمنحك الصدود وإنني قسماً إليك مع الصدود لأُميلُ^(١٠)

ويقول بعض الرواة إنه عارض القرآن بزعمه^(١١) . ونشر ميكائيل أنجلو جويدي سنة ١٩٢٧ كتاباً يسمى : « كتاب الرد على الرنديق اللعين ابن المقفع -

(١) الوزراء والكتاب ص ١٠٣ وما بعدها .

(٢) ثلاث رسائل للجاحظ (طبعة فنكل) .

ص ٤٧ .

(٣) أغاني (طبعة الساسي) ٢٠٠/١٨ .

٢٤٢/٤ .

(٤) تحقيق ما للهند من مقولة (طبعة ليبزج) .

(٥) الفهرست ص ١٧٢ .

(٦) أمالي المرتضى ١٣٥/١ .

(٧) انظر ترجمته في وفيات الأعيان ١٥٠/١ .

(٨) إعجاز القرآن للباقلائي ص ١٨ .

(٩) خزائن الأدب للبيهادي ٤٩٥/٣ .

(١٠) أمالي المرتضى ١٣٤/١ .

(١١) مروج الذهب للمسعودي (طبعة مصر) .

عليه لعنة الله - للقاسم بن إبراهيم عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم « ونرى القاسم يندد - في مقدمة هذا الكتاب - بمذهب ماني وأتباعه ويقول إن ابن المقفع : خلفه في إفكه وضلاله « فوضع كتاباً أعجمي البيان ، حكم فيه لنفسه بكل زور وبهتان ، فنال من عيب المرسلين ، وافترى الكذب على رب العالمين ، فرأينا من الحق أن نضع نقضه ، بعد أن وضعنا من قول ماني بعضه » . ثم يعرض القاسم فيقول : « رأنا من أقوال ابن المقفع ويردُّ عليها . وقد شك بعض الباحثين في هذا الكتاب ونسبة ما فيه من آراء لابن المقفع ^(١) ، غير أن ذلك لا ينقض زندقته فقد شهد بها معاصروه ومن جاءوا بعدهم . ويروى أنه لما قُتل ابن أبي العوجاء لزندقته رثاه بقوله :

رُزْنَا أبا عمرو ولا حتى مثله فله ريب الحادثات بمن وقع
فإن تك قد فارقتنا وتركتنا ذوى خلة ما في انسداد لها طمع
فقد جسرَ نفعاً فقدنا لك أننا أمينا على كل الرزايا من الجزع

وقال أحمد بن يحيى ثعلب : البيت الأخير يدل على مذهبه في أن الخير مزوج بالشر والشر مزوج بالخير ^(٢) .

وعلى الرغم من زندقه ابن المقفع وتعصبه الشديد لفارسيته لم يفكر في الرجوع إلى لغته ، بل اتخذ العربية مثله الأعلى ، وكان ذكياً ذكاء شديداً ، ولكن ذكاءه أضلّه . وكان دقيق الحس ، فقد دعاه عيسى بن علي للغداء معه يوماً فقال له : « أعز الله الأمير ! لست يومي للكرام أكيلاً ، فقال له : ولم ؟ قال : لأنني مزكوم ، والزكمة قبيحة الحوار ، مانعة من عيشة الأحرار » . وكتب إليه يحيى بن زياد الحارثي الزنديق يلتبس عقد الإخاء والاجتماع على المودة والصفاء فأخّر جوابه ، فكتب إليه كتاباً آخر ، يسترثيه ، فكتب إليه ابن المقفع : « إن الإخاء رِقٌّ ، فكرهت أن أملكك رِقِّي قبل أن أعرف حُسْن مِلْكِكَ » ^(٣) .

(١) ضحى الإسلام لأحمد أمين ١/٢٢٥ . (٢) انظر في هذا النص وسابقه أمالي المرتضى

١/١٣٦ .

(٢) أمالي المرتضى ١/١٣٥ .

صنعة ابن المقفع في كتبه ورسائله

رأينا ابن المقفع يعمل في دواوين الحكام والأمراء ، ولكن أهميته لا ترجع إلى أنه كان كاتباً من كُتّاب الدواوين ، وإنما ترجع إلى أنه كان مترجماً عن البهلوية ، إذ حاول أن ينقل إلى اللغة العربية خير ما عرفه في لغته الفارسية سواء أكان ما عرفه فيها فارسياً خالصاً أم كان يونانياً أم كان هندياً .

أما الفارسي الخالص فنه ما يرد إلى تراث القوم الديني ، وقد ترجم منه كتاب مزدك^(١) ، ومنه ما يُردُّ إلى تراثهم التاريخي والأدبي ، وهو تراث كان يدور في أغلبه حول البلاط الإيراني وحَوَلياته وتقاليده، ومن هذا التراث ترجم كتاب «نُحْدَ آي نامِه» في سِيرِ ملوكهم ، وقد اعتمد الفردوسي على هذا الكتاب في تأليف ملحمة «الشهنامه» . وأيضاً ترجم كتاب «آيين نامِه» وهو في أنظمة الملك والدولة الساسانية ، وقد بقيت منه مقتطفات كثيرة في عيون الأخبار لابن قتيبة تدل على أنه كان يعالج نظام القضاء وفنون الحرب ومكايدها . وترجم أيضاً كتاب التاج في سيرة أنوشروان ورسالة تنسر وكل هذه الكتب — على ما يظهر — كانت كتباً رسمية أصدرها البلاط الساساني.

وترجم بجانبها بعض ما نقل إلى لغته من التراث اليوناني ، إذ يقولون إنه ترجم لأرسطو المقولات^(٢) وبجانب ذلك نجده يترجم قصص كليله ودمنة ، وهي قصص ترجع إلى أصول هندية . وقد عثر هرتل (Hertel) على أحد أصول هذه القصص ، وهو كتاب «بَنَسْجَ تَانَسْتَرَا» الهندي كما عثر غيره على أصل آخر هو كتاب «هتو بادشا» ووجد الباحثون في «المهابهارتا»

(٢) الفهرست ص ٣٤٨ وطبقات الأطباء لابن

أبي أصيبعة (طبع المطبعة البهية) ٣٠٨/١ .

(١) انظر في الكتب الفارسية التي ترجمها

ابن المقفع كتاب الفهرست ص ١٧٢ .

بعض أصول منه ^(١) . ويرجح بعض الباحثين أن ابن المقفع زاد على الكتاب فصولاً لم تكن في الأصل ، وكذلك زاد بعض القصص ، ويمكن أن تكون القصص المزيدة ليست من صنعه ، فقد تُرجم الكتاب بعده مرة أخرى وزيدت فيه بعض زيادات ^(٢) ، ومن المحقق أنه لم يزد سوى ما سماه غرض الكتاب ، أما ما يزعمه البيروني من أنه زاد باب برزويه « قاصداً تشكيك ضَعْفَى العقائد في الدين وكَسْرهم للدعوة إلى مذهب المانوية وإذا كان متهماً فيما زاد لم يخل عن مثله فيما نقل » ^(٣) فغير صحيح ، إذ كان هذا الفصل موجوداً في الأصل الفارسي ^(٤) . على أن ما قاله البيروني يلفتنا إلى أن الفرس استخدموا الكتاب بعد نقله وقبل ترجمته إلى العربية في الدعوة لمذهب المانوية .

وليس ذلك كل ما نقله ابن المقفع عن البهلوية ، فله رسائل أخرى أشهرها الأدب الكبير والأدب الصغير واليتمية ورسالة الصحابة . ونراه يصرّح في مقدمة الأدب الكبير بقوله : « منتهى علم عالمنا في هذا الزمان أن يأخذ من علمهم (يريد القدماء) وغاية إحسان محسننا أن يقتدى بسيرتهم . . . ومن ذلك بعض ما أنا كاتبٌ في كتابي هذا من أبواب الأدب التي يحتاج إليها الناس » وكثيراً ما يقول في هذا الكتاب : « احفظ قول الحكيم » أو « قالت الحكماء » . ويقول في مقدمة الأدب الصغير : « وقد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً فيها عَوْنٌ على عمارة القلوب وصيقلها وتجليّة أبصارها وإحياء للتفكير وإقامة للتدبير ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق » . فالكتابان بشهادته مترجمان ، أو على الأقل تغلب الترجمة عليهما ، وقد دار أولهما على السياسة والصدّاقة ، ودار ثانيهما على الشَّيْم والأخلاق . وتدخل في هذه المعاني القطع الباقية من اليتيمة ، التي احتفظ بها ابن طيفور في كتابه المنظوم والمشور . فالكتب الثلاثة في رأينا مترجمة على الأقل في أكثرها ، وهي تصور ضرباً من

(١) انظر مقدمة كلية ودمنة لعبد الوهاب (٢) نفس المقدمة ص ٤٢ .

عزام (طبعة دار المعارف) ص ٣٥ وما (٣) تحقيق ما للهند من مقولة للبيروني ص ٧٦ .

(٤) مقدمة كلية ودمنة ص ٤٤ وما بعدها .

الأدب الأخلاقي نما في بلاط الساسانيين ، كان يُروى عن بزرجمهر وغيره ، وكان يراد به تنقيف الفرس بحكمة عملية خلقية تستمد من تجارب الحياة وتكفل للإنسان أن يعيش في العالم سعيداً بعيداً عن المضار . وتدخل في هذا الضرب من الأدب الأخلاقي رسالة الصحابة ، وهي لا تتصل بتعليم الناس كيف يعيشون ، وإنما تتصل بنظام الدولة ، فالصحابة في هذه الرسالة إنما يراد بهم صحابة الحكماء والملوك أو كما نقول الآن حاشيتهم وجنودهم ورعيّتهم ، فهي تعرض لسياسة الدولة العامة ، وقد يكون ابن المقفع زاد عليها تطبيقاً لأحوال الرعية الإسلامية والدولة العباسية ، ولكنه على كل حال استمد في هذه الرسالة من أنظمة الملك الساسانية .

وعلى هذا النحو حمل ابن المقفع إلى العرب والعربية أروع ما أنتجته العبقريّة الإيرانية قبل الإسلام ، مما كان له أثر كبير في الآداب العباسية ، سواء منه ما اتصل بالأخلاق ، وما اتصل بتاريخ الساسانيين ومن سبقوهم من ملوك إيران ، وكذلك ما اتصل بأنظمة ملكهم وحكمهم للرعية . ولم يكتف بذلك فقد نقل أيضاً أجزاء من منطق أرسطو كما نقل قصص قليلة ودمنة ، وعنه نُقلت إلى السريانية والعبرانية واليونانية والفارسية الحديثة كما نقلت إلى اللغات الأوربية .

والطريف أنه حين قام بنقل هذا كله إلى لغتنا العربية لم تستعص عليه تلك اللغة ، بل أظهرت من المرونة ما استطاعت به أن تحمل هذا التراث كله ، ومن غير شك كانت كثرتة إن لم يكن كله جديدة عليها بمعانيها ومدلولاتها التي لم يكن يعرفها عرب الصحراء ، ولا نريد أن نبالغ فنقول إن ابن المقفع أصاب التوفيق في كل ما ترجم ، إذ يظهر أن ترجمته لمنطق أرسطو أو لأجزائه لم تكن موفقة كل التوفيق ، ومن ثمّ حمل عليه الجاحظ في ترجمته لمعاني أرسطو (١) . ومن الحق أن ترجمة هذا المنطق لا تعدّ مقياساً عاماً لترجمته ، إذ كلنا نعرف صعوبة ترجمة الفلسفة ، فما بالنا إذا كانت هذه الترجمة تصاغ لأول مرة . وعلى

كل حال إذا كان التوفيق قد أخطأه في ترجمة أرسطو فإنه لزمه في ترجمة كليله ودمنة وما ترجمه من تراث الأدب الفارسي .

وربما كانت حملة الجاحظ عليه في ترجمته لمنطق أرسطو هي التي دفعت طه حسين إلى حملته على أساليبه حملة عامة ، فذهب يقول إن « له عبارات من أجود ما نقرأ في العربية ، وبنوع خاص في الأدب الكبير وفي كليله ودمنة ، ولكنه عندما يتناول المعاني الضيقة التي تحتاج إلى الدقة في التعبير يضعف ، فيكلف نفسه مشقة ويكلف اللغة مشقة » ويشبهه بالمستشرقين الذين يحسنون اللغة العربية فهماً ، وربما أعياهم الأداء فيها ، وينصح لطلاب الأدب أن يحتاطوا عندما يريدون أن يتخذوا ابن المقفع نموذجاً للتعبير والبلاغة ، ويسوق دليلاً على حكمه بعض أمثلة قليلة ، نلاحظ في تضاعفها اضطراباً في الضمائر . وكأنما فاتته أن آثار ابن المقفع مضى عليها أكثر من ألف عام ، قبل أن تطبع ، كانت تتداولها فيها أيدي الناسخين الجانية ، وأن ما لاحظته ربما رجعت آفاته إلى أصناف هؤلاء الناسخين .

والحق أن طه حسين بالغ حين عدّه كأحد المستشرقين ، وهو قد نشأ في بيئة عربية وفي آل الأهم ، وكان شاعراً كما كان كاتباً ، وقد وجد في نفسه من قوة البيان ما جعله إمام المترجمين في عصره ، وقد جعله صاحب الفهرست من البلغاء العشرة الذين قاموا على رأس أدباء العصر العباسي وكتابه^(١) ، وما زال القدماء يستشهدون بآرائه في الفصاحة والبلاغة ، من ذلك قول الجاحظ في بيانه^(٢) : « لم يفسر البلاغة تفسير ابن المقفع أحد قط ، سئِل ما البلاغة ؟ قال : البلاغة اسم جامع لمعان تجرى في وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الإشارة ، ومنها ما يكون في الحديث ، ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون جواباً ، ومنها ما يكون ابتداءً ، ومنها ما يكون شعراً ، ومنها ما يكون سجعاً وخطباً ، ومنها ما يكون رسائل ، فعمامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى أبلغ ، والإيجاز هو البلاغة »^(٣) .

(١) الفهرست ص ١٨٢ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ١١٥ .

ويروى الجاحظ أن الكتاب الناشئين كانوا يدرسون آثاره ليتعلموا منها البيان ويصقلوا عقولهم وألسنتهم^(١) ، وقد سخرَ مَرَّ السخرية من أحد هؤلاء الناشئين ، إذ رآه يتعرض لقول ابن المقفع في كليله ودمنة : « وكن كالنَّسَر حوله الجَيْسَفُ ولا تكن كالجَيْف حوله النُّسور » ويقول : إنما كان ينبغي أن يقول بدلا من ذلك : « كن كالضُّرس حُفَّ بالتُّحَف ، ولا تكن كالهَبْرَة^(٢) تُطَيِّف بها الأَكَلَة » . قال الجاحظ : وأظنه أراد الضروس ، فقال : الضُّرس ، وهذا من الاعتراض عجب^(٣) .

والحق أن ابن المقفع كان من البلاغة في الذروة ، ويكفي أنه استطاع أن ينقل أهم ما عرفه في لغته من تراث عقل وتاريخي وفلسفي وأدبي إلى العربية مع الاحتفاظ لها بكيانها ومشخصاتها ، ومن غير شك عانى في سبيل ذلك كثيراً ، فقد خرج بما كان يترجم وينقل عن نطاق المعاني العربية السابقة إلى معان جديدة لم يسبق للغتنا أن أدتها ، وهي معان كانت تزدهم عليه وتتكاثر وتنوع ، ومع ذلك لم يستعص عليه التعبير عنها ، وقد كانت حرية أن تحدث عنده اضطراباً في التراكيب وأن تُدْخِل في أساليبه صوراً من الرطانة الأعجمية ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، فقد ظلت العربية عنده محتفظة بأصولها الأولى ومقوماتها الأساسية مع السلاسة والطلاوة . وقرأ له هذه الفقرة من كتاب الأدب الصغير^(٤) : « وسمعت العلماء قالوا لا عقل كالتدبير ولا ورَع كالكَف ، ولا حَسَب كحسن الخلق ، ولا غِنَى كالرِّضَا ، وأحقُّ ما صُبر عليه ما لا سبيل إلى تغييره ، وأفضلُ البرِّ الرحمة ، ورأس المودة الاسترسال^(٥) ، ورأس العقل المعرفة بما يكون وما لا يكون ، وطيب النفس حسنُ الانصراف عما لا سبيل إليه ، وليس في الدنيا سرور يعدل صحة الإخوان ، ولا فيها غمٌ يعدل فَقْدَهُمْ . لا يتم حُسْنُ الكلام إلا بحسن العمل كالمريض الذي قد علم دواء نفسه ، فإذا هو

(١) ثلاث رسائل للجاحظ (نشر فينكل) (٤) انظر رسائل البلغاء لكرد على (الطبعة ص ٤٢ .
 (٢) الهبرة : القطعة من اللحم .
 (٣) الحيوان ٦/٣٣٠ .
 (٤) انظر رسائل البلغاء لكرد على (الطبعة الثالثة) ص ٣٥ .
 (٥) الاسترسال : الاتئناس والانبساط .

لم يتداو به لم يُغنه علمه . والرجل ذو المروءة قد يكرم على غير مال كالأسد الذى يُهاب وإن كان عقيراً ^(١) . والرجل الذى لا مروءة له وإن كثر ماله كالكلب الذى يهون على الناس وإن طُوق وخلخل ^(٢) . ليحسن تعاهدك نفسك بما تكون به للخير أهلاً ، فإنك إذا فعلت ذلك أتاك الخير يطلبك كما يطلب الماء السيل إلى الحدور .

✧ وذلك هو أسلوب ابن المقفع فيما بقى بين أيدينا من آثاره ، وهو أسلوب واضح شفاف ، ليس فيه تعقيد ولا إغراب ، وإنما فيه الاسترسال العذب ، وفيه الألفاظ القريبة والعبارات المبسطة حسب الأغراض والمعانى التى كان ينقلها ، وكان ينفر نفوراً شديداً من الإغراب فى اللفظ والتوعر فيه ، وكان يقول لبعض من حوله : « إياك والتتبع لوحشى الكلام طمعاً فى نيل البلاغة فإن ذلك هو العي الأكر » كما كان يقول : « عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة » وسئل ما البلاغة ؟ فقال : « التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » ^(٣) .

✧ وابن المقفع بهذه الوصايا يضع بين أيدينا أسس أسلوبه ، وهو أسلوب جديد لا شك أنه كان من أوائل من ثبتوا حدوده ورسومه ، أسلوب يقوم على التوسط بين لغة الخاصة وما قد يكون فيها من إغراب فى اللفظ ولغة العامة وما قد يكون فيها من ابتذال . أسلوب عباسى مولد ، يلائم فيه ابن المقفع بين حاجات عصره الثقافية وبين مقومات العربية وأصولها اللغوية والنحوية ، وكان يدفعه هذا الأسلوب دفعاً إلى أن يدرس الألفاظ ويختبرها ويقارن بينها ويفاضل ، حتى يظفر منها بما يستوفى معانيه من جهة ، وما يتيح لها ضرباً من البلاغة من جهة ثانية .

وأكبر الظن أننا لا نسرف فى القول حين نزع أن ابن المقفع كان من أوائل من وطئوا هذا الأسلوب العباسى المولد ، إن لم يكن أول من وطده وخاصة

(١) عقيراً : جريحاً . (٣) انظر فى هذه النصوص أمالى المرتضى

(٢) طوق وخلخل : لبس الطوق والخلخال . ١٣٧/١ .

في ميدان الترجمة ،* وهذا أسلوب يقوم على السهولة والوضوح مع توفير الجزالة والرصانة ،* وكان يعتمد فيه إلى الإيجاز فالمعاني تؤدي بأقل الألفاظ دون أن تقصر عنها ودون أن تطول طولاً يُجحف بحقوقها ، ولعل ذلك هو الذي جعله يعدل عن أسلوب السجع وكذلك عن أسلوب الترادف الصوقي الذي سبق أن لاحظناه عند الوعاظ وعند عبد الحميد الكاتب وأستاذه سالم ، وليس معنى ذلك أنه لم يكن يهتم بالجمال المادى بتاتاً ، وإنما معناه أنه كان مترجماً ، وكان يسعى إلى الدقة في الترجمة ، فلم يتوسّع في رصف الألفاظ وبسطها ، حتى لا تخونه في أداء معانيه . لقد كانت غايته أن يوفق بين اللفظ الدال والمعنى المدلول ، ومع ذلك لم ينس أبدأً أن يكون لفظه جزلاً رصيناً مصقولاً ، وأن ينسقه في حركاته وأوضاعه تنسيقاً مبيناً ، لا يخفى أى شئ مما يحمله معنى أو صورة . وقد ظلت القرون التالية إلى قرننا الحاضر تتداول كثيراً ما ترجمه ، وخاصة كليله ودمنة والأدب الكبير والأدب الصغير . وهذا الصمودُ للتداول الطويل مرجعه هذا التعاون الوثيق بين المعنى الحصيف واللفظ الرشيق .

٤

سهل بن هرون : أصله وحياته وثقافته

إذا تركنا عصر ابن المقفع وتقدمنا إلى عصر هرون الرشيد التقينا بسهل ابن هرون ، وهو فارسي من دَسْتَمِيسَان^(١) ، كورة بين البصرة وواسط والأهواز ، ويعين الحَصْرَى القرية التي ولد فيها ، فيقول إنها ميسان^(٢) ، واختلف الرواة في اسم جده ، فهو في الفهرست رامنوى أو راهبون ، وهو في البيان والتبيين راهبوني^(٣) . وهو مثل ابن المقفع لا يُعرف بالضبط متى كان مولده ، أما وفاته فكانت في عام ٢١٥ للهجرة^(٤) . وقد ترك موطنه أول الأمر إلى البصرة حيث

(١) الفهرست (طبعة القاهرة) ص ١٧٤ . (٣) البيان والتبيين ١/ ٥٢ .

(٢) زهر الآداب ٢/ ٢٥٨ . (٤) معجم الأدباء (طبعة القاهرة) ١١/ ٢٦٧ .

تخرج فيها ، ثم انتقل إلى بغداد ، فكتب ليحيى بن خالد البرمكى ، وله أشعار في مديحه ^(١) ، ويقال إنه خلفه على الدواوين ^(٢) ، ويظهر أنه ظل يشتغل فيها لعهد الأمين ^(٣) . ولما ولي المأمون الخلافة قدّمه إليه الفضل بن سهل فأعجب به ، وجعله خازناً بدار الحكمة ^(٤) ، وظل بها إلى أن توفي .

ودلائل كثيرة تدل على أنه كان مثقفاً ثقافة ممتازة بجميع معارف عصره ، وأنه كان أحد النقلة من لسانه الفارسي إلى العربية ^(٥) ، ولكن أهميته لا ترجع إلى ما ترجم ، بل ترجع إلى ما صنف وألّف ، ومن أجل ذلك كان يختلف عن ابن المقفع ، فابن المقفع أهميته الأولى في تاريخ النثر العربي إنما ترجع إلى أنه كان مترجماً وأنه مرّ أن أساليب العربية على حتمّ الثقافات الأجنبية ، أما سهل فكان أديباً تبدو شخصيته فيما يؤلف ويدبج ويحبر .

ويُجمع من ترجموا لسهل على أنه كان شعوبى المذهب ، شديد العصبية على العرب ، ويقول صاحب الفهرست إن له في ذلك كتباً كثيرة ^(٦) . وعلى نحو ما اشتهر بالشعوية اشتهر بالحكمة ، حتى لقبوه « بزرجمهر الإسلام » ^(٧) ووصفه الجاحظ فقال : « كان سهلاً سهلاً في نفسه ، عتيق ^(٨) الوجه ، حسن الشّارة ، بعيداً من الفدامة ^(٩) ، تقضى له بالحكمة قبل الخبرة ، وبرقة الذهن قبل المخاطبة ، وبدقة المذهب قبل الامتحان ، وبالنسب قبل التكشف » ^(١٠) . ويلاحظ ابن النديم أن الجاحظ كان يفضّله ، ويصف براعته وفصاحته ويحكي عنه في كتبه ^(١١) ، وقد صرح مراراً بأنه كان يلقاه ^(١٢) ، وروى كثيراً من نوادره ، فن

-
- | | |
|------------------------------------|------------------------------------|
| (١) الحيوان ٤٦٦/٣ ، ٦٠٣/٥ والبيان | (٧) زهر الآداب ٢٥٨/٢ وشرح العيون |
| والتبين ٣٥٢/٣ . | (٨) عتيق الوجه : جميل . |
| (٢) شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون | (٩) الفدامة : العي . |
| (٣) البيان والتبين ٣٤٦/١ . | (١٠) البيان والتبين ٨٩/١ . |
| (٤) معجم الأدياء ٢٦٧/١١ . | (١١) الفهرست ص ١٧٤ . |
| (٥) البيان والتبين ٢٩/٣ . | (١٢) البيان والتبين ٢٣٨/١ والحيوان |
| (٦) الفهرست ص ١٧٤ . | ٢٠٢/٧ . |

ذلك أنه تنذر على أحد جيرانه ، وهو صغير يختلف إلى الكتاب ، فقال :
نُبِّيتُ بِغُلْمِكَ مَبْطُونًا فَرَعْتَ لَهُ فهل تماثل أونايتك عَوَّادًا^(١)

ويدل هذا على أنه كانت فيه نزعة إلى الفكاهة منذ حداثته ، وتُروى له في ذلك طرائف كثيرة ، منها أن رجلاً لقيه فقال له : هبْ لي ما لا ضرر به عليك ، فقال : وما هو يا أخي ؟ قال : درهم ، قال سهل : « لقد هَوَّنتَ الدرهم ، وهو طائعُ الله في أرضه لا يَعْصِي ، وهو عَشْرُ العشرة ، والعشرة عَشْرُ المائة ، والمائة عَشْرُ الألف والألف دِينَةُ المسلم ، ألا ترى إلى أين انتهى الدرهم الذي هَوَّنته ؟ وهل بيوت المال إلا درهم على درهم »^(٢) وقال دعبيل الشاعر :
« أقمنا عند سهل بن هرون ، فلم نَبْرَحْ ، حتى كدنا نموت من الجوع ، فلما اضطررناه ، قال : يا غلام ! ويلك غَدَدْنَا ! قال : فأتينا بقصعة (بصفحة) فيها مرق ، فيه لحم ديك هرم ، ليس قبلها ولا بعدها غيرها ، لا تحزُّ فيه السكين ولا تؤثر فيه الأضراس ، فاطَّلَعَ في القصعة وقلَّبَ بصره فيها ، ثم أخذ قطعة خبز يابس ، فقلَّبَ جميع ما في القصعة ، حتى فقد الرأس من الديك ، فبقى مُطَرَّقًا ساعة ، ثم رفع رأسه إلى الغلام ، فقال : أين الرأس ؟ فقال : رميتُ به . قال سهل : ولم رميت به ؟ قال : لم أظنك تأكله ، قال : ولأى شيء ظننت أني لا آكله ؟ فوالله إني لأَمَقُّتُ من يرى برجليه ، فكيف من يرى برأسه ؟ ثم قال له : لو لم أكره ما صنعت إلا للطَّيْرَةَ (التشاوم) والفأل لكرهته ، الرأس رئيس ، وفيه الحواس (الخمسة) ، ومنه يصبح الديك ، ولولا صوته ما أريد ، وفيه فَرْقَه الذي يتبرَّك به ، وعينه التي يُضْرَبُ بها المثل ، يقال : شراب كعين الديك (في الصفاء) ودماغه عجيب لوجع الكلبيَّة ، ولم أر عظمًا قط أهشَّ تحت الأسنان من عظم رأسه . فهلا إذ ظننت أني لا آكله ظننت أن العيال يأكلونه ؟ وإن كان بلغ من نُبْلِكَ أنك لا تأكله فإن عندنا من يأكله . أما علمت أنه خير من طرف الجناح ومن الساق والعنق ، انظر أين هو ، قال :

(١) الحيوان ٦٦/٣ .

(٢) سرح الميرون ص ١٢٣ .

والله ما أدرى أين رميتُ به ، قال : لكنى أدرى أنك رميتَ به فى بطنك ، والله حَسْبُكَ»^(١). ويُرْوَى أن أبا الهذيل العلاف المتكلم المعروف طلب إليه رقعة إلى الحسن بن سهل يوصيه به ، فكتب له كتاباً ، وذهب به إلى الحسن ، فلما فضَّه أغربَ فى الضحك ، إذ وجد فيه هذه الآيات :

إن الضميرَ — إذا سألتُك حاجةً لأبى الهذيل خلافُ ما أبدي
فامدِّحْهُ روحَ اليأس ثم امدِّدْ له حبْلُ الرجاء بمخلف الوعد
حتى إذا طالتْ شقاوةُ جدِّه وعنائه فاجبِهْهُ بالردِّ
وإن استطعتْ له المضرةَ فاجتهد فيما يضرُّ بأبلغ الجهدِ

فلما راجعه أبو الهذيل قال له : أين عزُّبُ عنك الفهم ؟ أما سمعت قولى :
إن الضمير خلاف ما أبدى ؟ فلو لم يكن ضميرى الخير ما قلت هذا»^(٢). وقالوا
إن المأمون انحرف عنه ، فدخل عليه يوماً ، وقال : يا أمير المؤمنين ! إنك
ظلمتني وظلمت فلاناً الكاتب ، فقال له : ويلك وكيف ؟ قال : رفعته فوق
قدِّره ، ووضعتني دون قدرى ، إلا أنك له فى ذلك أشد ظلماً ، قال : كيف ؟
قال : لأنك أقمته مقام هُزُرٍ وأقمته مقام رحمة ، فضحك المأمون ، وقال له :
قاتلك الله ! ما أهجأك !»^(٣). وقصَّوا عنه أنه خاطب بعض الأمراء ، فقال له :
كذبت ، فقال : أيها الأمير ! إن وجه الكذاب لا يقابلك — يعنى الأمير
بذلك — لأن وجه الإنسان لا يقابله»^(٤).

وكل هذه الأحاديث والنوادر المروية عن سهل تدل على ذكائه وفطنته
وخفة روحه ، وصدق الجاحظ إذ يقول إنه كان سهلاً فى نفسه تحكماً له برقة
الذهن ودقته ، فهو فكاهة وهو لاسن شديد العارضة . وفى لهجة لسانه وأسلوب منطقته
ما يجعلنا نحس الصلة الشديدة بينه وبين الجاحظ ، إذ يعد امتداداً — من
بعض الوجوه — لهذا اللسان ونمواً لهذا العقل وما طوى فيه من حجاج وجدل .

(١) الحيوان ٢/٣٧٤ وانظر سرح العيون (٣) نفس المصدر ص ١٣٤ .

(٤) سرح العيون ص ١٣٤ .

ص ١٣٣ .

(٢) سرح العيون ص ١٣٤ .

صنعة سهل في رسائله وكتبه

كان سهل خطيباً كاتباً شاعراً^(١) يقول الجاحظ: «ومن الخطباء الشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المجلدة والسيَر الحسان المدونة والأخبار المولدة سهل بن هرون بن راهبوني الكاتب، صاحب كتاب ثعالة وعفراء في معارضة كتاب كليله ودمنة وكتاب الإخوان^(٢)، وكتاب المسائل^(٣)، وكتاب الخزومي والهلالية، وغير ذلك من الكتب»^(٤). ومن كتبه التي ذكرها ابن النديم كتاب النمر والثعلب، وكتاب الوامق والعذراء، وكتاب ندود وودود ولدود وكتاب الغزاليين، وكتاب إلى عيسى بن أبان في القضاء، وكتاب تدبير الملك والسياسة^(٥).

ويدل الكتابان الأخيران على أنه عُنِيَ — مثل ابن المقفع — بالكتابة في شئون الحكم والسياسة، ولعل أهم هذه الكتب جميعاً كتاب ثعالة وعفراء الذي ألفه فصلاً في قصص الحيوان معارضة لكتاب كليله ودمنة، ولم يصلنا هذا الكتاب إنما وصلتنا فقرة منه في كتاب زهر الآداب للحصري، وهي حكمة تمضي على هذا النمط:

«اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدماً قبل الذي تجودون به من تفضلُّكم، فإن تقديم النافلة مع الإبطاء عن الفريضة مظاهرٌ على وهن العقيدة وتقصير الروية، مضرٌ بالتدبير محلٌ بالاختيار، وليس في نفعٍ تُحمِّدُ به عوضٌ من

-
- (١) انظر في أشعاره زهر الآداب ٢/٢٥٨ — ٢٥٩ والبيان والتبيين ١/١٩٦، ٣/٣٥٢. الفهرست.
والحيوان ٣/٤٦٦، ٥/٦٠٣ — ٦٠٤. (٤) البيان والتبيين ١/٥٢.
(٢) في الفهرست: كتاب إسباسيوس في اتحاد الإخوان.
(٣) لعله كتاب الرسائل الذي ذكر في الفهرست.
(٥) انظر الفهرست ص ١٧٤.

فساد المروءة ولزوم النقيصة » ويقول الحصرى عقب هذه الفقرة : وكتابه هذا مملوء حِكْماً وعِلْماً^(١) .

ويُكبر الجاحظ دائماً من بلاغة سهل وفصاحته ، ويظهر أنه أهم كاتب ظهر خلال القرن الثاني الهجري ، يقول صاحب سرح العيون : « انفرد سهل في زمانه بالبلاغة والحكمة وصنّف الكتب معارضاً بها كتب الأوائل »^(٢) ويقول الجاحظ : إنه كان في أول أمره إذا ألف كتاباً طعن الناس عليه ، فكان ينسب ما يؤلفه إلى من عرّفوا بالتأليف مثل سهل ، فيشيع الكتاب ويحمّله الناس مع الحمد والثناء^(٣) .

وإذا ذهبنا نتعقب آثار سهل كي نحكم حكماً دقيقاً على صناعته وفنه في كتبه ورسائله لم نجد إلا بقية ضئيلة من هذا المجهود الضخم الذي وصفه الجاحظ وابن النديم وأمثالهما ، ولولا أن الجاحظ احتفظ لنا في كتابي البخلاء والبيان والتبيين بأطراف من عمله ما استطعنا أن نصدر حكماً دقيقاً على صياغته ولا على صناعته ، ولعل أهم ما سجله الجاحظ له رسالته التي استفتح بها كتاب البخلاء ، وفيها نرى سهلاً يمتنع للبخل احتجاجاً فيه حوار الجاحظ وجدله ، وفيه أيضاً فصاحته ولُسنه ، بحيث يختلط الأمر على الناظر في هذه الرسالة ، فيخيل إليه أنها ربما كانت من صنْع الجاحظ وإنما نحلها سهلاً لما رب في نفسه ، ولكن هذا الظن ينمحي إذا قرأنا ما بقي من نثر سهل في مواطن أخرى . ومن يرجع إلى الرسالة يجد بها تدم الكرم وتزرى به ، بينما تمدح البخل وتثني عليه ، وهو ثناء أراد به التعصب على العرب ودم صفة الكرم التي لهج شعراؤهم بذكرها ومدح ما يضادها من الشح والبخل ، ويقال إنه أرسل بها إلى الحسن بن سهل ليكافئه عليها فأجابه على ظهرها : « وصلت رسالتك ، ووقفنا على نصيحتك ! وقد جعلنا المكافأة عنها القبول منك والتصديق لك والسلام »^(٤) . وقد توجه بالرسالة في مفتتحها إلى

ص ٧٦ .

(٤) الفهرست ص ١٧٤ .

(١) زهر الآداب ٢/ ٢٥٨ .

(٢) سرح العيون ص ١٣٢ .

(٣) التنبيه والإشراف للمسمودي (طبع ليدن)

بنى عمه ، ويقول القدماء إنه يقصد بنى عمه من آل راهبون ، وأكبر الظن أنه يقصد بهم جماعة العرب لا آل راهبون كما ظن القدماء ، وهو يستلها على هذا النمط (١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أصلح الله أمركم ، وجمع شملكم ، وعلمكم الخير وجعلكم من أهله ، قال الأحنف بن قيس : يا معشر بنى تميم ! لا تسرعوا إلى الفتنة ، فإنَّ أسرعَ الناس إلى القتال أقلُّهم حياة من الفرار ، وقد كانوا يقولون : إذا أردت أن ترى العيوب جَمَّة فتأمل عيَّاباً ، فإنه إنما يعيب بفضل مافيه من العيب ، وأول العيب أن تعيب ما ليس بعييب ، وقبيح أن تنهى عن مرشد أو تغرى بمشقق . وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم ، وإلا إصلاح فسادكم ، وإبقاء النعمة عليكم ، ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم ، فأخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم . ثم قد تعلمون أننا ما أوصيناكم إلا بما قد اخترناه لأنفسنا قبلكم ، وشهرنا به في الآفاق دونكم . فما كان أحقكم في تقديم حرمتنا بكم أن ترعوا حق قَصْدنا بذلك إليكم ، وتنبيهنا على ما أغفلنا من واجب حقكم ، فلا العذر المبسوط بلغتم ، ولا يوجب الحرمة قمتم . »

وأظن أن صنعة سهل قد استبانت لنا في هذه الأسطر القليلة ، إذ نراه يعنى في رسالته ببسط الأدلة ، وكأنه يتقدم حواراً عنيفاً ، فهو يدلل بأقيسة وقضايا وآثار مروية ، وليس هذا كل ما يميز صنعته التي نلمح فيها أثر المنطق وتعلم الجدل ، بل يميزها شيء آخر أهم من ذلك ، وهو ما يعمد إليه من بسط العبارة بسطاً يظهر فيه التقطيع الصوقي والترادف الموسيقي ، واستمر معه في الرسالة فسترى هذا العنصر في فنه وصياغته يتضح أكثر إذ يقول :

« عبتُموني حين ختمت على سَدِّ (سَلِّ) عظيم وفيه شيء ثمين من فاكهة نفيسة ، ومن رُطْبَةٍ غريبة ، على عبد نهيم ، وصبي جشع ، وأمة لكعاء ، وزوجة

(١) انظر الرسالة بطولها في فاتحة كتاب

البخلاء للمجاهظ .

خرقاء . وليس من أصل الأدب ، ولا فى ترتيب الحكم ، ولا فى عادات القادة ، ولا فى تدبير السادة ، أن يَسْتَوَى فى نفيس المأكول ، وغريب المشروب ، وثمين الملبوس ، وخطير المركوب ، والناغم من كل فن ، واللُّباب من كل شكل ، التابع والمتبوع ، والسيد والمسود ، كما لا تستوى مواضعهم فى المجلس ، ومواقع أسمائهم فى العنوانات وما يستقبلون به من التحيات وعبتمونى بِمُخَصِّفِ (إصلاح) النعال ، وبتصدير القميص ، وحين زعمت أن المخصوفة أبهى ، وأوطأ وأوقى ، وأننى للكبير ، وأشبه بالنسك ، وأن الترقيع من الحزم ، وأن الاجتماع مع الحفظ ، وأن التفرق مع التضييع ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يَخْصِفُ نعله ، ويرقِّع ثوبه ، ولقد لَفَقَتْ سَعْدَى بنت عوف لزار طلحة وهو جواد قريش ، وهو طلحة الفياض .

وما من ريب فى أن صوت سهل قد اتضح لنا الآن بجميع خصائصه ، فهو يعمد إلى الجدل والدقة فى الحوار كما يعمد إلى شيء طريف فى أسلوبه ، إذ نرى الألفاظ تنوازن لكن لا فى شكل سجع بل فى شكل تقطيعات دقيقة ، وكأنى بسهل لم يكن يعمد إلى أداء أفكاره بلفظ فصيح فقط كما كان يصنع ابن المقفع ، بل كان يعمد إلى ضروب من التوقيع الصوتى فى اللفظ حتى تستقيم لأسلوبه فنون من الجمال المادى الذى يجلب سامعيه ، كى يؤثر فى وجدانهم وعواطفهم ، بجانب ما يؤثر به فى عقولهم من حجاجه وجدله والتماسه للبراهين والأدلة على أفكاره .

وهذا التقطيع الصوتى فى أسلوب سهل اقترن به عنصر آخر فى صناعته ، هو عنصر الترادف الذى أشرنا إليه ، وارجع إلى هذه القطعة التى رويناهما له فسترى كل معنى لا يؤدِّى أداء واحداً فى عبارة واحدة ، بل يؤدِّى أداءين أو أكثر حتى يتم لسهل ما يريد من توقيع صوتى وتعادل موسيقى بين ألفاظه وعباراته ، وقد جرَّه ذلك إلى ضروب من الترادف فى تراكيبه ، ولكنه ترادف طريف أو قل بعبارة أدق إنه ترادف فنى فقد كان سهل يريد أن يؤدِّى به خصائص فنية بجانب ما يؤدِّى من خصائص ذهنية . وعلى هذا النحو كانت تندمج فى أساليبه

خصائص موسيقية في خصائص أخرى عقلية نلمحها في هذا الجدل وهذا الحوار وما يبدو عليه من تلاوين عقلية أحدثتها الثقافة الفلسفية في تفكيره وأدائه لمعانيه ، وقد كان يعرف كيف يوازن بين هذه التلاوين العقلية وما سبقها من تلاوين موسيقية فتخرج أساليبه وقد التمتعت عليها شيات من التأمل والعقل الدقيق ، كما التفتت عليها شيات أخرى من التوقيع والترادف الموسيقي ، وسنرى هذه الشيات جميعاً تمتد تحت أعيننا في كل ما دبح الجاحظ وحبَّره من كتب ورسائل ، وإنه ليتأثر في هذه التزعة سهلاً من طرف ، وبيئة المتكلمين الذين نشأ فيهم من طرف آخر ، وكأنما كان أسلوبُ العصر هو أسلوب الجدل والحوار . ولعل مما يشهد لذلك عند سهل ما يروى من أن شخصاً مدح الذهب فأظنب ، ثم قام النظام فدم الزجاج وأظنب ، فاعترضهما سهل يفضل الزجاج على الذهب في رسالة طويلة لم يبق لنا منها إلا هذه الأسمعة ^(١) :

« الزجاج مجلَّو نورى ، والذهب متاع سائر ، والشراب في الزجاج أحسن منه في كل معدن ، لا يُفْتَقَدُ معه وجه النديم ، ولا يُثْقَلُ اليد ، ولا يرتفع في السَّوْم . واسم الذهب يتطير منه ، ومن لؤمه سرعته إلى اللثام ، وهو فاتن فانك (غالب) لمن صانه ، وهو أيضاً من مصايد إبليس ، ولذلك قالوا أهلك الرجال الأحمران (الذهب والزعفران) . والزجاج لا يحمل الوضَر ، ولا يداخله الغَمَر ^(٢) ، ومتى غُسل بالماء وحده عاد جديداً ، وهو أشبه شئء بالماء ، وصفته عجيبة ، وصناعته أعجب » .

ونحن لا نجد أى فارق بين هذه الطريقة في الحجاج وبين طريقة الجاحظ في حجاجه ، إذ كان يركب مثل هذا المركب في كل ما يكتب ويؤلف ، كأنه يريد أن يغرب عن الناس دائماً بتفكيره ، فهو يخرج على ما لو فهم ومعتادهم بآراء شاذة يسوقها في جدل عنيف . وقد رُويت في البيان والتبيين لسهل قطعة في الخطابة والخطباء ، وهى من هذا اللون ، إذ نرى سهلاً فيها يفضل الخطيب قبيح السَّمْت على الخطيب حسن السمت على هذا النحو ^(٣) :

(٣) انظر البيان والتبيين ١/ ٨٩ .

(١) سرح العيون ص ١٣٥ .

(٢) الغمر : الدم ، والوضر : وحنه .

« لو أن رجلين خطبا أو تحدثا ، أو احتجنا أو وصفا ، وكان أحدهما جميلاً ، بهيئاً ، ذا لباس نبيل ، وذا حسب شريفاً ، وكان الآخر قليلاً قميصاً ، وبادئ الهیئة دميماً ، وخامل الذكر مجهولاً ، ثم كان كلاهما في مقدار واحد من البلاغة ، وفي وزن واحد من الصواب ، لتصدع عنهما الجمع ، وعامتهم تقضى للقليل الدميم ، على النبيل الجسيم ، وللبادئ الهیئة على ذی الهیئة ، ولشغلهم التعجب منه عن مساواة صاحبه ، ولصار التعجب منه سبباً للعجب به ، ولكان الإكثار من شأنه علة للإكثار في مدحه ، لأن النفوس كانت له أحقر ، ومن بيانه أياس ، ومن حسده أبعد ، فلذا هجموا منه على ما لم يحتسبوه ، وظهر منه خلاف ما قدره ، تضاعف حسن كلامه في صدورهم ، وكبر في عيونهم ، لأن الشيء من غير معدنه أغرب ، وكلما كان أغرب كان أبعد في الوهم ، وكلما كان أبعد في الوهم كان أطرف ، وكلما كان أطرف كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبداع ، وإنما ذلك كنوادر كلام الصبيان ، ومسلح المجانين ، فإن ضحك السامعين من ذلك أشد ، وتعجبهم به أكثر ، والناس موكلون بتعظيم الغريب ، واستطراف البديع ، وليس لهم في الموجود الراهن المقيم ، وفيما تحت قدرتهم من الرأي والهوى مثل الذي لهم في الغريب القليل ، وفي النادر الشاذ ، وكل ما كان في ملك غيرهم . وعلى ذلك زهد الجيران في عالمهم ، والأصحاب في الفائدة من صاحبهم ، وعلى هذا السبيل يستطرون القادم عليهم ، ويرحلون إلى النازح عنهم ، ويتركون من هو أعم نفعاً ، وأكثر في وجوه العلم تصرفاً ، وأخف مثونة وأكثر فائدة ، ولذلك قدم بعض الناس الخارجى على العريق^(١) ، والطارف على التلید ، وكان يقول : إذا كان الخليفة بليغاً والسيد خطيباً فإنك تجد جمهور الناس وأكثر الخاصة فيهما على أمرين : إما رجلاً يعطى كلامهما من التعظيم والتفضيل ، والإكبار والتبجيل ، على قدر حالهما في نفسه ، وموقعهما من قلبه ، وإما رجلاً تعرض له الهمة لنفسه فيما ، والخوف من أن يكون

(١) الخارجى : يخرج ويشرف بنفسه

من غير أن يكون له قدم .

تعظيمه لهما ، يومه من صواب قولهما ، وبلاغة كلامهما ما ليس عندهما ، حتى يفرط في الإشفاق ، ويسرف في التهمة ، فالأول يزيد في حقهما للذي لهما في نفسه ، والآخر ينقصهما من حقه لتهمة لنفسه . وإذا كان الحب يعنى عن المساوئ فالبغض يعنى عن المحاسن ، وليس يعرف حقائق مقادير المعاني ومحصل حدود لطائف الأمور إلا عالم حكيم ، ومعتدل الأخلاط عليم ، وإلا القوى المُنّة ، والوثيق العقيدة ، والذي لا يميل مع ما يستميل الجمهور الأعظم والسواد الأكبر .

وأنت ترى في هذه القطعة المجموعتين من التلاوين العقلية والصوتية تلتقيان في أسلوب سهل في غير مشقة ولا تكلف ، إذ تندمج في صياغته القدرة على التحليل والتعليل بالقدرة على صوغ اللفظ وتحجيره والاتساع به حتى يؤدي ضرورياً من التوقيع الصوتي والترادف الموسيقي ، وما من شك في أن ذلك كله كان خطوة نحو أسلوب الجاحظ الذي سنراه ينهض نهوضاً واسعاً بالطرفين من التلاوين العقلية والصوتية . ومهما يكن فقد كان سهل يوفر لألفاظه ومعانيه عناية واسعة ، وهي عناية جعلته أحد بلغاء عصره في صنع الرسائل الطويلة وتحجيرها ، إذ كان ما يزال يحثال على الرسالة من رسائله بتلاوينه العقلية وتحاسينه الصوتية ، فإذا هي تستوى في صورة بديعة من الفن والصناعة ، والجمال والطلاوة .

٦

الجاحظ : نشأته وثقافته وحياته

يوضع الجاحظ على رأس كتّاب العصر العباسي غير مدافع ولا منازع ، وهو يرجع - فيما يظهر - إلى أصل غير عربي^(١) ، وولد في البصرة حول عام ١٥٩ هـ ونشأ فيها نشأة متواضعة إذ يزعم الرواة أنه نشأ يبيع الخبز والسّمك بسيّحان^(٢)

(١) نزعة الألباني طبقات الأدبالين الأتباري
ص ٢٥٤ وانظر أمالي المرتضى ١/ ١٩٤ ومجمع
الأدباء لياقوت ١٦/ ٧٤ .
(٢) مجمع الأدباء ١٦/ ٧٤ .

أحد أنهار بلدته ، وهذا هو كل ما لدينا عن نشأته وحداثته ، على أننا لا نغضى معه في حياته حتى نراه يترك نهر سيحان إلى أنهار الثقافة في عصره فهو يغلو على المرتبة يسمع من الأعراب الفصحاء ، ويختلف إلى حلقات العلماء في المسجد الجامع ، يأخذ عن علماء اللغة وغيرهم ، وكانت أهم حلقة تعجبه حلقة المتكلمين وأقبل على قراءة كل ما تُرجم من الثقافات الأجنبية ، ويقصّون عن شغفه بالقراءة قصصاً كثيرة ، فهم يقولون إنه كان لا يقع في يده كتاب إلا ويقرأه من أوله إلى آخره^(١) ، ويروى صاحب الفهرست أنه كان يكثرى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للقراءة والنظر^(٢) .

وهذا العكوف على القراءة هو الذي جعل كتبه ورسائله أشبه ما تكون بدوائر معارف ، فليس هناك جدول من جداول الثقافة في عصره إلا وتسربت منه فروع ومنعطات إلى كتاباته وتأليفاته ، وإن كتبه من هذه الناحية لتشبه تمام الشبه معارضنا الحديثة ، فأنت منذ دخولك في فواتح هذه المعارض ، تلقى صناعات مختلفة من كل جنس ، وكذلك أنت منذ دخولك في كتب الجاحظ تجده يعرض تحت بصرك جميع ألوان الثقافة التي عاصرتها من هندية وفارسية ويونانية وعربية ، وهو يجمع ذلك في شكل مشعّث إذ بينما تراه يتحدث إليك عن حديث شريف أو آية قرآنية ، إذ هو يتحدث عن حكمة يونانية ، وبينما يتحدث عن زرادشت والمناوية ، إذ هو يتحدث عن الإسلام والنبوة ، وبينما يتحدث عن العرب وشعرهم إذ هو يتحدث عن نظرية الكمون عند المعتزلة أو عن نظريته في أن المعارف طباع ، وحتى هو إن كتب في البيان عند العرب تجده يبحث لك عن رأى الهند واليونان والفرس في البلاغة .

وكان الجاحظ من المعتزلة ، وهو تلميذ النظام في اعتزاله^(٣) ، وأشاد به مراراً في حيوانه كما أشاد بغيره من المعتزلة أمثال بشر بن المعتمر وثمامة بن الأشرس وأبي الهذيل العلاف وأضرابهم . وقد استطاع خلال اعتزاله أن ينفذ إلى تأليف

(١) أمالي المرتضى ١/ ١٩٤ .

٧٥/١٦ .

(٢) الفهرست ص ١٦٩ وانظر معجم الأدباء (٣) نزعة الألباص ٢٥٤

مجموعة من الآراء تعصبت لها طائفة من المعتزلة سميت باسم الجاحظية^(١)، ومهما يكن فقد كان الجاحظ من طائفة المعتزلة، وهي طائفة عُرِفَتْ في هذا العصر بكثرة الجدل والحوار كما عرفت بسعة ثقافتها واتصالها بجميع ألوان المعارف لعصرها وخاصة المعارف اليونانية .

ولم يشتهر المعتزلة في العصر العباسي بجلهم وثقافتهم فقط، بل اشتهروا بشيء مهم أيضاً وهو فصاحتهم وبلاغتهم حتى ليقول الجاحظ: «إن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء»^(٢). وقد وصفهم صاحب الانتصار فقال: «إن الكلام لهم دون سواهم»^(٣). ويقول صاحب المقابسات: «إن طريقتهم مؤسسة على مكايلة اللفظ باللفظ، وموازنة الشيء بالشيء والاعتماد على الجدل»^(٤). ويظهر أيضاً أنهم كانوا يعتمدون في جلهم على الاستشهاد بالشعر، ويقول المرتضى عن أبي الهذيل العلاف: «كان يحفظ كثيراً من الشعر العربي ويستشهد به في مجالسه، قال المبرد: ما رأيت أفصح من أبي الهذيل والجاحظ، وكان أبو الهذيل أحسن مناظرة، شهدته في مجلس وقد استشهد في جملة كلام بثلاثمائة بيت»^(٥). وتوفي أبو الهذيل حوالي عام ٢٣٢ هـ. وربما كان من تأثيره ما نجده عند الجاحظ في كتبه من كثرة استشاده بالشعر، وقد يكونان هما جميعاً يتأثران بطريقة غيرهما من المعتزلة في هذا الاستشهاد، بمعنى أنه استقر قبلهما عند أبناء مذهبهما .

ومهما يكن فقد لَقِيَ الجاحظ في بيئة المعتزلة الجدلة اللسنة فصاحته وبيانه متأثراً بكتابات عصره وخاصة كتابات سهل بن هرون الذي كان يشغف به كما لاحظ ابن النديم في فهرسته . ونحن لا نصل إلى القرن الثالث حتى نجده وقد استوت له شهرة فائقة بين كُتَّاب عصره، ولعل ذلك ما جعل المأمون يطلب

(١) انظر الفرق بين الفرق لأبي منصور البغدادي طبع مطبعة المعارف ص ١٦٠-١٦٢ حيث عرض للرد على الجاحظية وآرائها .
(٢) البيان والتبيين ١/ ١٣٩ .
(٣) الانتصار لابن الحياط (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٧٢ .
(٤) المقابسات (طبع مصر) ص ٢٢٣ .
(٥) المنية والأمل ص ٢٦ .

إليه أن يكتب له رسالة في العباسية والاحتجاج لها، ويقال إنه أقيم على ديوان الرسائل غير أنه لم يمكث فيه سوى ثلاثة أيام^(١) وكأنه لم يستطع الخضوع لنظم الدواوين وما يقتضيه سير العمل فيها فوجدناه يهجرها إلى داره وما عكف عليه من إدمان القراءة والتأليف، ويظهر أن كبراء الدولة كانوا يكفونه حاجته فقد روى أن ابن الزيات أعطاه في كتاب الحيوان خمسة آلاف دينار وأعطاه ابن أبي دؤاد في البيان والتبيين خمسة آلاف دينار ثانية، كما أعطاه إبراهيم بن العباس الصولي خمسة آلاف ثالثة في كتاب الزرع والنخل^(٢). أما الفتح بن خاقان وزير المتوكل الذي صنف له رسالته في فضائل الترك فقد أجرى عليه راتباً شهرياً كان يتقاضاه من خزانة الدولة^(٣).

وعلى هذا كان الجاحظ يتصل بكبار رجال الدولة العباسية وكانوا يوادونه ويصادقونه، ويقال إنه كان صديقاً لابن الزيات مقرباً منه فلما قبض عليه وأودع في التندور فرّ الجاحظ هارباً خوفاً من أن يناله نفس عقابه، ولما قبض عليه وقُدّم إلى ابن أبي دؤاد عدوّ ابن الزيات لقيه لقاءً جافاً فاعترضه قائلاً: «خفّض عليك - أيدك الله! - فوالله لأن يكون لك الأمر على خير من أن يكون لي عليك، ولأن أسىء وتحسن أحسن في الأحداث من أن أحسن وتسىء، ولأن تغفو غنى في حال قدرتك أجمل بك من الانتقام مني، فعفا عنه»^(٤) وعاد إلى البصرة يؤلف ويكتب هذه المصنفات والكتب التي كان يتعلق بها العامة والخاصة تعلقاً شديداً^(٥) وربما كان من أسباب ذلك ما امتاز به من ميل إلى التندر والدعابة حتى ليقول بن أبي دؤاد: «إني أثق بظرفه»^(٦). ويصف من جاءوا بعده كتبه فيقولون: إنها مكتوبة في ضروب من الجد والهزل^(٧). ومن طُرف الجاحظ في ذلك أنه قال عن نفسه: نسيت كنيّتي

(١) معجم الأدباء ٧٩/١٦.

٧٩/١٦.

(٢) انظر في ذلك نفس المصدر ١٠٦/١٦.

(٥) معجم الأدباء ٩٨/١٦.

(٣) انظر معجم الأدباء ٩٩/١٦.

(٦) نزعة الألياس ٢٥٨.

(٤) أمال المرتضى ١٩٥/١ ومعجم الأدباء.

(٧) معجم الأدباء ٧٦/١٦.

ثلاثة أيام حتى أتيت أهلي فقلت لهم: بم أكنسى؟ فقالوا: بأبي عثمان^(١)، ويروى أنه حفظ رجلاً أعجمياً نسباً يدعيه لنفسه في العرب فلما حفظه قال له: الآن لاتنه علينا فقال الرجل: سبحان الله! إن فعلت ذلك فأنا إذاً دعي^(٢). وهذا جانب واسع في الجاحظ ومن خير ما يصوره كتاب البخلاء وما رواه فيه من نوادرهم وفكاهاتهم.

والحق أن الجاحظ كان شخصية فكهة كما كان شخصية لسيئة، وقد غنى بتأليف الكتب والرسائل، وأكثر من ذلك، حتى قالوا إنه ترك نيفاً ومائة وسبعين كتاباً، ومن يرجع إلى الثبت الطويل الذي كتبه في أول حيوانه عن مؤلفاته يندش لكثرة ما ألف وكتب، ولعل ذلك هو أساس شهرته فقد طار اسمه في الآفاق حتى في عصره وزمنه. قص الرواة أنه قيل لأبي هفان: لم لاتهجو الجاحظ وقد ندّد بك وأخذ بمخنقك فقال: أمثلُ يُخدعُ عن عقله، والله لو وضع رسالة في أرنية أننى لما أمست إلا بالصين شهرة، ولو قلت فيه ألف بيت لما طنّ منها بيت في ألف سنة^(٣)، ويروون أن أندلسياً قرأ في موطنه كتابيه (البيان والتبيين) و (التربيع والتلويز) فهاجر إليه يريد لقاءه، ويزعمون أن هذا الأندلسي قال في بعض حديثه كان طالب العلم بالشرق يشرف عند ملوكنا بلقاء أبي عثمان^(٤).

ومن المحقق أن الجاحظ نال شهرة مدوية في عصره وبعد عصره، إذ نجد النقاد والأدباء يلهجون دائماً بمدحه والثناء عليه حتى يقولون إن كتبه رياض زاهرة ورسائل مثمرة^(٥). وكان ابن العميد يقول: إن الناس عيال عليه في البلاغة والفصاحة واللّسن والعارضة^(٦)، وكان يقول أيضاً: إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً^(٧). ومع ذلك كان الجاحظ يشكو من حساده وأنه كان في أوائل

(٥) نفس المصدر ٩٨/١٦.

(٦) معجم الأدباء ١٠٣/١٦.

(٧) وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٨٩/١.

(١) نزهة الألبا ص ٢٥٥.

(٢) معجم الأدباء ٩٤/١٦.

(٣) نفس المصدر ٩٩/١٦.

(٤) نفس المصدر ١٠٤/١٦.

حياته إذا أخرج كتاباً معنوناً باسمه نغموه عليه وأظهروا له الازدراء فكان كثيراً ما يؤلف كتباً وينسبها إلى ابن المقفع والخليل والعتابي وسلم صاحب بيت الحكمة فيأتونه لكتابتها وروايتها عنه^(١) !!

وقد عاش الجاحظ نحو ستة وتسعين عاماً وتوفي سنة ٢٥٥ هـ^(٢) ؛ وأكبر الظن أن هذه السن الطويلة هي التي ساعدته على كثرة التأليف وأيضاً فقد كان مشوه الخلق جاحظ العينين^(٣) فانصرف عنه الناس وعُني هو بصناعة الكتب، ومما ساعده على ذلك أنه مرض شطراً طويلاً من حياته فاضطر إلى ملازمة بيته وقطع فراغه بالكتابة والتأليف، وقد ألف أثناء هذا المرض أشهر كتبه، ونقصد كتاب الحيوان الذي شكاه فيه من مرضه^(٤)، والذي قلعه لابن الزيات المتوفي عام ٢٣٣ هـ وإنه ليقول له متفكهاً في إحدى رسائله وقد أشار عليه أن يجلد كتبه: « جعلت كتبى مصحفاً مصحفاً . . . ورأيت أن أنظر فيها وأنا مستلق ولا أنظر فيها وأنا منتصب »، استظهاً على تعب البدن، إذ كانت الأسافل مثقلة بالأعلى، وإذا كان الانتصاب يسرع في إدخال الوهن على الأصلاب^(٥) . ويظهر أن هذا المرض الذي شكاه منه الجاحظ في رسائله وحيوانه هو الفالج، ومن يرجع إلى الحصرى في ذيل زهر الآداب يجده يؤكد أن الجاحظ ألف الحيوان وهو مفلوج^(٦). وقد صرح الجاحظ في كتاب البخلاء بأنه أله وهو مصاب بالفالج إذ يقول: « صحبني محفوظ النقاش من المسجد الجامع ليلاً، فلما صرت قرب منزله، وكان منزله أقرب إلى المسجد الجامع من منزلي سألتني أن أبيت عنده، وقال أين تذهب في هذا المطر والبرد ومنزلي منزلك، وأنت في ظلمة وليس معك نار، وعندى لباً لم ير الناس مثله، وتمر، ناهيك به جودة؛ لا تصلح إلا له، فلبت معه، فأبطأ ساعة، ثم جاءني بجام لباً وطبق تمر، فلما مددت يدي

(١) مجموعة رسائل الجاحظ (نشر لجنة التأليف (٤) انظر الحيوان ٢٠٨/٤ .

والترجمة والنشر) ص ١٠٨ . (٥) مجموع رسائل الجاحظ ص ٧٤ .

(٢) أمالي المرتضى ١/ ١٩٩ . (٦) ذيل زهر الآداب الحصري (طبع الخانجي)

ص ١٦٥ .

(٣) وفيات الأعيان ١/ ٣٨٨ .

قال يا أبا عثمان ! إنه لبأٌ وغلظه وهو الليل وركوده ، ثم ليلة مطر ورطوبة ، وأنت رجل قد طعنت في السن ، ولم تزل تشكو من الفالج طرفاً ^(١) . وكما أصيب الجاحظ بالفالج أصيب بالنقرس ويظهر أن ذلك كان في أواخر حياته ، قال المبرد : « دخلت على الجاحظ في آخر أيامه فقلت له كيف أنت ، قال كيف يكون من نصفه مفلوج لو خُزَّ بالمناشير ما شعر به ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه » ^(٢) . ويقال إن المتوكل وجَّه في طلبه سنة ٢٤٧ هـ يريد أن يُحمَل إليه فقال : وما يصنع أمير المؤمنين بأمرئ ليس بطائل ، ذى شِقٍّ مائل ولعاب سائل ، وعقل زائل ولون حائل ^(٣) . ويروون أن طبيباً عاده فقال له : « اصطلحت الأضداد على جسدى ، إن أكلت بارداً أخذ برجلي وإن أكلت حاراً أخذ برأسى » ^(٤) . وأخيراً وبعد مرض قاس طويل أنهالت الكتب على الجاحظ يوماً وهو جالس بينها يقرأ فقضت عليه ^(٥) ، وهكذا ذهب الجاحظ ضحية أثر الأصدقاء وأعزهم لديه ^(٦) .

٧

الصنعة الجاحظية

يمتاز الجاحظ بأنه لم يترك موضوعاً عاماً إلا وكتب فيه رسالة أو كتاباً ، وإن من يرجع إلى رسائله وكتبه يجده قد ألَّف في النبات وفي الشجر وفي الحيوان وفي الإنسان وفي المعاد والمعاش وفي الجدد والهزل وفي الترك والسودان وفي المعلمين والقيان وفي الجوارى والغلمان وفي العشق والنساء وفي النبيذ وفي الشيعة والعباسية وفي

-
- (١) البخلاء (نشر وزارة التربية والتعليم) (٥) انظر تاريخ أبي الفدا في سنة ٢٥٥ هـ ،
٤٥/٢ .
(٢) معجم الأدباء ١١٣/١٦ .
(٣) أمالي المرتضى ١٩٩/١ .
(٤) أمالي المرتضى ١٩٩/١ .
(٥) انظر أيضاً شذرات الذهب لابن العماد (نشر
مكتبة القدسي) ١٢٢/٢ .
(٦) الحيوان ٣٨/١ .

الزيدية والرافضة وفي الرد على النصارى وفي حجج النبوة ونظم القرآن وفي البيان والتبيين وفي حيل لصوص النهار وحيـل سرّاق الليل وفي البخلاء واحتجاج الأشحاء . وإن في هذا ما يدل على أن الجاحظ خطا بالكتابة الفنية عند العرب خطوة جديدة نحو التعبير عن جميع الموضوعات في خلاصة وبيان عذب ، وكأني به لم يكن يفهم أن الكتابة الأدبية ألفاظ ترصف ، وإنما كان يفهمها على أنها معان تنسق في موضوع خاص مما يتصل بالطبيعة أو بالإنسان . وكان لذلك صبغته الخاصة في كتابته ، فلما كتب ذات موضوع قبل أن تكون ذات أسلوب ، وليس معنى هذا أنه كان يهمل ألفاظه وتراكيبه* بل لقد كان يعنى بهما عناية شديدة ، وقد صرح بذلك غير مرة فقال إنه يعنى بتأليف كتبه ويتأنى في ترصيفها^(١) . ويقول: « لربما خرج الكتاب من تحت يدي مُحَصِّفاً كأنه من حجر أُمّلس بمعان لطيفة محكمة ، وألفاظ شريفة فصيحة »^(٢) . ولكن عناية الجاحظ على هذا النحو بكتبه ورسائله وأسلوبه فيهما لم تكن تجعله يخرج إلى التماس الألفاظ من حيث هي ألفاظ ، فقد كان يرى أن « شر البلغاء من هبياً رسم المعنى قبل أن يهبى المعنى ، عشقاً لذلك اللفظ وشغفاً بذلك الاسم حتى صار يجر إليه المعنى جراً ، ويلزقه به إلزاقاً ، حتى كأن الله تعالى لم يخاق لذلك المعنى اسماً غيره »^(٣) . فالجاحظ كان يكره العناية البالغة باللفظ تلك العناية التي تسوق صاحبها إلى حفظ أساليب محفوظة بذاتها يبنى عليها معانيه ويصوغ عليها أفكاره ، فإن ذلك يقود الكاتب إلى أن يصبح عبداً لمجموعة من الألفاظ يجرّ إليها المعاني ويشدها شداً .

وهذا هو الطابع العام للجاحظ في كتاباته فهو يعنى بألفاظه ومعانيه جميعاً دون أن ينجور أحد الفريقين على الآخر أو يحيف عليه ، وقد دفعه ذلك إلى أن يعنى بآرائه وأدلته وبراهينه ومقدماته ونتائجه متأثراً في ذلك بما لقف من منطق وفلسفة ومعرفة بالجدل والحوار اللذين كانا شائعين في بيئته ، ونقصد بيئة المعترلة ،

(١) مجموع رسائل الجاحظ ص ١٠٢ . (٣) رسائل الجاحظ (طبع الساسي) ص ١٥٩

(٢) نفس المصدر ص ١٠٩ .

وبجانب ذلك نجده يعنى أيضاً بألفاظه وأساليبه عناية من شأنها أن تجعله يدقق في انتخاب ألفاظه وأن يقطع عباراته تقطيعات صوتية طريفة، وهي تقطيعات انزلقت به إلى فنون من التكرار الموسيقى، كى تتم له الموازنة بين لفظه ومعناه، تلك الموازنة التى انتهت به إلى أن يعشق الأداء الدقيق لمعانيه وأن يعشق معه الوصف الحسى الصحيح لما شاهد، مما آذن بظهور الواقعية فى كتبه، وأيضاً فإنه كان يرى أن يخرج دائماً فى رسائله وكتاباتهِ من باب إلى باب حتى لا يمل القارئ، مما طبع أعماله جميعاً بطابع الاستطراد، وأكبر الظن أننا لا نبعد إذا قلنا إن الصفات الفنية الأساسية فى كتابات الجاحظ هى الواقعية والاستطراد وضروب من التلوين الصوتى وأخرى من التلوين العقلى بحيث لا تقرأ أى أثر من آثاره إلا وتجد هذه العناصر الأربعة لصنعة ماثلة تحت عينيك إذ يسعى الجاحظ دائماً إلى أن يروى لك الوقائع كما هى دون تمويه، كما يسعى إلى الاستطراد فى تأليفه حتى لا يسأم القارئ ولا يناله شيء من الكد والسَّوْق العنيف، وأيضاً فإنه كان يشفع كتاباته دائماً بتلوين صوتى أنيق وتلوين عقلى بدیع، وسنقف لفصل هذه العناصر الأربعة لصنعة الجاحظ وهى الواقعية والاستطراد والتلوين الصوتى والتلوين العقلى .

الواقعية

من يتابع الجاحظ فى صنعة كتبه ورسائله يجده يشغف بحكاية الواقع، لا يتستر، ولا يتخفى، حتى إنه ليدكر السوءات والعورات فى غير موارد ولا مداجاة، وكأنه كان يرى أن يذكر الحقائق عارية دون أن يسدل عليها أى ستر أو أى حجاب، ودافع مراراً عن هذا المنهج وقال إن من يعدل عنه لا بد أن يكون صاحب رياء ونفاق، وهو ليس من أهل الرياء والنفاق، بل هو من أهل الصراحة، أو هو بعبارة أدق من أصحاب منهج الواقعية (Realism) الذين لا يداجون ولا ينافقون بل يصفون الأشياء كما هى فى غير تحرج ولا تأثم حتى إنهم لا يخجلون من وصف بعض النزعات الجنسية لأنهم يريدون أن يصفوا

الحياة كما هي بدون تغيير ولا تبديل إلا في حدود التعبير الفني .

وهذه النعمة من الواقعية في آثار الجاحظ أثرت في كتاباته آثاراً مختلفة ، ولعل أول هذه الآثار أننا نجد نغمة يعنى بحكاية عصره وتمثيله تمثيلاً دقيقاً بحيث تُعد أعماله أهم مراجع تكشف لنا حقائق العصر الذى عاش فيه ، إذ نراه يصور هذه الحقائق بكل ما فيها من طُهرٍ ووزرٍ ، دين وزندقة ، وجد ولهو ، وبالغ في ذلك حتى إنه ليروى كلام المجانين الموسوسين وكلام أهل الغفلة من النوكى والحمقى^(١) . وإنه ليروى أيضاً عن الغلمان والصعاليك والزُّطّ واللصوص كما يروى عن الخلفاء والأمراء والوزراء وقواد الدولة وكبار كتّابها . وارجع إلى كتاب البخلاء فلأنك تراه يعرض عليك بخلاء عصره من مثل سهل بن هرون والكندى وابن غزوان والحارثى والحرامى في غير تصنع ولا مداراة ، وفيم يتصنع الجاحظ ويدارى؟ إنه يريد أن يجعل الأدب صورة من الواقع ، وهو لذلك لا يستعين على كتابة بخلائه بالتاريخ أو ذاكرة الماضى ، إنما يستعين بمفكرة الحاضر والعصر الذى يعيش فيه وقد عرف كيف ينقله إلينا بجميع طبقاته وأفراده وملاحظهم وخصائصهم النفسية .

وأثر ثانٍ أثرته الواقعية في كتابات الجاحظ وهو ما يلاحظ عليه من تدقيقه في ألفاظه وانتخابها بحيث تلائم ما يصفه أو يصوره حتى إنه ليحكى كلام المولدين والعوام بما فيه من لحن وخطأ لينقل إليك الواقع بكل ما فيه . يقول في البخلاء : « وإن وجدتم في هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير معرّب أو لفظاً معدولاً عن جهته فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يبغض هذا الباب ويخرجه من حدّه إلا أن أحكى كلاماً من كلام متعاقلي البخلاء وأشحاء العلماء كسهل بن هرون وأشباذه»^(٢) . فهو يحكى دائماً أخباره وحوادثه بلغتها الدقيقة ، وأكبر الظن أن هذه النزعة فيه هى التى حملته على أن يكتسح في كتبه ورسائله كثيراً بفكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال^(٣) . ومن قوله بصدد ذلك : « إن

(١) انظر البيان والتبيين ٢/٢٢٥ وكذلك (٢) الحيوان ٣/٤٣ وانظر البيان والتبيين

١٣٨/١ .

٢/٣٤٤ . وأيضاً ٥/٥ وما بعدها .

(٢) البخلاء ١/٧٨ .

لكل معنى شريف أو وضع ، هزل أو جد ، حرفة أو صناعة ، ضرباً من اللفظ هو حقه ونصيبه الذى لا ينبغي أن يجاوزه أو يقصر دونه « (١) * وفى هذا ما يدل على شدة عنايته بالملاءمة بين الألفاظ ومعانيها ، ولعله من أجل ذلك كان يدعو إلى « النظر فى مواقع الألفاظ وأين استعملتها العرب » (٢) .

وأثر ثالث أثرت به الواقعية فى كتابات الجاحظ وأعماله ، وهو ما يمتاز به من عدم عنايته بالتشبيهات والاستعارات إلا ما جاء عفواً لخطر أو كان الغرض منه تمثيل الواقع ، وهذا طبيعى عند الجاحظ لأنه لم يكن يعتمد إلى زينة لفظية عشقاً للزينة من حيث هى على نحو ما سنعرف فيما بعد عند أصحاب مذهب التصنيع ؛ فالكتابة عنده ليست زخرفاً خالصاً يراد به إلى الوشى والحلى وما يندمج فى ذلك من صور وتشبيهات واستعارات ، بل هى معان تؤدى فى دقة ، تفسر الوقائع والأحداث تفسيراً لا تستره أسجاف الاستعارات والأخيلة . وليس معنى ذلك أن الجاحظ لم يكن دقيق التصوير ، فإنه إنما عزف عن الأخيلة ، لما تضع أمام القارئ من مبالغات ، أما بعد ذلك فإنه كان مصوراً عظيماً ، إذ كان يعرف كيف ينقل المشاهد بجميع تفاصيلها ودقائقها تسعفه فى ذلك قدرة غريبة على الملاحظة ، وهى قدرة جعلته يحسن التصوير من جهة كما يحسن القصص من جهة أخرى . ويتضح ذلك فى كتابه البخلاء حين يرسم جشع الهممين وحركات أيديهم وقسمات وجوههم ، كما يتضح فى كتاب الحيوان وما أودعه من قصص . ومن قصصه البارة فيه التى تصور دقة تصويره ما حكاه عن عبد الله بن سَوَّار القاضى وقاره فى قصصه الدينى ووعظه وأنه كان لا يحرك أثناء كلامه رأسه ولا يديه حتى كأن كلامه يخرج من صدع صخرة ، فألح الذباب عليه يوماً ، وما زال به حتى أخرجه عن طبعه ، فاستعان بتحريك أجنفانه ، ولم يُجِدْه ذلك نفعا فذبّه عن وجهه بيديه ، فابتعد عنه قليلاً ثم عاد إليه ، فدفعه بطرف كفه ، وما زال يتابع ذلك . يقول (٣) :

(١) رسائل الجاحظ (طبع الساسى) ص ١٥٩ . (٢) الحيوان ٣/٣٤٣ .

(٢) البيان والتبيين ١/٢٠ .

وكان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوار لم ير الناس حاكماً قط ولا زميناً^(١) ولا ركيناً^(٢) ولا وقوراً حليماً ضبط من نفسه وملك من حركته مثل الذى ضبط وملك . كان يصلى الغداة فى منزله ، وهو قريب الدار من مسجده ، فىأتى مجلسه ، فيحتبى ولا يتكى ، فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ولا يلتفت ولا يحل حُبُوتَه^(٣) ولا يحول رجلاً عن رجل ، ولا يعتمد على أحد شقيقه ، حتى كأنه بناء مبنى أو صخرة منصوبة . فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى العصر ثم يرجع إلى مجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة المغرب كذلك كان شأنه فى طوال الأيام وفى قصارها وفى صيفها وفى شتائها ، وكان مع ذلك لا يحرك يده ولا يشير برأسه ، وليس إلا أن يتكلم فيوجز ويبلغ بالكلام اليسير المعانى الكثيرة . فبينما هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواله وفى السَّاطِن^(٤) بين يديه إذ سقط على أنفه ذباب فأطال المُكث ، ثم تحول إلى مُثْق^(٥) عينه ، فرام الصبر فى سقوطه على المثْق وعلى عضه ونفاذ خرطوميه كما رام الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك أرنبته أو يغضّ وجهه أو ينبّ بإصبعه . فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغله وأوجعه وأحرقه وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل فلم ينهض (الذباب) فدعاه ذلك إلى أن والى بين الإطباق والفتح ، فتنحى ريثماً سكن جفنه . ثم عاد إلى مؤقه بأشد من مرّته الأولى فغمس خرطوميه فى مكان كان قد أوّاه قبل ذلك ، فكان احتمال له أضعف وعجزه عن الصبر فى الثانية أقوى ، فحرك أجفانه وزاد فى شدة الحركة وفى فتح العين وفى تتابع الفتح والإطباق ، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، فما زال يُلح عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده . فلم يجد بداً من أن ينبّ عن عينيه بيده ، ففعل ، وعيونُ القوم إليه ترمقه . فتنحى عنه بقدر ما ردّ يده وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم أُلجأ إلى أن ذبّ

بعمامة ونحوها .

(١) زميناً : وقوراً .

(٤) الساطين : مثنى سماء وهو الصف .

(٢) ركيناً : رزيناً .

(٥) المثْق : طرف العين مما يلي الأنف .

(٣) الحبوة : أن يجمع الرجل بين ظهره وساقيه

عن وجهه بطَرْفِ كَمَّةٍ ثم أَلجأه إلى أن تابع بين ذلك . وعلم أن فعله كله بعين مَنْ حَضَرَهُ مِنْ أَمَنَائِهِ وَجُلَسَائِهِ . فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب أَلَجٌ من الخنفساء وأزهى من الغراب ! وأستغفر الله ! فما أكثر من أعجبته نفسه ، فأراد الله عز وجل أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً . وقد علمتُ أنى عند الناس من أَزَمَّتْ (١) الناس ، فقد غلبني وفضحني أضعفُ خلقه ، ثم تلا قوله تعالى : (وإن يَسْأَلُبُهُمُ الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضَعُفَ الطالب والمطلوب) .

وواضح أن القصة تعتمد على دقة التصوير ، وهي دقة ترسم الواقع ربما أميناً ، بدون تهويل أو مبالغة أو اعتماد على استعارات وتشبيهات إلا ما يأتي عفواً للإيضاح لا للتجميل والتزيين .

الاستطراد

وإذا كانت الواقعية عنصراً أساسياً في أعمال الجاحظ فإن هناك عنصراً آخر عم آثاره ، وربما كان أهم من عنصر الواقعية ، وهو عنصر الاستطراد إذ يلاحظ كل من يقرأ في الجاحظ حالاً من التشعث في التأليف ، فهو دائماً ينتقل من باب إلى باب ومن خبر إلى خبر ومن شعر إلى فلسفة ومن جد إلى هزل في تشعب هائل ، حتى ليقول كاراً دى فو : إن الموضوع ^{لا} عند الجاحظ ليس إلا وسيلة للاستطراد (٢) ، وقد أشار إلى هذا الاستطراد قديماً المسعودي في كتابه مروج الذهب (٣) ، وقد كان الجاحظ يتخذ منهجاً في تأليفه وخاصة في حيوانه وبيانه ، واعترف به مراراً واحتج له . انظر إليه يقول في الحيوان : « قد عزمتُ — والله الموفق — أنى أوشح هذا الكتاب وأفصل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ومن شكل إلى شكل ، فإني رأيت الأسماع تملُّ الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة

إذا طال ذلك عليها، وما ذلك إلا في طريق الراحة التي إذا طالت أورثت الغفلة، وإذا كانت الأوائل قد سارت في صغار الكتب هذه السيرة كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح»^(١). ويقول أيضاً: «ولولا أني أتكل على أنك لا تملّ باب القول في البعير حتى تخرج إلى الفيل، وفي الذرة حتى تخرج إلى البعوضة، وفي العقرب حتى تخرج إلى الحية، وفي الرجل حتى تخرج إلى المرأة، وفي الذبان والنحل حتى تخرج إلى الغربان والعقبان، وفي الكلب حتى تخرج إلى الديك، وفي الذئب حتى تخرج إلى السبع، وفي الظلّف حتى تخرج إلى الحافر، وفي الحافر حتى تخرج إلى الخفّ، وفي الخفّ حتى تخرج إلى البرثن، وفي البرثن حتى تخرج إلى المخلّب، وكذلك القول في الطير وعامة الأصناف، لرأيت أن جملة الكتاب وإن كثر عدد ورقه، أن ذلك ليس مما يُميلُ ويعتدُّ على فيه بالإطالة؛ لأنه وإن كان كتاباً واحداً فإنه كتب كثيرة، وكل مصحف منها فهو أمٌّ على حدة، فإن أراد قراءة الجميع لم يَطُلْ عليه الباب الأول حتى يهجم على الثاني ولا الثاني حتى يهجم على الثالث، فهو أبداً مستفيد ومستطرف، وبعضه يكون جِماماً لبعض، ولا يزال نشاطه زائداً، ومتى خرج من آي القرآن صار إلى الأثر، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر، ثم يخرج من الخبر إلى شعر، ومن الشعر إلى نوادر، ومن النوادر إلى حكم عقلية ومقاييس سداد، ثم لا يترك هذا الباب، ولعله أن يكون أثقل والملاّل إليه أسرع، حتى يفضى به إلى مَزْح وفكاهة، وإلى سُخْف وخرافة، ولست أراه سخفاً إذ كنت إنما استعملت سيرة الحكماء وآداب العلماء»^(٢).

وإذاً فاللاحظ يعترف بأنه يستطردُّ وبأنه يعتمد إلى ذلك عمداً خشية ملل القارئ وسأمة السامع، واحتجّ لصنيعه بأن الأوائل قد سارت في كتبها هذه السيرة، إذ يقول: إنه إنما يستعمل سيرة الحكماء وآداب العلماء. ولسنا ندري أي حكماء وعلماء يشير إليهم إلا أن يكون قد أشار بذلك إلى بعض ما تُرجم للعرب من كتب الهند التي يشبه البيروني ما فيها «بصدف مخلوط بخزف، أو

(١) الحيوان ٧/٣.

(٢) الحيوان ٩٣/١.

بدّر ممزوج ببعر، أو بمهى مقطوب بمصى^(١)، وإن من يتصفح كتاب كليله ودمته يجد ظاهرة الاستطراد واضحة فيه . على أن هناك علة لاستطراد الجاحظ ذكرها صراحة في حيوانه إذ يقول : « قد صادف هذا الكتاب منى حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه : أول ذلك العلة الشديدة ، والثانية قلة الأعوان ، والثالثة طول الكتاب . . فإن وجدت فيه خلا من اضطراب لفظ ، ومن سوء تأليف ، أو من تقطيع نظام ، ومن وقوع الشيء في غير موضعه فلا تنكره بعد أن صورت لك حالى التى ابتدأت عليها كتابى^(٢) . فهو يعرف بأن مرضه أدخل الخلل على تأليف حيوانه ، ومرّ بنا أنه ألفه وهو مفلوج ، وألف بعده كتاب البيان والتبيين^(٣) فظهر فيه الخلل والاستطراد بأوسع مما ظهرا في كتاب الحيوان ، لا لسبب إلا لأن العلة طالت عليه ، وكأن ما أمضه منها كان له أثره في بليلة أفكاره واضطرابها وحدث كثير من التشاز فيها ، فهو برم بمرضه قلق ، وهو برم أيضاً بما يعرض في بيانه لا يكاد يستقر عند موضوع يصفه ، وإنه ليقول فيه : « كان التدبير في أسماء الخطباء وحالاتهم وأوصافهم أن نذكر أسماء أهل الجاهلية على مراتبهم ، وأسماء أهل الإسلام على منازلهم ، ونجعل لكل قبيلة منهم خطباء ونقسم أمورهم باباً باباً على حدثه ، ولكنى لما عجزت عن نظمه وتنصيده تكلفت ذكرهم في الجملة^(٤) . فهو يقر بعجزه عن التنظيم والتنسيق لما كان من مرضه ، ولما كان أيضاً من قلة الأعوان كما يقول في الحيوان ، ومن ثم كان من يقرأ في كتبه يخيل إليه أنه لم يكن يعرف التركيز في تأليفه ، إذ ما تزال الأفكار تندفع علينا من كل صوب في غير نظام ولا سياق مطرد ، بل فكرة من هنا وفكرة من هناك في صورة واضحة من التشعب والتشعث ، وقد ساعده على ذلك ثقافته الواسعة بجميع معارف عصره من هندية وفارسية ويونانية وإسلامية وعربية ، وإن الإنسان ليعجب إذ يقرأ الصفحة في حيوانه فيجد هذه الثقافات

الحيوان . انظر البيان والتبيين ٣/٣٠٢ .

(٤) البيان والتبيين ١/٣٠٦ .

(١) تحقيق ما للهند من مقولة ص ١٢ .

(٢) الحيوان ٤/٢٠٨ .

(٣) ذكر الجاحظ في البيان أنه ألفه بعد

كلها قد وُضع بعضها بجانب بعض ، وكأنه حين كان يكتب - بل حين كان يملئ كما سنرى بعد قليل - كانت تنطلق إليه سيول المعرفة من كل واد فيتركها تنزلق إلى آثاره بطبيعتها التي أطبقت بها عليه .

التلوين الصوتي

هذا هو العنصر الثالث في كتابات الجاحظ ، فنحن لا نقرأ له أى عبارات من تأليفه حتى نجلده يعنى بأصواته عناية تُفصى إلى ضروب مختلفة من الإيقاعات الصوتية ، ولم يكن يستعين على تجميل هذه الإيقاعات بشيء من البديع وألوانه ، بل كان يكتفى بها لتعبّر عن كل ما يريد من جمال لأسلوبه وطلاوة . وليس معنى ذلك أنه كان يستخدم السجع أو أسلوباً مقارباً منه ، فإن السجع لم يكن يصلح له فى تأليف كتبه ورسائله الطويلة ، لذلك عدل عنه إلى ضروب من الإيقاعات ، وهي إيقاعات كان يستعين عليها بصور مختلفة من التكرار والترداد . واستمع إليه كيف يستهل حيوانه ^(١) :

«جَنَّبَكَ اللهَ الشَّيْءَ، وَعَصَمَكَ مِنَ الْحَيَرَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمَعْرِفَةِ نَسْبًا، وَبَيْنَ الصَّدَقِ سَبَبًا، وَجَبَّ إِلَيْكَ الثَّبَتُ، وَزَيَّنَ فِي عَيْنِكَ الْإِنصَافَ، وَأَذَاقَكَ حَلَاوَةَ التَّقْوَى، وَأَشْعَرَ قَلْبَكَ عِزَّ الْحَقِّ، وَأَوْدَعَ صَدْرَكَ بَرْدَ الْيَقِينِ، وَطَرَدَ عَنْكَ ذُلَّ الْيَأْسِ، وَعَرَفَكَ مَا فِي الْبَاطِلِ مِنَ الذَّلَّةِ وَمَا فِي الْجَهْلِ مِنَ الْقِلَّةِ » .

وهذه هى النغمات الأولى فى الكتاب ، وعلى أساسها ينصبّ جميع النغم الذى نقرؤه فيه ، إذ نرى الجاحظ يحاول دائماً أن يُجودَ لفظه ، وهو لا يكتفى بذلك ، بل يسعى دائماً إلى إحداث ضروب من التوقيع ، وهو توقيع كان يلتمسه من معادلة ألفاظه معادلة لا تنتهى إلى السجع ، ولكنها تنتهى إلى هذا التوازن الصوتى الدقيق ، فكل جملة تقابل أختها فى موازين الجاحظ الموسيقية ، وهى موازين تحقق لصيغته هذا اللون من الجمال الموسيقى الذى كان يسميه القدماء ازدواجاً ونسميه إيقاعاً وتلويناً صوتياً بديعاً ، وهو تلوين كان يدفع الجاحظ دفعاً

إلى ضروب من التكرار والترادف، واستمير^{*} مع الجاحظ في الحيوان فستره يقول
بعد هذه النغمات الأولى من الكتاب بقليل^(١) :

« إن كل من التقط كتاباً جامعاً، وباباً من أمّهات العلم مجموعاً كان له
غُنْمه ، وعلى مؤلفه غرْمه ، وكان له نفعه ، وعلى صاحبه كدّه ، مع تعرّضه
لمطاعن البُغاة ، ولاعتراض المنافسين ، ومع عرّضه عقله المكدود على العقول
الفارغة ، ومعانيه على الجهابذة ، وتحكيمة فيه المتأولين والحسدة . . وهذا
كتابٌ تستوى فيه رغبة الأمم ، وتتشابه فيه العرب والعجم . ويشتهيه الفتيان كما
يشتهيه الشيوخ ، ويشتهيه الفاتك ، كما يشتهيه الناسك ، ويشتهيه اللاعب
ذو اللهو ، كما يشتهيه المجد ذو الحزم ، ويشتهيه الغفّل ، كما يشتهيه الأريب ،
ويشتهيه الغبي ، كما يشتهيه الفطِن » .

وهكذا ينطلق الجاحظ في كتاباته — على نحو ما نرى الآن في حيوانه —
بهذا النَّفَسِ الواسع المسترسل^{*} الذي لا يتعثّر ولا يتلجلج ، بل ينطلق في هذا
الفيَض العذب ، وكأنما لا يعوقه في طريقه عائق لا من لفظ ولا من تعبير ،
وانظرْ إليه يقول بعد ذلك في وصف الكتاب^(٢) :

« الكتاب وعاءٌ مُلِيءٌ علماً ، وظَرْفٌ حُشِي ظَرْفاً ، وإناء شُحِن مُزاحاً
وجيداً ، وإن شئتَ كان أبينَ من سحبان وائل ، وإن شئتَ كان أعياناً من باقل ،
وإن شئتَ ضحكتَ من نوادره ، وإن شئتَ عجبتَ من غرائب فرائده ، وإن شئتَ
ألهتَكَ طرائفه ، وإن شئتَ أشجّتَكَ مواعظه ، ومن لك بواعظ مُلّه ، وبزاجرٍ
مُغرٍ ، وبناسك فاتك ، وبناطقٍ أخرس ، وبيبارِدٍ حارٍّ ، ومن لك بطبيبٍ
أعرابيٍّ ، ومن لك بروي هنديٍّ ، وبفارسيٍّ يونانيٍّ ، وبقديم مولّد ، وبميتٍ
ممتعٍ ، ومن لك بشيءٍ يجمع لك الأول الآخر ، والناقص والوافر ، والخفي والظاهر ،
والشاهد والغائب ، والرفيع والوضيع ، والغثّ والسمين ، والشكل وخلافه ،
والجنس وضده » .

(١) الحيوان ١٠/١ .

(٢) الحيوان ٣٨/١ وما بعدها .

وعلى هذا النمط يسوق الجاحظ عباراته ومزاجاته ، وإن الإنسان ليخيل إليه كأنما سُخِّرَتْ له ألفاظ اللغة تسخيراً ، فهو يختار منها ما يشاء ويهوى في غير عنت ولا تكلف ، بل في مهارة وحذق ، فإذا هو يصل إلى هذه الأصوات الفخمة أو قل هذه المركبات الموسيقية ، فالموسيقى أساسية في جواهر عباراته وأعراضها وما يسميها في باطنها وظاهرها. وإذا أنت رجعت تحلل هذه المركبات وجدتها تنحل إلى ظاهرتين أصيلتين في كل ما يؤلف ، وهما : التقطيع الصوقي من طرف ، والتكرار والترداد الموسيقي من طرف آخر ، أما التقطيع فهو الذي يتيح له هذه المعادلات الصوتية التي تجعل العبارات تتعادل هذا التعادل الموسيقي البديع ، وكأنما قد فُصِّلَتْ تفصيلاً وقسِّمَتْ تقسيماً ، وأما التكرار والترداد فقد كانا شائعين في بيئة المتكلمين بسبب محاضراتهم ومناظراتهم ، وأيضاً فقد شاعا على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع عند وعاظ العصر الأموي ومن خلفوهم في العصر العباسي وعند عبد الحميد الكاتب وسهل بن هرون ، ولكن الشيء الذي يلفت حقاً هو أن الجاحظ وسعهما إلى أبعد طاقة يمكن أن تختملها الأساليب. وما من ريب في أن هذا التكرار يضفي على أساوبه ضرورياً من الجمال ، إذ نراه يستعين به على ما يريد من تنطيعات وتوقيعات صوتية ، فإذا الفكرة لا تؤدّي في عبارة واحدة ، ولكن في عبارتين أو أكثر ، لا لسبب إلا لأن الجاحظ يريد لها أداءً موسيقياً بجانب أدائها المعنوي .

ومن يتابع درس الجاحظ يعرف أن هناك سبباً مهماً لتكراره في كتبه وترداده ، وهو أنه لم يكن يكتب بل كان يملئ ، وقد ذكر ذلك صراحة في إحدى رسائله لابن الزيات إذ قال له : « إن الوراق أصبح لا يخطط سطرًا »^(١) . ويذكر ياقوت أن هذا الوراق كان يسمى زكريا بن يحيى^(٢) ، وإن في هذا ما يدل على أن الجاحظ لم يكن يكتب كتبه ورسائله منذ ابن الزيات المتوفى عام ٢٣٣هـ ، بل كان يملئ على شخص أو أشخاص لما قلطنا من مرضه ، وطبع هذا الإملاء كتبه بطابع المحاضرة ، ومن ثم طبعها بطابع التكرار والترادف ، كما طبعها

(٢) معجم الأدباء ١٦/١٠٦ .

(١) مجموع رسائل الجاحظ ص ٧٧ .

بطابع كتب الإملاءات من حيث الخلل والاستطراد والإيجاز في بعض الأشياء المهمة ، والإطناب والتفصيل في بعض الأشياء التافهة . ومهما يكن فقد كان الجاحظ يعنى بأساليبه عناية توفّر لها ضرورياً من التقطيع الصوتي ، وقد ذهب يستعين في ذلك بتكراره وترداده حتى تستوفى أساليبه كل ما يمكن من هذا التلوين الصوتي الذي يكسب تعبيره جمالاً خاصاً يتفوق به على جميع الكتاب في عصره .

التلوين العقلي

ربما كان هذا العنصر أهم العناصر الأربعة التي تكوّن فن الجاحظ وصنعتة ، إذ كان يشفع كتابته دائماً بضروب من التحاسين العقلية ، وهي ليست تحاسين فنية في أصلها ، إنما هي تحاسين منطقية وفلسفية ، واستطاع الجاحظ في رسائله وكتبه أن يحولها إلى تحاسين فنية خالصة أو تكاد ، إذ كان يدخلها في جميع أوعيته الصوتية . وطبيعي أن تظهر هذه التحاسين عند الجاحظ لأنه كان متكلماً ، ووصف هو نفسه المتكلم لعصره فقال كما مرّ بنا في غير هذا الموضع : « لا يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام متمكناً في الصناعة ، يصلح للرياسة ، حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة » ، ولعل من الطريف أنه أضاف الفلسفة في حيوانه إلى بعض المتكلمين فقال : « رأيت ناساً من فلاسفة المتكلمين » ^(١) وقد قال في الحيوان صراحة إن هذا الكتاب « أخذ من طُرف الفلسفة » ^(٢) ، وإضافة الطُرف إلى الفلسفة إحساس من الجاحظ بما تدخله فلسفة العقل على تعبير صاحبه من تحاسين وتلاوين ، ولعل ذلك ما جعله يعدّ المذهب الكلامي من ألوان البديع ^(٣) ، وهو لا يريد بهذا المذهب إلا ما أدخله المتكلمون من طرق جدل وحوار وسفسطة وأدلة وبراهين ومقدمات وأقيسة . وانظر في الحوار الطويل الذي رواه في الحيوان عن النظام ومعبّد في تفضيل الكلب

(٣) البديع لابن المعتز (طبع كراتشوفسكى)

(١) الحيوان ١٤٠/٢

(٢) الحيوان ١١/١ .

على الديك أو العكس تَرَ حوارهما يمتد في عشرات الصحف ، وقد استعان كل منهما بما يمكن من براهين حسية وعقلية على التدليل لرأيه ، وإن الإنسان ليخيل إليه كأن كلاهما قد استعار شخصية الحيوان الذى يدافع عنه ، وهو لذلك يتسلح لخصمه بكل ما يستطيع العقل أن يسعفه به من براهين صحيحة وغير صحيحة في افتتان وبراعة يدلان على مبلغ ما فتقت الفلسفة من عقول المتكلمين وألسنتهم .

وقد تربى الجاحظ في هذه البيئة على يد أستاذه النظام فأخرجه لسناً جديلاً يعرف كيف يحاور ويداور وكيف يستعين بالمنطق الصحيح ، وكيف يستعين بالمنطق السقيم ليدعم رأيه ، وينصر فكرته ، وقد تشبث بطريقة الحوار والجدل وما يتعلق بهما من مغالطة وسفسطة ، فتكلم كثيراً عن محاسن الأشياء ، ثم عاد فتكلم عن مساوئها ، ولعل خير ما يفسر ذلك كتاب المحاسن والأضداد الذى ينسب إليه ، وقد لا يكون هذا الكتاب له ، ولكن من يقرأ فيه يؤمن بأنه إما أن يكون من صنع الجاحظ نفسه أو من صنع شخص استمده من مغالطات الجاحظ في كتبه .

والجاحظ كما يعتمد على المغالطة أحياناً نراه أيضاً يعتمد على صحة الأدلة وصدق المقدمات أحياناً أخرى ، بل إن هذا هو الغالب عليه ، وقد تلوم في حيوانه من لا يعنون بصحة مقدماتهم^(١) ، وعاب النظام كما مر بنا بأنه لا يصح الأصل الذى يبنى عليه قياسه ، وقد جعله ذلك يمتاز من كتّاب عصره باستخدام المنطق استخداماً واسعاً في تضاعيف أسلوبه ، فهو دائماً يعرض أفكاره في صورة حجاج يقوم على براهين وأدلة ومقدمات وأقيسة ، ولا غرابة ، فقد كان يعتد بذلك كلون عباسى بديع ينبغى أن يدخل في دوائر النثر وأن تحلّى نماذجه به حتى تنبسط الكتابة ويتسع التعبير فيها اتساعاً يرفده العقل الدقيق والمنطق الوثيق ، وإن الجاحظ ليتشبث بذلك في أبلغ صورة يمكن العقل أن يتصورها عبّاسياً في القرنين الثانى والثالث يريد أن يسيطر المنطق على كل ما يكتب ، بل أيضاً على كل ما يعمل

فقد روى الرواة أنه اجتمع مع يوحنا بن ماسويه على مائدة بعض الوزراء، وكان في جملة ما قُدِّمَ مَضِيْرَةٌ عقبَ سَمَكٍ، فامتنع يوحنا من الجمع بينهما، فقال له الجاحظ: «أيها الشيخ لا يخلو أن يكون السمك من طبع اللبن أو مضاداً له، فإن كان أحدهما ضد الآخر فهو دواء له وإن كانا من طبع واحد فلنحسب أننا قد أكلنا من أحدهما إلى أن اكتشفنا»، فقال يوحنا: والله ما لي خبرة بالكلام ولكن كُلْ يا أبا عثمان، وانظر ما يكون في غد، فأكل الجاحظ انتصاراً لدعواه، فقلج في ليلته، فقال: هذه والله نتيجة القياس المحال^(١). وإن هذه القصة لترمز إلى عنايته بالمنطق في كل ما يتصل به من قول وفعل. ونحن لا نبعد إذا قلنا إنه أهم كاتب في العصر العباسي الأول حكَّم المنطق في كل ما يصنع، فقد كان يعتمد عليه اعتماداً بالغاً في جميع كتاباته، وقرأ له هذه القطعة التي يتحدث فيها عن الخير والشر وأنها ضروريان لصلاح الكون^(٢):

«اعلم أن المصلحة في أمر ابتداء الدنيا إلى انقضاء مدتها امتزاج الخير بالشر، والضار بالنافع، والمكروه بالسار، والضعة بالرفعة، والكثرة بالقلّة، ولو كان الشر صيرفاً هلك الخلق، أو كان الخير محضاً سقطت المحنة. وتقطعت أسباب الفكرة، ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة، ومتى ذهب التخيير ذهب التمييز، ولم يكن للعالم تثبت وتوقف وتعلم، ولم يكن علم، ولا يُعرفُ باب تبيين، ولا دفعُ مضرة، ولا اجتلاب منفعة، ولا صبرٌ على مكروه، ولا شكر على محبوب، ولا تفاضلٌ في بيان، ولا تنافس في درجة، وبطلت فرحة الظفر وعز الغلبة، ولم يكن على ظهرها مُحَقٌّ يجد عز الحق، ومبطل يجد ذلّة الباطل، وموقن يجد برّد اليقين، وشاك يجد نقص الحيرة وكرب الوجوم، ولم تكن للنفس آمال، ولم تشعبها الأطماع، ومن لم يعرف كيف الطمع لم يعرف اليأس، ومن جهل اليأس، جهل الأمن، وعادت الحال من الملائكة الذين هم صفوة الخلق، ومن الإنس الذين فيهم الأنبياء والأولياء حال السَّبُعِ والبهيمة، وإلى حال الغباوة

(٢) الحيوان ١/٢٠٤.

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن

أبي أصيبعة ١/١٨١.

والبلادة وإلى حال النجوم في السُّخْرَةِ فإنها أنقص من حال البهائم في الرِّثَّةِ ،
ومن هذا الذى يسره أن يكون الشمس والقمر والنار والثلج أو بُرْجاً من البروج
أو قطعة من الغيم ، أو يكون الحجرُ بأسرها ، أو مكياً لاً من الماء ، أو مقداراً
من الهواء . . وأين تقع لذةُ البهيمة بالعلوفة ولذة السبع بلطع الدم وأكل اللحم ،
من سرور الظفر بالأعداء ، ومن انفتاح باب العلم بعد إدمان القَرَع ؟ وأين
ذلك من سرور السُّؤْدَد ومن عِزِّ الرياسة ؟ ولو استوت الأمور بطل التمييز ،
وإذا لم تكن كلفةٌ لم تكن مثوبة . . ولو كان الأمر على ما يشتهي الغرير والجاهل
بعواقب الأمور لبطل النظر وما يَشْحَذُ عليه ، وما يدعو إليه ولتعتلت الأرواح
من معانيها والعقول من ثمارها ، ولعدمت الأشياءُ حظوظها وحقوقها ، فسبحان
من جعل منافعها نعمة ، ومضارها ترجع إلى أعظم المنافع ، وقسَّمها بين مُلِدٍّ
ومؤلم ، وبين مؤنس وموحش ، وبين صغير حقير ، وجليل كبير ، وبين عدو
يرصدك ، وبين عقل يحرسك ، وبين مسالم يمنعك ، وبين معين يعضدك ،
وجعل في الجميع تمام المصلحة ، وباجتماعها تم النعمة ، وفي بطلان واحد منها
بطلان الجميع ، قياساً قائماً وبرهاناً واضحاً فإن الجميع إنما هو واحدٌ ضُمَّ إلى
واحد ، وواحدٌ ضُمَّ إليهما ، ولأن الكل أبعاض ، ولأن كل جثة فن أجزاء ، فإذا
جوزت رفع واحد والآخر مثله في الوزن ، وله مثل علته وحظه ونصيبه ، فقد
جوزت رفع الجميع ، لأنه ليس الأول بأحق من الثانى في الوقت الذى رجوت
فيه إبطال الأول ، والثانى كذلك والثالث والرابع حتى تأتى على الكل وتستفرغ الجميع .

أرأيت إلى هذا الدفاع القوى عن ضرورة بقاء الشر في الكون ؟ وإنه
لدفاع يستمدّه الجاحظ من التفكير الدقيق في حقائق الكون ، وهو تفكير يقوم
على المنطق والاستدلال والقياس كما يقوم على التأثير ببعض آراء المتكلمين الذين
يرفضون الجبر والتسخير في الحياة ويضعون مكانهما الاختيار والتمكين ، وهذا
كله يُبَسِّطُ في ضروب من تلاوين الصوت وتحاسينه ، وإنها لضروب تشيع
في أسلوب منطقي منقطع القرين . ومن هذين المفتاحين ؛ جمال الصوت وجمال
المنطق ، تسقط النغمات التى تميز الجاحظ في جميع فنه وصنعتة ، إذ ما يزال

يتداخل التفكير العقلي وما يُشَفَّعُ به من قدرة على البرهان والاستدلال مع التفكير الفني وما يشفع به من قدرة على تقطيع الصوت ، وما ينطوى في هذا التقطيع من تكرار وترداد ، وبذلك يلتئم هذا الفن الجاحظ الذي يشيع فيه جمال العقل كما يشيع فيه جمال الصوت . وارجع إلى هذه القطعة الجميلة فإنك ترى الجاحظ يحسن التدليل على فكرته التي يذهب فيها إلى أن العالم يتألف من الخير والشر جميعاً ، بحيث إذا سقط الشر منه سقط الحائط الذي يؤلفه ، وكذلك الشأن إن سقط الخير ، وإن الجاحظ لجعل القضية قضية العقل ، فإن تغيير الكون عما هو ، يجعلنا نفقد آلة التفكير ، ومتى فقدناها أصبحنا لا نستطيع التأمل في علم ، ولا الشعور بشيء ملذ أو مؤلم ، إذ نصير كالحيوان في الرتبة ، بل لقد نتحول إلى الجحاد في السخرة : « ومن هذا الذي يسره أن يكون الشمس والقمر والنار والثلج أو بُرْجاً من البروج أو قطعةً من الغيم؟ » إن الكون يجب أن يستمر كما هو : خير ونفع ، وشر وضر وإن كل جزء من أجزاء الخير ، ومثله كل جزء من أجزاء الشر ، يجب أن يظل كما هو لأن العالم يتألف من جميع هذه الأجزاء وما الجميع ؟ « إنما هو واحد ضُمَّ إلى واحد ، وواحد ضم إليهما ، ولأن الكل أبعاض ، ولأن كل جثة فن أجزاء ، فإذا جوزت رفع واحد والآخر مثله في الوزن ، وله مثل علته وحظه ونصيبه ؛ فقد جوزت رفع الجميع ، لأنه ليس الأول بأحق من الثاني في الوقت الذي رجوت فيه إبطال الأول ، والثاني كذلك ، والثالث ، والرابع حتى تأتي على الكل وتستفرغ الجميع » فأى عقل هذا الذي يكتب بتلك المقدره على توليد الأفكار من جهة والإدلاء بكل ما يمكن من حجج وبراهين من جهة أخرى؟ إنه عقل الجاحظ وهو العقل الذي جعل ابن العميد — كما مر بنا — يقول : « إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً » . فالعقل عند الجاحظ هو أساس صنعته الذي يستمد منه أدلته كما يستمد منه توليده للأفكار والمعاني ، وأيضاً فإنه يستمد منه قياسه ومقابلاته ، وقد كان مشغولاً بالمقابلة في معانيه وأفكاره شغفاً شديداً ، وإن الإنسان ليخيل إليه كأنما سُخِّرَ العقل بجميع مقوماته للجاحظ ، وهو يختار ما يشاء من هذه المقومات في رسائله وكتبه ، ولعل ذلك

ما جعل المأمون يقول له وقد قرأ كتبه في الإمامة : « قد كان بعض من نرتضى عقله ، ونصدق خبره ، خبّرنا عن هذه الكتب بإحكام الصنعة وكثرة الفائدة ، فقلت له : قد تُرَبِّي الصفة على العيان ، فلما رأيته رأيت العيان قد أُرَبِّي على الصفة فلما فَلَيتَهَا أُرَبِّي الفَلَتَى على العيان كما أُرَبِّي العيان على الصفة »^(١). ونحن مهما وصفنا من عقل الجاحظ وما يشفع به كتابته من تلاوينه وتحاسينه ، فإن ذلك لن يكون شيئاً بجانب ما يحسه القارئ له حين يتصفح أعماله ، ويقف على مدى استعانتة بالعقل في تأليفها وصوغها ، والحق أن هذا عمل أوسع من أن نحيط به في صفحات معدودة ، وغاية ما يمكننا هو أن نجمل هذا الصنيع في أن الجاحظ كان يُدمج إدماجاً بديعاً بين التلوين الصوتي والتلوين العقلي في آثاره ، فإذا هي تصور طرافة التفكير في أعلى صورة كما تصور طرافة الصوت ، وما ينساق مع هذه الطرافة من تكرار وترداد كان يستعين بهما دائماً على تدبيح أساليبه وتحجيرها ؛ وإنهما ليتجليان دائماً في كل ما يملئ ويكتب كما يتجلى جمال التفكير وجمال التعبير .

٨

رسالة الترويع والتلوين

ونحن نقف عند رسالة للجاحظ تجمع بين دفتيها محاسن التفكير الدقيق والتعبير الأنيق ، وهي رسالة أنشأها في هجاء أحمد بن عبد الوهاب أحد أصحاب محمد بن عبد الملك الزيات^(٢) وقد وصفه بأنه من بحيلة ومن أصحاب صالح بن علي وسليمان بن وهب وندماء جعفر الخياط^(٣) ، وقال إنه من الرافضة المشبهة^(٤) ، ونعته بأنه « يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها ، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق فيهم بسبب ، وليس

(٣) رسائل الجاحظ (طبع الساسي) ص ١٠٠ .

(٤) رسائل الجاحظ ص ١٤٢ .

(١) البيان والتبيين ٣/ ٣٧٤ .

(٢) أغاني (طبع الساسي) ٢١/ ٣٢ .

في يده من جميع الآداب إلا الانتحال لاسم الأدب»^(١) . وذكر أنه كان يخاشنه ويطاوله^(٢) . ومن أجل هذه المخاشنة والمطاولة وما ركب فيه من الحسد ألّف له هذه الرسالة يسأله فيها عن بعض معارف عصره المشكلة سواء في المنطق والفلسفة ، أم في الكيمياء والصنعة ، أم في الإنسان والحيوان ، أم في تاريخ العرب وتاريخ غيرهم من الأمم ، وهو ينهى هذه الأسئلة الكثيرة التي امتدت في خمسين صحيفة من القطع الكبير بقوله : « وقد سألتك وإن كنت أعلم أنك لا تحسن من هذا قليلا ولا كثيرا ، فإن أردت أن تعرف حقّ هذه المسائل وباطنها وما فيها خرافة وما فيها محال ، وما فيها صحيح وما فيها فاسد ، فألزم نفسك قراءة كتي ولزوم بابي^(٣) . وحقّا إن من يتصفح الرسالة يجد أن كثيرا مما عرض له الجاحظ فيها ذكره في حيوانه ، ولعل في هذا ما يدل على أنها ألّفت بعد كتاب الحيوان : أى في أوقات مرضه وعلته ، ويشهد لذلك أننا نجده يُنحى على أحمد بن عبد الوهاب باللائمة على ما يدعيه من علم بالحيوان وأنه يعرف في الخفاش سبعين أعجوبة^(٤) ، وأيضا فقد تحدث فيها عن ابن الزيات الذي قدم له كتاب الحيوان بصيغة الماضي^(٥) ، مما يدل على أن عهده كان قد انقضى حين كتابة هذه الرسالة ، والمسألة لا تحتاج كل هذا الاستنتاج ، لأن الرسالة مبنية على سنة الاستطراد التي عرفناها للجاحظ ، والتي زعمنا أنها جاءت في الغالب نتيجة لعلته وعجزه عن ترتيب كتبه ورسائله التي ألّفها حينئذ ، وهو يستلها على هذا النمط^(٦) :

« كان أحمد بن عبد الوهاب مُفَرِّطَ الْقِصَرِ ويدعى أنه مفترط الطول ، وكان مربعا وتحسبه لسعة جفّرتّه واستفاضة خاصرته مدورا ، وكان جَعَدَ الأطراف قصير الأصابع ، وهو في ذلك يدعى السَّبَاطة والرشاقة ، وأنه عَتِيق الوجه ،

(١) رسائل الجاحظ ص ٨٣ .

(٢) نفس المصدر ص ٩٥ .

(٣) نفس المصدر ص ١٤٢ .

(٤) نفس المصدر ص ١٤٠ .

(٥) نفس المصدر ص ١٠٩ .

(٦) ارجع إلى الرسالة بأكملها في نفس المصدر

السابق وفي طبعها الأخيرة بتحقيق شارل بلات .

(٧) الجفرة : جوف الصدر .

أَخْصَصَ^(١) البطن ، معتدل القامة ، تام العظم ، وكان طويل الظهر ، قصير عظم الفخذ ، وهو مع قِصَرِ عظم ساقه يدعى أنه طويل الباد^(٢) ، رفيع العماد ، عادى القامة ، عظيم الهامة ، قد أعطى البسطة في الجسم ، والسعة في العلم ، وكان كبير السن متقادماً الميلاد ، وهو يدعى أنه معتدل الشباب حديث الميلاد . ونحن منذ هذه السطور الأولى للرسالة نحس أننا يلزأء فن جديد في الهجاء يستعين فيه صاحبه بضر وب من المفارقات ، فأحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ويدعى أنه مفرط الطول ، وهو مربع وتحسبه لسعة جوف صدره واستفاضة خاصرته مدوراً ثم هو جَعَدَ الأطراف قصير الأصابع ومع ذلك يدعى السَّبَاطة والرَّشَاقَة ، وأيضاً فإنه طويل الظهر قصير عظم الفخذ ، ويدعى أنه طويل الباد رفيع العماد ، عادى القامة عظيم الهامة ، وفي هذا كله مناقضات ومفارقات مختلفة ، ومن هذه المناقضات والمفارقات يستمد الجاحظ هجاءه لأحمد ابن عبد الوهاب وقد استطاع أن ينفذ من ذلك إلى تشويه تشويهاً ربما كان يتفوق فيه على أصحاب فن التصوير الساخر « الكاريكاتورى » في العصر الحديث ، إذ نراه يشوّهون الأجسام بطرق مختلفة ، عمادُها بعض الحقائق المادية فيها ولأنهم ليتعلقون بهذه الحقائق : يكبرونها ، ويستمدون منها ما يشاءون من هزل وسخرية . وكذلك كان الجاحظ في تلك الرسالة هَجَاءً ساخرًا يعتمد على جسم أحمد بن عبد الوهاب وما يسميه من قصر وتبعج ليستخرج ما يريد من هزله ؛ فهو تارة صاحب أصابع قصيرة جعدة كأصابع الحيوان وتارة هو طويل الظهر ، قصير عظم الفخذ . وهو لا يكتفى بتشويه جسمه ، بل نراه يعمد أيضاً إلى تشويه عقله بواسطة ما يعرضه من أسئلة يهزأ به فيها كما يهزأ بتفكيره وكل ما يتصل به وهو يستعين على ذلك كله بفكرة الطول والقصر والتربيع والتدوير يستمد منهما كل ما يمكن من مفارقات ومناقضات ، فتارة يدعى له الطول في الباطن ، وتارة ثانية يصفه بالقصر ، وتارة ثالثة ينفيهما عنه ، ويدعى له التربيع والتدوير ، ساخرًا من جسمه وشكله .

(٢) الباد : باطن الفخذ .

(١) أخصص : ضامر .

في هذا ما يجعلنا نفهم لماذا سُميت الرسالة باسم رسالة التريبع والتدوير ، فقد بناها الجاحظ على هذه الفكرة التي تؤمن بأنه استعارها من فكرة الأوساط اليونانية المعروفة في الأخلاق ، لكن بعد أن حوَّرها وعدلها على هذا النحو ، فإذا هي لا تثار في الأخلاق وإنما تثار في الأجسام وفي هجاء أحمد بن عبد الوهاب . وقد كان الجاحظ يعجب إعجاباً شديداً بهذه الفكرة ، وذكرها مراراً في كتبه ورسائله ، بل ذكرها في هذه الرسالة نفسها ، إذ يقول لابن عبد الوهاب : « اعلم أن الحسد اسم لما فضل عن المنافسة ؛ كما أن الجبن اسم لما فضل عن التوقى ، والبخل اسم لما قَصَرَ عن الاقتصاد ، والسَّرَف ما جاوز الجود ، وأنت - جعلت فداك - لا تعرف هذا ، ولو أدخلت الكور ، ونفخت عليك إلى يوم يُسْفَخُ في الصور ». وما من ريب في أن الجاحظ عبَّر عن طرافة مدهشة حين استطاع أن يستغل هذه النظرية اليونانية في تعبيره الفني هذا الاستغلال القيم ، فإذا به يخرجها من دوائرها الفلسفية إلى دوائرها الفنية ، مستعيناً على ذلك بمجاميع من الأخطاء وبما يمتاز به من مرونة في الجدل والحوار والسفسطة وما يُطَوَّى في ذلك من ضروب تناقض وتقابل ، واستمع إليه يعرض ابن عبد الوهاب على هذه الفكرة فيقول :

« وبعد فأنت - أبقاك الله - في يدك قياس لا ينكسر ، وجواب لا ينقطع ، ولك حَدٌّ لا يُفْلُ ، وغَرْبٌ لا يَنْثَى ، وهو قياسك الذي إليه تُنْسَبُ ، ومذهبك الذي إليه تذهب : أن تقول : وما علىَّ أن يراني الناس عريضاً ، وأكون في حكمهم غليظاً ، وأنا عند الله طويل جميل ، وفي الحقيقة مقدود رشيق ، وقد علموا - أبقاك الله - أن لك مع طول الباد راكباً طول الظهر جالساً ، ولكن بينهم فيك - إذا قمت - اختلاف ، وعليك لهم - إذا اضطجعت - مسائل ، ومن غريب ما أعطيت ، وبديع ما أوتيت أنا لم نر مقدوداً واسع الحُفْرَة غيرك ، ولا رشيقاً مستفيض الخاصرة سواك ، فأنت المديد ، وأنت البسيط ، وأنت الطويل ، وأنت المتقارب ، فيا شعراً جمع الأعاريض ، ويا شخصاً جمع

الاستدارة والطول ! بل ما يهلك من أقاويلهم ، ويتعاطمك من اختلافهم ، والراسخون في العلم والناطقون بالفهم يعلمون أن استفاضة عرضك قد أدخلت الضيم على ارتفاع سمكك ، وأن ما ذهب منك عرضاً قد استغرق ما ذهب منك طولاً ، ولئن اختلفوا في طولك لقد اتفقوا في عرضك ، وإذا قد سلموا لك بالرغم شطراً ، ومنعوك بالظلم شطراً ، فقد حصلت ما سلموا ، وأنت على دعواك فيما لم يسلموا ! ولعمري إن العيون لتخطئ وإن الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع إلا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل إذ كان زمناً على الأعضاء ، وعياراً على الحواس ... ولو لم يكن فيك من العجب إلا أنك أول من تعبد الله بالصبر على خطأ الحس ، وبالشكر على صواب الذهن لقد كنت في طولك آية للسابليين وفي عرضك مناراً للمضلين . وقد نظمت المربوع مثلي من الطويل مثل محمد ومن القصير مثل أحمد . . . والمربوع — بحمد الله — اعتدلت أجزاؤه في الحقيقة كما اعتدلت في المنظر ، فقد استغنى بعز الحقيقة عن الاعتذار ، وبحكم الظاهر عن الاعتلال ! وقد سمعنا من يذم الطوال كما سمعنا من يزري على القصار ولم نسمع أحداً ذم المربوع ولا أزرى عليه ، ولا وقف عنده ولا شك فيه . . . وبعد فما يحوجك إلى هذا ، وما يدعوك إليه ، وأشباهك من القصار كثير ، ومن ينصرك منهم غير قليل ، وقد رأيتك زماناً تحتج بالنعمان بن المنذر وبضمرة .. وبرجال ناهيك بهم رجالاً ، وبأعلام كفاك بهم أعلاماً ، ورأيتك تقول : إن كان الفضل في النكاية وفي الشدة والصلابة فصغار كل شيء أشد ضرراً وأدق مدحلاً ، وأظهر قوة وجلداً ، كالحجارة أصلها الحصى ، وكالحيات أقتلها الأفعى .. وقلت إن كان الفضل في العدد فنا بأجوج ومأجوج ومنا الذر والفراش ، ومنا الدعاميص والبعوض والرمل والتراب وقطر السحاب .

وعلى هذا النحو يسوق الجاحظ حديثه في الرسالة متلاعباً بفكرة الطول والقصير وما ينبغي أن يكون من التوسط بين الطرفين ، ولأنه ليتسع بالحوار والجدل في ذلك اتساعاً شديداً ، فإذا هو يقف تارة في جانب القصر يحتاج له ، وتارة يقف في جانب الاعتدال ، وقد يقف في جانب الطول ، يدلى في كل

جانب بالحجج والبراهين كأنه يناقش مسألة علمية دقيقة. وتهديه هذه المناقشة دائماً إلى فكرة التربع والأخذ به حتى لا يخرج مهجوة عن حدود الاعتدال إلى حدود التقصير أو التبذير، وكأنى باللاحظ أحال أحمد بن عبد الوهاب إلى مشكلة من مشاكل الاعتزال أو قل إلى مشكلة من مشاكل الفلسفة ، إذ نراه يحقق فيه مسألة التوسط بين الطرفين تحقيقاً دقيقاً ، وهو تحقيق يطوى كل ما يريد من سخرية به وتمكّم عليه إذ يتناوله مرة بالطول ومرة بالعرض وهو فى أثناء تناوله يمده تارة ويقصره تارة أخرى وتارة ثالثة يبعّجه فى مناظر تستخرج منا الضحك على ما يصنعُ بصاحبه من تشويه ، وانظرُ إليه يحتج لطرفي الطول والقصر فيقول :

«وقلت : والناس وإن قالوا فى الحسن كأنه طاقة ريحان، وكأنه خطوط^(١) بان، وكأنه قضيب خيـَـزُران، وكأنه غُصْنُ بان، وكأنه رُمُحٌ رُدَيْتِي، وكأنه صفيحة يمانية، وكأنه سيف هُنْدَاوَانِي، وكأنها جانّ، وكأنها جدلُ عَنان^(٢) ، فقد قالوا كأنه المُشْتَرَى^(٣) ، وكأن وجهه دينار هِرَقْلِي، وما هو إلا البحر، وما هو إلا الغيث، وكأنه الشمس ، وكأنها دارة القمر ، وكأنها الزهرة ، وكأنها درة ، وكأنها غمامة ، وكأنها مهابة، فقد تراهم وصفوا المستدير العريض بأكثر مما وصفوا به القضيف^(٤) والطويل . وقلت : وجدنا الأفلاك وما فيها ، والأرض وما عليها، على التدوير دون التطويل ، وكذلك الورق والتمر والحب والتمر والشجر ، وقلت : والرمح إن طال فإن التدوير عليه أغلب ، لأن التدوير قائم فيه موصولاً ومفصلاً؛ والطول لا يوجد فيه إلا موصولاً، وكذلك الإنسان وجميع الحيوان ، وقلت : ولا يوجد التربع إلا فى المصنوع دون المخلوق، وفيما أكره على تركيبه دون ما خلّئى وسوّم^(٥) وطبيعته ، وعلى أن كل مربع فى جوفه مدور ، فقد بان المدور بفضله وشارك المطول فى حصته . ومن العجب أنك تزعم أنك طويل فى الحقيقة ، ثم تحتج للاستدارة والعرض فقد أضربت عما عند الله صَفْحاً ، ولهجت بما عند الناس .»

(١) الخوط : الغصن الناعم . البان : شجر .
 (٢) جدل عنان : أى مفتولة قتل العنان وهو
 (٣) المشتري : كوكب .
 (٤) القضيف : الضامر .
 (٥) سوم : ترك .

أرأيت إلى هذا الاحتجاج ؟ إنه من أهم سمات الجاحظ في كل ما يؤلف ويكتب ويملى إذ نرى عقله دائماً مشغولاً بالأدلة يسوقها على ما يقوله في هذا النحو البديع من الجدل والبحث . ألا تراه يحاول أن يتتبع الشعراء والأدباء في نعمتهم للأشياء بالحسن والجمال ليرى هل ما يضيفون إليه هاتين الصفتين من باب القصار أو هو من باب الطوال أو هو منهما جميعاً ؟ والجاحظ لا يكتفى بذلك في احتجاجه وجدله ، إذ نراه يعتمد إلى المغالطة عن طريق الرمح ، لأنه أجزاء موصول بعضها ببعض ، وإذن فالتدوير عليه أغلب ! ليس الرمح طويلاً ، وإن تراءى ذلك في الظاهر ، إنما هو مدور ، أما ما قد يبدو من طوله فغير صحيح ، لأنه يخالف الحقيقة التي تُطَوَّى وراءه ، وكذلك قصّر أحمد بن عبد الوهاب غير صحيح ، لأنه يخالف الطول الذي يُطَوَّى خلفه وينبغي أن لا نحكم بالظاهر بل ينبغي أن نحكم بالباطن وما وراء الظاهر !

وإذا فليس بين أيدينا حقيقة يمكن أن نطمئن إليها ، وكل آرائنا التي نكوّنها عن بعض الأشياء وأنها طويلة أو قصيرة قابلة للنقض في رأى الجاحظ كي يرضى ابن عبد الوهاب ويمدده بأسباب من القول للاحتجاج على طوله المستر وراء قصره ، وهذا هو معنى أنه يلهج بما عند الناس ويترك ما عند الله . وما من ريب في أن الجاحظ وصل إلى هذا كله عن طريق المغالطة التي يسوقها في الرمح إذ يقول إنه يبدو طويلاً ، وهو في حقيقة الأمر قصير ، أو هو كما يقول الجاحظ مدور ، وذلك لسبب بسيط وهو أنه يتألف من مدورات ! وعلى هذا النحو ينتهى الجاحظ إلى أن كل مربع فهو في جوفه مدور . وواضح أنه يعتمد في ذلك كله على السفسطة ، وهو ينفذ منها إلى عرض صاحبه على فكرة القبح والحسن ، فإذا هو يصفه بالقبح تارة وما يلبث أن يصفه بالحسن تارة أخرى ، وجاء في ذلك بطرف لا تُحصَى على شاكلة قوله :

« ولو لم يكن لك إلا أنا لا نستطيع أن نقول في الجملة ، وعند الوصف والملاحظة : هو أحسن من القمر ، وأضوأ من الشمس وأبهى من الغيث . وأنا لا نستطيع أن نقول في التفريق : كأن عنقه إبريق فضة ، وكأن قدمه لسان حية ، وكأن عينه

ماوية^(١) ، وكأن بطنه قُبْطِيَّة^(٢) ، وكأن لسانه ورقة ، وكأن أنفه حَدُّ سَيْف ، وكأن حاجبه خُطَّ بقلم ، وكأن لونه الذهب ، وكأن عوارضه البَرَدُ ، وكأن فاه خاتَم ؛ وكأن جبينه هلال وهو أظْهَرُ من الماء ، وأرق طباعاً من الهواء وهو أَمْضَى من السَّيْل ، وأهدى من النجم ، لكان في ذلك البرهان النير ، والدليل البَيِّن ، وكيف لا يكون كذلك وأنت الغاية في كل فضل ، والنهاية في كل شكل ، وأما قول الشاعر :

يَزِيدُكَ وَجْهُهُ حَسَنًا إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظَرًا

وقولُ الدمشقيين : (ما تأملنا قط تأليف مسجدنا وتركيب محرابنا وقُبْبة مصلانا إلا أثار لنا التأمل واستخرج لنا التفرُّس غرائب حسن لم نعرفها وعجائب صنعة لم نقف عليها ، وما ندرى أجوهرُ مقطَّعاته أكرم في الجواهر ، أم تنضيد أجزائه في تنضيدات الأجزاء) فإن ذلك معنى مسروق مني في وصفك ، ومأخوذ من كتبتي في مدحك . . ومن يطمع في عَيْبِكَ ، بل من يطمع في قدرك ، وكيف وقد أصبحت وما على ظهرها خَوْدٌ^(٣) إلا وهي تتعشَّرُ باسمك ولا قينة إلا وهي تغني بمدحك ، ولا فتاة إلا وهي تشكو تباريح حُبِّكَ ، ولا محجوبة إلا وهي تثقب الخروق لمَرَّكَ ، ولا عجوز إلا وهي تدعولك ، ولا غيور إلا وقد شق بك ، فكم من كبد حرَّيْ مُنْضَجَّة ومصدوعة مُفْرَّثة^(٤) ، وكم من حشاخافق وقلب هائم ، وكم من عين ساهرة وأخرى جاهدة ، وأخرى باكية ، وكم من عبسرى مولهة ، وفتاة معذبة قد أفرح قلبها الحزن ، وأجهد عينها الكمد قد استبدلت بالحلى العُطْلَة ، وبالأنس الوحشة ، وبالتكحيل المَرَّة^(٥) فأصبحت والهة مبهوثة ، وهائمة مجهودة بعد طَرْف ناصع ، وسن ضاحك ، وشكل ساحر ، وبعد أن كانت ناراً تتوقد ، وشعلة تنوهج ... وما ندرى في أي الحالين أنت أجمل ، وفي أي المتزلتين أنت أكمل : إذا فرقناك أو إذا جمعناك ، وإذا ذكرنا كلك ، أو إذا تأملنا بعضك ، فأما

(١) ماوية : مرآة .

(٢) قبطية : ثياب كانت تصنع بمصر من

(٣) الخود : الشابة الجميلة .

(٤) مفرثة : مشققة .

(٥) المره : عدم التكحيل وتقرح الجفون .

نسيج الكتان الرفيع .

كَفَكَ فِيهِ الَّتِي لَمْ تَخْلُقْ إِلَّا لِلتَّقْبِيلِ وَالتَّوْقِيعِ ، وَهِيَ الَّتِي يَحْسِنُ بِحُسْنِهَا كُلُّ مَا اتَّصَلَ
بِهَا ، وَيَخْتَالُ بِهَا كُلُّ مَا صَارَ فِيهَا ، وَكَمَا أَصْبَحْنَا وَمَا نَدَرَى الْكَأْسَ فِي يَدِكَ
أَحْسَنَ ، أَمْ الْقَلَمُ ، أَمْ الرَّمْحَ الَّذِي تَحْمِلُهُ ، أَمْ الْخَنْصَرَةَ ، أَمْ الْعَنَانَ الَّذِي تُمْسِكُهُ ،
أَمْ السُّوْطَ الَّذِي تَعْلِقُهُ ؟ وَكَمَا أَصْبَحْنَا وَمَا نَدَرَى أَى الْأُمُورِ الْمُتَّصِلَةِ بِرَأْسِكَ أَحْسَنَ ،
وَأَيُّهَا أَجْمَلُ وَأَشْكَلُ ، أَلِلْمَةُ ، أَمْ خَطُّ اللَّحْيَةِ ، أَمْ الْإِكْلِيلُ ، أَمْ الْعَصَابَةُ ،
أَمْ التَّاجُ ، أَمْ الْعِمَامَةُ ، أَمْ الْقِنَاعُ ، أَمْ الْقَلَنْسُوَّةُ ؟ فَأَمَّا قَدَمُكَ فَهِيَ الَّتِي يَعْلَمُ
الْجَاهِلُ كَمَا يَعْلَمُ الْعَالَمُ ، وَيَعْلَمُ الْبَعِيدُ الْأَقْصَى كَمَا يَعْلَمُ الْقَرِيبُ الْأَدْنَى ، أَنَّهَا
لَمْ تَخْلُقْ إِلَّا لِلنَّبَرِ ثَغْرَ عَظِيمٍ أَوْ رِكَابَ طِرْفٍ كَرِيمٍ ، وَأَمَّا فُوكَ فَهُوَ الَّذِي لَا نَدْرَى أَى
الَّذِي تَنْفُوهُ بِهِ أَحْسَنَ ، وَأَى الَّذِي يَبْدُو مِنْهُ أَجْمَلُ ، أَلْخَدِيثُ ، أَمْ الشَّعْرُ ، أَمْ
الْإِحْتِجَاجُ ، أَمْ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ ، أَمْ التَّعْلِيمُ وَالْوَصْفُ ؟ . . . وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ الْقَمَرَ
هُوَ الَّذِي يَضْرَبُ بِهِ الْأَمْثَالُ ، وَيُشَبَّهُ بِهِ أَهْلُ الْجَمَالِ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَبْدُو
ضَبِيلًا نَضْوًا ، وَمَعْوَجًّا شَخْتًا (١) ، وَأَنْتَ أَبْدَأُ قَمَرٍ بِلَدْرِ فُخْمٍ غَمَمَرٍ ، ثُمَّ هُوَ مَعَ ذَلِكَ
يَحْتَرِقُ فِي السَّرَّارِ (٢) ، وَيُتَشَاءَمُ بِهِ فِي الْحَقَاقِ ، وَيَكُونُ نَحْسًا كَمَا يَكُونُ سَعْدًا ،
وَيَكُونُ نَفْعًا ، كَمَا يَكُونُ ضَرًّا . . . وَأَنْتَ دَائِمُ الْبَيْنِ ظَاهِرُ السَّعَادَةِ ، ثَابِتُ
الْكَمَالِ ، شَائِعُ النِّفَعِ ، تَكْسُومُنْ أَعْرَاهُ ، وَتَكْنِيَنَّ مِنْ أَشْجَبِهِ ، وَعَلَى أَنَّهُ قَدْ مَحَقَّ
حُسْنُهُ الْحَقَاقَ ، وَشَأْنُهُ الْكَلْفَ (٣) ، وَلَيْسَ بِنَدَى تَوْقَدُ وَلَا اشْتِعَالُ ، وَلَا خَالِصُ
الْبَيَاضِ ، وَلَا بَمِثْلَالِي ، وَيَعْلُوهُ الْقَسِيمُ ، وَيَكْسُوهُ ظِلُّ الْأَرْضِ ثُمَّ لَا يَعْتَرِيهِ ذَلِكَ
إِلَّا عِنْدَ كَمَالِهِ ، وَلَيْلَةُ فَخْرِهِ وَاحْتِفَالِهِ ، وَكَثِيرًا مَا يَعْتَرِيهِ الصَّغَارُ مِنْ بَخَارِ الْبَحَارِ ،
وَأَنْتَ ظَاهِرُ التَّمَامِ ، دَائِمُ الْكَمَالِ ، سَلِيمُ الْجَوْهَرِ ، كَرِيمُ الْعَنْصَرِ ، نَارِيُ التَّوْقَدِ ،
هُوَائِيُ الذَّهْنِ ، دُرِّيُّ اللَّوْنِ ، رُوحَانِيُ الْبَلَدِ ، وَعَلَى أَنَّ ضِيَائَهُ مُسْتَعَارٌ مِنَ الشَّمْسِ
وَضِيَائِكَ عَارِيَةٌ عِنْدَ جَمِيعِ الْخَلْقِ . . . فَكَمْ بَيْنَ الْمَعِيرِ وَالْمُسْتَعِيرِ ، وَالْمُتَبَيِّنِ وَالْمُتَحَيِّرِ ،
وَبَيْنَ الْعَالَمِ وَمَنْ لَا حَسَّ فِيهِ ، فَلَا زَالَتِ الْأَرْضُ بِكَ مَشْرِقَةً ، وَالْدُنْيَا مَعْمُورَةً ،

(٣) الكلف : ما يعتري القمر من حمرة

الحسوف . والحاق : آخر الشهر أو ثلاث
ليالٍ من آخره .

(١) شختا : ضامراً . نضوا : مهزولاً .

(٢) السرار : الليال التي يخنق فيها القمر

فلا يرى .

ومجالس الخير مأهولة ونسيم الهواء طيباً ، وتراب الأرض عَسِيقاً .

والحق أن الجاحظ بلغ من سخريته بابن عبد الوهاب ما لم يبلغه كاتب ولا شاعر في اللغة العربية من سخريته بشخص من الأشخاص ، والطريف أنه يصل إلى ذلك لا عن طريق السب والشتم والقذف وإنما عن طريق ما يسوقه من تهكم وسخرية لأذعة بصاحبه ، فإذا هو يحتكم إلى قبحه وما يضيقه عليه من هذا الحسن يستمد منها متناقضاته ، كما يحتكم إلى قبحه وما يضيقه عليه من هذا الحسن الحادث ، ليستخرج كل ما يمكن من مفارقات فيه ، وإنه ليستعين على ذلك بضروب من الجدل والاحتجاج والحوار ، كما يستعين عليه بضروب من السفسطة والمغالطة والمقابلة بين الحقائق بعضها وبعض ، أو المقابلة بينه وبين أشياء أخرى على نحو ما يصنع به في هذه القطعة من المقابلة بينه وبين القمر هذه المقابلة الساخرة الطريفة التي يعث فيها به ما شاء له هواه ، وهو عبث يستخرجه من التناقض بين قبحه الحقيقي وحسنه الذي ادعاه له ، كما يستخرجه من قصره ، وما ادعاه له من طول وتربيع . ومعنى ذلك أن الجاحظ بنى رسالته على فن المفارقة ، هذا الفن الذي رَشَّحت له نظرية الأوساط اليونانية عنده ، وقد أخذ يضم إلى ذلك ضميمات أخرى من أسئلته الكثيرة حتى تم له سخريته من صاحبه ، وإن هذه الأسئلة لتشغل الجزء الأكبر من رسالته ، وانظر إليه يقول :

« يا قَعِيدَ الفلك كيف أمسيت ؟ ويا قوة الهَيُولَا كيف أصبحت ؟ حدثني كيف رأيت الطوفان ، ومتى كان سَيْلُ العَرَمِ ، ومذكم مات عُوج ؟ ومتى تبلبلت الألسن ؟ وما حبس غراب نوح ؟ وكم لبثتم في السفينة ؟ ومذكم ظهرت الجبال ونضب الماء عن النجف ؟ وأي هذه الأودية أقدم : أنهر بلخ أم النيل أم الفرات أم دجلة أم جيحان أم سيحان ؟ . . وخبرني عن هِرْمِسْ أهو إدريس ؟ وعن أرميا أهو الخضر ؟ وعن يحيى بن زكريا أهو إيليا ؟ وعن ذى القرنين أهو الإسكندر ؟ . . وخبرني عن قحطان أليعابر هو أم لإسماعيل ؟ وعن قضاة ألمعد ابن عدنان أم الملك من حمير ؟ وما القول في هاروت وماروت ؟ وما عداوة ما بين الديك والغراب ؟ . . . وخبرني عن بحار نِيْطَس وعن قُبَيْس وعن الأصم وعن

المظلم وعن جبل الماس وعن قاف وأين كنت عام الجحاف ؟ وأين كان ملك الأزد من ملك الأشكان ؟ وأين كانا من ملك بنى ساسان ؟ وأين كان أبرويز من أنوشروان ؟ وخبرني عن الفراعنة أهم من نسل العمالقة ؟ وعن العمالقة أهم من قوم عاد ؟ وخبرني كيف كان أصل الماء في ابتدائه في أول ما أفرغ في إنائه ، أكان بجرأ أجاباً استحال عذبا زلالا أم كان زلالا عذبا استحال بجرأ ؟ .. وكيف طمع - جعلت فداك - الدهرى في مسألة البيضة والدجاجة مع تقادم ميلادك، ومرور الأشياء على بدئك وكيف كان بدءُ أمر البدء في الهند وعبادة الأصنام في الأمم؟ وخبرني ما عتقاء مغرب وما أبوها وما أمها ؟ وهل خلقت وحدها ، أم من ذكر وأنثى ؟ ولم يجعلوها عقيا وجعلوها أنثى ؟ . . . وفيك أمران غريبان وشاهدان بديعان : جواز الكون والفساد عليك ، وتعاور النقصان والزيادة إياك ، جوهرك فلكي وتركيبك أرضي ، ففيك طول البقاء ، ومعك دليل الفناء ، فأنت علة للمتضاد وسبب للمتناهي . جعلت فداك قد شاهدت الإنس مذ خلقوا، ورأيت الجحش قبل أن يحتجوا . . . وشهدت العلل وهي تولد ، والأسباب وهي تصنع . . . خبرني ما السحر وما الطلسم ؟ وما صداقة ما بين الخنفساء والعقرب ؟ ولم ملح الحمض ؟ ولم طوقت الحمامة ؟ وما بال السواد يصبغ ولا ينصبغ والبياض ينصبغ ولا يصبغ ؟ وخبرني ما جرى بينك وبين هرمس في طبيعة الفلك وعن سماعتك من أفلاطون ، وما دار في ذلك بينك وبين أرسططاليس . . . وخبرني أين كان إقليدس من فيثاغورس ؟ وأين تلامذته من تلامذته ؟ ومن صاحب الشطرنج ؟ ومن صاحب كيلة ودمنة ؟ ولولا أنك - جعلت فداك - مشغول في كل زمان ، والغاية في كل دهر لما أفردتك بهذا الكتاب ، ولما أطمعت نفسي في الجواب ، ولكنك قد كنت أذنت في مثلها لهرميس ثم لأفلاطون ثم لأرسططاليس ثم أجبث معبدا الجهنى وغيتلان الدمشقي وعمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وإبراهيم بن سيار (النظام) وعلى بن خالد الأسواري ، فتربية كفتك والناشي تحت جناحك أحق بذلك وأولى ، وقد كان يجب أن تكون على ذلك أحرص وبه وأعنى . . . وزعم بعض تلاميذك أنك تعلم لم كان الفرس لا طحال لها ، ولم صار البعير لا مرارة له ، ولم كانت السمكة لا رثة لها . . . ولم قيل أعق من ضب

وأبرئ من هيرة، وهما جميعاً يأكلان أولادهما، ولم عال الذئب أولاد الضبع إذا قتلت أو ماتت؟ . ولم نامت الأرنب مفتوحة العينين؟ ولم أكل الذئب صاحبه إذا رأى به دماً؟ .. ولم زعمت أن عمر نوح أطول الأعمار مع قولك : إن جميع الأنبياء قد حذرت من الدجال وأن الدجال إنسان؟ ! » .

ويحاول الجاحظ بهذه الأسئلة وأمثالها أن يقمع مرء أحمد بن عبد الوهاب ويظهر جهله وتوهمه ، وهو يخرجها هذا الإخراج الفكه الذى احتال عليه بمناقضاته، وخاصة بما كان من تربيع ابن عبد الوهاب وتلوينه، وقبحه وجماله، وما من ريب فى أنه بلغ من ذلك كل ما كان يريد من سخرية بصاحبه. ونحن لا نبعد إذا جعلنا الجاحظ إمام المهجائين فى العصر العباسى إذ استطاع أن يلعب لعباً واسعاً بما كان من قصر مهجوه وضيق عقله . والطريف أنه أخرج ذلك كله مخرج الجدل والحوار ومسح عليه بالسفسطة والمغالطة ، وهذا اللسان الذى فتقته الفلسفة ، وهذا البيان الذى شحذته الثقافة، وهو يعرض ذلك كله عرض محدث لبق ، ما يزال يخرج من باب إلى باب ومن فكرة إلى فكرة . وهى طريقة عامة فى كتابات الجاحظ بعد مرضه إذ تبدو فى شكل إملاءات ومحاضرات ، وهى لذلك تتصف بالتكرار والترداد والاستطراد كما تتصف بالسماة الأخرى التى تميزه من تقطيع صوته بديع وتلوين عقلى طريف ، وهو ينزلق إلى ذلك كله فى الرسالة التى بين أيدينا — عن طريق فكرة الأوساط فإذا زاد الجسم طولاً، أو نقص قصرًا ، أو اتسع عرضًا ، أصابته مساوئ الإفراط والتفريط ، واستطاع الجاحظ أن يمثل بصاحبه وأن يشوّه ما استطاع من تمثيل وتشويه ، ونراه يعرض ذلك كله فى معارض بيانية ممتازة تجعلنا نؤمن بأنه تفوق فى صنعتته على جميع كتّاب عصره ، إذ كان يؤصلها على التلوين العقلى من طرف، والتلوين الصوتى من طرف آخر ، فإذا أساليبه تنهض بهذه الثروة العقلية الباهرة، وتلك الموسيقى الرصينة الرائعة ، والحق أن الجاحظ استطاع أن يدمج إدماجاً حسناً بين ثقافته وأسلوبه وأن يخرج من ذلك إلى هذه الصنعة الجاحظية البديعة التى تقوم على التجانس بين اللفظ الموسيقى الرشيق ، والمعنى العقلى الدقيق ، تجانساً يتمتع العقل والفكر ، كما يتمتع الحس والشعور .

الكتاب الثاني

أ - مذهب التصنيع

ب - مذهب التصنع

الفصل الأول

التصنيع والدواوين

١

التصنيع في الحياة العربية

لا نكاد نمضي في العصر العباسي حتى نحس أن الحياة العربيّة تغيرت إطارها تغيراً تاماً ، بل لقد تهدم إطارها القديم وحل محله إطار جديد من الزخرف والتصنيع ، فقد أخذ الناس يعيشون معيشة حضارية مترفة لا تتصل بالبادية ولا بالحياة العربية القديمة ، إنما تتصل بالأناقة والترف والزينة . وقد كانت بغداد حاضرة الخلافة العباسية أهم مدينة في العالم العربيّ تعبّر عن هذه الحياة الجديدة وما يتصل بها من زخرف وتصنيع إذ « كانت تسمى بحق مدينة القصور المشيدة بالمرمر ، وكانت العمائر فيها مؤلفة من عدة طبقات ، وكان تأثير الذوق الفارسي ظاهراً جلياً في زخرفها ، وكانت تعلّق على النوافذ والأبواب ستور مزركشة وحرائر مشجرة ، أما الغرف فكانت مزدانة بالدواوين النفيسة والمناضد الثمينة والزهريات الخزفية والمرصّعات والمذهبات ، وكانت قصور الخليفة تتألق بالجواهر البراقة »^(١) . وقد وصف بعض العباسيين داراً للوائق فقال : « إنها كانت مُلبّسة الحيّطان بالوشى المنسوج بالذهب » . ويقول : « إنه رآه يجلس على سرير مرصع بالجواهر ، وعليه ثياب منسوجة بالذهب ، وإلى جانبه فريدة تغنيه ، وعليها مثل ثيابه »^(٢) . ويروى عن الوزير أبي الحسن بن الفرات أنه أنفق على الدار التي كان ينزلها في وزارته الثانية ثلثمائة ألف دينار ، وأنه أمر

(١) مختصر تاريخ العرب والمتمدن الإسلامي لسيد أمير على ترجمة رياض رأفت ص ٣٨٤ .
(٢) أغاني (طبع دار الكتب) ١١٦/٤ .

بإصلاحها فبلغت النفقة خمسين ألف دينار^(١) . ولعل مما يدل على ترف العباسيين من بعض الوجوه ما يُروى عن السيدة زبيدة زوج هرون الرشيد من أن الثوب من الوشي الذي كان يُتخذ لها كانت تبلغ نفقته خمسين ألف دينار^(٢) ، ويتصل بذلك ما يروى من أن أم المقتدر كان يشتري لها ثياب دَبِيقية لتصنع منها نعالها ، وكانت تطلّى بالمسك والعنبر المذاب وتجمد^(٣) ، فإذا كان المسك والعنبر يجمدان في نعالها فما بالنأ بثيابها وطعامها وما كان يتخذ فيها !

والحق أن الحياة العباسية كانت تقوم على الترف والزينة وما يتصل بهما من تصنيع وزخرف ، وقد ساعد الناس على ذلك ارتفاع مستوى المعيشة وما كانوا عليه من بذخ و ثراء ، وربما كان مما يصور هذا الجانب من بعض الوجوه ما يروى من أن بعض العباسيين ورث عن مولى لأبيه وابن عم له مائتا في يوم واحد ما قيمته أربعون ألف دينار ، ويقولون إنه عمر داراً بألف واشترى جوارى وآلات وفرشاً وثياباً بسبعة آلاف ، وأعطى لتاجر ألفين يتجر له فيهما ، وأودع في بطن الأرض عشرة آلاف للشدائد ، وابتاع بالباقي ضيعة تغلّ في كل سنة ما يزيد على مقدار نفقته^(٤) . ومن يرجع إلى ما كتبه العباسيون عن عصرهم يجد صوراً مستفيضة لترفهم وحضارتهم وتنميقهم ، وإننا لنجد هذا التنميق في كل مكان ، نجده في قصورهم وحماماتهم إذ كانت تزين بالصور^(٥) كما نجده في مساجدهم ، وحتى الأبواب كانوا يزخرفونها ، يقول آدم متر : إن أبواب الدور كانت تصنع من الخشب المحلّى بالنقوش ، وكانت تعلق البسط على الحيطان تتنافس بألوانها وزركشتها^(٦) . ولعل من الطرف التي تعبر عن التصنيع في هذا العصر تعبيراً دقيقاً ما يروى عن المقتدر بالله وقصوره وما كان فيها من بذخ إذ يقولون : إنه كان بقصره شجرة من الفضة زنتها خمسمائة

(١) كتاب الوزراء للهلل بن الحسن (طبع)

١٤٣/١ .

بيروت) ص ١٧٩ .

(٤) الفرج بعد الشدة للتنوخي ١٧/٢ .

(٢) مروج الذهب للمسعودي (طبع دار

(٥) الحضارة الإسلامية لآدم ميتز (طبع لجنة

الرجاء) ٢٤٤/٤ .

التأليف) ١٦٢/٢ .

(٣) نشوار المحاضرة (بتصحیح مرجلیوٹ)

(٦) نفس المصدر ١٦٠/٢ .

ألف درهم ، وكانت تقوم وسط بركة مدورة صافية المياه ، وكان لها ثمانية عشر غدنًا ، على كل غصن الطيورُ والعصافيرُ من كل نوع مذهبة ومفضضة ، وكان بها ورقٌ مختلف الألوان ، وكانت تتمايل في أوقات لها فيتحرك هذا الورق وتصفّر الطيور وتهلر . ويبالغ المؤرخون فيما كان بقصور المقتدر من ستور الديباج المذهبة بالطرز الجليلة المصورة بالجامات والفيلة والخيل والجمال والسباع ، ويقال إنه كان بأحد قصوره بركة رصاص حولها بستان بميادين فيه نخل ، قيل إن عدده أربعمئة نخلة وطول كل واحدة خمسة أذرع قد لبسَ جميعها ساجاً منقوشاً من أصلها إلى حد الطلوع بحلق من شبه مذهبة^(١) .

ووقف ابن خلدون في مقدمته عند ترف العباسيين وأكبر من شأنه مستدلاً بما كان من إعراس المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل وما نثره أبوها من بنادق المسك وفيها الرقاع بأسماء الضياع والحوارى التى وزعها على المدعوين ، ونثر أيضاً كثيراً من الدنانير والدرهم ونوافج المسك ، ثم يقول : إن المأمون أعطى بوران مهرأ لها ليلة زفافها : ألف حصاة من الياقوت ، وبسط لها فرشاً كان الحصير منها منسوجاً بالذهب ، مككلاً بالدر والياقوت ، ويفيض ابن خلدون فيما اتخذ بهذا العرس من أطعمة^(٢) . وإن في كتاب البخلاء للجاحظ ما يدل على مدى ترف العباسيين في أطعمتهم وأوانهم وتأنيقهم في ذلك . وكما تأنفقوا في طعامهم تأنفقوا في ثيابهم وملابسهم ، فكانوا يلبسون الثياب المصبغة ، وخاصة في شراهم^(٣) . وما من ريب في أن ما انتشر في هذا العصر من غناء وشراب وهو كان له أثره في هذا الذوق المترف الذى يميل إلى أن يسرى التصنيع والزخرف في جميع جوانب الحياة من عمارة أو أطعمة أو فرش . وطبيعى أن يسرى هذا الذوق من حياة العباسيين الاجتماعية إلى حياتهم الأدبية لأنه تعبير عصرهم الذى عاشوا فيه ، وإن الإنسان ليخيل إليه كأن الناس فرغوا للتنميق

ص ١٢١ .

(١) انظر تاريخ الخطيب البغدادي (طبع

(٢) انظر الفخرى في الآداب السلطانية (طبع

مصر ١٠٠/١ .

المطبعة الرحمانية) ص ١٥٣ .

(٣) مقدمة ابن خلدون (طبع المطبعة البهية)

والتصنيع ، فهم يصنعون وينسّقون في دورهم وفي ملابسهم وفي طعامهم وفي كل ما يتصل بهم .

٢

التصنيع ودواوين الخلافة العباسية

ونحن لا نغضى في تتبع أصحاب الدواوين في الخلافة العباسية حتى نجدهم منصرفين إلى العناية بكتاباتهم ، إذ كانت هذه العناية هي التي توفّر لهم أسباب النجاح في حياتهم . ونحن نعرف ما كان من مشاركة البرامكة في الأدب والعلم ومعرفتهم بالبيان والبلاغة ، وسنرى أنه كان لهم الأثر الأول في الاتجاه إلى التصنيع في الكتابة ، كان الفضل بن سهل يسمى ذا الرياستين لجمعه بين رياسة السيف ورياسة القلم ، وقد روى الرواة أن عمرو بن مسعدة وقّع على رقعة رُفعت إلى جعفر بن يحيى البرمكي ، فأعجب بها جعفر ، وضرب بيده على ظهره ، وقال له : أى وزير فى جلدك^(١) . وقد وصل محمد بن عبد الملك الزيات إلى الوزارة عن طريق أدبه وبيانه وما يحققه فيه من تنميق وتصنيع .

ويظهر أن جماعة كتاب الدواوين كانت تأخذ نفسها بثقافة واسعة ، وقد رأينا في غير هذا الموضع كيف كان عبد الحميد الكاتب ينصح الكتاب بمعرفة كتاب الله والفرائض والثقافة العربية من الشعر وأيام العرب وكذلك الثقافة الفارسية وما يتصل بتاريخ الفرس . ويظهر أن هذا كله لم يكن يكتفى به كتاب الدواوين في العصر العباسي إذ كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة فلهنية واسعة كما كانوا يأخذون أنفسهم بالثقافة الفارسية والهندية ، ومن أجل ذلك نرى عليهم ابن قتيبة أنهم يهملون النظر في اللغة بينما يشغفون « بالنظر في النجوم والمنطق والفلسفة » ، والحديث عن « الكون والفساد وسمع الكيان والكيفية والكمية

(١) ابن خلكان ٣٩٠/١ .

والجوهر والعرض، ورأس الخط النقطة، والنقطة لا تنقسم»^(١) إلى غير ذلك مما كانوا يتشدقون به مما عرفوه من الفلسفة والثقافات الأجنبية .

وهذا كله يدل على أن كتّاب الدواوين كانوا يوسعون ثقافتهم ما استطاعوا، وعُنُوا خاصة بالثقافة الفلسفية حتى يعمقوا أفكارهم ويرتبوا معانيهم ترتيباً دقيقاً. وهم كما عُنُوا بمعانيهم عُنُوا أيضاً بألفاظهم عناية قد تفوق عنايتهم بمعانيهم حتى ليقول الجاحظ : « أما أنا فلم أر قط أمثلاً لطريقة في البلاغة من الكتّاب ، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً »^(٢) . ويقول أيضاً : إن الكتّاب لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعاني المنتخبة وعلى المخارج السهلة والديباجة الكريمة وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد وعلى كل كلام له ماء ورونق : وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور تخرتها وأصلحتها من الفساد القديم ، وفتحت للسان باب البلاغة ، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ ، وأشارت إلى حسان المعاني^(٣) .

وما من ريب في أن هذه شهادة قيمة من الجاحظ لطائفة الكتاب وما كانوا يوقرون لألفاظهم من عناية، وإنها لعناية تستمر بهم فإذا هم ينقلون حرفة الكتابة من أسلوبها القديم: أسلوب الصنعة إلى أسلوب جديد من التصنيع ، وبعبارة أخرى من السجع والبديع . وبدأت هذه العناية واضحة منذ عصر البرامكة الذين روت كتب التاريخ عنهم ترفاً واسعاً ، وكأن هذا الترف دفعهم هم والكتّاب من حولهم إلى التألق في حياتهم الاجتماعية، والتألق أيضاً في حياتهم الأدبية ، وخير من يصور ذلك جعفر بن يحيى البرمكي صاحب الدواوين في عهد الرشيد فقد أشاد السابقون ببلاغته . يقول الجهشيارى : « كان جعفر بليغاً كاتباً ، وكان إذا وقع نُسخة توقيعاته ، وتُدورست بلاغاته »^(٤) . ويقول ابن خلدون عنه : « وإن الناس كانوا يتنافسون في الحصول على توقيعاته

(١) انظر أدب الكتّاب لابن قتيبة (طبع) (٣) البيان والتبيين ٤ / ٢٤ .

مطبعة الوطن (ص ٣ . (٤) الوزراء والكتّاب ص ٢٠٤ .

(٢) البيان والتبيين ١ / ١٣٧ .

ليقفوا منها على أساليب البلاغة وفنونها حتى قيل إنها كانت تباع كل توقيع بدينار»^(١). ووصفه^٢ ثمامة بن أشرس فقال: «كان جعفر بن يحيى أنطق الناس، قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة، وإفهاماً يغنيه عن الإعادة ولو كان في الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة»^(٣). وفيه تقول عنان جارية الناطقى^(٤):

بـدِيتُهُ وفكرتُهُ سواءٌ إذا التبتست على الناس الأمور

وقد كان جعفر يبالغ في تنميق عباراته، وهو تنميق كان يستمدّه من حياته التي بنيت بناء من التنميق والتصنيع والزينة حتى قالوا إنه كان يُتخذ في عصره مثلاً للتصنيع والزخرف في ثيابه^(٥)، فكان طبيعياً أن يسقط ذلك إلى أدبه وبيانه. ولعل أهم ما يلاحظ من ذلك أنه كان يلتزم السجع في كتبه وتوقيعاته، روى ابن خلكان أنه وقّع إلى بعض عمّاله: «قد كثر شاكوكك وقل شاكروك»، فإما اعتدلت، وإما اعتزلت»^(٥). وأكبر الظن أن جعفر كان يبنى عباراته على السجع، وهذا أول مظهر من مظاهر مذهب التصنيع. ويبدو أن هذا الاتجاه في صناعة النثر لم يقتصر حينئذ على جعفر البرمكي ودواوينه بل أخذ ينتشر وخاصة عند طلاب الحاجات الذين يرفعون ظلاماتهم أو يقدمون توسلاتهم، فقد روى الجاحظ أن ابن سيبّابة الشاعر كتب إلى يحيى بن خالد البرمكي برسالة بليغة كان عامة أهل بغداد يحفظونها وهي رسالة بُنيت كلها على السجع^(٦) ومرّ بنا في الفصل الثاني من الكتاب الأول أن كثيراً من الوعاظ كانوا يستخدمون السجع في أواخر عصر بني أمية، وقد استمر ذلك في العصر العباسي الأول، وفي عيون الأخبار لابن قتيبة نماذج من ذلك في مقاماتهم بين أيدي الخلفاء^(٧).

-
- (١) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٣ .
 (٢) البيان والتبيين ١/ ١٠٦ .
 (٣) الوزراء والكتاب ص ٢٠٤ .
 (٤) البيان والتبيين ٣/ ٢١٥ .
 (٥) عيون الأخبار ٢/ ٣٣٢ - ٣٤٤ .
 (٦) عيون الأخبار ٢/ ٣٣٢ - ٣٤٤ .
 (٧) أنظر دائرة المعارف الإسلامية المجلد الثالث

وإذا فتحنا لا نُبعد إذا قلنا إن عنصر السجع وهو العنصر الأول في مذهب التصنيع أخذ يظهر منذ القرن الثاني الهجري ، وإذا تركنا هذا القرن إلى القرن الثالث وجدنا هذا العنصر يظهر في الرسائل السياسية وعند كُتّابها ، ولعل أقدم نموذج يصور ذلك وصية^(١) طاهر بن الحسين مؤسس الدولة الطاهرية المتوفى سنة ٢٠٧ للهجرة لابنه عبد الله عند ما عيّن والياً على ديار ربيعة في سنة ٢٠٦ هـ . ويستمر السجع عند الكُتّاب وعلى رأسهم عمرو بن مسعدة الصولي الذي كان يلي شئون الدواوين لعهد المأمون ، وكان جده صول من ملوك جرجان وهم ترك^(٢) ، وقد نشأ عمرو في دواوين البرامكة وتربى على أساليبهم ، ولذلك لم يكن غريباً أن نجده يحتذى أحياناً على أمثلتهم من السجع والتنميق في عباراته ، ولعله من أجل ذلك كان المأمون يعجب برسالاته^(٣) . وانظر إليه يكتب إلى الحسن بن سهل^(٤) :

« أما بعد فلأنك ممن إذا غرس سقى ، وإذا أسس بني ، ليستمّ تشييد أسسه ، ويحتنى ثمار غرسه ، وبنائك عندي قد شارف الدروس ، وغرسك مُشَفّ على اليبوس ، فتدارك بناء ما أسست ، وسقى ما غرست إن شاء الله » .

وهذه الرسالة القصيرة تدلنا على ضميمة أخرى أخذت تُضمّ إلى سجع أصحاب الدواوين في القرن الثالث ، ونقصد ما يتشع به سجعهم من صور بيانية ، وضميمة ثانية تلاحظ عند عمرو وهي سعة الحيلة في كتاباته مع الإيجاز الشديد . روى الرواة أن المأمون أمره أن يكتب لشخص كتاباً إلى بعض العمال بالوصية عليه والاعتناء بأمره في سطر واحد فكتب إليه^(٥) :

« كتابي إليك كتابٌ واثقٌ بمن كُتِبَ إليه ، مَعْنِي بمن كُتِبَ له ، ولن يضع بين الثقة والعناية حامله ، والسلام » .

وما من ريب في أن هذا الكتاب — على قصره — يصور المهارة العقلية

(١) تاريخ الطبرى ١٠٤٦/٣ والكامل (٢) وفيات الأعيان ٣٩٠/١

لابن الأثير ٢٦٨/٦ (٤) معجم الأدباء ١٦/١٣٠

(٢) معجم الأدباء طبع مصر ١٦٥/١ (٥) وفيات الأعيان ٣٩٠/١

التي كان يحتاجها كاتب الديوان في العصر العباسي ، فهو يحتال في كتاباته ، وهل في هذا الخطاب سوى الاحتيال بصورة طريفة عن الفكرة التي يريد الكاتب أن يؤديها ؟ اتسع هذا الاحتيال واتسع ما يَطْوَى معه من عناية باللفظ كلما تقدمنا مع الزمن في العصر العباسي . ومن اشتهر في هذا الجانب كاتب آخر من الصوليين كان يكتب للمتوكل وهو إبراهيم بن العباس الصولي ، وكان يشبه عمرو بن مسعدة في دقة التعبير وحَبَسَته وما يَطْوَى في ذلك أحيانا من سجع ، وانظر إليه يكتب لابن الزيات مستعظفاً^(١) :

« كُتِبْتُ وقد بلغت المُدَّة المَحْزَّة ، وعدت الأيامُ على بعد عَدَوَاي بك عليها ، وكان أسوأ الظن وأكثرُ خوفي أن تسكن في وقت حركتها ، وتكف عني أذاتها ، فصرت أضربُ على منها ، كَفَّ الصديق عن نصرتي خوفاً منك ، وبادر إلى العدو تقرباً إليك » .

وأنت ترى عند إبراهيم عمق التفكير وطرافته كما ترى تأنقه في لفظه ، ويظهر أن ذلك كان سمة عامة بين الكتّاب فهم جميعاً يبالغون في العناية بالفاظهم . ولكن ينبغي ألا يُفْهَم من ذلك أنهم كانوا يعمدون إلى السجع دائماً ، إنما هذه رسائل اخترناها لهؤلاء الكتّاب ، ولهم رسائل أخرى لا سجع فيها . ومعنى ذلك أن الكتّاب حتى منتصف القرن الثالث كانوا يسجعون أحيانا وأحيانا لا يسجعون ، وقد استمر ذلك شأنهم حتى أواخر هذا القرن . ومن أبرعهم في هذا الجانب أبو العباس بن ثوبة المتوفى عام ٢٧٧ للهجرة ، وهو من أصل نصراني^(٢) ، وكان يسجع أيضاً في بعض رسائله^(٣) ، وكان له أخ يسمى جعفر بن محمد بن ثوبة تولّى ديوان الرسائل في عهد الوزير عبيد الله ابن سليمان وتوفى عام ٢٨٤ هـ ، وقد بقي أبناؤه يتوارثون من بعده ديوان الرسائل في بغداد حتى تسلمه منهم أبو إسحق الصابئ عام ٣٤٩ هـ^(٤) . وما لاشك فيه أن هذه الأسرة لعبت دوراً مهماً في استخدام السجع والتزامه .

(٣) نفس المصدر ١٤٧/٤ .

(٤) معجم الأدباء ١٨٨/٧ .

(١) معجم الأدباء ١٧٠/١ .

(٢) نفس المصدر ١٤٤/٤ .

وقد يكون من الطريف أن نلاحظ أن أهم الكتاب الذين نموا السجع في القرنين الثاني والثالث كانوا من الأجانب وعلى رأسهم أسرة البرامكة الفارسية ، وأسرة الصوليين التركية ، وأكبر الظن أن الجنس لم يكن له دخل في المسألة ، فنحن نعرف كما مر بنا في القسم الأول من هذا الكتاب أن السجع قديم في اللغة العربية ، وغاية ما هنالك أنه اختفى أول الأمر في الكتابة الديوانية ثم أخذ يظهر فيها من حين إلى حين منذ القرن الثاني . على أننا لا نصل إلى أواخر القرن الثالث حتى نجد دوافع كثيرة تدفع بعض الناس إلى التزامه في كتاباتهم ، وكأنما حياتهم المليئة بالزخرف والتصنيع هي التي دفعتهم إلى ذلك دفعا ، ومن كان يلتزم ذلك أبو العيناء المتوفى عام ٢٨٢ هـ ، فقد كتب له أبو على البصير رسالة جاء في آخرها : « وقد نفذت لى إليك رسالة العتاب ، على مخرج ألفاظ الكتاب . وقد ملت إلى السجع على علمي بخساسة حظه ، وركاكة معانيه ولفظه ، إذ كنت تلوى به لسانك ، وتثني إليه عنانك ، قطعاً لحجتك ، وإزاحة لعلتك »^(١) . وبين أن ينص على أن أبا العيناء يلتزم السجع في رسائله كما ينص على أن السجع خسيس الحظ ، ركيك اللفظ ، وقد يكون في ذلك ما يدل على أنه لما يشع وينتشر .

على أننا لا نصل إلى عصر المقتدر (٢٩٥ - ٥٣٢٠ هـ) حتى نجد السجع يصبح عاماً في كل ما يصدر عن دواوينه . فليس هناك وزير ولا كاتب إلا وهو يتخذ السجع في صياغته . وارجع إلى كتاب تاريخ الوزراء للهلال بن المحسن ؛ وهو الكتاب الذي يؤرخ هذه الحقبة من خلافة المقتدر ، فستجد كل ما يصدر عن هذا العهد يصدر مسجعا ، سواء في ذلك ما يصدر عن كاتب الرسائل من آل ثوابة وما يصدر عن الوزراء أمثال ابن الفرات . وهو أول وزراء المقتدر ثم على بن عيسى الذي كان يتداول معه الوزارة لهذا العهد ، وقد روى له الهلال طائفة كبيرة من الكتب والرسائل وكلها مسجوعة^(٢) ؛

(١) اختيار المنظوم والمنثور ، ورقة ٢٣٣ . (طبع بيروت) ص ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٢ .
(٢) انظر تاريخ الوزراء للهلال بن المحسن ٣٤٤ . وانظر أيضاً معجم الأدباء ١٣٦١/٧ .

وكذلك كان شأن الوزير الثالث في هذا العهد وهو الخاقاني فقد كان صَبِيًّا بالسجع مغرماً به ، وله في ذلك نواذر كثيرة ، منها أن عامل النيل تأخر في حمل غلّة إليه فكتب له : « احمل الغلّة ، وأزح العِلّة ، ولا تجلس متودّعاً في الكِلّة » . ثم التفت إلى الكاتب وقال له : أفى النيل بقى يحتاج إلى كيل ؟ فقال : إى والله وأى بقى ومن أجله يلزم الناس الكيل نهاراً وليلاً .^(١) ووقع في كتاب إلى بعض عمّاله : « الزم - وفكك الله - المنهاج ، واحذر عواقب الاعوجاج ، واحمل ما أمكن من الدجاج إن شاء الله » فحمل العامل دجاجاً كثيراً على سبيل الهدية ، فقال : هذا دجاج وفترته بركة السجع^(٢) . وكما كان يسجع الوزراء لعهد المقتدر كان يسجع الكتاب في دواوينه وعلى رأسهم محمد بن جعفر بن ثوابة ، وقد احتفظ له ياقوت بمنشور وجهّه عن الخليفة إلى العمال في الأقاليم المختلفة ، وهو مسجوع كله^(٣) ويظهر أن الولاة أخذوا يقلدون هؤلاء الكتّاب والوزراء وما كان من سجعهم ، فقد روى الهلال أن أبا الحسن بن نيداد - وكان يتقلد كُورَ الأهواز - كتب إلى على بن عيسى كتاباً سجع فيه سجعاً زاد فيه فكتب إليه : « عَوَّلَت بنا على كلام ألفته ، وخطاب سجعته ، أوجب صرّفك عما توليته »^(٤) . وفي هذا كله أكبر الدلالة على أن السجع عم في الكتابة الديوانية منذ عصر المقتدر . وربما كان من الأدلة على ذلك أننا نجد الخليفة القاهر الذى ولى الخلافة بعد المقتدر يطلب إلى بعض من يقفون على أخبار بنى العباس أن يصفهم ثم يقول له : « ولا تغيب عنى شيئاً ، ولا تحسّن القصة ، ولا تسجع فيها »^(٥) . وكأن الخليفة ملّ كثرة ما يقرأ من السجع الخالص ، فهو يطلب كتاباً لا سجع فيه ونرى من كل ما سبق أن السجع - وهو أحد الجوانب المهمة في التصنيع وزخرف الأساليب - أخذ يظهر من حين إلى حين منذ القرن الثانى ، وما يزال ينمو

(٤) تاريخ الوزراء ص ٣٣٥ .

(٥) مروج الذهب للمسعودى ٢٤١/٤ .

(١) تاريخ الوزراء ص ٢٧٧ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٧٧ .

(٣) معجم الأدباء ٩٧/١٨ .

ويتسع استخدامه في القرن الثالث ، حتى إذا وصلنا إلى عصر المقتدر أصبح عاماً بين كل الكتاب في ديوان الخلافة ، فليس هناك شيء يُكْتَسَبُ إلا ويصاغ في أسلوب السجع وبذلك يتكامل أحد الجانبين الأساسيين في مذهب التصنيع وهما : السجع والبديع ، وسنرى - عما قليل - الكتابَ يحققون له جميعاً الجانب الثاني : جانب البديع والترصيع .

٣

التصنيع ودواوين الإمارات الفارسية

إذا تركنا عصر المقتدر طلع علينا عصر جديد هو عصر الإمارات التي تقسمت فيما بينها إيران وخراسان ، ونقصد إمارة السامانيين الذين امتد نفوذهم في خراسان وما وراء النهر من سنة ٢٦١هـ إلى سنة ٣٨٩هـ ، ثم إمارة البويهيين الذين بسطوا نفوذهم على الولايات الجنوبية الغربية من إيران كما بسطوه على العراق وبغداد نفسها إذ كان الخليفة العويبة في أيديهم ، وقد استمر سلطانهم من سنة ٣٢١هـ إلى سنة ٤٤٧هـ . وبجانب هاتين الإمارتين الكبيرتين كانت توجد إماراتان صغيرتان : إحداهما في خوارزم ، والثانية في طبرستان وجرجان حيث أسرة الزياريين ، ثم تظهر الدولة الغزنوية في أواخر القرن الرابع فتستولى على ما كان بيد السامانيين . والغزنويون يرجعون إلى أصل تركي بينما يرجع السامانيون والبويهيون والزياريون إلى أصول فارسية ، وأسس الغزنويون لهم أول الأمر إمارة في أفغانستان ثم توسعوا فاستولوا على إمارة السامانيين .

وقد هيأت هذه الإمارات والدول المختلفة لحركة أدبية وعقلية واسعة ، بحيث يمكن أن يُعَدَّ هذا العصر - على الرغم مما كان فيه من انقسام الدولة العباسية على هذا النحو - أحفل العصور العربية بالنشاط الأدبي والعلمي والفلسفي . ويكنى أنه ظهر في هذا العصر أشهر فلاسفة الإسلام وعلمائه من مثل ابن

سينا الذى خدم فى بلاط السامانيين ، والبيروفى الذى خدم أولاً فى بلاط ملوك خوارزم ثم خدم فى بلاط ملوك الدولة الغزنوية .

على أن الجانب العقلى لا يهمننا إنما يهمننا الجانب الأدبى وما لقى الأدب حينئذ من تشجيع ورواج . والغريب أن الحياة الأدبية ازدهرت فى هذا العصر ازدهاراً لم تعرفه فى أى عصر سابق ، إذ كان كل حاكم فى إمارة من هذه الإمارات السابقة يختار فى حاشيته جماعة من الأدباء الممتازين لينافس بهم حكّام الإمارات والدول الأخرى ، وبذلك ظهر فى كل مركز من مراكز هذه الإمارات حركة أدبية أو قل سوقاً أدبية ، وساعد على ذلك أن هؤلاء الحكّام استوزروا كبار الأدباء فى أقاليمهم ، ومن ثمّ أصبحنا نسمع فى كل إمارة باسم أديب بل باسم أدباء ممتازين يكاون شئونها ويشرفون على مرافقها ، فعند السامانيين نجد العميد والد ابن العميد الكاتب المشهور كما نجد الإسكافى الكاتب المعروف ، ونجد أيضاً أسرة بنى ميكال النيسابورية ، وقد ولى كثير منها دواوين السامانيين ، وعند البويهيين نجد ابن العميد كما نجد صاحب بن عباد ، وهما أهم كتّاب العصر ، وفى الدولة الزيارية نجد أميراً من أمرائها يشتهر بالكتابة وهو قابوس بن وشمكير . ولم يقف هذا الامتياز للأدباء وصلتهم بالحكام عند أصحاب الإمارات الكبيرة ، فقد كان بعض حكام البلدان الصغيرة يتخذون كتّاباً مشهورين مثل البُسْتى كاتب أمير مدينة بست فى أفغانستان ثم كاتب الدولة الغزنوية ، وإن الإنسان ليخيل إليه أن كل حاكم فى مدينة أو مقاطعة بإيران لم يعد يشغله إلا أن يجمع حوله بطانة من الكتّاب تعيش فى بلاطه ، ويكفى للدلالة على اعتداد الحكّام بالكتّاب أن نجدهم فى بغداد يستخدمون على ديوان الرسائل كاتباً صابئاً ليس من المسلمين ، هو أبو إسحق الصابى لما عرف من بلاغته ومهارته البيانية . ومما يدل على ما كان للكتابة الجيدة فى هذا العصر من شأن حتى فى السياسة نفسها ما رواه صاحب اليتيمة من أن ابن العميد « كتب رسالة إلى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة وخروجه عليه ، فلما قرأها ابن بلكا رجع وأتاب ، وقال لقد ناب كتاب

ابن العميد عن الكتاب في عرّك أديمي واستصلاحى وردّى إلى طاعة صاحبه^(١). وهذه القصة تدل على قيمة الكتب المحبرة في القرن الرابع وأنها كانت تقوم مقام الجيوش في الظفر بالأعداء ، لذلك اهتم كل أمير بوزرائه وكتّابه ، واهتم الوزراء والكتاب أنفسهم بصناعة كتبهم وتحجيرها ، وإدخال كل ما يمكن من ضروب التصنيع والتجميل عليها ، وقد كانت حياتهم تؤهل لذلك إذ كانت تقوم على التصنيع والتنميق . يقول بعض الشعراء في هجاء كتّاب الدولة السامانية^(٢) :

أَكْتُابُ دِيوَانِ الرِّسَالِ مَا لَكُمْ تَجَمَّلْتُمْ بِلِ مَتَّمْ بِالتَّجَمُّلِ

وكذلك كان كتّاب الدولة البويهية يتأنقون ويتصنعون في حياتهم ، وكان الصاحب بن عباد خاصة يعجب بالخزّ ويأمر بالاستكثار منه على خدمه وغلمانة فكانوا يبدون في الخروز الفاخرة الملونة^(٣) . وغير كتّاب السامانيين والبويهيين كانوا يتأنقون تأتقهم ، ولا غرابة فهم يعيشون في قصور هؤلاء الحكام والأمراء معيشة مترفة تقوم على التصنيع والتنميق ، ولذلك كان طبيعياً أن يسقط هذا الجانب الذى يتصل بحياتهم إلى أدبهم وفهم ، بحيث أصبح التصنيع أساسياً في كل ما تنتجه هذه القصور ومن يعيشون فيها من هؤلاء الكتّاب والأدباء.

ومهما يكن فإن الإمارات الفارسية هيأت لنهضة أدبية واسعة ، وقد اقترنت هذه النهضة بمذهب التصنيع ، ولعل من الطريف أن نذكر هنا أن كل إمارة من هذه الإمارات اشتهرت بمراكز مختلفة للنهضة الأدبية ، ففي الإمارة السامانية نجد نيسابور التى أخرجت الثعالبي ، كما نجد بخارى العاصمة التى « كانت مثابة المجد وكعبة الملك وجمع أفراد الزمان ومطلع نجوم أدباء الأرض وموسم فضلاء العصر »^(٤). وفي الإمارة البويهية نجد همدان التى أخرجت بدیع الزمان ،

(٣) اليتيمة ١٧١/٣ .

(٤) اليتيمة ٩٥/٤ .

(١) اليتيمة (طبعة الصاوى) ١٤٧/٣ .

(٢) اليتيمة ٧٤/٤ .

وأصبهان التي أخرجت الصاحب بن عباد ، والتي يقول فيها صاحب اليتيمة :
« لم نزل أصبهان مخصصة من بين البلدان بإخراج فضلاء الأدباء وفحولة الكتّاب
والشعراء »^(١). كما نجد الرّى دار عضد الدولة البويهى ومستقر ابن العميد .
وأخرجت خوارزم لهذا العصر أبا بكر الخوارزمى الكاتب المشهور ، كما
أخرجت طبرستان قابوس بن وشمكير ، ولعل من الطريف أن الثعالبي في
اليتيمة لم يَبْنِ كلامه على أدباء هذا العصر حسب الإمارات ، بل بناء حسب
المدن والبلدان . على أن هذا لا يجعلنا ننسى ما كان من تشجيع الأمراء والحكام
للحركات الأدبية في هذه المراكز ، وخاصة بنى بويه ، إذ كان كثير منهم
أدباء ، وقد فتح لهم الثعالبي في يتيّمته فصولا لاستعراض هذا الجانب فيهم^(٢) .
والحق أن أمراء الدول الإيرانية عامة شجعوا — بكل وسيلة تمكنهم — الأدباء
والكتاب . ومن الظواهر المهمة التي اقترنت بهذا العصر أننا نجد الأدباء ينتقلون
من بلاط إلى بلاط يرفعون كتبهم ومؤلفاتهم إلى الملوك والأمراء ، على نحو ما لاحظ
براون في كتابه (تاريخ الفرس الأدبي) إذ ذكر أن الثعالبي ألف كتاب
« لطائف المعارف » للصاحب بن عباد « والمهجع » و« التمثل والمحاضرة » لشمس المعالى
قابوس بن وشمكير ، و« سحر البلاغة » و« فقه اللغة » للأمير أبى الفضل الميكالى ،
و« النهاية فى الكناية » و« نثر النظم » و« اللطائف والظرائف » للمأمون بن مأمون أمير خوارزم^(٣) .
وهؤلاء الأمراء والملوك لم يُكرموا فقط من كانوا يرحلون إليهم ، بل كانوا يكرمون
أيضاً أبناء أقاليمهم من فقهاء وشعراء وأدباء ولغويين وفلاسفة ، ولذلك كنت
تجد حول كل قصر طائفة من الشعراء والأدباء والعلماء . ولعل مما يدل على
مدى حرص هؤلاء الأمراء على العلماء والأدباء ما رواه براون عن السلطان محمود
الغزنوى من أنه علم أن فى بلاط ملك خوارزم طائفة من العلماء والفلاسفة مثل
ابن سينا والبيرونى وأبى سهل المسيحي وأبى الخير الحسن بن الخمار وأبى نصر بن العراق ،
فكتب إليه أن يبعثهم حتى يَشْرُفُوا بحضرته ويفيد هو من ثقافتهم ومهارتهم ،

E.C. Browne, A Literary History. (٣)

of Persia, 1928, vol. 11, p. 101

(١) اليتيمة ٢٦٧/٣ .

(٢) اليتيمة ١٩٥/٢ وما بعدها .

وقد لبي الدعوة البيروني والخمار والعراق ، ورفضها ابن سينا وأبو سهل المسيحي . وغير محمود الغزنوي من ملوك السامانيين الذين سبقوا دولته وملك البويهيين والزياريين والخورزميين كانوا يعنون هذه العناية بحشد العلماء والأدباء في بلاطهم وحول قصورهم ، وكان ذلك كله مبعث نهضة أدبية لا تغلو إذا قلنا إنها - من وجهة الكتابة والصناعة الديوانية - تعالو على كل نهضة سبقها في هذا الجانب ، وتتفوق على كل حركة تقدمتها ، إذ أترف الذوق الكتابي لهذا العصر بسبب ترف الملوك والأمراء الذين كانوا يقومون عليه ، وأصبحنا نجد أساس البلاغة أن تكون حلية وزينة ، فهي تستخدم استخداماً زخرفياً ، تستخدم كأداة من أدوات الترف والزينة ، وكل أمير يفخر بما حصل عليه من هذه الأدوات والطُرف الزخرفية . وبذلك يصل مذهب التصنيع إلى الغاية التي كان يترنؤ إليها منذ القرن الثاني ، وهي غاية كلها زخرف وتصنيع ، وسنقف قليلاً عند أهم كاتب أثر في هذا الجانب ، وهو ابن العميد كاتب البويهيين ، فهو يعتبر أستاذ المذهب الذي خطا به نحو هذه الغاية من التجميل والزينة ، وعلى مثاله كان يحتذى الكتاب في عصره وبعد عصره .

٤

ابن العميد : حياته وثقافته

هو أبو الفضل محمد بن الحسين ، وهو فارسي من مدينة قم^(١) ، وهي مدينة شيعية ، ولذلك لا نعجب إذا رأيناه شيعياً على مذهب الإمامية . وقد نشأ في بيت أدب وكتابة ، إذ كان أبوه كاتباً لما كان بن كاسي ، ولما قتله السامانيون في بعض مواقعهم معه أخذوا كاتبه أبا عبد الله الحسين بن محمد المعروف بكَلَّةَ والد صاحب الترجمة أسيراً معهم ، ثم أفرجوا عنه وأكرموا ، ورتبوه في الدار

(١) انظر فيها معجم البلدان لياقوت .

السلطانية ، وسرعان ما تقلد ديوان الرسائل للملك نوح بن نصر ولُقِّبَ الشيخ كالعادة فيمن يلي ذلك الديوان كما لقب بالعميد ، ويقول أبو إسحق الصابي في كتابه التاجي : إن رسائل العميد لا تقصر في البلاغة عن رسائل ابنه أبي الفضل ابن العميد^(١). ويظهر أن العميد لم يأخذ ابنه معه إلى بلاط السامانيين ، بل تركه في رحاب البويهيين . يقول صاحب اليتيمة : « ولم يزل أبو الفضل في حياة أبيه وبعد وفاته بالرى وكُورِ الجبل وفارس يتدرج إلى المعالي ويزداد على الأيام فضلاً وبراعة حتى بلغ ما بلغ واستقر في الذروة العليا من وزارة ركن الدولة ورياسة الجبل »^(٢) . وكان تقلده هذه الوزارة عام ٣٢٨ هـ وظل يتقلدها إلى وفاته عام ٣٦٠ هـ .

ولسنا نعرف شيئاً ذا قيمة عن أساتذة ابن العميد سوى ما عرفناه عن أبيه ، ثم ما ذكره صاحب الفهرست عن أستاذ له يسمى محمد بن علي بن سعيد المعروف باسم سمكة^(٣) ، وقد سماه صاحب اليتيمة ابن سمكة^(٤) ، ويقول صاحب الفهرست إن له كتاباً في أخبار العباسيين^(٥) . على كل حال ليس بين أيدينا ما يدل دلالة واضحة على المنابع الثقافية التي نهل منها ابن العميد ، غير أننا لا نتابعه في آثاره وفي حياته أثناء وزارته حتى نجده يلم بجميع ضروب الثقافة لعصره ، ولعله من أجل ذلك سمي باسم الجاحظ الثاني^(٦) ، وألمع مسكويه قِيَمَ دار كتبه في كتابه (تجارب الأمم) إلى ثقافته فقال : إنه « أكتبُ أهل عصره وأجمعهم لآلات الكتابة حفظاً للغة والغريب وتوسعاً في النحو والعروض ، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات ، وحفظاً للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام ، فأما القرآن وحفظُ مشكله ومتشابهه ، والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار ، فكان منه في أرفع درجة وأعلى رتبة » . ويقول

(١) اليتيمة طبع الصاوي ١٣٨/٣ . (٤) اليتيمة ١٤٣/٣ .

(٢) اليتيمة ١٣٩/٣ . (٥) الفهرست ص ٢٠٠ .

(٣) الفهرست لابن النديم (طبع مصر) (٦) وفيات الأعيان ٥٧/٢ .

مسكويه : « أما المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما جَسَر أحد في زمانه أن يدعيها بحضرته إلا أن يكون مستفيداً أو قاصداً قَصْدَ التعلم » . ويرى مسكويه أن أبا الحسن العامري الفيلسوف النيسابوري قصد إليه ، وقرأ عليه عدة كتب مستغلفة من كتب الفلسفة ، وليس هذا كل ما ذكره مسكويه عن ثقافة ابن العميد ، بل إنه يقول أيضاً : « كان ابن العميد يختصُّ بغرائب من العلوم الغامضة التي لا يدعيها أحد كعلوم الحيل (الميكانيكا) التي يُحتاج فيها إلى أواخر علوم الهندسة والطبيعة ، والحركات الغريبة ، وجر الثقيل ، ومعرفة مركز الأثقال ، وإخراج كثير مما امتنع على القدماء من القوة إلى الفعل » (١) . وأكبر الظن أن هذا الاتساع في الثقافة الفلسفية وما يتصل بها من علوم الطبيعة والهندسة والحيل هي التي جعلت الرَّازِيَّ يتقدم إليه بتفسيره للمقالة العاشرة في أصول الهندسة من كتاب إقليدس بعد أن نسقها وجودها (٢) وأكبر الشعراء في ابن العميد هذا الجانب كما أكبروا فيه بلاغته وفصاحته ، وقد عبّر عن ذلك المتنبي تعبيراً بديعاً في قصيدته الرائية والدالية ، ومن قوله في الأولى :

مَنْ مَبْلَغُ الْأَعْرَابِ أَنِي بَعْدَهُم	شَاهَدْتُ رَسَاطِلَيْسَ وَالْإِسْكَندَرَا
وَسَمِعْتُ بَطْلِيمُوسَ دَأَسَ كُتُبِهِ	مَتَمَلِّكاً ، مَتَبَدِّياً ، مَتَحَضِرَا
وَلَقِيتُ كُلَّ الْفَاضِلِينَ كَأَنَّمَا	رَدَّ إِلَهُهُ نَفْسَهُمْ وَالْأَعْصُرَا

ويقول في الثانية :

عَرَبِيٌّ لِسَانُهُ ، فَلسَفِيٌّ	رَأْيُهُ ، فَارِسِيَّةٌ أَعْيَادُهُ
خَلَقَ اللَّهُ أَفْصَحَ النَّاسِ طَرًّا	فِي بِلَادِ أَعْرَابِهِ أَكْرَادُهُ

وهذا كله يؤكد أن ابن العميد أتاح لنفسه ثقافة واسعة . وكما عمل على تثقيف نفسه عمل أيضاً كل ما يستطيع في خدمة ركن الدولة ثم ابنه عضد الدولة ، كان يقود الجيوش بنفسه ، واستطاع بمقدرته أن ينشر نفوذ عضد

(١) انظر في هذه النصوص فصلاً طويلاً كتبه

الجزء الثاني من ص ٢٧١ - ٢٨٢ .

(٢) الفهرست ص ٣٧٢ .

مسكويه عن ابن العميد في كتابه تجارب الأمم

الدولة على بغداد والعراق . وقد خرج في أواخر حياته على رأس جيش لقتال الزعيم الكردي حسنويه ، ولكنه توفى في الطريق في صفر عام ١٣٦٠هـ^(١) . وقد نيفَ عمره على ستين سنة^(٢) .

٥

تصنيع ابن العميد

وهذا الوزير المثقف ثقافة واسعة يُعَدُّ أستاذ عصره في فن التصنيع ، وقد أقرَّ له ببراعته وفصاحته وامتيازه في كتابته كل من تصدَّوا لترجمته ، يقول صاحب اليتيمة : « هو عين المشرق ولسان الجليل ، وعماد ملك آل بويه ، وصدر وزرائهم ، وأوحد العصر في الكتابة وجميع أدوات الرياسة وآلات الوزارة ، والضرب في الآداب بالسهم الفائزة ، والأخذ من العلوم بالأطراف القوية ، يُدْعَى الجاحظ الأخير ، والأستاذ والرئيس ، ويضرب به المثل في البلاغة ، وينتهي إليه في الإشارة بالفصاحة والبراعة ، مع حسن الترسل وجزالة الألفاظ وسلاستها ، إلى براعة المعاني ونفاستها ، وما أحسن وأصدق ما قال له الصاحب وقد سأله عن بغداد عند منصرفه عنها : بغداد في البلاد كالأستاذ في العباد ، وكان يقال : بُدِئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد »^(٣) . وفي هذه الفقرة ما يدل دلالة واضحة على مدى ما وصل إليه ابن العميد في عصره من مكانة أدبية ممتازة ، وهي مكانة لم يأخذها عن طريق مركزه السياسي ، وإنما أخذها عن طريق فنه الخالص إن كان ينحو نحواً بديعاً من التصنيع والزخرف في كتابه ، وقد مر بنا في غير هذا الموضع أن الكتاب اصطلاحوا منذ عصر المقتدر على أن يعمموا السجع في كل ما يكتبون ، واستمر ذلك من بعدهم ،

(١) انظر ترجمة ابن العميد في دائرة المعارف (٢) تاريخ ابن الأثير (طبع أوروبا) ٤٤٦/٨

الإسلامية المترجمة ، المجلد الأول ص ٢٤٤ . (٣) اليتيمة ١٣٧/٣ .

وكان ابن العميد يسجع في كتابته ولكن ليس هذا ما يلفتنا عنده، إنما الذى يلفتنا حقاً هو أن مذهب التصنيع تماثل على يديه فى الصورة التى كانت تنتظره منذ القرن الثانى ، ونقصد صورة السجع من جهة والاحتكام إلى البديع فيما ينشئ الكاتب من جهة أخرى ؛ ومن أجل ذلك إذا قلنا : إن ابن العميد هو أستاذ مذهب التصنيع بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة لم نبعد ؛ لأنه أول كاتب — فيما نعرف — احتكم إلى السجع فى كتابته ، كما احتكم إلى البديع من جناس وطباق وتصوير ، وقد هياه لذلك أنه كان ذا عين تصويرية ، بل لقد كان ذا شغف بفن التصوير نفسه . يقول مسكويه : « لقد رأيته يتناول فى مجلسه الذى يخلو فيه بثقاته وأهل أنسسته التفاحة وما يجرى مجراها ، فيعبث بها ساعة ثم يدرجها ، وعليها صورة وجه ، وقد خطها بظفره ، لو تعد لها غيره بالآلات الملعدة ، وفى الأيام الكثيرة ما استوفى دقائقها ، ولا تأتى له مثلها » . ولا شك فى أن هذه النزعة التصويرية فيه كان لها أثر مهم فى نثره ، إذ جعلته نثراً مصوراً يهتم صاحبه بصنع الصور والرسوم فى كتاباته ، كما جعلته يهتم بالألوان البديع الأخرى من طباق وجناس وغيرهما ، وكأنه كان يحس بأن هذه الألوان جميعاً من تصوير وغير تصوير تقوم من نثره مقام الألوان الحسية من لوحة الرسام . وانظر إليه يكتب إلى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة ، فيستهل رسالته على هذا النمط ^(١) :

« كتابى ، وأنا متأرجح بين طمع فىك ، ويأس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فلأنك تدل بسابق حرمة ، وتمت بسالف خدمة ، أيسرها يوجب حقاً ورعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحديث غُلُول ^(٢) وخيانة ، وتتبعهما بآنف ^(٣) خلاف ومعصية ، وأدنى ذلك يحبط أعمالك ، ويمحق كل ما يُرعى لك . لا جرم أنى وقفت بين ميل إليك وميل عليك أقدم رجلاً لصدك ، وأؤخر أخرى عن قصدك ، وأبسط يداً لاصطلامك ^(٤) واجتياحك ، وأننى

(٣) آنف : أشد .

(٤) الاصطلام : الاستئصال .

(١) اليتيمة ١٤٥/٣ .

(٢) غُلُول : خيانة .

ثانية لاستبقائك واصطلاحك، وأتوقف عن امتثال بعض الأمور فيك ، ضناً
 بالنعمة عندك ومنافسة في الصنعة لديك، وتأميلاً لفيتنتك^(١) وانصرافك ، ورجاء
 لمراجعتك وانعطافك ، فقد يغربُّ العقل ثم يؤوب ، ويعزب اللب ثم يثوب ،
 ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح ، ويضاع الرأي ثم يستدرك ،
 ويسكر المرء ثم يصحو ، ويكدر الماء ثم يصفو ، وكل ضيقة فإلى رخاء ،
 وكل غمرة فإلى انجلاء ، وكما أنك أتيت من إساءتك ، بما لم تحسبه أولياؤك
 فلا بدع أن تأتي من إحسانك بما لا ترتقبه أعداؤك ، وكما استمرت بك الغفلة
 حتى ركبت ما ركبت ، واخترت ما اخترت ، فلا عجب أن تنتبه انتباهة
 تبصر فيها قبح ما صنعت ، وسوء ما آثرت ، وسأقيم على رسمى في الإبقاء والمماثلة
 ما صلح ، وعلى الاستيناء^(٢) والمطاوله ما أمكن ، طمعاً في إنباتك وتحكيمياً
 لحسن الظن بك ، فلست أعدم فيما أظاھرہ من إعدار ، وأرادفه من إنذار ،
 احتجاجاً عليك ، واستدراجاً لك ، فإن يشأ الله يرشدك ، ويأخذ بك إلى حظك
 ويسدّك .

والرسالة كلها تمضي على هذا النحو من السجع والعناية بالبديع ، فكلها
 تحف من السجع وطرف من الجناس والطباق والتصوير ، فهي وشى خالص ،
 هي بديع وتطريز وترصيع ، إذ ما يزال ابن العميد يدمج وشى السجع في
 وشى البديع من التصوير والطباق والجناس ، فإذا أساليبه وكأنها ثروة زخرفية
 هائلة ، وهل هناك عبارة في هذه القطعة لم تُحلّ بلون من ألوان البديع ، وهو
 يضع هذه الألوان الرائعة على ألفاظه المسجعة فإذا هي تختال في هذه المقدره
 البديعة من الزخرف والتصنيع[✽] . وأكبر الظن أن ابن العميد قد تأثر في صناعته
 بصناعة السجاد في إقليمه[✽] فهو يعانى في كل لفظة ما يعاينه صانع السجاد
 في كل خيط ، ثم هو بعد ذلك يعنى بالوشى الذى تعبر عنه ألفاظه ، كما يعنى
 صانع السجاد بالوشى الذى تعبر عنه خيوطه . وعلى هذا النمط تحولت صناعة
 الكتابة عند ابن العميد إلى تطريز خالص ، وهو يحتال على هذا التطريز

(١) الفية : الرجوع .

(٢) الاستيناء : التأني .

بحيل كثيرة ، ولم لا ؟ ألم يتعلم فن الحيل ؟ وإذا فلماذا لا يشفع فنه بكل ما يمكنه من حيل ، وقد استطاع أن يصل عن هذه الحيل إلى بدع طريف في سجعه ، وذلك أنه كان يعمد إلى تقصير عباراته ، وهذا التقصير أو هذا القصر من أهم الفروق بين سجعه وسجع أصحاب الدواوين من قبله ، وقد نظرَ فرأى نفسه يضطر في أحوال كثيرة إلى عبارات طويلة ، فكيف يوفق بين رغبته في القصر وبين طول هذه العبارات ؟ لقد فكر طويلاً في هذه الصعوبة ، وسرعان ما هداه تفكيره إلى حيلة طريفة : هي أن يوازن بين كل لفظة وقرينتها في العبارتين المتجاورتين ، وبذلك يرفع ما قد يحسه القارئ أو السامع من بعد الزمن في موسيقى الجملتين ، وكأنني بآبن العميد كان يعرف معرفة دقيقة أنه كلما طال الزمن الذي تنتظره الأذن في سماع العبارات المسجوعة نقص التلاؤم الموسيقي . وهو لذلك يعمد كما ترى في أول القطعة إلى السجع القصير الذي لا يأخذ من قارئه زمناً طويلاً ، ولكن استمر في القراءة تَرَهُ يضطر إلى الطول في عباراته ، فإذا يصنع إزاء هذا الطول الذي يثقل على أذن سامعه ؟ لقد وصل إلى حيلة طريفة من الموازنة بين العبارتين المتجاورتين موازنة تجعل ألفاظهما وكأنها جميعاً قد نُغِّمَتْ وسجَّعَتْ على نحو ما نرى في مثل قوله : « فلأنك تُدَلِّي بسابق حرمة ، وتمت بسالف خدمة » ، وقوله : « وأبسط يبدأ لاصطلامك واجتياحك » ، وأثنى ثانية لاستبقاتك واستصلاحك » . وما من ريب في أنها حيلة لطيفة تلك التي احتال بها آبن العميد على مثل هذه العبارات فإذا هي تصبح وكأنها قصيرة لما تكامل فيها من حلاوة الموسيقى . وما تلك الحلاوة إلا ما يتخذ من المعادلة بين ألفاظ عباراته معادلات تجعل فيها هذا الائتلاف الموسيقي الطريف ، فكل كلمة تتعادل مع قرينة لها في الكلمة الأخرى وكأنما تطلبها لتعزف معها هذا العزف البديع الذي تمتاز به موسيقى آبن العميد . ولعل في هذا ما يشهد بأن آبن العميد كان يصنِّع في سجعه إلى أقصى حدود التصنيع التي يستطيعها وهو يحتال على ذلك بوشى البديع من جهة كما يحتال عليه بقصر الزمن في سجعه من جهة أخرى ، فإن طال زمن العبارتين المسجوعتين قصره بهذه الحيلة

من إحداه المعدادات والموازنات بين ألفاظ العبارتين حتى لا تخرج الأذن من ألفاظ العبارة الأولى إلا وتحس براحة صوتية لإزاء كل كلمة من كلمات العبارة الثانية لأنها تماثل قرينة لها في العبارة السابقة من الوجهة الصوتية تمام التماثل . وهذه هي صورة التصنيع في الكتابة الديوانية عند ابن العميد ؛ فهو يعتمد إلى زخرف البديع يوشى به لفظه ، وهو دائماً — كما تصوره يتيمة الثعالبى — يتخذ لفظاً مرصعاً بالسجع ، وإنه ليحتال في تحسين سجعه والإكثار من وشى بديعه حيلاً مختلفة ، أما سجعه فكان يحتال عليه بالقصر فإن كان طويلاً قصره بما مرّن عليه من المعادلة بين ألفاظه حتى لكأنها تتشابهك تشابهك توقيعات الراقصين ، وأما بديعه فإنه كان يكثّر منه ، وكان ما يزال يحتال على اللفظة حتى يحملها وشى الطباق من جهة وشى التصوير أو الجناس من جهة أخرى . ومن أجل هذه الحيل كلها وما اقترن بها من مهارة وتفنّن كان ابن العميد زعيم مذهب التصنيع في عصره غير مدافع ولا منازع ، ومع ذلك فسقف عند الصاحب بن عباد تلميذه وخريجه لئلا يرى هل استطاع أن يضيف من جديد إلى تصنيع أستاذه .

٦

الصاحب بن عباد وتصنيعه

هو كافى الكفأة إسماعيل بن عباد ، ولد في إصطخر وقيل في الطالقان بين قزوین وأبهر سنة ٣٢٤ أو ٣٢٦ هـ وكان أبوه كاتب ركن الدولة وعضد الدولة البويهيين وكان شيعياً غير غال ، وتوفى في السنة التي توفى فيها ابنه . وابن عباد هو الوزير الثانى الذى لمع اسمه في بلاط البويهيين ، وقد درس على أبيه وأخذ عنه مذهبه الدينى والسياسى ، وأخذ الأدب عن أحمد بن فارس اللغوى المعروف وأكمل دراسته ببغداد . ولما عاد إلى وطنه في الرىّ خدم في دواوين أبى الفضل ابن العميد ، ويظهر أنه أعجب به فقرّب منه ، وما

لبث أن اختاره ليكون مربياً لمؤيد الدولة أخى عضد الدولة ، وكانت إقامة مؤيد الدولة بأصبهان فأقام معه فيها ولقب بالصاحب لصحبته له صغيراً . ولما تقلد شئون الدولة بعد أخيه عضد الدولة اتخذ الصاحب وزيراً له واستمر على وزارته حتى توفي ، فوزر من بعده لأخيه فخر الدولة ، وظل في الوزارة حتى وافته منيته عام ٣٨٥ هـ . وقد قضى في الوزارة نحو ثمانية عشر عاماً^(١) ، ويقال إن أباه ألف كتاباً نصر فيه الاعتزال وكان محدثاً روى عنه ابنه وغيره^(٢) ، ويظهر أن ابن عباد ورث هذه الجوانب في أبيه ، فقد نشأ على الاعتزال^(٣) كما نشأ على التشيع ومحبة العلم ، ويقال : إنه خرج يوماً - وهو وزير - متطلساً متحنكاً بزى أهل العلم لرواية الحديث وإملائه على الناس . وكما كان يولع بالحديث كان يولع باللغة ، وقد ألف فيها كتاب المحيط في سبع مجلدات ، وله كتاب الإمامة يذكر فيه فضائل على بن أبي طالب ، وأيضاً رسالة صغيرة في الكشف عن مساوئ المتنبي^(٤) . وما من ريب في أنه لو لم يشغل بالوزارة والكتابة لكان عالماً ممتازاً من علماء عصره ، ولعله من أجل ذلك كان يشجع على التأليف ، كما كان يشجع على الشعر ، وكان يعجب بالكتابة الرفيعة ، وملاحه مكاتبة الشريف الرضى وأبو إسحق الصابى « واحتفَّ به من بحوم الأرض وأفرد العصر وأبناء الفضل وفرسان الشعر من يربى عددهم على شعراء الرشيد ولا يقصرون عنهم في الأخذ برقاب القوافي وملك رق المعاني »^(٥) . وحدَّث ابن بابك قال : « سمعت الصاحب يقول : مُدحت بمائة ألف قصيدة شعر ، عربية وفارسية ، وقد أنفقت أموالى على الشعراء والأدباء والزوار والقُصَّاد »^(٦) . وكان ينافسه في هذه الحركة - على ما يظهر - سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهى ، الذى فتح الثعالبي في يتيمته فصلاً مُدَّأحه من الشعراء ، وقد أنشأ داراً للعلم

(١) معجم الأدباء (طبع مصر) ١٧١/٦ . (٤) وفيات الأعيان لابن خلكان ٧٥/١ .

(٢) نفس المصدر ١٧٢/٦ . (٥) اليتيمة ١٦٩/٣ .

(٣) اليتيمة ١٧٩/٣ ومعجم الأدباء ١٧٤/٦ . (٦) معجم الأدباء ٢٦٣/٦ .

في الكرخ ببغداد، كل ذلك منافسة لإسماعيل بن عباد^(١). ويقول ابن خلكان عن تلقيه بلقب الصباح، وهو «أول من لُقِّبَ بذلك اللقب من الوزراء لأنه كان يصحب أبا الفضل بن العميد، وذكر الصابي في كتاب التاجي أنه إنما قيل له الصباح لأنه صحب مؤيد الدولة ابن بويه منذ الصبا وسماه الصباح، فاستمر عليه هذا اللقب واشتهر به»^(٢).

وقد كان الصباح معجباً بفنه تهاهاً به واستغل فيه هذا الجانب خصمه أبو حيان التوحيدي فثلبه أقيح ثلب^(٣)، ومن ثلّبه له ما يقصّه من أن رجلاً من أهل الشام «ورد إليه، فكان فيما استخبره عنه: رسائل من تُقرأ عندكم؟ فقال: رسائل ابن عبد كان، قال: ومن؟ قال: رسائل الصابي. وغمزه أحد جلسائه ليقول رسائل الصباح فلم يفطن الرجل، ورآه الصباح، فقال: تغمز حماراً لا يحس»^(٤). ويقول التوحيدي أيضاً: إنه كان في مجلسه شخص يسمى أبا طالب العلوي «وكان إذا سمع منه كلاماً يسجع فيه، وخبراً ينمقه؛ ويرويه، يبلق عينيه، وينشر منخريه، ويُرى أنه غشي عليه حتى يرش على وجهه ماء الورد، فإذا أفاق قيل ما أصابك، ما عراك، ما الذي نالك وتغشاك؟ فيقول: ما زال كلام مولاي يروقني ويونقني حتى فارقتي لُبِّي وزايلني عقلي وتراخت مفاصلي وتخاذلت عُرى قلبي وذَهَل ذهني وحِيل بيني وبين رشدي، فيتهلل وجه ابن عباد عند ذلك وينتفش»^(٥). ويظهر أنه كان يسجع في حديثه وكلامه، ويقص الرواة طُرُفاً له في ذلك كثيرة^(٦). يقول أبو حيان: «وكان كلفه بالسجع في الكلام والقول، عند الجدل والهزل، يزيد على كلف كل من رأيناه في هذه البلاد، قلت لابن المسيبي: أين يبلغ ابن عباد في عشقه للسجع؟ قال: يبلغ به ذلك لو أنه رأى سبعة تنحل بموقعها عروة

(١) Nicholson, lit. Hist. of Arabs, p. 267. (٤) معجم الأدباء ٢٥٨/٦.

(٢) وفيات الأعيان ٧٥/١. (٥) معجم الأدباء ٢٣٧/٦.

(٣) معجم الأدباء ١٧٦/٦. (٦) نفس المصدر ٢١٣/٦.

الملك ويضطرب بها جبل الدولة، ويحتاج من أجلها إلى غُرمٍ ثَقِيلٍ وكلفة صعبة وتجشم أمورٍ وركوب أهوالٍ لما كان يخف عليه أن يفرج عنها ويخليها، بل يأتي بها ويستعملها، ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها»^(١). وكانوا يزعمون أن سبعة اضطرتته إلى عزل قاضي مدينة قُم: فإنه قال يوماً: أيها القاضي بقم ثم حاول أن يكمل السجع فأعنته ذلك فقال: قد عزلناك، فقم. ويبدو أن إغرامه بالسجع على هذا النحو كان قديماً فيه، فقد روى الرواة عن ابن العميد أنه قال: «خرج ابن عباد من عندنا من الرى متوجهاً إلى أصفهان وطريقه رامين. . فجاوزها إلى قرية غامرة وماء ملح لا لشيء إلا ليكتب إلينا: كتابي هذا من النوبهار، يوم السبت في نصف النهار»^(٢).

ولعل أول ما يلاحظ في سجع صاحب أنه يمتاز بالخفة والعدوبة فهو في لفظه أكثر صفاء وأكثر تنغياً من معاصريه من كتّاب الدواوين، واستمع إلى هذه الرسالة القصيرة التي كتب بها إلى أحد القضاة وقد وفد عليه في الرى^(٣):

«تحدثت الركابُ بِسَيْرٍ (أروى) إلى بلدٍ حططتُ به خيامي
فكدت أطيّر من شوقٍ إليها بقادمةٍ كقادمة الحمام

أفحقُّ ما قيل من أمر القادِم؟ أم ظنُّ كأمانِي الحالم؟ لا والله! بل هودرك العيان، وإنه ونيل المنى سيان، فرحباً أيها القاضي براحتك ورحلتك، بل أهلاً بك وبكافة أهلك، وبأسرعة ما فاح نسيم مسراك، ووجدنا ريح يوسف من ريتك، فحُتَّ المطى تزل غلَّتِي برؤياك، وتزح عِلَّتِي بلقبياك، ونُصِّ على يوم الوصول نجعله عيداً مشرفاً، ونتخذُه موسماً ومعرفاً، ورُدَّ الغلام، أسرع من رجع الكلام، فقد أمرته أن يطير على جناح نسر، وأن يترك الصبّا في عقال وأسر:

سقى الله داراتٍ مررتَ بأرضها فأدُنْتُكَ نحوى يا زيادُ بنَ عامر
أصائلُ قُربٍ أرتجى أن أناها بلُقبياك قد زحزحن حَرَّ الهواجر

(٣) اليتيمة ٢٢٨/٣.

(١) معجم الأدباء ٢٠٧/٦.

(٢) معجم الأدباء ٢٢٠/٦.

أرأيت إلى هذه الرسالة القصيرة وما فيها من عذوبة اللفظ وجمال النغم ؟ إن صاحب حقاً أستاذ ماهر من أساتذة فن التصنيع في القرن الرابع ، وإنه ليتخذ في هذا الفن جميع المفاتيح الموسيقية التي عثر عليها ابن العميد ، فهو من جهة يعنى بقصر سجعاته ، فإن طالت عادل بين ألفاظها معادلات تخرج بها من شذوذ الطول إلى ما يشبه القصر ، ثم هو من جهة أخرى يعنى بالوان البديع يخلّط بها جيد أساليبه ، وقد كان يعنى عناية خاصة بلونى التصوير والجناس ، ولعل ميله إلى الجناس هو الذى جعله يكثر في رُفَع رسائله من الجناس الناقص . أما ميله إلى التصوير ، فقد جعله يبرع في أوصاف الطبيعة حتى لتتحول جوانب من رسائله إلى ما يشبه الشعر المنظوم كقوله في رسالة له : « كتابي هذا وقد أرخى الليل سُدوله ، وسحب الظلام ذيوله »^(١) . وقوله في أخرى يصف مجلس أنس : « قد قابلتني شقائق كالزنوج تجارحت فسالت دماؤها ، وضعفت فبقى ذماؤها ، وسامتتني أشجار كأن الحور أعارتها أثوابها ، وكستها أبرادها ، وحضرتني نارنجات ككرات من سفن ذُهِبَت ، أو تُدَيّ أبكار خُلِّقَت »^(٢) . وهذا جانب واضح في تصنيعه ، وقد استطاع به أن يطرف قراءه وسامعيه بضرب من الشعر المنشور الذى تمتلئ سجعاته بالرشاقة والخفة . وقد كان بهذا التصنيع وما يندمج فيه من وشى السجع والترصيع يأخذ مكانته في عصره ، وهى مكانة جعلت أصحاب الإمارات الفارسية يحسدون أصحاب الرىّ والجل من البويهيين عليه ، ويتمنون أن لو صار إليهم . روى الثعالبي أن نوح ابن منصور صاحب خراسان الساماني أرسل إليه رقعة يريد فيها على الانحياز إلى حضرته ، ليُلقي إليه مقاليد مملكته ، ويعتمد لوزارته ، فاعتذر له بأنه لا يستطيع الانتقال إليه لكثرة حاشيته وأثقاله ، وما لديه من كتب تحتاج في نقلها إلى أربعمئة بعير^(٣) . وقد قالوا إنه لما توفى لقي من الإعظام والإكبار

(١) اليتيمة ٢٢٧/٣ . (٢) اليتيمة ١٧٣/٣ وانظر معجم الأدباء .

(٢) اليتيمة ٢٢٣/٣ . وخلقت : من الخلق ٢٥٩/٦ .

وهو ضرب من الطيب .

ما لم يلقه أحد من وزراء عصره ، فقد سار فخر الدولة في جنازته ، وقام الناس بأجمعهم فقبلوا الأرض بين يديه وخرقوا ثيابهم ولطموا وجوههم ، وبلغوا في البكاء والتحيب عليه جهدهم^(١) ، وقد رثاه الشعراء - على نحو ما يروى العتيبي - رثاء حاراً^(٢) . والحق أن صاحب بن عباد كان أحد أساتذة البلاغة في عصره ، وبلغ بمذهب التصنيع مبلغاً عظيماً من الزخرف والتنميق وما يتصل بذلك من الزركشة والتطريز .

٧

تصنيع أبي إسحاق الصابني

هو إبراهيم بن هلال الحراني الصابني الذي اشتهر بالبيان والبلاغة لهذا العصر . ولد سنة ٣١٣ هـ . ولاه الوزير المهلب ديوان الرسائل ببغداد عام ٣٤٩ هـ^(٣) ، فخدم بذلك الخلفاء كما خدم الأمراء من بني بويه الذين استولوا على بغداد منذ عام ٣٣٤ هـ ، ويُسَمَّى أن مولاه عز الدولة البويهى عرض عليه الوزارة إن أسلم فامتنع^(٤) . ويقول الرواة : إنه كان حسن العشرة للمسلمين حتى قالوا إنه كان يصوم شهر رمضان مساعدة وموافقة لهم ، وقالوا إنه كان يحفظ القرآن حفظاً يدور على لسانه ، وبرهان ذلك واضح في رسائله^(٥) . وقد استمر على ديوان الرسائل حتى عام ٣٦٧ هـ إذ « ورد عضد الدولة إلى بغداد وكان نقم عليه أشياء من مكثوباته عن الخليفة وعز الدولة فحبسه ، فسُئِلَ فيه ، وعُرفَ بفضله ، وقيل له : مثل مولانا لا ينقم على مثله ما كان منه ، فإنه كان في خدمة قوم لا يمكنه إلا المبالغة في نصحتهم ، ولو أمره مولانا بمثل ذلك - إذا استخدمه - في أبيه ما أمكنه المخالفة ، فقال عضد

(١) معجم الأدباء ٢٥٩/٦ . (٤) اليتيمة ٢١٩/٢ ومعجم الأدباء ٢١/٢ .

(٢) انظر الميكنى للعتبي مع شرح المنذبي ٢٠٢/١ . (٥) اليتيمة ٢١٩/٢ .

(٣) معجم الأدباء ٦٢/٢ .

الدولة : قد سوَّغته نفسه ، فإن عمل كتاباً في مآثرنا وتاريخنا أطلقته ، فشرع في محبسه في كتاب « التاجي في أخبار بني بويه » . وقيل إن بعض أصدقائه دخل عليه الحبس وهو في تبييض وتسويد في هذا الكتاب فسأله عما يعمل ، فقال : أباطيلُ أُنمقها ، وأكاذيبُ أُلَفِّقها ، فخرج الرجل وأنهى ذلك إلى عضد الدولة ، فأمر بإلقائه تحت أرجل الفيلة ، فأكبَّ أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ونصر بن هارون على الأرض يقبلانها ويشفعان إليه في أمره ، حتى أمر باستحيائه ، وأخذ أمواله واستصفائه ، وتخليد السجن بدمائه ، فبقى في السجن بضع سنين إلى أن تخلص منه ^(١) عام ٣٧١ هـ ^(٢) ، وتوفي عضد الدولة سنة ٣٧٢ فعاد إلى العمل في الدواوين حتى توفي عام ٣٨٤ .

وقد اتصل الصابي في مطلع حياته بالثقافة الفلسفية ، فهم يرون أنه بدأ أمره بدراسة الطب ثم انصرف عنه إلى الأدب والكتابة ^(٣) ، ويقول القفطي : إنه كان عالماً بالهندسة والهيئة والرياضيات ^(٤) ، وهو إلى ذلك كان مثقفاً ثقافة واسعة باللغة والشعر قديمه وحديثه . واستطاع أن يحقق لنفسه قدرة بيانية جعلته يرتفع على أقرانه من المسلمين إلى رئاسة ديوان الرسائل ، ولعل مما يدل على قدرته في هذا الجانب أننا نرى كبار الأدباء في عصره يعظمونه ويجلّونه . يقول ياقوت : « كان بينه وبين الصاحب أبي القاسم إسماعيل بن عباد مراسلات ومواصلات ومتاحفات ، وكذلك بينه وبين الرضى أبي الحسن محمد بن الحسين الموسوي مودة ومكاتبات ، مع اختلاف الملل ، وتباين الشُحُل ، وإنما كان ينظمهم سلك الأدب مع تبدد الدين والنسب » ^(٥) . ويقول صاحب اليتيمة : إن شعراء العراق مدحوه في جملة الرؤساء ^(٦) . وهم يروون عن الصاحب أنه كان يقول : « ما بقى من أوطارى وأغراضى إلا أن أملك العراق وأنصدر ببغداد وأستكتب أبا إسحق الصابي ، ويكتب غنى ، وأغير عليه » ^(٧) . وكل ذلك

(٥) معجم الأدباء ٢٣/٢ .

(٦) اليتيمة ٢١٨/٢ .

(٧) معجم الأدباء ٣٠٦/٦ .

(١) معجم الأدباء ٢١/٢ .

(٢) نفس المصدر ٣٥/٢ .

(٣) نفس المصدر ٥٥/٢ .

(٤) أخبار الحكماء ص ٥٤ .

لما كان من براعته ومهارته في البيان والبلاغة ، وقد كان يعرف ذلك من نفسه وفنه ، فعبّر عنه أجمل تعبير إذ يقول^(١) :

وقد علم السلطان أنى أمينه وكتبه الكافي السديدُ الموفقُ
فيمناىَ مِنَاهُ ولفظىَ لفظهُ وعينىَ له عينُ بها الدهرُ يروقُ
ولى فقرُ تَصَحَّى الملوك فقيرةً إليها لدى أحداها حين تطرُقُ

والحق أن الصابي كان عالماً من أعلام البلاغة في عصره ، ومن يرجع إلى رسائله يجدّه يعنى عناية شديدة بانتخاب ألفاظه وصقل عباراته وتنقيح سجعاته ، وكان ما يزال في تسويد وتبيض وتنميق حتى تخرج الرسالة مرصعة بكل ما يمكن من حلّ ووشى . ولم يكن يأتي بحلى ووشى جديدين ، بل كان يخضع في ذلك لما اصطلاح عليه أصحاب مذهب التصنيع من السجع والتصوير والتجنيس والألوان البديع وإن كان لم يغرق في استخدام هذه الألوان إغراق الصاحب ، ولا إغراق ابن العميد ، إذ كان همه الأول التسجيع والعناية به حتى يحصل من ذلك على طرف بديعة ، وانظر إليه يقول من رسالة كتبها عن معز الدولة بعد ظفره ببعض أعدائه^(٢) .

« وكان الغامطَ لإنعامنا ، الجاحد لإحساننا ، المتردّي من ذروة طاعتنا ، الهاوى في هوة معصيتنا ، الخالع رِبْقَةَ ذمتنا ، النازع جُنَّةَ^(٣) مشايعتنا ... ونحن نحمل أمره على ظاهره ، ونظن غائبه مثل حاضره ، وباطنه مثل عالنه ، حتى جذبنا بضْبَعِهِ^(٤) من المسقط المنحطّ ؛ إلى المرفع المشتط ، وانتهينا في الإنافة^(٥) بقدره ؛ والإشارة بذكره ، والتفخيم لأمره ، والتقديم لقومه ، إلى الغاية التي لا تسمح بها نفسُ باذل ، ولا تسمو إليها همه آمل ، فلما عز بعد الذلة ، وكثر بعد القلة ، وبعُدَ صيته بعد الحمول ، وطلع سعده بعد الأفول ، وجمت

(١) رسائل الصابي (طبع بعبدالبقيان) ٨/١ .

(٤) جذب بضبعه : نمشه ونزّه به .

(٢) رسائل الصابي ٣٣/١ .

(٥) الإنافة : الارتفاع .

(٣) الجنة : ما استترت به ، والريقة : العروة .

عنده الأموال ، ووطئت عقبة الرجال^(١) ، وتضرمت بحسده جوانح الأكفء ، وتقطعت بمنافسته أنفاس النظراء ، نزت به بطنته^(٢) ، وأدركته شِقْوَتُهُ ، ونزغ له شيطانه ، وامتدت في الغيّ أسطانه^(٣) ، فنصب أشراكه وحبائله ، وأعمل مكايده ومخاتله .

وأول ما نلاحظ على هذه القطعة أن الصابي يعنى بتقصير سجعه ، فإن هو أطاله نغم العبارتين تنغياً يجعلك تظن أنهما قصيرتان ، فالألفاظ تتعادل وتوازن على نحو ما مر بنا عند أستاذ المذهب ابن العميد ، وملاحظة ثانية هي أنه يعنى بالتصوير كما يعنى قليلاً بالجناس . وهذه هي صورة كتابة الصابي ، فهو يشغف بحلية السجع ، وهو يوفر لها ضرراً مختلفاً من النغم ، وإن هذا التوفير ليتأدى به فإذا هو يعنى بالمقابلة الدقيقة بين أول العبارتين حتى تتشابه السجعتان في أطرافهما : في أولهما وآخرهما ، وهو لا يعمم ذلك في رسائله ولكنه ينجح إليه كثيراً على نحو ما نرى في نفس هذه القطعة ، وكل ذلك ليستم ما يريد من صوت وموسيقى ، واستمع إليه يكتب إلى عضد الدولة يهنئه بسنة جديدة على هذه الشاكلة^(٤) :

« أسأل الله تعالى مبتهلاً لديه ، ماداً يديّ إليه ، أن يحيل على مولانا هذه السنة وما يتلوها من أخواتها بالصالحات الباقيات ، وبالزائدات الغامرات ، ليكون كل دهر يستقبله ، وأمد يستأنفه ، موفياً على المتقدم له ، قاصراً عن المتأخر عنه ، ويوفيه من العمر أطوله وأبعده ؛ ومن العيش أعذبه وأرغده ، عزيزاً منصوراً ، محمياً موفوراً ، باسطاً يده فلا يقبضها إلا على نواصي أعداء وحساد ، سامياً طرفه فلا يغضه إلا على لذة غمض ورقاد ، مستريحة ركابه فلا يُعملها إلا لاستضافة عز ومُلك ، فائزة قِداحه فلا يُجِيلها إلا لحيازة مال ومِلك ، حتى ينال أقصى ما تتوجه إليه أمنيته جامعاً ، وتسمو إليه همته طامحاً » .

(١) ووطئت عقبة الرجال : كثرت أتباعه .

(٣) أسطانه : حباله .

(٤) اليتيمة ٢٢٢/٢ .

(٢) البطنة : الامتلاء من الطعام .

وأنت تراه يعنى عناية شديدة بهذا الجانب الموسيقى من تصنيعه ، فما يزال يقابل ويعادل ويدقق فى مقابلاته ومعادلاته حتى تخرج عباراته متساوية فى أصواتها تمام المساواة ، وكأنه لا يؤلف نثراً ، وإنما يؤلف شعراً . والواقع أن ابن العميد وتلاميذه من أمثال الصابى وابن عباد رفعوا الحواجز التى كانت تفصل بين أسلوب الشعر وأسلوب النثر ، أو قل على الأقل لإنهم رفعوا كثيراً من هذه الحواجز ، فقد أحالوا نثرهم إلى موسيقى خالصة ، فكله ألحان وأنغام ، وما الفارق الذى يفرق بين مثل هذا السجع والشعر ؟ إنه يعتمد مثله على الموسيقى كما يعتمد مثله على البديع ، وما يزال الكاتب به حتى يخرج زخرفاً خالصاً ، فكله حلى وتنميق وتصنيع ، وهو من أجل ذلك لا يشبه النثر الذى كنا نألفه قبل ذلك عند كتاب الدواوين فى القرنين الثانى والثالث ، وإنه يشبه الشعر ، ففيه جميع شياته من موسيقى وبديع ، ولكنه مع ذلك نثر لأنه لا يجرى فى موسيقاه على أوزان الخليل ، ومن ثم كنا لا نستطيع أن نسميه شعراً ، ونحن أيضاً لا نستطيع أن نسميه نثراً خالصاً ، هو فى الواقع شئ بين الشعر والنثر ، ولذلك كان النقاد يسمونه شعراً منشوراً ، وتفنن ابن العميد وتلاميذه بصور مختلفة فى إنتاج هذا الضرب من الشعر المنشور ، وذهبوا يحققون له كل ما يمكن من زخرف وتصنيع . ومهما يكن فإن الصابى كان علماً من أعلام البيان فى عصره ، وقد أقر له معاصروه ومن جاءوا بعدهم بذلك ، يقول الثعالبي : « إنه أرحدُ العراق فى البلاغة ومن به تُشَنَّى الخناصر فى الكتابة ، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية فى البراعة والصناعة »^(١) . ويقول ياقوت : « إنه « أوحده الدنيا فى إنشاء الرسائل »^(٢) . ويقول ابن الأثير : « كيف أضع من الصابى وعلم الكتابة قد رفعه ، وهو إمام هذا الفن والواحد فيه »^(٣) . ولما توفى رثاه الشريف الرضى بقصيدة طنانة مطلعها^(٤) :

أرأيت من حَمَلوا على الأعوادِ أرأيت كيف خَبَا ضياءُ النادى

(٣) المثل السائر لابن الأثير ص ١٤٨ .

(٤) اليتيمة ٢٨١/٢ .

(١) اليتيمة ٢١٨/٢ .

(٢) معجم الأدباء ٢٠/٢ .

وما من ريب في أن هذا كله يدل على ما كان للصباي من منزلة رفيعة بين معاصريه ومن جاءوا على إثرهم إذ كان أستاذاً ماهراً في فن التصنيع لعصره ، وكان وما يزال يتفنن في رسائله حتى يخرجها في صورة بديعة من الزخرف والتنميق .

٨

التصنيع عام بين كتاب الدواوين

إذا تركنا الصباي والصاحب إلى من عاصروهما من كتّاب الدواوين وجدناهم جميعاً يذهبون هذا المذهب من التصنيع للسجع والبديع ، ومن ينظر في كتاب اليتيمة للثعالبي وما عرّض فيه من كتّاب الدواوين يعرف أنهم كانوا جميعاً يلتزمون هذا المذهب في صناعة نثرهم ، إذ كان بدءاً عاماً بينهم ، وكان كل منهم يحاول أن يكون له شأن أى شأن في هذا البدع الجديد ، ويتضح من اليتيمة أن أشهر الكتّاب الذين عاشوا في هذا العصر وكانوا امتداداً لهذا المذهب هم : عبد العزيز بن يوسف ، وأبو العباس الضبي ، وعلى بن محمد الإسكافي ، وأبو الفتح البُستيّ ، إذ كانوا جميعاً يعنون برسائلهم عناية شديدة .

أما عبد العزيز بن يوسف فقد تقلد ديوان الرسائل لعهد الدولة ، وتقلد الوزارة للبويهيين عدة مرات ، وفيه يقول صاحب اليتيمة : « أحد صدور المشرق ، وفرسان المنطق ، وأفراد الكرم الكبار ، والآثار والأخبار ، وأعيان الممدوحين المقدمين في الآداب والكتابة والبراعة والكفاية ، وجميع أدوات الرياسة »^(١) . ساق الثعالبي جملة من نثره وهي جميعها موشحة بألوان التصنيع وأصباغه كقوله يصف رسالة كتبها إليه أبو إسحاق الصباي : « علمتُ كيف تنتظم فرق البلاغة ، وتتلاقى طرق الخطابة ، وتترأى أشخاص البيان ، وتمايل أعطاف الحسن والإحسان ، وقرأتُ لفظاً جليلاً ، حوى معنى خفياً ، وفصولاً

(١) اليتيمة ٢٨٧/٢ .

متباينة ، كساها الائتلاف صور المشاكلة ، ومنحها الامتزاج صيغة المضارعة ، ولحمة الموافقة ، فصارت لدلالة الأول منها على الثاني وتعلق العَجْزُ بالهادى فيها أولاد أرحام مبرورة ، وذوات قُرْبَى موصولة ، تتعاطف عيونها ، وتتناصف أبكارها وعُونُها»^(١).

وأما أبو العباس الضَّبِّيُّ فهو خليفة الصباح بن عباد وتلميذه ، وفيه يقول الثعالبي : « هو جذوة من نار الصباح أبي القاسم ، ونهر من بحر ، وخليفته النائب منابه في حياته ، القائم مقامه بعد وفاته ، وكان الصباح استصحبه منذ الصبا ، واجتمع فيه الرؤى والهوى ، فاصطنعه لنفسه ، وأدبه بآدابه ، وقدمه بفضل الاختصاص على سائر صنائعه ونعمائه ، وخرج منه صدرًا يملأ الصدور كمالاً ، ويجرى في طريقه ترسماً وترسلاً ، وفي ذُرَى المعالي تَوَقُّلاً»^(٢) . . . وقد كانت بلاغة العصر بعد الصباح والصباي بقيت متماسكة بأبي العباس ، فأشرفت على التهافت بموته ، وكادت تشيب بعده لِمَمُ الأَقلام ، وتجفَّ غُدُرُ محاسن الكلام»^(٣) . وقد روى الثعالبي له غُرُراً من رسائله كقولهِ في صدر أحد كتبه : « قد أتاني كتاب شيخ الدولتين فكان في الحسن روضة حَزَن ، بل جنة عَدَن في شرح النفس ، وبسط الأنس ، بل بَرَدَ الأكباد والقلوب ، وقميصَ يوسف في أجفان يعقوب»^(٤) .

وأما على بن محمد الإسكافي فكان كاتب الدولة السامانية ووزيرها ، وفيه يقول الثعالبي : « هو لسان خراسان وغُرَّتْها ، وعينها وواحدُها ، وأوحدُها في الكتابة والبلاغة ، ومن لم تُخرج مثله في البراعة والصناعة ، وكان تأدَّب بنيسابور عند مؤدب بها ، يعرف بالحسن بن المهرجان ، من أعرف المؤدبين بأسرار التأديب والتدريس ، وأعلمهم وأدراهم بطرق التدريج في التخريج ، ثم حرَّرَ مُدبِّدة في بعض الدواوين ، فخرج منقطع القرين»^(٥) . ثم يقول

(١) اليتيمة ٢٩٥/٢ . وعُونُها : جمع عوان

(٢) اليتيمة ٢٦١/٣

وهي التيب .

(٤) اليتيمة ٢٦٢/٣

(٥) اليتيمة ٩٠/٤

(٢) التوقل : الصعود في الجبل .

الثعالبي : « إنه كان أكتب الناس في السلطانيات ، فإذا تعاطى الإخوانيات كان قاصر السعى ، قصير الباع » ^(١) . وقد لاحظ ابن الأثير نفس هذه الملاحظة على الصابي ^(٢) . ويروى الثعالبي طائفة من نثر الإسكافي ، وهي كلها تنهج نهج التصنيع ، وما يُطَوَّى فيه من سجع وبديع ، ويختم الحديث عنه بقوله : « إنه لما انتقل إلى جوار ربه غدت لفراقه الكتابة شعناء ، والبلاغة غبراء ، وأكبر فضلاء الحضرة رزيته ، وأكثروا مريثته ، وفيه يقول بعض الشعراء :

ألم تر ديوان الرسائل عطلتْ لفقدانه أقلامه ودفاتره
كثف مضمي حاميهِ ليس يسره سواء وكالكسر الذي عَزَّ جابره
ليَبِّكَ عليه خطه وبيانه فذامات وأشبه وذامات ساحره ^(٣)

وأما أبو الفتح البُستِي فكان - في أول أمره - كاتباً لبאי توز أمير مدينة بُسْت ، وهي من مدن أفغانستان ، فلما استولى عليها الأمير سبكتكين ألحقه بخدمته « وصار من بعد ينظم بأقلامه منشور الآثار عن حسامه ، وينسج بعباراته وشائع فتوحه ومقاماته ، وهلم جرّاً ، إلى زمان السلطان يمين الدولة وأمين الملة (محمود بن سبكتكين) فقد كتب له عدة فتوح إلى أن زحزحه القضاء عن خدمته ، ونبذه إلى ديار الترك من غير قصده وإرادته » ^(٤) . واشتهر البستي بكثرة الجناس في كلامه ، يقول العتي : « هو صاحب التجنيس » ^(٥) ، ويقول الثعالبي : « هو صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس الأسيس ، البديع التأسيس ، وكان يسميه المتشابه ، ويأتي فيه بكل طريقه لطيفة » ^(٦) . ولم يَرَوْ الثعالبي شيئاً من رسائله ، وإنما اكتفى ببعض ما في كتبه من أمثال وحكمة كقوله : « عادات السادات ، سادات العادات . من سعادة جدك ،

المني ٧١/١ .

(٥) نفس المصدر ٦٧/١ .

(٦) اليتيمة ٢٨٤/٤ .

(١) اليتيمة ٩٢/٤ .

(٢) المثل السائر ص ١٤٨ .

(٣) اليتيمة ٩٤/٤ .

(٤) انظر تاريخ ايميني للعتي مع شرح

وقوفك عند حدك . الدعة رائد الضعة . إذا بقي ما قاتك ، فلا تأس على ما فاتك . الخلاف غلاف الشر ، عسى تحظى في غدك برغدك » . وهي كلها أمثال مسجعة نمت بوشى التجنيس ، وكأنما كان يعتمد البسى إلى هذا البوشى عمداً كي يتفوق على معاصريه في استخراج كل ما يمكن من بدائعه وطرائفه . وأكبر الظن أننا لا نغلو بعد ذلك إذا قلنا إن الكتابة الدبوانية قد تحولت على أيدي هؤلاء الكتاب وأضرابهم إلى تحف فنية خالصة .

الفصل الثانى

التصنيع والتصنع

١

اشتداد موجة التصنيع

رأينا - فى الفصل السابق - كتاب الدواوين فى القرن الرابع للهجرة ، وكل منهم يحاول أن يبلغ من تصنيعه وتجميله لأساليبه ما لم يبلغه كاتب آخر من كتاب الحكام والأمراء المجاورين له ، إذ كان هؤلاء الأمراء والحكام يعتدون بالكتابة المصنّعة التى شاعت فى تلك العصور ، وكان كل منهم يحاول أن يكون فى بلاطه ودواوينه أهم كاتب فى عصره حتى تشتهر دولته بتلك الطرف الزخرفية التى يخرجها هذا الكاتب . وما من ريب فى أن هذه الحال دفعت الكتاب إلى أن يصلوا بنثرهم وتنميقة إلى مرتبة تكاد ترفع الحواجز بينه وبين الشعر ، فهو نثر منظوم أو هو شعر منشور ، وماذا يفصل بينه وبين الشعر ؟ إنه يعتمد على الموسيقى : موسيقى السجع ، كما يعتمد على زخرف البديع ، ولأنهم ليلالغون فى ذلك حتى تتحول رسائلهم إلى ما يشبه الوشى الخالص ، فهى خلى وتنميق ، وبديع وترصيع .

وإن الإنسان ليخيل إليه كأنما تحولت صناعة النثر فى تلك العصور عن طبيعتها الأولى تحولا تاماً ، إذ أصبحت أشبه ما تكون بصناعة أدوات الرف والزينة فهى تحف تنمق فى أروع صورة للتنميق ، وكل كاتب يتوفر على إحداث هذه التحف توفراً يتيح له أن يشارك فى آياتها وبدائعها ، وإنه ليُعنّت نفسه فى سبيل ذلك إعنائاً بعيداً . ونحن - فى الواقع - لانكاد نتصور الآن ما كان يحدث فى تلك العصور فى أثناء صناعة هذه التحف والطرف لبعده العهد

بيننا وبينها ، ولأننا أصبحنا عجلين في إحداث النماذج الفنية وما تحتوى عليه من زخارف دقيقة، بل لقد أصبحنا نفر من التصنيع وما يُطَوَّى فيه من سجع وبديع . ومن يقرأ في آثار القرن الرابع يحس أن هذا المذهب من التصنيع لم يقف عند كتاب الدواوين ، بل لقد أخذ ينتشر بين غيرهم من كتاب الرسائل الشخصية ، وعلى رأسهم أبو بكر الخوارزمي وبديع الزمان الحمداني ، فقد تركا مجموعتين كبيرتين من الرسائل ، ذهبا فيهما هذا المذهب من السجع والبديع أو من التصنيع والترصيع ، ولم يكن الخوارزمي وبديع الزمان هما اللذين يذهبان هذا المذهب فقط ، بل كان يذهب جميع الكتاب من حولهما . يقول الخوارزمي في كتاب إلى أبي محمد العلوي : « قرأت الفصل المسجّع فشغلني الاقتباس منه ، عن الجواب عنه . » وهو يتقدم ذلك بوصف هذا الفصل فيقول : « ورد كتاب السيد . . فرزع الطرف منه بروضة ممطورة ، وحلّة منثورة ، ولآلى فرائد منثورة »^(١) ، وهكذا كانت كتابة الأدباء في هذا العصر ، فقد كانوا دائماً ينمقون كتبهم ويزخرفونها حتى تصبح كأنها الرياض المنمقة والحلل المنشّرة .

والحق أن موجة التصنيع في القرن الرابع كانت حادة حدة شديدة فلم يسلم منها أحد إلا في القليل الأقل حتى كتابه التاريخ أنفسهم رأينا بينهم من يختار لنفسه هذا الأسلوب الجديد من التصنيع ، وبدأ هذه الحركة الصابي في كتابه « التاجي في أخبار بني بويه » ثم تبعه المؤلفون في التاريخ أمثال العتبي في كتابه « اليميني » نسبة إلى محمود بن سبكتكين الغزنوي إذ لقبه الخليفة « يمين الدولة وأمين الملة » . وهو كتاب في تاريخ سبكتكين وابنه محمود ، وقد نال شهرة كبيرة في عصره وبعد عصره ، يقول السبكي : « كان أهل خوارزم وما والاها يعنون بهذا الكتاب ويضبطون ألفاظه أشد من اعتناء أهل بلادنا بمقامات الحريري »^(٢) . وما من شك في أن الصابي من جانب والعتبي من جانب آخر

(١) انظر رسائل أبي بكر الخوارزمي (طبع) (٢) طبقات الشافعية ١٣/٤ .

الجواب ص ٣٧ .

كانا سبباً في شيوع السجع والتصنيع في الكتابة التاريخية عند العماد الأصهباني ومن لفّ لفّه . وقد كان للثعالبي أيضاً أثره في هذا الجانب فقد قدم للأدباء من كتاب وشعراء في يتيمته بمقدمات مسجوعة ، اعتمد فيها على زخرف البديع .

على أننا نلاحظ أن هؤلاء الكتّاب جميعاً من أصحاب مذهب التصنيع والسجع والبديع أخذت تظهر على أسلّات أقلامهم شيّات مذهب آخر هو مذهب التصنع ، إذ نراهم يعمدون إلى تعقيد أساليبهم الزخرفية أو إلى اتخاذ فنون جديدة في نثرهم لا تمت إلى التجميل والتصنيع بصلة ، وإنما تمت إلى التحذلق والتكلف ، ويظهر أنه كان لكتّاب الرسائل الشخصية الأثر الأول في هذا الجانب فإن موضوع رسائلهم عادة تهنئة أو عتاب أو رثاء أو اعتذار أو استمناح ، وهي موضوعات محدودة بطبيعتها ، فإذا يصنع الكاتب المصنّع الذي يريد أن يثبت براعته وتفوقه ؟ هل يقتصر على سطور معدودة ؟ إن الاقتصار على سطور قليلة لا يُعطى فرصة لبيان مهارة الكاتب وإذن فلا بد له من أن يطيل ، ولكن كيف يطيل ومعانيه محدودة؟ لم يجد سبيلاً إلى ذلك إلا أن يمد معانيه بكل وسيلة ممكنة ، ولم ير مانعاً أثناء هذا الامتداد عن اللجوء إلى المبالغات والتحويلات والاعتداد بكثرة العبارات حتى ليخيل إلى الإنسان وهو يقرأ رسالة للخوارزمي أو للبديع أنه يقرأ في أساليب كتبت لتُحفظ لا لتعبر عن معنى ، فالمعاني فقدت قيمتها ولم يعد لها أهمية ، وإنما الأهمية كلها للألفاظ وما تطرّز به من وثني وحسني ، وحتى المقامات التي ابتكرها بديع الزمان تسميها هذه المياسم ، فهي لا تعبر عن قصص كما يفهم منها ، وإنما تعبر عن عبارات مرصوفة يمكن للأديب أن يستخدمها في أعماله .

والحق أننا لا نخصي في قراءة الخوارزمي وبديع الزمان وهما أهم المصنّعين بين كتّاب الرسائل الشخصية لتلك العصور حتى نحس بأن تأليف الرسائل أصبح لا يقصد به إلى التعبير عن معان خاصة إنما يقصد به إلى التعبير عن غايات تعليمية ، فهي رسائل يقرأها المؤدّبون ليحفظوها ويحوكوا على مثالها لأنفسهم

آثاراً تشبهها ، وقد أعدت هذه الحال إلى ظهور فكرة الأساليب المحفوظة التي تورث وتكرر وتردّ دين الكتاب . على أننا لا نترك الخوارزمي وبديع الزمان إلى قابوس بن وشمكير صاحب طبرستان وجرجان حتى نجده يحقق ضرورياً من التعقيد لزخرف التصنيع لم تكن معروفة من قبله ، وهي ضروب تجعله أقرب كتاب عصره إلى ذوق التصنع والمتصنعين . ونحن نقف عند هؤلاء الثلاثة : الخوارزمي وبديع الزمان وقابوس . لنفسر نمو مذهب التصنيع من جهة وتحول الكتاب قليلاً قليلاً إلى مذهب التصنع من جهة أخرى ، حتى تنكشف لنا هذه الدورة في تاريخ النثر العربي وما يتصل بها من فن وصناعة انكشافاً تاماً .

٢

أبو بكر الخوارزمي وتصنعه

كان أبو بكر كاتباً كبيراً كما كان شاعراً كبيراً أيضاً ، وهو ابن أخت محمد بن جرير الطبري صاحب التاريخ المعروف^(١) ، وأصله من طبرستان ، ومولده ومنشؤه خوارزم^(٢) ، وإليها ينسب ، وقد « فارقها في ريعان عمره وحدائه سنه ، وهو قوى المعرفة ، قويم الأدب ، نافذ القرينة ، حسن الشعر ، ولم يزل يتقلب في البلاد ، ويدخل العراق والشام ، يأخذ عن العلماء ، ويقتبس من الشعراء ، ويستفيد من الفضلاء ، حتى تخرج وخرج فرّده الدهر في الأدب والشعر ، ولقي سيف الدولة وخدمه ، واستفاد من يمين حضرته ، ومضى على غلوائه في الاضطراب والاغتراب ، وشرق بعد أن غرب ، وورد بخارى . . ووافي نيسابور . . ثم قصد سجستان . . ثم إنه عاود نيسابور ، وأقام بها إلى أن وفق التوفيق كله بقصد حضرة الصاحب بن عباد بأصبهان ولقائه بمدحه ، فأنجحت سفرته ، وربحت تجارته ، وسعد جدّه بخدمته ، ومدخلته ، والحصول في جملة

(١) وفيات الأعيان ١/٥٢٣ .

(٢) اليتيمة للثعالبي (طبع الصاوي) ٤/١٩٢ .

نعمائه المختصين به ، فلم يخل من طُلِّ إحسانه ووابله ، وغامر إنعامه ونائله ،
وتزوَّد من كتابه إلى حضرة عضد الدولة بشيراز ما كان سبباً لارتياشه ويساره ،
فإنه وجد فيها قبولاً حسناً ، واستفاد منها مالا كثيراً . ولا انقلب عنها بالغنيمة
الباردة إلى نيسابور استوطنها واقتنى بها ضياعاً وعقاراً ، ودرَّتْ عليه أخلاف
الدنيا من جميع الجهات ، وحين عاود شیراز ورد منها عكلاً بعد نهمل ، فأجرى
له عند انصرافه رَسْمٌ يصل إليه في كل سنة بنيسابور مع المال الذي كان يحمل
من فارس إلى خراسان ، ولم يزل بحسن حال . . يقيم للأدب سوقاً ، ويعيده
غضاً وريقاً ، ويدرس ويعلم ، ويشعر ويروى ، ويقسم أيامه بين مجالس
الدرس ومجالس الأتس . وكان يتعصب لآل بويه تعصباً شديداً ويغض من
سلطان خراسان ، ويطلق لسانه بما لا يقدر عليه ^(١) . وتعصَّب الخوارزمي
للبيهيين طبعي لما ذكره الثعالبي من تكريمهم له وبذلهم ، على أن ذلك كان
سبباً في أخذه وحبسه واستخراج بعض المال منه إلا أنه احتال يوماً وهرب
إلى حضرة الصاحب متكرراً ، واستمر عنده حتى تولى الوزارة في خراسان
صديقه أبو الحسن المزني « فاستدعاه وأكرم مورده ومصدره ، وكتب إلى
نيسابور في رد ما أخذ منه عليه ، ففعل ، وزادت حالته ، وثبت قدمه ،
ونظر إليه ولاية الأمر بنيسابور بعين الحشمة والاحتشام ، والإكرام والإعظام ،
فارتفع مقداره ، وطاب عيشه ^(٢) . ويظهر أنه كانت بنيسابور جماعة
مستوحشة منه جداً ، فاستغلوا الفرصة حين وفد بديع الزمان على بلدتهم في
أخريات أيام الخوارزمي ، وعقدوا مناظرات بينهما ، وأعانوا البديع عليه ^(٣) . ولم
يحل الحَوَل حتى توفي ، وكانت وفاته سنة ٣٨٣ هـ ، ومولده سنة ٣٢٣ هـ ^(٤) .
ويبالغ بديع الزمان في وصف هزيمته للخوارزمي حين دعى لمناظرته . على أنه
ينبغي أن نتلقى هذه المبالغة بشيء من الاحتياط ، لأن البديع هو الذي رواها

(٤) اليتيمة ١٩٦/٤ وانظر وفيات الأعيان

. ٥٢٣/١

(١) اليتيمة ١٩٥/٤ .

(٢) اليتيمة ١٩٦/٤ .

(٣) اليتيمة ١٩٦/٤ .

في رسائله من جهة^(١) ، ولأن الخوارزمي كان له خصوم في نيسابور وقفوا ضده فيها من جهة أخرى . ولعل صاحب اليتيمة كان دقيقاً في حكمه حين قال في ترجمة بدیع الزمان : « ثم شجر بينه وبين أبي بكر الخوارزمي ما كان سبباً لهابوب ریح الهمداني وعلو أمره ، وقرب نُجَحِّه ، وبعد صيته ، إذ لم يكن في الحسبان والحساب أن أحداً من الأدباء والكتاب والشعراء ينبري لمباراته ، ويجترئ على مجاراته ، فلما تصدى الهمداني لمساجلته ، وتعرض للتحكمك به ، وجرت بينهما مكاتبات ومقامات ، ومناظرات ومناضلات ، وأفضى السنن إلى العنان ، وقرع النَّبْعِ بالنبع^(٢) ، وغلبَ هذا قوم ، وذلك آخرون ، وجري من الترجيح بينهما ما يجري بين الخصمين المتحاكين ، والقرنين المتصاولين ، طار ذكر الهمداني في الآفاق ، وارتفع مقداره عند الملوك والرؤساء ، وظهرت أمارات الإقبال على أموره ، وأدبر له أخلاف الرزق . وأجاب الخوارزمي داعي ربه ، فخلا الجو للهمداني ، وتصرفت به أحوال جميلة »^(٣) فصاحب اليتيمة يرى أن نجاح البدیع في هذه المناظرات لم ينجي من أنه انتصر على الخوارزمي وإنما جاء من أنه استطاع أن يثبت له ، وسرعان ما أتى الحادث المفاجئ فتوفي الخوارزمي وخلا الجو للبدیع .

ومهما يكن فقد كان الخوارزمي من كبار الأدباء في عصره . روى ابن خلكان أنه استأذن على الصاحب في أرجان وهو لا يعرفه ، فقال الحاجب : قل لهذا المستأذن قد ألزمتُ نفسي أن لا يدخل عليّ أحد من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب ، فخرج إليه الحاجب وأعلمه بذلك ، فقال له أبو بكر الخوارزمي : ارجع إليه وقل له هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء ؟ فدخل الحاجب ، فأعلم الصاحب بما قال ، فقال الصاحب : هذا يكون أبا بكر الخوارزمي^(٤) . والحق أن أبا بكر كان أستاذاً كبيراً في

(١) انظر هذه المناظرات في رسائل بدیع الزمان (طبع بيروت سنة ١٩٢١) ص ٢٨ وما بعدها .
(٢) النبع : شجر اللقي السهام .
(٣) اليتيمة ٢٤١/٤ .
(٤) وفيات الأعيان ١/٥٢٣ .

عصره ، ولعله من أجل ذلك أسند إليه منصب تخريج التلاميذ في نيسابور ^(١) ، ويظهر أنه كان متشيعاً غالباً في تشيعه ، ففي رسائله رسالة شيعية صَبَّ فيها جام غضبه على الخلفاء من الأمويين والعباسيين ^(٢) . وإن من يرجع إلى رسائله يجدها تستحوذ على خصائص مذهب التصنيع لعصره في صورة بالغة من السجع والبديع ، وانظر إليه يكتب إلى أبي علي البلعمي لما طال عتبه وكثرت رقاعه ^(٣) :

« الكريم - أيد الله تعالى الشيخ - إذا قدر ، غفر ، وإذا أوثق أطلق ، وإذا أسر أعتق ، ولقد هربت من الشيخ إليه ، وتسلمت بعفوه عليه ، وألقيت ربة حياتي وماتى بيديه ، فليذقني حلاوة رضاه عني ، كما أذاقني مرارة انتقامه مني ، ولتلح على حالي غرة عفوه ، كما لاحت عليها مواسم غضبه وسطوه ، وليعلم أن الحر كريم الظفر إذا نال أقال ، وأن العبد لثيم الظفر إذا نال استطال ، وليغتمم التجاوز عن عثرات الأحرار ، ولينتهز فرص الأقدار ، وليحمد الله تعالى الذي أقامه مقام من يَرْجى ، ويخشى ، وركب نصابه في رتبة شاب الزمان ومجدها فتى ، وأخلق العالم وذكرها طرى ، فجعله في الميلاد كريمها وسليها ، وفي الرتبة قدوتها وجليلها ، وليعتقد أنه قد هابه من استتر ، ولم يذنب إليه من اعتذر ، وأن من رد عليه عذره فقد خرج إلى الشجاعة بعد الجبن ، وأخرج ذنبه إلى صحو اليقين من سرة الظن ، وفق الله تعالى الشيخ لما يحفظ عليه قلوب أوليائه ، وعصمه بما يزيد به في جماجم أعدائه ، وليس بين الموالة والمعاداة ، إلا لقية بشعة ، أو لفظة قذعة » .

وأنت ترى في هذه الرسالة أن الخوارزمي يعتمد على السجع اعتماداً يشبه ما رأيناه سابقاً عند ابن العميد والصاحب ، فهو ينتخب لفظه كما ينتخب أسجاعه ، وهو يعني بالسجع القصير حتى لا يطول الزمن على الأذن ، فتخرج من الجو

١٢٤ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٨٠ .

(٢) رسائل الخوارزمي ص ١٣٠ .

(٣) رسائل الخوارزمي ص ٩٦ .

(١) في رسائل الخوارزمي ما يدل على كثرة

تلاميذه ، فهو يرأسهم ويوصي بهم الأمراء والرؤساء . انظر الرسائل (طبع الجوائب) ص ١٠ ،

١٢ ، ٣٧ ، ٥٠ ، ٧٥ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١١٩ ،

الموسيقى الذى يريده الكاتب ، وقد يأتى بالسجع الطويل ولكنه يحدث فيه من المعادلات الداخلية ما يعود به قصيراً ، كقوله : « وليعلم أن الحر كريم الظفر إذا نال أقال ، وأن العبد لثيم الظفر إذا نال استطال » ، فإن هاتين السجعتين طويلتان فى الظاهر ؛ ولكنك إذا تأملتَهما وجدتهما تنحلان إلى أربع سجعات ، ففيهما سجعتان داخليتان ، وكان يلجأ إلى ذلك كثيراً فى رسائله . وهو لا يلجأ إلى السجع وحده كما نرى فى تلك الرسالة ، بل نراه يلجأ إلى ألوان البديع وخاصة لون التصوير ولون الطباق حتى يرصع سجعه ترصيعاً ، وكان يعنى أيضاً بلون الجناس ، ولكنها عناية أقل من عنايته بالطباق ، ومن أمثلة جناسه قوله فى مطلع إحدى رسائله : « وَعَدَ الشَّيْخُ يُكْتَبُ عَلَى الْجَلْمَدِ ، إِذَا كُتِبَ وَعَدَ غَيْرِهِ عَلَى الْجَلْمَدِ ، وَلَكِنْ صَاحِبُ الْحَاجَةِ سَيُّءُ النَّظَرِ بِالْأَيَّامِ ، مَرِيضُ الثِّقَةِ بِالْأَنَامِ » ^(١) ، وقوله فى أخرى : « وَرَدَ عَلَى خَيْرِ وَفَاةِ فُلَانٍ ، فَدَارَتْ بِنِ الْأَرْضِ حَيْرَةٌ ، وَأَظْلَمَتْ فِي عَيْنِي الدُّنْيَا حَسْرَةٌ ، وَمَلَكَ الْوَلَهُ وَالْوَهْلُ قَلْبِي وَسَاوَسَ وَفَكَّرَ ، وَتَذَكَّرْتُ مَا كَانَ يَجْمَعُنِي وَأَبَاهُ مِنْ سُكْرَى الشَّبَابِ وَالشَّرَابِ » ^(٢) . وعلى هذا النحو كان الخوارزمى يعتمد فى تصنيعه على ما عُرِفَ عند ابن العميد وتلامذته من سجع وبديع ، وإنه ليحاول أن يبلغ من ذلك أوسع درجة ممكنة من الحلية ، فهو يقصر سجعه ، وهو يخلع عليه ضرباً من الرشاقة بفضل ما يلجأ إليه من الصور والجناس والطباق ، وكل ذلك ليجلب أبدع ما يمكن من طُرفٍ وتحفٍ فى هذا الباب ، وإن الإنسان ليجس عنده حقاً بأن التصنيع قد وصل إلى غايته من التجميل ، فكل عبارة كأنها زخرف مستقل بما تحمل من وشى البديع وزينته ، وإنه ليتطرف فى ذلك تطرفاً ينتهى به إلى ظهور بعض سمات التصنيع فى كتابته .

(١) رسائل الخوارزمى ص ١٢ . والجلمد : (٢) نفس المصدر ص ١٥ .
الصخر ، والجلمد : التلج .

التصنيع وتصنيع الخوارزمي

كانت صناعة الخوارزمي في رسائله تقوم على التصنيع وما يطوى فيه من سجع وبديع ، على أن من يتأمل في هذه الصناعة يحس تسرب ضروب من التصنيع إليها ، إذ كان الخوارزمي يعتمد إلى ضروب من التحويلات والمبالغات ، وكأنما قَصَرَ الموضوعات التي كان يعالجها هو الذي أداه إلى هذه الصورة من التعبير ، وانظر إليه يكتب إلى أحد تلاميذه فيصف أيامه الماضية معه على هذا النحو ^(١) :

« كانت أرق من حاشية البرد ، ومن طلوع السعد ، وأحلى من إنجاز الوعد ، وأعذب من القند ^(٢) ، بل من النقد ، وأعقب من الورد ، وما أردت إلا ورد الخد ، بل من المسك والتند ، وأطيب من القرب بعد البعد ، ومن الوصل في إثر الصد ، بل كانت أرق من نسيم الزهر ، في السحر ، ومن قضاء الوطر ، على الخطر ، بل كانت أقصر من ليل السكاري ، أو نهار الحيارى . »

وأنت ترى أساس هذه التعبيرات كلها أنه يهول ويبالغ في وصف الأيام الماضية وما كان من حسننها وجمالها ، ولكن انظر كيف أطال في نعتها ، وهي إطالة مقصودة إذ كان يقصد بها إلى بيان مهارته في صوغ هذه الأسجاع التي تتقابل تقابلا بديعاً على هذا النحو ، فإذا هي تتألف من أسجاع دالية أول الأمر حتى إذا أثبت تفوقه في استخدام الدال وأسجاعها انتقل إلى الرء يحوك منها ما يريد من سجع ، وهو يوشى هذا السجع كله بالجناس والطباق والتصوير . ونحن نتساءل : ما هذه الأوصاف كلها التي « يرصّها الكاتب رصاً » ؟ والحق أن هذا « الرص » وما يتبعه من تراكم العبارات أصبح أصلاً من أصول صناعة

(٢) القند : عمل قصب السكر .

(١) رسائل الخوارزمي ص ١١ .

الحوارزى فى رسائله ، وإنا لنلمح فيه جانباً من جوانب التصنع ، وهل التصنع إلا الخروج عن الطرق الطبيعية فى التعبير الفنى ، إما بمثل هذا التراكم للعبارات ، أو بما قد يحدث من تعقيد فى زخرف السجع والبديع ، أو بما قد ينجم من اجتلاب ألفاظ العلوم ومصطلحاتها ، ومهما يكن فنحن نقع عند الحوارزى على هذه الحال الجديدة التى أخذت تظهر فى مذهب التصنيع ، ونقصد هذه العبارات المرصوفة التى يتراكم بعضها على بعض ، والتى يحس الإنسان أنها لا تؤدى شيئاً سوى أسجاع وضروب من بديع ، واستمع إليه يصف قصيدة بعث له بها أحد تلاميذه (١) :

« وصلت القصيدة الغراء ، الزهراء ، فكانت أرق من الماء ، بل من الهواء ، وألذ من الصهباء ، وأسر من اللقاء بين الأحباء ، ومن هجوم السراء ، غيب الضراء ، وأعذب من مغازلة النساء ، ومن مجالسة الندماء ، ومن مساعدة القضاء ، ومن معاقرة الشراب على الغناء ، ومن استماع فوائد الحكماء ، وخطب البلغاء ، وقلائد الشعراء ، ومن أخذ جوائز الأمراء ، وتحصيل مراتب الخلفاء ، فكانت معانيها أبداع من الوفاء ، وأعز من السخاء ، وأغرب من النصفة فى الأصدقاء ، ومن الأمانة فى الشركاء ، بل أغرب من المخرب العنقاء ، وألفاظها أحسن من البدر فى الظلماء ، وأطيب من وصال الحسناء ، ومن الشماتة بالأعداء » .

أرأيت إلى هذه المبالغات والتحويلات و « رص » العبارات ؟ إنه الأسلوب الجديد ، أسلوب الرسائل الشخصية عند الأستاذ الأديب أبى بكر الحوارزى الذى اشتهر بالبلاغة والبيان فى عصره ، لما كان يسوق فى رسائله من مثل هذه العبارات المرصوفة التى تدل على التطرف والمبالغة ، كما تدل على ضرب من الإفراط فى استخدام الحمل والتراكيب المسجوعة . وأكبر الظن أنه كان يعتمد إلى ذلك عمداً حتى يجمع لتلاميذه فى رسائله جميع صور التعبير التى يمكن أن يستخدموها فى فكرة من الأفكار ، وكأنه كان يحس أن مهمته ليست هى

أن يعبر عن معان ، بل هي أن يعبر عن أساليب يحفظها الطلاب . وما من شك في أن هذا كان أحد الأسباب في شيوع العبارات المحفوظة في اللغة العربية ، إذ نجد ما تميل منذ الخوارزمي إلى الاحتفاظ بصيغ خاصة من التعبيرات ، يرددها الأدباء في كتاباتهم .

وليس هذا كل ما يلاحظ على تصنيف الخوارزمي وتطرفه فيه ، بل إننا نلاحظ عليه أشياء أخرى لعل في مقدمتها أنه يكثر من الإشارات التاريخية^(١) ، كما يكثر من ذكر الشعر ، وهي حال أوسع من أن ندل عليها ، وأيضاً فإنه كان يكثر من نثر الشعر وإدماجه في كتابته ، بل إنه ليعترف بأنه يكثر من إغارته على الكتّاب الذين سبقوه إذ يقول صراحة : « مازلت أسرق من هذا كلمة ، وأنظر من ذاك فقره ، وأستعير من هناك نادرة وثيقة ، أغضب الأحياء على بيانهم ، وأنبش المرقى من أكفانهم »^(٢) . وزواه في مقدمة إحدى رسائله يقول : « كتابي وأنا في سلامة إلا من الحرّ الذي يذيب دماغ الضبّ ، ويشبه قلب الصبّ ، وهذا سرقة من رسائل الوزير الجليل ابن عباد ، وليس بأول غارة الكردي على الحاجي ، ولا بأول أخذ الطرار ، مال التجار »^(٣) . ولعل هذه السرقة وأمثالها هي التي جعلته يصف أسلوبه بأنه « سجع ملزق وكلام ملفق »^(٤) . والحق أننا نجد عند الخوارزمي ميلاً واضحاً إلى الخذلقة في التعبير ؛ وإنها لخذلقة تؤديه أحياناً إلى أن يتصنع لبعض ألفاظ من النجو ، إذ يقول لصديق له : « وكيف صرتُ المستثنى ، وقعدتُ على طريق إلا »^(٥) . وقد نحس هذه الخذلقة نفسها في وسائل التصنيع كقوله في إحدى رسائله : « لقد أراحني الشيخ ببيّره ، لا بل أتعبني بشكره ، وفزّعني بصادق قيامه لا بل شغلني بتعديده إحسانه وإنعامه ، وخفّف ظهري من ثقل الحزن ، لا بل أثقله بأعباء المنّين ، وأحياني بتحقيق الرجاء ، لا بل أماتني بفرط الحياء »^(٦) . وعلى

(١) رسائل الخوارزمي ص ٣٥ ، ٩٧ .

(٢) رسائل الخوارزمي ص ٣٦ .

(٣) نفس المصدر ص ٧٩ .

(٤) نفس المصدر ص ٣٤ .

(٥) نفس المصدر ص ٢٦ .

(٦) نفس المصدر ص ١٠٦ .

هذا النحو نحس دائماً بضروب من التصنيع تتسرب إلى صناعة الخوارزمي ،
وهي صناعة كانت تقوم على التصنيع ، ولكنها أخذت تظهر فيها بعض شيات
التصنيع وسماته ، مما يدل على أننا وصلنا من التصنيع إلى هذه المنطقة التي يختلط
فيها المذهب بمقدمات مذهب آخر ، وهي مقدمات ما تزال تتسع حتى ينفذ
منها الأدباء إلى إحداث المذهب الجديد . ونحن لا نصل إلى أواخر القرن الرابع
حتى نجد الرغبات تتكامل للخروج من مذهب التصنيع القديم إلى مذهب جديد
من التصنيع ، وهو مذهب كان يقوم على التعقيد في الأسلوب والأداء . وما
من ريب في أن الخوارزمي يعبر عن شيء من هذه الرغبات مع أن فنه عامة
يندمج في مذهب التصنيع .

٤

بديع الزمان وتصنيعه

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين ويعرف باسم بديع الزمان ، أصله من
همدان وإليها ينسب ، وقد تركها عام ٣٨٠ هـ وعمره نحو اثنتين وعشرين سنة ،
ويظهر أنه لم يكن معجباً بها ، فقد جاء في إحدى رسائله لأستاذه أحمد بن
فارس اللغوي المعروف الذي «أخذ عنه جميع ما عنده واستنفذ علمه»^(١) قوله^(٢) :
لا تلمني على ركافة عقلي إن تيقنت أنني همداني

وقد روى له ابن خلكان - مع شيء من الشك - بيتين يذم فيهما همدان
وأهلها ذمّاً قبيحاً على هذا النحو^(٣) :

همدانُ لي بلدٌ أقول بفضله	لكنه من أقبح البلدان
صبيانهُ في القبح مثلُ شيوخه	وشيوخهُ في العقل كالصبيان

(١) البيتة ٢٤١/٤ .

(٢) رسائل بديع الزمان (طبع بيروت

سنة ١٩٢١) ص ٤١٩ .

(٣) وفیات الأعيان ٣٩/١ .

وقد يكون في هذا الشعر — إذا صحت نسبته إليه — ما يعلل لمفارقتها بلده في مستقبل حياته ، وقد تركها إلى حضرة الصاحب بن عباد زعيم أدباء عصره حينئذ فتزود من ثماره وحسن آثاره ^(١) . ونراه يترك الصاحب إلى جرجان إذ « أقام بها مدة على مداخلة الإسماعيلية والتعيش في أكنافهم والاقتباس من أنوارهم . ثم قصد نيسابور فوافاها في سنة ٣٨٢ هـ ونشر بها بَزَرَه ، وأظهر طَرَزَه وأملَى أربعمائة مقامة ! نحلها أبا الفتح الإسكندري في الكُدُية وغيرها » ^(٢) . على أنه لا يستمر طويلاً في نيسابور إذ نراه يرحل عنها متجولاً في خراسان وسجستان وغزنة وما حوالها . ويقول الثعالبي : إنه « لم يبق من بلدة في هذه الأنحاء إلا دخلها وجنى ثمرتها ، واستفاد خيرها وميرتها ، ولا ملك ولا أمير لا وزير ولا رئيس إلا استمطر بِنَوْثَه ، وسَرى في ضوئه ، ففاز برغائب النعم ، وحصل على غرائب القيسم ، وألقى عصاه بهراة واتخذها دار قواره ، ومجمع أسبابه ، واقتنى ضياعاً فاخرة ، وعاش عيشة راضية ، وحين بلغ أشده وأربى على الأربعين ناداه الله فلباه ، وفارق دنياه سنة ٣٩٨ هـ » ^(٣) .

واشتهر بديع الزمان بحافظة قوية قوة شديدة ، يقول صاحب اليتيمة : « إنه كان صاحب عجائب وبدائع وغرائب ، فمنها أنه كان يُنشد القصيدة التي لم يسمعها قط وهي أكثر من خمسين بيتاً ، فيحفظها كلها ، ويؤديها من أولها إلى آخرها ، لا ينحرم حرفاً ، ولا يخل بمعنى ، وينظر في الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ، ثم يهذُّها عن ظهر قلبه هذّاً ، ويسردها سرداً » ^(٤) . وكما اشتهر بديع الزمان بحافظته اشتهر بسرعة ارتجاله ^(٥) وكان يعرف الفارسية ويترجم بعض أشعارها إلى العربية ، ويقال إن الصاحب بن عباد اختبر مهارته في هذا الجانب ^(٦) ويقول صاحب اليتيمة :

(٥) اليتيمة ٢٤٠/٤ .

Browne, Lit. Hist. of Persia. vol. 11, (٦)

p. 112.

(١) اليتيمة ٢٤١/٤ .

(٢) اليتيمة ٢٤١/٤ .

(٣) اليتيمة ٢٤٢/٤ .

(٤) اليتيمة ٢٤٠/٤ .

إنه « كان يترجم ما يُفْتَسَّرَحُ عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعاني الغريبة بالأبيات العربية ، فيجمع فيها بين الإبداع والإسراع »^(١) .

وليس هناك كاتب في القرن الرابع نال من التمجيد والثناء ما ناله بديع الزمان ، وحتى اسمه لا يعرفه الناس وإنما يعرفونه بلقبه الذي أطلقه عليه معاصروه ، وإنه ليفصح عن مدى إعجابهم به ، يقول الثعالبي : « هو معجزة همدان ، ونادرة الفلك ، وبكر عطارد ، وفرد الدهر ، وغرة العصر ، ومن لم يُلْتَقِ نظيره في ذكاء القرينة وسرعة الخاطر ، وشرف الطبع ، وصفاء الذهن ، وقوة النفس ، ومن لم يُدْرِك قرينه في طَرْفِ الثرومُلْحَهِ وغرره . . ولم يَرَوْا أن أحداً بلغ مبلغه من لبِّ الأدب وسره ، وجاء بمثل إعجازه وسحره »^(٢) ويقول الحصري وقد ذكر اسمه (البديع) : « هذا اسم وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه ، كلامه غرضٌ المكاسر ، أنيق الجواهر ، يكاد الهواء يسرقه لطفاً ، والهوى يعشقه ظرفاً »^(٣) وكان الحصري يتعصب له على الخوارزمي ، وبلغ من تعصبه أنه لم يرو للخوارزمي شيئاً في كتابه بينما أكثر من روايته عن البديع ، إذ كان يعجب به وبمقدرته على التجويد والتجوير إعجاباً شديداً . وقد ترك بديع الزمان مجموعة كبيرة من الرسائل نُسِّفت على مائتين وثلاثين ، وأكثرها في علاقاته الشخصية وبعضها في مسائل أدبية وقد تحدث في الرسالة رقم ١٦٧ عن انتشار التشيع ومن يتصفح هذه الرسائل يحسُّ فيها أثر الاحتفال والجهد الشديد ، واستمع إليه في هذه الرسالة القصيرة^(٤) :

« يعز عليّ — أطال الله بقاء الرئيس — أن ينوب في خدمته قلماً ، عن قديمي ، ويسعد برؤيته رسولِي ، دون وصولِي ، ويرد مَشْرَعَةَ الأنس به كتابي ، قبل ركابي ، ولكن ما الحيلة والعوائق جمّة :
وعليّ أن اسمي وليّ س عليّ إدراك النجاح

(٣) زهر الآداب للحصري ٣٠٧/١ .

(٤) رسائل بديع الزمان ص ١٠٣ .

(١) اليتيمة ٢٤١/٤ .

(٢) اليتيمة ٢٤٠/٤ .

وقد حضرت داره، وقبّلت جداره ، وما بي حُبُّ الجدران، ولكن شغفاً بالقُطّان ، ولا عشق الحيطان ، ولكن شوقاً إلى السُّكّان .

وأكبر الظن أنه استقرت في نفسك الآن صورة من تصنيع البديع فهو يعتمد في تصنيعه على السجع القصير ، وإنه ليبعد في ذلك ، فإذا سجعاته لا تتألف من عبارات ، وإنما تتألف من ألفاظ وكلمات ، فـ « قلمي » تتبعها « عن قلمي » و « رسولي » يليها « دون وصولي » و « كتابي » تجيء في إثرها « قبل ركابي » . وما من شك في أنه بلغ من ذلك مبلغاً لم يصل إليه ابن العميد ولا من تبعوه في مذهب التصنيع ، وهو يضيف إلى ذلك كل ما يمكنه من ترصيع بالبديع ، وكان يعتمد - في أغلب الأمر - على الجناس ، بينما كان يعتمد الخوارزمي في الأكثر على الطباق ، وهما يشتركان بعد ذلك في العناية بالتصوير . على أن البديع كان يهتم بلون لم يأبه له الخوارزمي وهو « مراعاة النظر » بين ألفاظه وكلماته ، وكان يبالغ في ذلك حتى يضم اللفق إلى لفظه ، والشكل إلى شكله ، كقوله في تهنئة بمولود : « حبذا الأصل وفرعه ، وبورك الغيث وصوبه ، وأينع الروض ونوره ، وحبذا سماء أطلعت فرفداً وغابة أبرزت أسداً »^(١) فإنه حين ذكر الأصل وفرعه استطرد إلى ذكر الغيث وصوبه والروض ونوره أوزهره ، والسماء وفرقدها والغابة وأسدها . ومن ذلك قوله في إحدى رسائله : « وردتُ من ذلك السلطان حضرته التي هي كعبة المحتاج لا كعبة الحجاج ، ومشعر الكرام ، لا مشعر الحرام ، ومنى الضيف ، لا منى الخيف وقبلة الصلّات ، لا قبلة الصلّاة »^(٢) فإنه حين ذكر الكعبة والحجاج ذكر المشعر الحرام ومنى الخيف وقبلة الصلاة ، وكل ذلك ليجانس وينظر بين ألفاظه وكلماته . على أن هناك ظاهرة تختص بها رسائل بديع الزمان ، ولا توجد في رسائل الخوارزمي ، وهي ظاهرة القصص ، وهي أوسع من أن نمثل لها بأمثلة ، لأنها تنتشر في جميع رسائله . ومهما يكن فقد كان بديع الزمان معجباً بمذهب التصنيع ، وكان يسعى دائماً إلى تطبيقه في رسائله وكتاباته وإنه ليغالي في هذا

(٢) رسائل بديع الزمان ص ١٥١ .

(١) رسائل بديع الزمان ص ٥١٥ .

التطبيق فإذا هو يحاول أن يقصّر عبارات سجعته تقصيراً شديداً كما يحاول أن يفرط في استخدام ألوان البديع إفراطاً بعيداً .

٥

التصنع وتصنيع بديع الزمان

رأينا بديع الزمان يعنى فى رسائله بتطبيق أساليب التصنيع عناية واسعة ، وقد أفرط فى ذلك إفراطاً أتاح لضروب من التصنع أن تتسرب إلى كتاباته ، ولعل فى مقدمة هذه الضروب ما نحسه عنده من مبالغات وتهويلات تشبه تهويلات الخوارزمى ومبالغاته ، بل لعل الخوارزمى لم يفرط إفراطه . على أن هذا ليس هو الجانب الأهم فى تصنيع البديع ، بل هناك جوانب كثيرة نحسها لأول مرة عنده ، وإنها لتجعله قريباً من ذوق أصحاب التصنع إذ كان يحاول دائماً أن يأتى بجديد فى فنه ، وأدته هذه المحاولة إلى فنون من التصنع لا عهد لأصحاب التصنيع بها ، واستمع إلى هذه الرسالة التى كتبها يصف نهب اللصوص له فى أثناء رحيله من جرجان إلى نيسابور^(١) :

« كتابى وأنا أحمد الله إلى الشيخ وأذم الدهر فما ترك لى فِضةً إلا فضّها ، ولا ذهباً إلا ذهب به ، ولا علفاً إلا علفه ، ولا عقاراً إلا عقّره ، ولا ضيعة إلا أضاعها ، ولا مالاً إلا مال إليه ، ولا حالاً إلا حال عليه ، ولا فرساً إلا افترسه ، ولا سبداً إلا استبدّ به ولا لبداً إلا لبد^(٢) فيه ولا بزّة إلا بزّها ، ولا عارية إلا ارتجعها ، ولا وديعةً إلا انتزعها ، ولا خلعةً إلا خلّعها ، وأنا داخل نيسابور ، ولا حليّة إلا الجلّدة ، ولا برّدة إلا القشرة » .

ألا تشعر بأن البديع فى هذه الرسالة قد تجاوز الطرق الطبيعية فى الزخرفة

(١) الرسائل ص ١٠٤ .

ولا لبد ، أى لا قليل ولا كثير .

(٢) السبد والبد من قولهم : ما له سبد

بزينة الجناس ، إذ أعنتَ نفسه هذا العنت في طلبه ، فكل عبارة تخرج محملة به . وهذا هو معنى ما نقوله من أن الإفراط في استخدام ألوان التصنيع يقود الكاتب إلى فنون من التصنيع والتكلف الشديد . ولم يكن الخوارزمي ولا غير الخوارزمي من أصحاب مذهب التصنيع يضيّقون على أنفسهم كل هذا الضيق ، فإذا هم لا يصنعون عبارة إلا ويوشّونها بزخرف من زخارف البديع ، ولكن ما لبديع الزمان وللخوارزمي وأصحابه ؟ إنه يريد أن يتفوق عليهم ، وهو لذلك يعتمد إلى إعنات نفسه في صناعته حتى يقع عمله من أهل عصره موقعاً غريباً ، وكأنما الإغراب أصبح هو البدع الجديد ، ولذلك نراه يلجأ إلى مثل هذه الجناسات التي نراها في القطعة السابقة ، وانظر إليه يقول في إحدى رسائله مفضلاً العرب على العجم^(١) :

« العرب أَوْفَى وأوفر ، وأَوْقَى وأوفر ، وأنكى وأنكر ، وأعلى وأعلم ، وأحلى وأحلم ، وأقوى وأقوم ، وأبلى وأبلغ ، وأشجى وأشجع ، وأسمى وأسمح ، وأعطى وأعطف ؛ وألطف وألطف ، وأحصى وأحصف ، وأتقى وآتق ، ولا يُنكر ذلك إلا وقع وتبح ، ولا يحجده إلا تغلّ نغير^(٢) .

أرأيت إلى هذه الكثرة من الجناس الناقص ؟ إنها دليل آخر على ما نذهب إليه من أن زخرف الجناس عند البديع أخذ يفقد بعض قيمته القديمة لأن الكاتب يجعلنا نشرف على ضرب من التصنيع في استخدامه ، ومع أنه زخرف حقاً ولكننا نحس أن طاقته القديمة فقدت بعض مميزاتها وما كان يسمها من حسن وجمال . والحق أن التطرف في استخدام أدوات التصنيع على هذا النحو ينتهي بصاحبه إلى الخروج إلى مذهب التصنيع ، والبديع لم يكن من أصحاب هذا المذهب ، ولكنه كان مغالياً في تصنيعه مغالاة جعلته يدنو من ذوق أصحاب التصنيع الذين يصعبون في تعبيرهم كما سنرى فيما بعد ، وقد كانوا

تافه ، نغل : فاسد ، نفر : غاضب .

(١) الرسائل ص ٢٧٩ .

(٢) ألطى : أثقل على العدو . وتبح :

يلتمسون هذا التصعيب — من بعض الوجوه — في تعقيد زخرف التصنيع على نحو ما نرى الآن عند البديع . على أنه ينبغي أن نعرف أن البديع لم يكن يكثر من ذلك لأنه لم يكن يتخذ مذهباً ، ولكننا على كل حال نجد عنده ، وكأنه تعبير عن هذا التحول الذى أخذ يظهر قليلا قليلا في ميادين التصنيع ، وهو تحول كان يراد به الانتقال إلى المذهب الحديد ، مذهب التصنيع .

وليس كل ما نجده عند البديع من الشعور بهذا التحول هو استخدامه للجناس على هذا النحو ، فنحن نجد عنده مظاهر أخرى ، لعل من أهمها جنوحه للغريب في نثره ، كأن الغريب غاية يسعى إليها الكاتب ليحقق ضرباً من الجمال في صناعته ، وأكبر الظن أنه كان للجناس واهتمامه به أثر في استخدامه لهذا الغريب . وبجانب هذه الظاهرة التى تدل على التصنيع والتكلف لأن استخدام الغريب لا يبعدُ جمالا في ذاته ، نجد عنده ظاهرة أخرى ، وهى كثرة الأمثال في نثره ، وأيضاً فقد كان يكثر من اقتباس القرآن الكريم في كتابته . ولا يقف البديع عند ذلك بل نراه يكثر من تضمين الشعر ، وانظر إلى هذه الرسالة التى أرسل بها إلى الخوارزمي أول قدمه إلى نيسابور^(١) :

« أنا لقرب الأستاذ — أطال الله بقاءه — (كما طرب النشوان مالت به الخمر) ومن الارتياح للقائه (كما انتفض العصفور بلسه القطر) ومن الامتزاج بولائه (كما التقت الصهباء والبارد العذب) ومن الابتهاج بمراه (كما اهتز تحت البارح^(٢) الغصن الرطب) فكيف نشاط الأستاذ لصديق طوى إليه ما بين قصبتى العراق وخراسان ، بل ما بين عتبتى نيسابور وجرجان ، وكيف اهتزازه لضيف في بردة جمال ، وجملة حمال .

رث الشئال منهج الأثواب بكرت عليه مغيرة الأغراب^(٣)

وهو — أيده الله — ولّى إنعامه ، بإنفاد غلامه إلى مستقرى ، لأفضى إليه بسرّى ، إن شاء الله تعالى .

(٣) منهج : بالى .

(١) رسائل بديع الزمان ص ١٢٨ .

(٢) البارح : الريح الحارة في الصيف .

وواضح أن البديع استعان أربع مرات في أوائل رسالته بهذه الشطور من الشعر التي وضعناها بين أقواس ، وما من ريب في أنه جاء بها ليدلّ الخوارزمي على مهارته ، وهذا هو نفسه ما يجعلنا نشعر بأن البديع كان يستظهر شارات من التصنع في عمله ، وهي شارات تضطره إلى الجناس المسرف أو الجناس المعقد ، كما تضطره إلى استخدام الغريب ، وأيضاً فلإنها تضطره إلى هذا التضمين لشطور الشعر في كلامه .

والواقع أننا نحس في هذه الظواهر كلها أثراً من التصنع الذي أخذ القرن الرابع يعدّ لظهوره ، ويهيئ لخروجه بما كان يصنعه البديع والخوارزمي في آثارهما. وقد كان البديع أقرب من الخوارزمي إلى ذوق التصنع ، ولعل ذلك ما جعله يميل إلى اللعب والعبث في صناعته ، فقد روى الثعالبي في تيممته أنه « كان يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخر سطر منه ثم هلم جرّاً إلى الأول »^(١) ، وقد روى بديع الزمان نفسه في رسائله صوراً كثيرة من هذا اللعب إذ نراه يُدِلّ على الخوارزمي بأنه يستطيع أن يقترح عليه أربعمائه صنف في الترسّل ، ثم يستطرد فيصنف بعض هذه الأصناف فيقول : إنه يستطيع أن يكتب كتاباً يُقرأ منه جوابه ، أو كتاباً يُقرأ من آخره إلى أوله ، أو كتاباً إذا قرئ من أوله إلى آخره كان كتاباً ، فإن عكست سطره مخالفة كان جواباً ، أو كتاباً لا يوجد فيه حرف منفصل من راء يتقدم الكلمة أو دال ينفصل عنها ، أو كتاباً خالياً من الألف واللام ، أو كتاباً خالياً من الحروف العواطل ، أو كتاباً أول سطره كلها ميم وآخرها جيم ، أو كتاباً إذا قرئ معرجاً وسُرد معرجاً كان شعراً ، أو كتاباً إذا فُسر على وجه كان مدحاً وإذا فسر على وجه كان قدحاً^(٢) .

ولعل من الطريف أن الخوارزمي حين سمع من بديع الزمان هذه الأصناف

(مصر) ٢١/٥ .

(٢) رسائل بديع الزمان ص ٧٤ .

(١) اليتيمة ٢٤٠/٤ ونجد في معجم الأدباء أدبياً معاصراً للبديع يسمى الصخرى يحاول أن يقلده في هذا الجانب . انظر معجم الأدباء (طبع)

الجديدة في الكتابة قال : إنها شعْبذة ، وحقاً ما يقوله الخوارزمي فإنها لا تفصح عن جمال ، وإنما تفصح عن لعب ، والخوارزمي لم يكن يفهم هذا اللعب لأنه ليس من قبيل زخرف التصنيع الذي يعهده ، غير أننا لا نمضي عند بديع الزمان حتى نحس تحولاً في هذا الزخرف ، وهو تحول لا يتصل به مباشرة وإنما يتصل بطرق أدائه ، فإذا هذه الطرق تصعب هذا التصعيب الذي يحس فيه الخوارزمي ضرباً من ضروب الشعْبذة ، وردَّ البديع عليه حين أنكر منه ذلك بقوله : « إنك لا تحسن من الكتابة إلا هذه الطريقة الساذجة ، وهذا النوع الواحد المتداول بكل قلم ، المتناول بكل يد وفم » ^(١) . ويقصّ علينا بديع الزمان أنه قرأ على الخوارزمي ومن حضروا مناظرتهما كتاباً منكوساً ثم سرده معكوساً وقال : « إن الجماعة بُهتت والعيون زَرَقَتْ » ^(٢) وفي إعجاب هذه الجماعة بشعْبذته ما يدل على أننا أصبحنا على وشك الانتقال إلى مرحلة التصنع ، إذ أخذ الناس يعجبون بالطرق الغريبة في التعبير كأن الإغراب من حيث هو شيء له جلاله وخطره في صناعة الرسائل . وحقاً إن البديع لم يتحول في عمله كله إلى هذه الوجهة ، ولكننا نجد عنده بعض عناصرها وبعض مقدماتها ، بحيث لا نبعد إذا قلنا : إنه كان من أهم من رشَّحوا لمذهب التصنع وظهوره .

٦

مقامات البديع وما فيها من تصنع

ونحن نعرض لضرب جديد من الكتابة ابتكره بديع الزمان لنرى ما فيه من تصنع ، وهو ما اشتهر به من مقاماته ، وهي نوع من القصص القصيرة تحفل بالحركة التمثيلية ، وفيها تدور المحاوراة بين شخصين مُسمَّي أحدهما عيسى بن

(١) رسائل بديع الزمان ص ٧٦ .

وظهر بياضها عجباً وحيرة .

(٢) الرسائل ص ٧٨ . وزرقت : انقلبت

هشام والآخر أبا الفتح الإسكندري ، وهو من الأدباء السيّارين أو المُكندين السائلين يطوف من مكان إلى مكان يستجدي الناس بفصاحته وبيانه ، يتقابل دائماً هذا الشخص المسمى بأبي الفتح الإسكندري مع راوٍ له يحكى أخباره ، وهو عيسى بن هشام ، ويقول بديع الزمان - كما مر بنا - إنه أصنع أربعمئة قصة من هذا النوع أو كما يسميها هو مقامة^(١) ، غير أنه لم يصلنا منها إلا نيف وخمسون فقط وأكبر الظن أن بديع الزمان كان يصدد الافتخار والتزديد في عمله ، ولذلك ينبغي أن لا نفهم العدد الذي ذكره بمعناه الحرفي .

ويقف الباحثون عند كلمة مقامات التي أطلقها البديع على قصصه ويتساءلون عن المعاني التي جاءت فيها قبله^(٢) ، وإن من يرجع إلى الشعر الجاهلي يجدها تستعمل فيه بمعنى المجالس ، يقول زهير بن أبي سلمى في بعض شعره^(٣) :

وفهم مقاماتٌ حسانٌ وجوهها وأنديةٌ ينتابها القول والفعلُ
وإن جثتهم ألفت حول بيوتهم مجالس قد يُشقى بأحلامها الجهل

ثم توسع العرب في معنى الكلمة فأصبحوا يطلقونها على خطبهم وأحاديثهم التي يقولونها في مجالسهم ، وقد يفهم بيت زهير على هذا المعنى . واستمرت الكلمة تدل على المعنيين حتى عصر بديع الزمان نفسه ، إذ نجده يستخدمها في رسائله بمعنى المجالس^(٤) ، كما استخدمها الثعالبي بنفس المعنى^(٥) ، وفي أخبار البديع أنه كان يحتم مقامه أو مجلسه في نيسابور بقصة من هذه القصص ، ولعله من أجل ذلك اختار لها اسم المقامات .

(١) الرسائل ص ٣٩٠ ، ٥١٦ وانظر البيهقي (طبعة لايال) ص ١٢٢ والهامسة (طبع أوروبا) ص ٩٥ .

(٢) انظر دائرة المعارف الإسلامية في ترجمة (٤) رسائل بديع الزمان ص ١٠٦ .
(٥) انظر ما نقله ياقوت عن الثعالبي في معجم

(٣) ديوان زهير (طبع دار الكتب) ص ١١٣ .

وانظر ديوان لبّيد (طبع بريل) ص ٣٩ والمفضليات

وذكر الحصري أن بديع الزمان ألف هذه المقامات معارضة لابن دريد المتوفى عام ٣٢١ هـ إذ يقول إن البديع « لما رأى أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي أغرب بأربعين حديثاً وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره ، وانتخبها من معادن فكره ، وأبدأها للأبصار والبصائر ، وأهداها إلى الأفكار والضمائر ، في معارض حوشية ، وألفاظ عنجھية ، فجاء أكثرها ينشؤ عن قبول الطباع ، ولا تُرفع له حجب الأسماع . . . عارضه بأربعمئة مقامة في الكندية تذوب ظرفاً ، وتقطر حسناً » ^(١) على أنه ينبغي أن نلاحظ أحاديث ابن دريد تخالف مقامات الهمداني في موضوعها ، إذ أن ما رواه له القالي في كتابه الأمالي منها يدور غالباً حول حكايات عربية قديمة ، للتاريخ والحب فيها نصيب ، بينما أفاض بديع الزمان تدور على التسول والكندية ومع ذلك فالعلاقة بين العاملين واضحة أولاً من حيث الاسم فإن من معاني كلمة مقامة التي اختارها بديع الزمان لقصصه « حديثاً » وتجمع على أحاديث وهو نفس الاسم الذي اقترحه ابن دريد لأقاصيصه ؛ وثانياً من حيث الغاية فأحاديث ابن دريد ومقامات بديع الزمان ألفتا لغاية واحدة ، هي تعليم الناشئة اللغة .

والمقامات تصور حياة الأدباء السيارين الذين كانوا يسمون باسم الساسانيين نسبة إلى ساسان وهو شخص فارسي قديم يقال إن أباه حرمه من الملك ، فهام على وجهه محترفاً للكندية . ومن يقرأ في اليتيمة يجد طائفة الساسانيين هذه تحتل حيزاً في الحياة الأدبية للقرن الرابع الهجري ، وهي تشبه تمام الشبه طائفة « الأدبائية » التي اشتهرت عندنا بمصر في القرن التاسع عشر الميلادي ، إذ كانوا يتخذون الأدب والشعر وما يتصل بهما من فصاحة وبلاغة وسيلة إلى كسب المال وابتزازه ، ومن يرجع إلى بخلاء الجاحظ يجده يعرض لهذه الطائفة وحييلها ^(٢) . وقد تحدث عنها البيهقي في القرن الرابع ^(٣) ، وإذا استمررنا في هذا القرن إلى عصر بديع الزمان وجدنا هذه الطائفة تتضح شخصيتها في الحياة الاجتماعية بأوسع

(٣) المحاسن والمساوي للبيهقي طبع أوروبا

(١) زهر الآداب للحصري ٣٠٧/١ .

ص ٦٢٢ .

(٢) البخلاء ٨٦/١ .

ما كانت عليه قبل ذلك ، اشتهر من شعرائها حيثثذ الأحنف العكبرى وأبو دلف الخزرجي ، أما الأحنف فيقول عنه صاحب البيتمة : إنه « شاعر المكندين وظيفهم ، ومليح الحملة والتفصيل منهم » ، وروى له بعقب ذلك قصيدة دالية طويلة عرض فيها لحرفة الكندية عرضاً واسعاً^(١) ، وأما أبو دلف فيقول فيه صاحب البيتمة : « شاعر كثير الملح والطرف ، مشحوذ المدية في الكندية ، خنتى التسعين في الإطراب والاغتراب ، وركوب الأسفار الصعاب ، وضرب صفحة المحراب بالجرب ، في خدمة العلوم والآداب . . وكان ينتاب حضرة الصاحب ويكثر المقام عنده . ولما أتحفه بقصيدته التي عارض بها دالية الأحنف العكبرى في المناكاة وذكر المكندين والتنبيه على فنون حرفهم وأنواع رسومهم . . اهتز ونشط لها ، وتبجح بها ، وتحفظها كلها وأجزل صلته عليها »^(٢) . وهى قصيدة طويلة رواها صاحب البيتمة ، وفيها ذكر الأحنف الألفاظ الاصطلاحية لأهل الكندية وما كانوا يتخذونه في مناجاتهم أى كلامهم الذى يتكلمون به من مصطلحات خاصة ، كما ذكر حيلهم وتفننهم فى هذه الحيل على صور شتى^(٣) وعرض بديع الزمان فى مقاماته لكثير من هذه الحيل^(٤) ، كما سعى مقامه له باسم المقامة الساسانية نسبة إلى هذه الطائفة ، وما لنا نذهب بعيداً ، وقد كان البديع نفسه راوية لأبى دلف^(٥) فقد نسب إلى أبى الفتح الإسكندري بطل مقاماته هذه الأبيات^(٦) :

ويحك هذا الزمان زورُ فلا يغرنَّك الغرورُ
زوقْ ومخرقْ وكلْ وأطبقْ واسرقْ وطلبقْ لمن يزورُ
لا تلتزم حالةً ولكنْ دُرْ بالليالى كما تدورُ

وهى من شعر أبى دلف^(٧) . وكل ذلك يؤكد الصلة ويوثقها بين بديع

-
- | | |
|--|--|
| (١) البيتمة ١٠٤/٣ . | أبى دلف المذكورة . |
| (٢) البيتمة ٣٢١/٣ . | (٥) البيتمة ٣٢٣/٣ . |
| (٣) البيتمة ٣٢٤/٣ . | (٦) انظر المقامة الأولى من مقاماته وهى |
| (٤) انظر المقامة الرصافية فى مجموع مقاماته | المقامة القريضية . |
| وهى تعتبر من بعض الوجوه ثراً لقصيدة | (٧) البيتمة ٣٢٣/٣ . |

الزمان في مقاماته وبين أهل الكُدُية في زمنه، ومهما يكن فقد استطاع بديع الزمان أن ينفذ من نمو هذه الطائفة في عصره وما اشتهرت به من حيلها إلى صنع مقاماته . ويسوق البديع هذه المقامات في شكل قصص درامية صغيرة ، يمكن أن تعتبر المقامات كلها قصة واحدة تعبر عن أطوار مستقلة من حياة بطلها أبي الفتح الإسكندري ، أو قل إنها تعبر عن حوادث مستقلة من أيامه . صيغت في أسلوب قصصى يشيع فيه الحوار ، وفيها نرى أبا الفتح يحتال على الناس بطرق مختلفة من بلاغته ، لibtز أموالهم ، وفي أغلب أمره يلتقى به عيسى بن هشام فيعجب بفصاحته ويكشف اللثام عن وجهه ، وفي كل مرة لا يخطئه، فهو دائماً أبو الفتح الإسكندري ! . . وما من ريب في أن هذه الصورة تخرج في كثير من جوانبها بالمقامات عن أسلوب القصص المشوق إلى أسلوب السرد ، وإن كنا لا نعدم فيها القصص الدرامية الطريفة .

وكان همُّ بديع الزمان الأول أن يجمع في كل مقامة من مقاماته طائفة من الأساليب البلاغية المصنعة التي تعتمد على السجع والبديع ، وإنه ليسرف في تجميل كل مقامة بأوسع طاقة ممكنة من الزخرف والزينة والتنميق ، ومن ثمَّ انصرف عن الموضوع إلى الأسلوب وذهب يجمله ويرصعه فنوناً من التجميل والترصيع ، فالترصيع والتجميل هما غايته من عمله حتى تستوى له طُرفُ إنشائية بليغة تروّع معاصريه، وقد كان القدماء أنفسهم يعرفون ذلك ، يقول ابن الطقطقي : « إن المقامات لا يستفاد منها سوى التمرن على الإنشاء والوقوف على مذاهب النظم والنثر »^(١) . وإن من يتابع البديع في مقاماته يحس حقاً أنه ألفتها لغرض التمرن على الكتابة والإنشاء ، فإنه يعني دائماً بالوصف ، ولا يصف شيئاً إلا راكم فيه العبارات « ورصّها رصّاً » ليختار منها الكاتب ما يريد ، وانظرُ إليه يصف الخمر على لسان ربة حانة فيقول^(٢) :

« هذه خمر كأنما اعتصرها من خدّي ، أجداد جدّي ، وسر بلوها من القار

(١) الفخرى في الآداب السلطانية (طبع) (٢) انظر في ذلك المقامة الحميرية .

بمثل هجرى وصدّى ، وديعة الدهور ، وخبيثة جيب السرور ، وما زالت
تتواربها الأخيار ، ويأخذ منها الليل والنهار ، حتى لم يبق إلا أَرْجُ وشعاع ،
ووهجٌ لذّاع . ريحانة النفس وضرة الشمس ، فتاة البرق ^(١) ، عجوز
المَلَق ، كاللهب في العروق ، وكبرد النسيم في الخلق ، مصباح الفكر ،
وترياق سم الدهر ، يمثلها عزّ الميت ، فانتشرو دُوى الأكمة فأبصر .

الآن نحس بأن بديع الزمان يحاول هنا أن يجمع أكثر ما يمكنه من أوصاف
الخمير ليسلكها في عقد مقاماته ، وهو ينظر إلى كل عبارة كأنها جوهرة يريد أن
يضعها في هذا العقد حتى تتلأأ بقوة أوسع من قوة جارتها ، وما يزال يحتال
على هذه الجواهر يضمها بعضها إلى بعض حتى ينال استحسان سامعيه في
نيسابور موطن الخوارزمي وموطن فصاحته ، وما اشتهر به من بلاغته ، وكأنه
يريد أن يصرف تلاميذه عنه بما يروعه به من هذه الأساليب المصنّعة التي
تتراكم في مقاماته تراكمًا ، وانظرُ إليه يقول في المقامة الأسدية :

« اتفقت لى حاجة بِحِمْنُص ، فشحذت إليها الحرص ، في صحبة أفراد
كنجوم الليل ، أحلاس ^(٢) لظهور الخيل ، وأخذنا الطريق ننتهب مسافته ،
ونستأصل شأفته ، ولم نزل نفري ^(٣) أسنمة النجاد ، بتلك الجياد ، حتى صرنا
كالعصى ، ورجعن كالقسي ، وتاح ^(٤) لنا واد في سفح جبل ، ذى الأواءثل ^(٥) ،
كالعداري يسرّحن الضفائر ، وينشرن الغدائر ، ومالت الهاجرة بنا إليها ،
ونزلنا نفور ونفور ^(٦) ، وربطنا الأفراس بالأمراس ^(٧) ، وملنا مع النعاس ، فما راعنا
إلا صهيل الخيل ، ونظرت إلى فرسى وقد أرفف أذنيه ، وطمّح بعينييه ، يحمّد
قوى الجبل بمشافره ، ويخذلّ خد الأرض بمخوافه ، ثم اضطربت الخيل فتقطعت
الجبال ، وأخذت نحو الجبال ، وطار كل واحد منا إلى سلاحه فإذا السبع

(١) البرق : التزيين : يريد أن الخمير كالفتاة

في زينتها ثم هي كالعجوز في تملقها وتوددها .

(٢) أحلاس : جمع حلس وهو الملازم .

(٣) نفري : نقطع ، والنجاد : جمع نجد

وهو ما ارتفع من الأرض .

(٤) تاح : عرض .

(٥) ألاء وأثل : من أشجار البادية .

(٦) نفور : نهبط في الأودية ، نفور :

نظام .

(٧) الأمراس : الجبال .

في فَرَوَة الموت ، قد طلع من غابه ، منتفخاً في إهابه ، كاشراً عن أنيابه ،
بطرف قد مثلي صلفاً ، وأنف قد حُشِي أنفاً ، وصَدْرٌ لا يبرحه القلب ،
ولا يسكنه الرُّعْب ، وقلنا خطب مُلِم ، وحادث مهم ، وتبادر إليه من سرعان
الرفقة فتى :

أخضرُ الجِلْدَةِ في بيت العرب يملأ الدَّلَو إلى عَقْدِ الكَرْب^(١)

بقلب ساقه قدر ، وسيف كله أثر ، وملكته سورهُ الأسد ، فخانتة
أرض قدمه ، حتى سقط لِسَدَه وفه ، وتجاوز الأسد مصرعه ، إلى من كان معه ،
ودعا الحَيْن^(٢) أخاه ، بمثل ما دعاه ، فصار إليه ، وعَقَلَ الرعب يديه ، فأخذ
أرضه ، واقرش الليث صدره ، ولكني رميته بعمامتي وشغلت فه ، حتى
حقنت دمه ، وقام الفتى فوجاً^(٣) بطنه حتى هلك الفتى من خوفه ، والأسدُ للوجاة
في جوفه .

وأنت ترى أن بديع الزمان يعنى عناية واضحة برصف أسجاعه مضيفاً
عليها ألواناً من البديع وخاصة من الجناس والتصوير ، إذ كان يهتم بهما اهتماماً
واسعاً ، كما كان يهتم بشيء آخر وهو كثرة حشده للغريب في مقاماته
على نحو ما نرى في المقامة النّهديّة . وارجع إلى المقامة الحمدانية فستراه
هناك يصف فرساً فيعنت نفسه في الإتيان باللفظ الغريب حتى إذا استوفى
من ذلك ما يريد ، عاد فشرح لفظه كأنه أستاذ من أساتذة اللغة ، لا أديب
ينشئ قصة ، وهذا نفسه أحد الأدلة على أنه لم يرد بكثير من مقاماته إلى غاية
قصصية خالصة ، إنما أراد بها إلى غاية تعليمية ، وقد أدته هذه الغاية إلى أن يكثر
من الأساليب المصنّعة ، كما أدته إلى أن يكثر من اللفظ الغريب ، وقد تلوم
من أجلهما الجاحظ وحمل عليه حملة شعواء في مقامة سماها المقامة الجاحظية ،
وفيها يقول عنه : إنه « قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، متقاد لعيان

(١) أخضر هنا : أسمر . والسمرة هي اللون

الخاص بالعرب . الكرب : قطعة حبل تربط

في الخشبين المعروضتين في فم الدلو : والشطر

مثل يضرب للمغلوب في أى شيء .

(٢) الحين : الموت .

(٣) وجأ بطنه : شقها .

الكلام يستعمله ، نفور من مُعتاضه يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة . ونحن لا نلوم البديع على اهتمامه بالاستعارات لأنها كانت إحدى زخارف مذهب التصنيع ، ولكن نلومه على اهتمامه بالكلمات المعتاضة الغريبة غير المسموعة ، فإن إغراب الكلمات من حيث هو لا يمكن أن يعتبر زخرفاً أو تجميلاً وتصنيعاً ، بل إنه يعتبر عيباً وآفة حين يحتكم إليه الكاتب في فنه ، وما الجمال الذي يستهويه فيه ؟ إنه يخلو من كل جمال ، وإنه للدليل على أن وسائل الأداء في النثر أخذت تتعقد منذ البديع ، إذ يجنح الكاتب إلى وسائل لا تتصل بالفن وإنما تتصل بالإغراب من حيث هو ، ومن أجل ذلك كنا نزعم أن بديع الزمان — على الرغم من أنه علم من أعلام فن التصنيع — أخذ التصنيع يتسرب إلى آثاره ونماذجه في رسائله ومقاماته ، وهل أدل على ذلك من أنه كان يتخذ اللفظ الغريب كطرفة فنية يعيب بها الجاحظ وغيره من سابقه ، وحقاً إنه لم يطبق ذلك على كل مقاماته ولا على كل جوانبها ، ولكنه على كل حال عني به فيها كما عني به في رسائله .

وبجانب عنايته باللفظ الغريب في المقامات نجده يعنى بما سبق أن عرضنا له من كثرة تضمين الشعر ، وكثرة الاقتباس من القرآن الكريم ، وحشد بعض الأمثال . وكل هذه المظاهر سنراها واضحة عند أصحاب مذهب التصنيع ، وأيضاً فإنه كان يعنى في المقامات بتعقيد أداة التصنيع التي كان يعجب بها وهي أداة الجناس ، وربما كانت أحد الأسباب التي جعلته يعنى بالغريب فإن المعجم العادي قد لا يعطيه الكلمة التي يريد ، فيبحث عنها في المعجم الغريب ، وحينئذ لا يهمله إهمالها ولا اعتيائها كقوله : « أميس ميسس الرجل ، على شاطئ الدجلة » ^(١) ، فإن مجانسته لكلمة الدجلة هي التي اضطرتته إلى كلمة الرجل ، وهي جمع رجل ، وهو جمع شاذ ، لكنه عدل إليه من أجل جناسه ، ومثل ذلك أيضاً قوله : « فأخذ الحُف » ، وملكوته

(١) مقامات بديع الزمان (الطبعة الثانية

بيروت) ص ١٠١ .

الأكف» ^(١) ، والجلف : العدد الكثير من الناس ، ومثله قوله : « الإكراه مرة بالمرّة ، ومرة بالدرّة » ^(٢) ، والمرّة هنا العقل ، وقد استخدمها لغرض الجناس بينها وبين الدرة . وعلى هذا النحو كانت تضطره المجانسة أحياناً إلى ما يركب من لفظه الغريب ، وليس ذلك كل ما يلاحظ في جناسه ، فإننا نلاحظ عليه أيضاً الإفراط فيه حتى ليعدل كثيراً إلى الجناس الناقص من جهة كما يعدل إلى الجناس المعكوس من جهة أخرى على نحو ما نرى في مثل قوله : « ولكنى أبو العجائب عاينتها وعانيتها ، وأم الكبائر قايستها وقايسيتها » ^(٣) ، فقد قلب عاينتها فخرجت له عانيتها ، وقلب قايستها فخرجت له قايسيتها ، ومن ذلك قوله : « بينما أنا أسير في بلاد تميم مرتحلاً نجيبه ، وقائداً جنيبه » ^(٤) ، فقد قلب نجيبه فخرجت له جنيبه ، ومن ذلك قوله : « أعانى الفقر ، وأمانى الفقر » ^(٥) ، فقد قلب الفقر فخرجت له القفر ، ومثل ذلك أيضاً قوله : « يزهى بحليته ، ويباهى بلحيته » ^(٦) فقد قلب حليته فخرجت له لحيته .

وما من ريب في أن هذه الجوانب كلها عند البديع هي التي تجعلنا نزعّم أنه كان مقدمة من مقدمات مذهب التصنع ، وليس معنى ذلك أنه يخرج عن مذهب التصنيع وإطاره ، بل هو أحد أساتذته في عصره ، حتى لتشبه المقامة من مقاماته واجهة أحد المساجد المزخرفة لعهد ، لكثرة ما شُغل فيه بالتنميق والتصنيع والترصيع ، وغاية ما في الأمر أنه وجد في هذه المرحلة التي أخذت تتحول فيها صناعة النثر العربي من مذهب التصنيع إلى مذهب التصنع ، فتسربت شيات وسمات من ذلك إلى عمله ، وإنها لشيات وسمات تدل على أننا أصبحنا على وشك التلاقى بمذهب التصنع وكبار أنصاره وأصحابه .

(١) المقامات ص ١٠٦ .

(٢) مقامات بديع الزمان ص ١٢٩ . والدرّة :
(٥) نفس المصدر ص ٥٣ . وأمانى : أدارى
من فزعى .

(٣) نفس المصدر ص ٢٦ .
(٦) نفس المصدر ص ١٩٣ .

قَابُوسُ بْنُ وَشْمَكِيرٍ وَتَصْنَعُهُ

هو أمير من أمراء الأسرة الزيارية التي كانت تحكم طَبْرِستان وجُرْجان ، وهما ولايتان تقعان في الجنوب والجنوب الشرق لبحر طبرستان ، أو كما يسمى الآن بحر الخزر ، والزياريون ينحدرون من بيت عظيم من بيوت الفرس ، إذ يقال إنهم ينتسبون إلى ملك ساساني هو قُبَاذ^(١) . وقد ولي قابوس الحكم عام ٣٦٧ هـ^(٢) ولقبه خليفة بغداد — على عادته في تلقيب حكام الولايات الفارسية ألقاباً مختلفة — بلقب شمس المعالي^(٣) ، واستهدف في أوائل حكمه لغارات كثيرة من بني بويه ، وما زالوا به حتى فر من إمارته عام ٣٧١ هـ إلى السامانيين ، حيث عاش مكرماً حتى عام ٣٨٨ هـ وهو العام الذي توفي فيه فخر الدولة البويهى ، وفيه استرد ملكه^(٤) . على أن جنده وقواده حاصروه في أواخر حياته ، لما كان فيه من بطش شديد ، واضطروه إلى التنازل عن ملكه لابنه منوچهر ، يقول العتبي : « قد كان قابوس على ما خُصَّ به من المناقب ، والرأى البصير بالعواقب ، والمجد المنيف على النجم الثاقب ، مُرَّ السياسة ، لا تستساغ كأسه ، ولا تؤمن بحال سطوته وبأسه ، يقابل زلة القدم بإراقة الدم . . . وما زالت هذه حاله حتى استوحشت النفوس منه . . . وتآمر أعيان العسكر على خلعه »^(٥) فخلعوه ، واضطر ابنه أن ينزل على إرادتهم وأن يخلع أباه ، بل لقد حبسه في إحدى القلاع بجرجان واستمر بها حتى اغتيل عام ٤٠٣ هـ^(٦) .

وكان قابوس واسع المروعة ، عالى النفس ، بعيد الهمة ، لا يحب الملق

(٤) نفس المصدر ٢٢٧/١٦ .

(٥) البهمنى للعتبي مع شرح المنبى ١٧٢/٢ .

(٦) نفس المصدر ١٧٥/٢ ومعجم الأدباء

. ٢٢١/١٦

Browne, Lit. Hist. of Persia, 11, (١) pp. 91, 103.

(٢) معجم الأدباء ٢٢٠/١٦ .

(٣) نفس المصدر ٢٢٠/١٦ .

ولا المداهنة ، حتى قالوا إنه كان يأبى أن يستمع إلى مدائح الشعراء له ، مع عطفه عليهم ، وبذله لهم الجوائز والمكافآت ^(١) . وقد زاره البيروني وقدم له كتابه « الآثار الباقية » ، كما قدم له الثعالبي « كتابي المبهج » و« التمثل والمحاضرة » . ومعنى ذلك أنه كان يشجع الأدباء والعلماء . وكان أديباً ممتازاً نال حظاً واسعاً من ثقافة عصره وخاصة الفلسفة وعلم الفلك والنجوم ^(٢) . يقول الثعالبي : « جمع الله له إلى عزة الملك بسطه العلم » ^(٣) ، ويقول العتبي : « لم يسمع في شيوخ الملوك بأبرع منه في الآداب والحكم » ^(٤) ، وقد مدحه أحد الشعراء مستغلاً لقبه « شمس الدولة » فقال ^(٥) :

لله شمسان تذكيرٌ لخيرهما وللمؤنثة النقصانُ ملتزمٌ
أزرى بتلك سنّاً من غير معرفة فيها وزينَ هذا العلم والكرمُ
يا أيها الملك الميمونُ طائرُهُ وخير من في الوري يمشي به انقدمُ
لو كنتَ من قبل ترعانا وتكفننا لما تهدي إلينا الشيب والهرمُ

واشتهر قابوس ببيانه وفصاحته ، يقول الثعالبي : « إن أتوج هذا الكتاب بلسمع من ثمار بلاغته » ^(٦) ويقول العتبي : « إن رسائله موجودة في البلاد ، عند الأفراد لكني أكتفي منها بلمعة من بوارق بيانه ، وزهرة من حقائق إحسانه » ^(٧) . وقد جمع اليزدادي في عصر قريب من عصر قابوس هذه الرسائل وسماها كمال البلاغة ، وقدم لها بمقدمة طريفة أشاد فيها ببلاغته ، ثم حاول أن يحلل هذه البلاغة فاستخرج منها أربعة عشر نوعاً في طريقة التسجييع واستخدام القرائن واللوازم المتصلة بالسجعات ، وإن نظرة في هذا الكتاب تجعل القارئ يحس مدى التعقيدات التي كان يتخذها قابوس في حرفته ، ولسنا ندرى من أين جاءت هذه التعقيدات إلا أن يكون للفراغ الذي

(١) معجم الأدباء ٢٢٩/١٦ . (٥) اليتيمة ٤٧/٤ واليميني ١١٥/١ .

(٢) انظر كتاب براون السابق ١٠٣/٢ . (٦) اليتيمة ٥٦/٤ .

(٣) اليتيمة ٥٦/٤ . (٧) اليميني ١٧/٢ .

(٤) اليميني مع شرح المنيني ١٧/٢ .

أصابه وهو معزول عن حكمه أثر في ذلك ، وهو فراغ طال طولا شديداً ، نحو ثمانية عشر عاماً لم يكن له فيها أى عمل ، فإذا يصنع ؟ وكيف يمضى أوقات فراغه ؟ هل يعتمد إلى اللهو ؟ كلا فإن العتيب يقول : « إنه فطم نفسه عن رضاع الملامى »^(١) . إذا فكيف يصنع بهذا الفراغ الهائل الذى امتد أياماً بل أسابيع وشهوراً ، بل أعواماً ، بل ثمانية عشر عاماً ؟ لقد اتجه إلى الأدب يقطع به هذا الفراغ ، فهو يتخذ له هواً ، أو قل يتخذ له لعبته ، وقد تحولت عنده هذه اللعبة إلى ما يشبه لعبة الشطرنج التى كانت شائعة في عصره ، فهو يمضى فيه الساعات الطوال ، بل قل الأشهر الطوال والسنين الطوال ، يعث به ويلعب بأسجاعه ، ويحاول أن يصل في أثناء هذا العبث واللعب إلى ما لم يصل إليه أى كاتب في عصره ، أليس هو الأمير ابن الأمراء الذى كان آباؤه يجلسون على أسرة من ذهب^(٢) ؟ إنه ليصنع - على طريقة كتاب عصره - فيحسن التصنيع ، ولكنه يرى ذلك شيئاً عادياً بالقياس إليه وهو لا يعطيه ما يريده من تفوق عليهم ، لذلك نراه ينجح إلى فنون من التعقيد في أداء تصنيعه ، وهى فنون تنتقل به ويعمله إلى مذهب جديد هو مذهب التصنيع وهو مذهب جرّه إليه إغرامه بالإغراب في استخدام أدوات التصنيع ، واستمع إليه يكتب إلى خاله الإصْبَهْبَهْذ ، وهو أحد قائدين أيداه في العودة إلى ملكه ، إلا أنه عاد فأخلد في أحد الحصون إلى جانب المجانبية^(٣) ، فكتب إليه بهذه الرسالة^(٤) :

« الإنسانُ خُلِقَ أَلَوْفاً ، وطبع عطوفاً فما للإصْبَهْبَهْذ سيدى لا يُحْسِنُ عَوْدَه ، ولا يُرْجى عَوْدَه ، ولا يخال لفَيْشْتَه نَحِيلَه ، ولا يخال تنكره بحيلة ، أمن صخر تدمر قلبه فليس يُبْلِنه العتاب ، أم من الحديد جانبه فلا يُمِيلَه الإعتاب ، أم من صفاقة دهرٍ مَجْنُ نُبُوَه فقد نبا عنه غَرْب كل حجاج ، أم من قساوته مزاج إبابته فقد أبى على كل علاج . ما هذا الاختيار الذى يعد الوهم فهماً ،

(٤) انظر كمال البلاغة وهو يتضمن رسائل شمس

المعالى فابوس بن وشمكير (طابع المطبعة السلفية)

ص ٥٣ .

(١) الميمى ١٦/٢ .

(٢) معجم الأدباء ٢١٩/١٦ .

(٣) الميمى ١٤/٢ .

وهذا التمييز الذى يحسب الخير شرًّا ؟ وما هذا الرأى الذى يزيّن له قبح العقوق ،
ويُعمّت إليه رعاية الحقوق ؟ وما هذا الإعراض الذى صار ضربة لازب ،
والنسيان الذى أنساه كل واجب ؟ أين الطبع الذى هو للصّدود صدود ، ولتألف
ألوف ودود ؟ وأين الخُلُق الذى هو فى وجه الدنيا البشاشة والبشر ، وفى مبسمها
الثنايا الغرّ ؟ وأين الحياء الذى يجلّى بمحاسنه الكرم ، وتحلّى بمحاسنه الشيم ؟
كيف يُزهد فيمن ملك عِنان الدهر فهو طوع قياده ، وتبع مراده ، يُنظر
أمره ليمتثل ، ويرقبُ نهيهِ فيعتزل ؟ وكيف يُعرض عن تُعرض رفاهة العيش
بإعراضه ، وتقبض الأرزاق بانقباضه ، ومن أضاء نجم الإقبال إذا أقبل ، وأهلّ هلال
الجدّ إذا تهلل ؟ وكيف يُزهى على من تحقر فى عينه الدنيا ، ويرى تحته
السما العليا ، قد ركب عنق الفلك ، واستوى على ذات الحُبك ، فتبرّجت
له البروج ، وتكوكبت لعبادته الكواكب ، واستجارت بعزته المجرة ، وأثّرت
بمآثره أوضاعُ الثرى ؟ بل كيف يهون من لو شاء عقد الهواء ، وجسم الهباء ،
وفصل تراكيب السماء ، وألف بين النار والماء ، وأكد ضياء الشمس والقمر ،
وكفاهما عناء السير والسفر ، وسد مناخر الرياح الزعازع ، وطرق أجفان البروق
اللوامع ، وقطع ألسنة الرعود بسيف الوعيد ، ونظم صوب الغمام نظم الفريد ،
ورفع عن الأرض سطوة الزلازل ، وقضى بما يراه على القضاء النازل ، وعرض
الشیطان بمعرض الإنسان ، وكحل الحور العين بصور الغيلان ، وأنبت العشب
على البحار ، وألبس الليل ضوء النهار ؟ ولم لا يعلم أن مهاجرة من هذه قدرته
ضلال ، ومباينة من هذه صفته خبال ، وأن من له هذه المعجزات يشتري
رضاه بالنفس والحياة ، ومن أتى بهذه الآيات يبتغى هواه بالصوم والصلاة ؟ . .
وليس إلحاحى على سيدى مستعيداً وصاله ، ومستصلاً خصاله ، وعهدى عليه
هذه العجائب ، ووئوبى لاستمالة من جانب إلى جانب ، لأننى كنت ممن
يرغب فى راغب عن وصلته ، أو ينزع إلى نازع عن خلّته ، أو يؤذّل حالا
عند من ينحت أثلاثه ، أو يقبل بوجهه على من لا يجعله قبيلته ، فإنى لو عامت
أن الأرض لا تسفُ تراب قدمى لجنّبتها جنبي ، وأن السماء لا تنوق إلى تقبيل

هامتي لقلبت عن ذكرها قلبي ، لكني أكره أن يتعزى نَحْرُهُ من فلائد الحمد ،
ويجتنب جبينه إكليل المجد . . ولا يعجبني أن يكسو ضوء مكارمه كَلَفُ
الحمول ، ويأذن لطوال معاليه بالأفول ، فإن فضل سيدي الحمود على الوقود ،
والعدم على الوجود ، ونزل من شاهق إلى خفض ، ومن حالق إلى أرض ،
وهاجر بهجره ، وأصرّ على صرمه ، ومال إلى الملal ، ولم يصلّ نار الوصال ،
حلت عنه معقود خنصرى ، وشغلت عن الشغل به خاطرى ، بل محوت ذكره
عن صفحة فؤادى ، واعتدت ودّه فيما سال به الوادى :

ففى الناس إن رثتُ حبالك واصلُ وفى الأرض عن دار القليّ متحوّلُ

وأنت ترى شِيآت التصنع واضحة فى هذه الرسالة ، لا بما يعمد إليه
قابوس من مبالغات وصور غريبة فحسب ، بل بما يعمد إليه من استخدام
الجناس استخداماً معقداً ، وإنه لتعقيد يبدو فى جميع جوانب الرسالة ،
وانظرُ إليه فى مستهلها يجانس بين عودِه وعَوْدِه ، وهو جناس نراه فى جميع
رسائله ، إذ يعمد إلى المغايرة فى بعض الحركات أو بعض الحروف ، فإذا
هو يقع على مثل هذا الجناس الذى يمكن أن نسميه جناس الخطّ ، وقد يكون
لجمال خطه أثر فيه ، يقول العتي : « أما خطّه فسمّه إن شئت شيئاً محبوباً ،
أو تبرا مسبوفاً ، أو درّاً مفصّلاً ، أو سحرّاً محصلاً ، وكان إسماعيل بن عباد
(الصاحب) إذا قرأ خطه يقول : هذا خطّ قابوس أم جناح طاووس » (١) .
وأفرط فى استخدام هذا الجناس الخطى ، إذ تعود أن يعيد الكلمة التى
كتبها بشكل جميل مرة أخرى مع إعطائها حركة جديدة أو مع تبديل بعض
حروفها ، فإذا هو يكثر من هذا الجناس فى رسائله إكثاراً ، واستمر فى
قراءة الرسالة فسترى هذه السجعة « ولا يخال لفيثته نخيلة ، ولا يخال تنكره
بحيلة » . وواضح أنه جانس هنا جناساً خطياً بين يخال ويخال كما جانس
نفس الجناس بين نخيلة وبخيلة . وليس ذلك كل ما عنى به ، فقد عنى بشيء

(١) اليميني مع شرح المني ٢٦/٢ .

آخر لعله. أكثر من ذلك تعقيداً ، وهو أنه جانس بين أول كلمة في السجعة الأولى وآخرها أى بين يخال وخيلة ، وكذلك صنع بالسجعة الثانية إذ جانس بين يحال وبخيلة ، وإن في ذلك ما يجعلنا نحس أنه يصعب على نفسه الممرات التى يسلكها إلى نهاية قرائنه وأسجاعه ، فهو يبدأ عبارته بكلمة ثم يطلب الجناس بينها وبين آخر كلمة فيها ، وهو يتخذ ذلك مصراً عليه ، إذ نراه يعدل إليه مراراً في هذه الرسالة وفي رسائله الأخرى، وتأمل هذه السجعة الطويلة في الرسالة: « أم من صفاقة الدهر محجنٌ نُبُوءةً ، فقد نبا عنه غرب كل حجاج ، أم من قساوته مزاج إباته ، فقد أبى على كل علاج » ، فلأنك تراه يسجع العبارتين تسجيعةً داخلياً فإذا هما تنحلان إلى أربع سجعات لا إلى سجتين كما يبدو في الظاهر . ولكن ليس هذا ما يلفتنا عند قابوس ، إنما يلفتنا أنه أنهى السجعة الداخلية الأولى بكلمة اشتق منها أخرى في مطلع الجملة التالية لها ، وكذلك صنع السجعة الداخلية الثانية . أرايت إلى الممرات كيف تعقّد وتصبغ بطرق شتى ؟ واستمر في الرسالة فستراه يأتى بطريقة ثالثة ؛ إذ يجانس بين كلمة في داخل العبارة وبين نهايتها كقوله : « أضواء نجم الإقبال إذا أقبل ، وأهل هلال المجد إذا أهّل » . ولا تظن أن هذه طرفة بل هي عقدة ، فقد أصبح الفن في رأى قابوس عقداً خالصة ، وهو المذاق يعقد عباراته هذا التعقيد الذى يصعب فيه الممرات إليها على نحو ما مر من أمثلة ، وكما نرى في هذه العبارات بالرسالة نفسها « تبرجت له البروج ، وتكوكبت لعبادته الكواكب ، واستجارت بعزته الحجرة ، وأثرت بما ثره أوضاع الثريا » ، وما من ريب في أن هذه الجناسات تحمل أوسع سمات للتصنع ، إذ نراه يلزق الجناس بكلامه تلزيقاً ، وإن الإنسان ليشعر كأنما فقد الجناس بهجته القديمة من الزخرف والتصنيع ، فقد تحول إلى صورة جديدة تستطيع أن تسميها صورة هندسية ولكنك لا تستطيع أن تسميها صورة زخرفية لأنها لا تحوى حسناً ولا جمالاً، وهل هناك حسن أو جمال في قوله: « كنت ممن يرغب في راغب عن وصلته ، أويتزع إلى نازع عن خلته » . أو قوله : « يؤثّل حالا عند من ينحت أثلته ،

أو يقبل بوجهه على من لا يجعله قبلته « أو قوله : « هاجر بهجره ، وأصرَّ على جسرِّمه ، ومال إلى الملل ، ولم يتصلَّ نارالوصال . وما نارالوصال هذه التي يريده أن يصلها ؟ إنها صورة غريبة ، بل هي صورة شاذة نابية ، ولكن قابوس لا يعنى بما فيها من شذوذ ونبوء ما دامت تحقق ما يريد من جناس بين كلمة الوصال وكلمة أخرى ، إلا فلتكن هذه الكلمة أى لفظة ، ولتحو أى صورة ، فإن ذلك لا يهم قابوس ما دام يحقق له غاياته من جناساته .

وأكبر الظن أننا لا نبعد - بعد ذلك - إذا قلنا إن صناعة قابوس كانت تقوم على التصنع وما يطوى فيه من تعقيد وتعمل ، إذ نراه يتعمل في حركات الكلمة أو في حروفها ليحدث بعض جناسات بينها وبين غيرها ، ثم هو لا يكتفى بذلك إذ نراه يعدل إلى تصعيب ممراته ليحدث جناساته اللفظية المعقدة ، وكأنما كانت غاياته دائماً هي التصعيب والتعقيد ، وإنه ليركب إليهما طرقاً وعرة .

٨

ذبوع التصنع وانتشاره

رأينا زخرف الجناس عند قابوس يتعقد تعقداً شديداً ، ومن قبله رأينا الخوارزمي وبديع الزمان يعقدان في فهمهما ألواناً من التعقيد ، مما دفعنا إلى القول بأن عناصر من التصنع أخذت تتسرب إلى آثار أصحاب مذهب التصنيع ، وإن الإنسان ليخيّل إليه كأن كل شيء في الفن يريد أن يتعقد ويتصعب ، وليس هذا شيئاً غريباً في تاريخ الحضارات ولا في تاريخ الآداب في الأمم المختلفة ، بل هو الشيء الطبيعي ، إذ نرى الأمم حينما ترقى عقلياً وحضارياً تتحول من الأحوال الطبيعية في التعبير إلى أحوال جديدة كلها تعقيد وتصعيب في الأداء والأسلوب . وقد حدث ذلك قديماً عند اليونان في القرنين الرابع والخامس

للميلاد ؛ إذ نرى شعراء الإسكندرية يحولون نماذجهم إلى مجاميع من التعقيدات ، وكذلك كان الشأن عند العرب في أواخر القرن الرابع للهجرة ؛ إذ نراهم ينالون قبل هذا التاريخ كل ما كانوا يصبون إليه من ترف عقلى وحضارى ، حتى إذا بشموا رأيانهم يتحولون إلى تعقيدات مختلفة في حياتهم من جهة وفى أدبهم من جهة أخرى ، ولعل من أروع ما يصور ذلك الجانب فى حياتهم ما يروى عن الوزير المهلبى المتوفى عام ٣٥٢ هـ من أنه كان « إذا أراد أكل شيء بملقعة كالأرز واللبن وقف من جانبه الأيمن غلام معه نحو ثلاثين ملقعة زجاجاً مجروداً ، فيأخذ منه ملقعة يأكل بها من ذلك اللون لقمة واحدة ، ثم يدفعها إلى غلام آخر قام فى الجانب الأيسر ، ثم يأخذ أخرى فيفعل بها فعل الأولى ، حتى ينال الكفاية ، لثلا يعيد الملقعة إلى فيه دفعة ثانية »^(١) . وحقاً إن الوزير المهلبى سبق ظهور مذهب التصنع فى النثر بنحو نصف قرن ، ولكنه على كل حال يرمز إلى لهذا الميل الجديد فى الحضارة العربية ، وأنها أخذت تتعقد على نحو تعقيد المهلبى لوسيلة طعامه ، فإذا هو لا يأكل بملقعة واحدة وإنما يأكل بملاعق مختلفة !

وهذا التعقيد فى الحضارة العربية أخذ يتسرب إلى الكتابة الفنية أول الأمر فى شيء من الاستحياء ، فإن الخوارزمى يفرع إلى مبالغاته وتهويلاته كما يفرع إلى الإفراط فى استخدام ألوان البديع ، علّة يشقى غلّة من غال التعقيد . ثم يأتى من بعده بديع الزمان فيتقدم خطوات فى هذه الطريق ، فإذا هو يعقد بعض وسائل التصنيع وخاصة وسيلة الجناس ، وإنه ليلجأ إلى وسيلة جديدة غير مفهومة هى اللفظ الغريب ، وهو لا يكتفى بذلك ، بل نراه يعتمد إلى ما سماه الخوارزمى شعبذة ، إذ كان يحاول أن يكتب كتاباً يُقرأ من آخره إلى أوله أو كتاباً لا يوجد فيه حرف منفصل مثل الرء ، أو كتاباً خالياً من الألف واللام أو خالياً من الحروف العواطل أو أول سطره كلها ميم وآخرها جيم ، إلى غير ذلك من الأعيب كان يسوقها ليدل على مهارته ، ومع ذلك فقد كان

(١) معجم الأدباء ١٣/١٠٣ .

بديع الزمان من أصحاب مذهب التصنيع ، إذ كان يعتمد إلى هذه الجوانب في القلة ، ولم يكن يعممها في آثاره ، بل هي تظهر من حين إلى حين دالة على أننا أصبحنا داخل مرحلة التحول إلى المذهب الجديد مذهب التصنيع والتعقيد . ونحن لا نترك البديع إلى قابوس حتى نجده يخطو خطوة جديدة نحو مذهب التصنيع ، إذ نراه يعتمد إلى التعقيد في كل ما يكتب ، وقد اختار زخرف الجناس ليحدث فيه كل ما يستطيعه من هذا التعقيد وما يطوى فيه من تصعيب ، كان التصعيب شئ يقصد لذاته . وهذا هو الذي دفعنا إلى أن نسلكه في أصحاب التصنيع ، إذ كان يُعنى في فنه بالتعقيد عناية جعلت هذا الفن أشبه ما يكون بالتمارين الهندسية ، وإنها لتمارين يجد فيها كل ما يريد من متعة بالفن ، فالفن عنده ليس إلا التصعيب والتعقيد . وقد أخذ هذا الذوق ينتشر في الفن منذ قابوس ورسائله ، بل نحن نغلو إذا نسبنا إلى قابوس ابتكاره ، فقد كان شعوراً عاماً في الحضارة العربية نفسها والحياة الفنية معها ، وآية ذلك أننا لا نكاد نعر على مجموعة من رسائل كاتب في هذا العصر حتى نجد بها شيات من هذا التصنيع ، وقد استمر ذلك دأب الكتاب حتى نفذ من بينهم بديع الزمان إلى كثير من سمات المذهب ، ثم جاء قابوس فأضاف سمات أخرى كما أضاف غيرها من الكتاب بعض شارات وشيات . ومن يرجع إلى اليتيمة يجد صناعة الألفاظ تدخل في النثر الكتابي^(١) ، وهي ضرب من ضروب التعقيد ؛ كما يجد أداة الجناس التي أخذت تتعقد تخصص لها بعض الكتب تتحدث عن أنواعها وأجناسها^(٢) . وأيضاً فلإنهم كانوا يكثر من ترصيع رسائلهم بالشعر والأمثال والغريب ؛ وكل ذلك كان دليلاً على وشك جمود الحياة الفنية في النثر العربي وأنه أصبح لا مفر من أن يصل إلى حال غريبة من التعقيد .

ونحن لا نترك القرن الرابع قرن بديع الزمان وقابوس وأضرابهما إلى القرن الخامس حتى نجد هذا المذهب يعم في جميع كتابات الأدباء ، فقد أصبح

(١) اليتيمة ٣٥٣/٤ .

(٢) اليتيمة ٣٩٦/٤ .

هو البدع الجديد الذي يسمى إليه الكتاب كي يُطُرفوا قراءهم بما يستحدثون من عُقَدِهِ ، وقد بدأ هذا السعى أبو العلاء المعري بدءاً عنيفاً في آثاره ، إذ كان يفهم الفن على أنه عقد خالصة ، ثم جاء من بعده الحريري والحصكفي ، فأضافا إلى ورق اللعب في قصة هذه العقد أوراقاً ، وأدخلوا في أشكالها الهندسية أشكالاً ، وسنفسر ذلك في الفصل التالي تفسيراً دقيقاً .

افصل الثالث

التصنع والتعقيد

١

أبو العلاء : حياته وذكاؤه وثقافته

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعروف باسم المعري والملقب بأبي العلاء ، وقد ولد في «معرة النعمان» سنة ثلاث وستين وثلثمائة^(١) . والمعرة مدينة كبيرة بين حلب وحماة . وهو ينحدر من أسرة اشتهرت بالعلم والشعر والقضاء ، عرض ياقوت^(٢) وابن العديم^(٣) لهذه الأسرة وتحدثا عن هذه الجوانب فيها ، ويقول الرواة إنه لم يبلغ الرابعة من عمره حتى اعتل عِلَّة الجُدَرِيّ التي فقد فيها بصره ، وقد ذكر ذلك في إحدى رسائله^(٤) ، كما ذكر أنه لا يعرف من الألوان إلا الأحمر لأنه ألبس في الجدري ثوباً مصبوغاً بالعصفر^(٥) .

وقد أقبل أبو العلاء منذ نشأته على التعلم والإلمام بالمعارف المختلفة ، وقد أشاد ابن العديم بهذه الناحية فيه^(٦) ويقول القفطي : « لما كبر أبو العلاء ووصل إلى سن الطلب أخذ العربية عن قوم من بلده كبنى كوتر أو من يجرى مجراهم من أصحاب ابن خالويه وطبقته ، وقسّد اللغة عن أصحاب ابن خالويه أيضاً ، وطمحت نفسه إلى الاستكثار من ذلك فرحل إلى طرابلس الشام ، وكانت بها خزائن كتب قد وقفها ذوو اليسار من أهلها ، فاجتاز باللاذقية ، ونزل دير الفاروس ، وكان به راهب يشدوشيثاً من علوم الأوائل ، فسمع منه أبو العلاء كلاماً من أقوال الفلاسفة حصل به شكوك ، فعلق بخاطره ما حصل به بعض

-
- | | |
|--|---|
| (١) معجم الأدباء (طبع مصر) ١٠٨/٣ . | (٤) معجم الأدباء ١٨٢/٣ . |
| (٢) نفس المصدر ١٠٨/٣ وما بعدها . | (٥) بغية الوعاة للسيوطي (طبع مطبعة السعادة) |
| (٣) تعريف القدماء بأبي العلاء (طبع دار | ص ١٣٦ . |
| الكتب) ص ٥١١ . | (٦) تعريف القدماء بأبي العلاء ص ٥١٤ . |

الانحلال حتى فاه به في أول عمره وأودعه أشعاراً له ثم ارعوى ورجع واستغفر واعتذر! » (١) وتصوير القفطي لشكوك أبي العلاء في با كورة حياته وتعليقه لها بـلقائه لـراهب دير الفاروس ليس بصحيح ، وإنما أملاه عليه الخيال . وقد رحل أبو العلاء أيضاً إلى بغداد ، وكانت سنة إذ ذاك نحو سبعة وثلاثين ؛ ولم يرحل إليها طلباً للدرس على بعض الأساتذة هناك ، وإنما رحل إليها طلباً للاطلاع على بعض الكتب ؛ وصرح بذلك في إحدى رسائله إذ يقول : « منذ فارقت العشرين من العمر ما حدثت نفسي باجتماع علم من عراق ولا شام . . والذي أقدمني تلك البلاد - يريد العراق - مكان دار الكتب فيها » (٢) . ومدح أبو العلاء بغداد بكثرة ما فيها من علم ، إذ يقول في إحدى رسائله : « وجدت العلم ببغداد أكثر من الحصى عند جـمـرة العقبة » (٣) ، ويظهر أنه لم يطل مقامه بها فقد رجع منها بعد قليل إلى موطنه حيث اعتزل الناس عزلته المعروفة التي استمرت نحو خمسين عاماً ، وأخذ نفسه في هذه العزلة بقوانين صارمة في حياته ، إذ عاش معيشة نباتية تعتمد على تحريم أكل اللحم والسمك وما يُشْتَق منها ، وردّ العرب هذه النباتية فيه إلى مذهب البراهمة! (٤) . ومهما يكن مرجعها فإنها تدل على أنه كان يأخذ نفسه بحياة زاهدة ، أما ما يزعمه ناصر خسرو من أنه كان واسع الثراء عنده كثير من العبيد (٥) فلا يقوم عليه دليل لأنه يخالف كل ما جاء عنه ، يقول القفطي : « كان لأبي العلاء وقف يشاركه فيه غيره من قومه ، وكانت له نفس تشرف عن تحمل المـنـ ، فشى حاله على قلر الموجود ، فاقضى ذلك خشن الملبوس والمأكل ، والزهدي في ملاذ الدنيا ، وكان الذي يحصل له في السنة مقدار ثلاثين ديناراً قدر منها لمن يخدمه النصف ، وأبقى النصف الآخر لمؤنته ، فكان أكله العـدس ، إذا أكل مطبوخاً ، وحلاوته التين ، ولباسه خشن الثياب من القطن ،

الأنباري ص ٢٧٤ ولسان الميزان لابن حجر

٢٠٤/١ وتاريخ أبي الفدا في حوادث ٤٤٩ .

(٥) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري

آدم ميتز (طبع لجنة التأليف) ١١٠/٢ .

(١) تعريف القدماء ص ٣١ .

(٢) رسائل أبي العلاء (طبع مرجليوث) ص ٣٢ .

(٣) رسائل أبي العلاء ص ٣٠ .

(٤) انظر نزهة الألبا في طبقات الأدبا لابن

وفرشه من لباد في الشتاء، وحصيره من البردى في الصيف وترك ما سوى ذلك»^(١) ويقول أبو العلاء في إحدى رسائله إلى داعي الدعاء: «إن الذي لي في السنة نيف وعشرون ديناراً، فإذا أخذت خادماً بعض ما يجب، بقي لي ما لا يعجب فاقتصرت على فول وبلسُن، وما لا يعذب على الألسن»^(٢) وكل ذلك ينقض كلام ناصر خسرو كما ينقض ما زعمه نيكلسون من أن تلامذته الكثيرين الذين اجتذبهم شهرته كانوا يملونه بشيء من المال^(٣).

ظل أبو العلاء من عام ٤٠٠ هـ إلى عام ٤٤٩ هـ يأخذ نفسه بهذه الحياة الزاهدة الخشنة، على أن هذا لا يهمننا إنما يهمننا ما اتصف به من ذكاء وثقافة كان لهما أثرهما في صناعته لنثره، أما ذكاؤه فإنهم يقولون: «إنه كان آية في الذكاء المفرط، عجباً في الحافظة»^(٤). ويزعمون أنه استمع إلى حديث بالأذنية^(٥) وآخر بالفارسية فحفظهما^(٦). ويقولون: إنه كان يحفظ المحكم والمخصص^(٧)، وإنه «لما ذهب إلى بغداد طلب أن تعرض عليه الكتب التي في خزائنها فأدخل إليها وجعل لا يقرأ عليه كتاب إلا حفظ منه جميع ما يقرأ عليه»^(٨)، ويبالغ الرواة في وصف ذكائه فيقولون: إنه كان يلعب بالرد والشطرنج^(٩)، وما من ريب في أن أبا العلاء كان ذكياً ذكاء شديداً كما كان قوي الحافظة قوة شديدة أيضاً وقد كان - إلى ذلك - مثقفاً ثقافة واسعة جداً، ومن يرجع إلى اللزوميات والفصول والغايات يجد أبا العلاء يستغل هذه الثقافة استغلالاً واسعاً، ففي كل جانب من الكتابين إشارات إلى معتقدات عصره ومعارفه وكل ما اتصل به من ثقافة. على أن هناك جانباً في هذه الثقافة هو الذي ينبغي أن نقف عنده لأنه أثر في كتبه ونثره آثاراً خاصة، وهو جانب اللغة والتشقيف

-
- (١) تعريف القدماء ص ٣١ .
 (٢) معجم الأدباء ٣/ ١٨٩ .
 (٣) انظر ترجمة أبي العلاء في دائرة المعارف الإسلامية .
 (٤) تعريف القدماء ص ٢٨٥ .
 (٥) نفس المصدر ص ١٤ .
 (٦) نفس المصدر ص ٢٢٤ .
 (٧) النور السافر للعبد روى (طبع بغداد) ص ٤٤١ .
 (٨) تعريف القدماء ص ٢٢٤ .
 (٩) نفس المصدر ص ٤ .

بها أوسع ما يمكن من التثقيف ، يقول تلميذه التبريزي : « ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المعري »^(١) . ويقول ابن فضل الله العمري : « كان أبو العلاء مطلعاً على العلوم لا يخلو في علم من الأخذ بطرف ، متبحراً في اللغة ، متسع النطاق في العربية »^(٢) ، ويقول البغدادى . إنه « كان عالماً باللغة حافظاً لها »^(٣) ، ويقول ابن الجوزى : إنه « سمع اللغة ، وأملى فيها كتباً ، وله بها معرفة تامة »^(٤) ، ويقول الذهبي : إنه « كان عجباً في الاطلاع الباهر على اللغة وشواهداها »^(٥) ، ويقول له داعى الدعاة في إحدى رسائله : « إنه جعل مواده كلها منصبة إلى أحكام اللغة العربية والتقعر فيها ، واستيفاء أقسام ألفاظها ومعانيها »^(٦) . وهذه كلها نصوص تشهد بثقافته الواسعة في اللغة ، إذ لم تكن هناك شاذة إلا وهو يعرفها ويعرف شواهداها من الشعر العربي قديمه وحديثه . وأكبر الظن أن هذا الجانب في أبي العلاء هو الذى جعل التلاميذ يقبلون عليه من جميع الآفاق »^(٧) ، وقد عقد لهم ابن العديم فصلاً ذكر فيه مشاهيرهم^(٨) ، ويقول ابن فضل الله العمري : « أخذ عن أبي العلاء خَلَقٌ لا يعلمهم إلا الله عز وجل ، كلهم قضاة وأئمة وخطباء ، وأهل تبحر وديانات . . وكان له أربعة من الكتاب المجودين يكتبون عنه ما يكتبه إلى الناس وما يمليه من النظم والنثر والتصانيف والإجازات والسماع لمن يسمع منه ويستجيزه ، وغير هؤلاء من الكتاب الذين يغيبون ويحضرون ، منهم جماعة من بنى أبي هاشم »^(٩) . ويظهر أن هؤلاء الكتاب لم يكونوا يتقاضون شيئاً على كتابتهم ، فأبو العلاء يقول عن أحدهم إنه « أفنى فيه زمنه ، ولم يأخذ عما صنع ثمنه »^(١٠) .

وعلى هذا النحو كان أبو العلاء يملأ فراغه الطويل في عزله التى امتدت نحو خمسين عاماً بالبحث والدرس مع تلاميذه كما كان يملؤه بكتابة آثار فنية من

- | | |
|--|---------------------------|
| (١) أبو العلاء وما إليه للراجكوتى ص ٥٣ . | (٦) معجم الأدباء ١٧٧/٣ . |
| (٢) تعريف القدماء ص ٢٦٨ . | (٧) تعريف القدماء ص ٢٠٨ . |
| (٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٢٤٠/٤ . | (٨) نفس المصدر ص ٥١٧ . |
| (٤) تعريف القدماء ص ١٨ . | (٩) نفس المصدر ص ٢٢٣ . |
| (٥) تعريف القدماء ص ٢٩٠ . | (١٠) معجم الأدباء ١٤٥/٣ . |

شعر ونثر ، وقد ذهب يغرب في هذه الكتابة أوسع ما يكون الإغراب ، بل لقد ذهب يعقد فيها أوسع ما يكون التعقيد ، وكأنه كان يتخذ التعقيد غاية في نفسه ولنفسه ، فهو يسرف فيه أشد ما يكون الإسراف وستقف لتفسير ذلك في آثاره النثرية تفسيراً واضحاً .

٢

أبو العلاء وتعقيده

تناول أبو العلاء كتابة النثر من الأدباء والكتاب الذين سبقوه وعاصروه ، فعقدها تعقيداً شديداً ، وهو تعقيد أتاحه له فراغه الطويل الذي أمضاه في عزله عن الناس ، وربما كان لضيقه بالحياة وبرمه بها أثر في هذا التعقيد فقد انقلب هذا الضيق من حياته إلى فنه ، فإذا هو يعقده على الناس حتى ينفس بتعقيده عن ضيقه ، وأيضاً فإن فقدته لبصره وإحساسه العميق بهذا الجانب جعله يطلب التفوق على معاصريه ، وقد ذهب يحاول هذا التفوق عن طريق تعقيد فنه تعقيداً لم يكن يستطيعه إلا صانع ماهر ، انبسط له ما انبسط لأبي العلاء من الزمن الطويل إذ أقام في عزله أو في محبسه نحو خمسين عاماً ، فإذا يصنع في هذا الحبس الطويل ، وكيف يمضي فراغه فيه ؟ لا بد أن يفرغ إلى ضروب من العبث في فنه ، وإنها لضروب تؤديه إلى تعقيد هذا الفن عقداً مختلفة ، وهي عقد يلتبسها تارة في استخدام الغريب وأوابد الكلام والأمثال والإشارات التاريخية ، وتارة أخرى يلتبسها في تصعيب ممراته إلى أسجاعه ، إذ نراه يُعنى بالتزام ما لا يلزم فيها ، فإذا هو يبنى أسجاعه لا على حرف واحد بل على حرفين أو أكثر ، وهو لا يكتفي بذلك ، بل نراه يعدل في أحوال كثيرة إلى المجانسة ، وهو يستعين على هذه المجانسة باللفظ الغريب الذي كان يشغف به شغفاً شديداً ، بحيث لا نغفل إذا قلنا إن أهم ما يميز أبا العلاء في جميع نماذجه النثرية أنه كان يطلب الغريب من حيث هو كأن الإغراب زينة ينبغي أن يتحلّى

بها جيد أعماله ، وأقرأ هذه الرسالة التي كتب بها إلى عبد السلام بن الحسين صاحب خزانة الكتب ببغداد بعد رجوعه منها^(١) :

« أطال الله بقاء سيدى الشيخ إلى أن تنقل عُرِيًّا ، وتنطق العرب بمكبر الثريا^(٢) ، وأدام عزّه إلى أن يصبح إراب^(٣) ، وهو بازٌ في الجو أو غراب ، كم أكتب فلا يصل ، وأنا من ذلك متنصل :

يا حَبَبُدا جبلُ الرِيَّان من جبلٍ وحبذا ساكنُ الرِيَّان من كانا
وحبذا نفحات من يمانيةٍ تأتيك من قِبَلِ الرِيَّانِ أحيانا

ما عنيتُ بالريان ، إلا منزله حيث كان ، ولا بساكنه ، إلا شخصه حيث حلّ من أماكنته . . . وأسنى لفراق سيدى الشيخ — أدام الله عزه — أسف ساق حرّ ، ساقه الطرب إلى الحرّ ، توارى بالوريقة ، من حرّ الوديقة ، كأنه قينة وراء ستر ، أو كبير حجب من المهتر ، فى عنقه طوق ، كرب يفصمه الشوق ، لو قدر لانتزعه باليد من المقلد ، أسفاً على إلف غادره للكمند^(٤) . . . أى حلف أرسله فهلك نوح^(٥) ، فالحمام عليه تنوح ، يُسمّعك بالفناء ، أصناف الغناء ، ويظهر فى الغصون ، خبيّ الوجند المصون ، إن سلك طريقة الغريص ، ترك المشتاق بالجرىص ، ويحيى بالبدى ؛ إن جاء بلحن معبدي^(٦) يدعو نوادب ، إلى الكلف أو ادب ، ويجهنّ ثاكلات ، لتسنّ على الأول بمتكلات . شجب قعيدهن إثر ودّ^(٧) ، فورثن بكاءه جدّاً بعد جدّ . عمرك لقد أسرفن ، والعيون

(٥) يريد أى أليف قديم ذهب من عهد نوح

إذ أرسله فهلك .

(٦) الغريص ومعبد : مغنيان مشهوران .

والجرىص : الغصة وفى أمثالهم : حال الجريص دون القريص يضرب لأمر حال دونه عائق ، والبدى : المبتكر .

(٧) صنم من أصنام العرب فى الجاهلية وقد ذكر فى القرآن الكريم ، شجب : صاح وهو يريد أن أباهن صاح على ود .

(١) رسائل أبى العلاء (طبع مرجليوث) ص ٤٦ .

(٢) كلمة عريا : كلمة غامضة ولعلها اسم موضع أما مكبر الثريا فيلاحظ أن العرب لم تنطق بالثريا إلا مصغرة .

(٣) إراب نبع من الصحراء انظر معجم البلدان لياقوت (طبع مطبعة السمادة) ١٦٧/١

(٤) ساق حر : ذكر الحمام . الوريقة : الشجرة المورقة . الوديقة . الهاجرة . الهتر : ما يهذى به المعجوز .

ما زَرَفْنِ . لا أدري والأمر أدب ، أغناء ذلك أم ندب ، كل خضباء^(١) كخطيب
 في الغصن الرطيب ، قد التثمت بقار ، في المنقار ، ووطئت في الدم بالقدم ،
 وأضرمت نارها الفؤاد ، فالقلادة حُمَمَ ، والثوب رمد ، بل أسف ورقاء لاح لها
 نجم الحرقاء ، وكانت يمانية الدار ، فهبط بها بعض الأقدار ، أرضاً تهمة ،
 لا مُرْدَّة ولا مُرْهَمَة فلما بصرت بِسُهَيْلٍ ، ذكَّرها أيام أُهَيْلٍ ، عهدتهم في بلاد
 القَرْظ^(٢) ، كلهم بها ليس بفظ ، فضاقت بغرامها الجعيد ، فهي تهتف وتجيد ،
 تخفف بخروج الأصوات ، ما تجده من كرب الأموات ، ظنت أن لا مناص ،
 من ضنك الأقفاس ، فهي تود أن الله مسخها زرقاء نهارٍ مترنمة ، أو ورقاء^(٣)
 ليل مهينة ، لتفوز بالخلاص ، من بعض الحصاص . ومستقرى معرّة النعمان
 والفتنة عندنا صماء ، طعان بالمُرَّان ورماء ، إنما يجيء الصيف وقد سلّ السيف ،
 ولو قدرت لم أقدح إلا بمِرخ^(٤) ، ولا سكنت بلداً غير الكَرَّخ ، ولكن نضوى^(٥)
 . محقول ، فرحم الله لبيداً حيث يقول :

لما رأى لُبَيْدُ النُصُورَ تطايرتُ رفع القوادم كالفقير الأعزل^(٦)

وأنا أهدى إلى سيدى الشيخ — جَمَلُ الله الدنيا ببقائه — وإلى جماعة
 أصدقائه وغلمانه سلاماً يؤنس موحش الإمارات ، ويتصل من الشام إلى الصَّراة ،
 إذا مرَّ بموقدى نار غضوية حسبوا غَضَّاءها^(٧) قطراً ، لتركه الهواء عطراً .

(٥) النضو : البعير المهزول من كثرة
 الأسفار .

(٦) لُبَيْدُ : نسر لقمان ويضرب به المثل
 في طول السلامة . القوادم : أربع ريشات في
 مقدم الجناح . الفقير : المكسور فقار الظهر .
 الأعزل من الخيل : المائل الذنب في أحد
 الجانبين .

(٧) القضا : شجر معروف . والصراة :
 موضع . والإمرات : الإمارات .

(١) الأدب : المجهم . الخضباء من الحمام هي
 التي يكون في لونها خطوط .

(٢) بلاد القَرْظ : بلاد اليمن . وسهيل وأهيل :
 نجان ومردة : يسقط عليها الرذاذ ، وهو المطر
 الضعيف ، ومرممة : من أرهت السماء أنت
 بالمطر الدائم .

(٣) ورقاء الليل : الذئبة . وزرقاء النهار :
 الهرة .

(٤) المِرخ : شجر يتخذ منه الزناد الذي
 يقتل به . والمُرَّان : رماح صلبة لدنة .

وأنت ترى هذه الرسالة وقد غلا فيها أبو العلاء في استخدام اللفظ الغريب ، وكان يفرع دائماً إلى ذلك في آثاره ورسائله ، كأن اللفظ الغريب من حيث هو غاية ينبغي أن يطلبها الكاتب في نماذجه وأعماله ، وإن أبا العلاء ليلبغ من ذلك في بعض آثاره أن تصبح وكأنها متن من المتون اللغوية ، فهي تجمع كل ما يستطيعه من ألفاظ لغوية غريبة مغرقة في الإغراب ، وإنه ليلطلب أبعد الكلمات إغراباً مما عثر عليه في الشعر القديم ؛ وليس يهمله بعد ذلك أن تكون الكلمة سُجِّلَتْ في المعاجم اللغوية ، بل إن علم تسجيلها يدفعه إلى أن يسجلها هو في أعماله ، ومن هناك كانت قراءة هذه الأعمال من أصعب الأشياء ، وخاصة ، حين تريد أن تقف وقوفاً دقيقاً على معانيه ، ولعله من أجل ذلك عني بشرح آثاره وتفسيرها من لزوميات وغير لزوميات في الشعر ، ومن رسالة الغفران إلى الفصول والغايات في النثر . وإذاً فالإغراب هو العقدة الأولى في آثار أبي العلاء . وحقاً إنه يتخذ السجع والبديع في عمله على نحو ما مرّ بنا عند ابن العميد وتلامذته ، ولكنه يعقدهما جميعاً لا بالتزام حرفين أو أكثر في أواخر سجعاته ، فهذا شيء محتمل ، إنما بهذا اللفظ الغريب .

أرأيت إلى ما أصاب النثر العربي عند أبي العلاء ، لقد أصبح يقصد به إلى إحداث طرائف لغوية وهي طرائف لا تعتمد على زخرف ولا على تنميق ، فهذا عهد مضى وانقضى ، إنما تعتمد على الإبهام والغموض ، أو بعبارة أخرى على الإغراب ، وهذه العقدة اللغوية التي يذيعها أبو العلاء في أعماله . وليس معنى ذلك أنه لم يكن يعتمد على أصول فن التصنيع ، بل لقد كان يعتمد عليها كما نرى في هذه الرسالة ، ولكننا نحس أن تلك الأصول غارقت صورتها القديمة إذا تحولت إلى صورة جديدة من الإبعاد في اللفظ الغريب وما من ريب في أن هذا كان تحولاً من مذهب التصنيع ، إلى مذهب جديد هو مذهب التصنع إذ نرى الكاتب يعتمد أن يخرج أساليبه موشاة بطرائف جديدة لا صلة بينها وبين التنميق والتصنيع ، وإنها لطرائف يؤصلها أبو العلاء على استخدام أكثر ما يمكن من الألفاظ الغريبة المهجورة ، كما يؤصلها على الف واللف والدوران وبسط الأساليب ،

حتى تتسع لأكثر ما يمكن من هذه الألفاظ ، وماذا في رسالة أبي العلاء التي قرأناها الآن من معان سوى أنه أراد أن يصف شوقه إلى صاحبه فذهب يبالغ ويلف ويدور على هذا النحو ، فإذا هو يصور أسفه على فراقه بأسف ساقٍ حرينوح على إلف غادره ، وإنه ليطيل في هذا المعنى ويبعد ، حتى يأتي بكل ما يستطيع من لفظ غريب .

وإذا كانت هذه الطريقة من إغراب اللفظ لا تروقك عند أبي العلاء فلا تظن أنه لا يستطيع أن يأتيك بطريقة أخرى ، فهو صاحب الطرف الحديثة في فن النثر ، يأتي باللفظ الغريب ويأتي بما يشبه هذا اللفظ أحياناً أخرى ، ولكن أى شيء يشبه ذلك اللفظ ؟ لقد فكر أبو العلاء وقدر ، فإذا هو يقع على طريقة جديدة لم يسبقه أحد إليها ، أو على الأقل لم يتصنع لها أحد كما تصنع هو لها في آثاره ، ونقصد طريقة المصطلحات العلمية ، وخاصة مصطلحات علوم اللغة ، فقد أكثر من تصنعه لها في أعماله من رسائل وغير رسائل ، واستمع إليه يقول في إحدى رسائله ^(١) :

« حرس الله سيدنا حتى تُدغم الطاء في الهاء ، فتلك حراسة بغير انتهاء ، وذلك أن هذين ضدان ، وعلى التضاد متباعدان ، رخوٌ وشديد ، وهاوٍ وذوتصعيد ، وهما في الجهر والهمس ، بمنزلة غد وأمس . وجعل الله رتبته التي كالفاعل والمبتدأ ، نظير الفعل فإنها لا تنخفض أبداً ، فقد جعلني إن حضرتُ عُرِف شاني ، وإن غبت لا يُجهل مكاني ، کیا في النداء ، والمخدوف من الابتداء إذا قلت : زيد أقبل ، والإبل الإبل ، بعد ما كنت كهاء الوقف ، إن أُلقيت فبواجب ، وإن ذُكرت فغير لازب . إني وإن غدت في زمن كثير الدَّ (اللهو واللعب) كهاء لزمتم المذكر ، فأنت بالمنكر ، مع إلف يراني في الأصل ، كألف الوصل ، يذكركني لغير الثناء ، ويطرحني عند الاستغناء ، وحال كالهزمة تُبدل العين ، وتُجعل بين بين ، وتكون تارة حرف لين ، وتارة مثل الصامت الرصين ،

فهى لا تثبت على طريقة ، ولا تدرك لها صورة فى الحقيقة ، ونوائب ألحقت
الكبير بالصغير ، كأنها ترخيم التصغير ، ردت المستحل إلى حليس ، وقابوس
إلى قبيس ، لأمد صوتى بتلك الآلاء ؛ مد الكوفى صوته فى هؤلاء ، وأخفف
عن سيدنا الرئيس الجبر ، تخفيف المدنى ما قدر عليه من التبر ، إن كاتب
فلا ملتمس جواب ، وإن أسهت فى الشكر فلا طالب ثواب ، حسبي ما لدى
من أياديه ، وما غمر من فضل السيد الأكبر أبيه ، أدام الله لهما القدرة ما دام
الضرب الأول من الطويل صحيحاً ، والمنسرح خفيفاً سريماً ، وقبض الله يمين
عدوها عن كل معن (معروف) ، قبض العروض من أول وزن .

وإن الإنسان ليذهل حين يقرأ هذه الصورة من الصياغة عند أبى العلاء ،
كأنما ضاقت جميع صور التعبير عن أن تؤدى المعانى التى تجول فى نفسه ،
فهو يبحث عنها فى طوايا علوم النحو والتجويد والقراءات والعروض على هذا
النمط من التعقيد الجديد الذى يضيفه إلى آثاره وينثره فى جميع أطرافها
نثراً ، وقد كنا نفهم — إلى حد ما — أن يتصنع أبو العلاء فى أعماله للفظ
الغريب ، فاللفظ الغريب يدخل على كل حال فى نطاق التعبير الأدبى ، أما
الآن فقد خرج عن هذا النطاق إلى نطاق جديد لا جمال فيه ولا فن إلا إذا
كنا من ذوق أبى العلاء ، وكنا نريد أن نتعب الناس فى فهم ما نقول ، ولن
نتعبهم هذه المرة عن طريق كثرة رجوعهم إلى المعاجم اللغوية ، بل سنتعبهم
عن طريق رجوعهم إلى المصطلحات الخاصة بالعلوم العربية كى يفهموا ما يقرءون.
وما للقرأ وهذا العناء كله ؟ إنهم يريدون أن يصلوا إلى المعانى التى يقرءونها
فى صورة سريعة أو على الأقل لا تبعد بهم كل هذا البعد ، ولا تغرب بهم كل
هذا الإغراب ، ولكن أبا العلاء لا يفكر فى شيء من ذلك كله ، فقد جاء فى
مرحلة جديدة من مراحل النثر العربى ، وهى مرحلة كانت تفرق افتراقاً شديداً
ما سبقها من مراحل ، إذ كان أصحابها ما يزالون يصعبون نثرهم ضرورياً من
التصعيب ، وقد ذهب أبو العلاء فى آثاره يعرض عليهم بعض ما استطاع أن
يصل إليه من هذه الضروب كى يظفر بتفوقه عليهم واستعلاء آثاره على آثارهم ،

وأنه ليهدف إلى ذلك عن طريق اللفظ الغريب من جهة وحشد المصطلحات العلمية من جهة أخرى .

٣

التعقيد في رسالة الغفران

ونحن نقف قليلا عند رسالة مهمة لأبي العلاء ، وهي رسالة الغفران التي تمتد إلى نحو مائتي صحيفة من القطع الكبير ، وقد كتبها إلى علي بن منصور الحلبي المعروف بابن القارح ردًا على رسالة كتبها إليه ، ويظهر أن أبا العلاء كان يعجب بابن القارح وأنه كان يتفق وهواه في بعض الآراء التي تتصل بالأديان والنسحل ، إذ امتلأت الرسالة بسخرية لاذعة من المعتقدات ، حتى قال الذهبي : إن بها مَزْدَكَة واستخفافاً^(١) ، ولنا نستطيع أن نزعّم ما زعمه الذهبي من أن أبا العلاء كان مزدكيًا على مذهب مزدك ، وأكبر الظن أن الذهبي لم يحقق هذه الكلمة حين أضافها إلى أبي العلاء ، إنما أراد بها أن يصفه بالزندقة لما في رسالته من تهكم على بعض المعتقدات ، ولما فيها أيضاً من دفاع واضح عن الشعراء الذين عرفوا بالزندقة إذ يزعم أبو العلاء دائماً أن الله غفر لهم ، وُسِّمَت الرسالة باسم رسالة الغفران من أجل ذلك .

والرسالة تنقسم إلى قسمين عامين : قسم يعتبر مقدمة وفيه نجد أبا العلاء يستطرد من وصفه لكلمات ابن القارح في رسالته إليه بأنها تشبه أشجار الجنة إلى وصف الجنة نفسها وما بها من نعم ، وفي أثناء ذلك يعرض لندماء ابن القارح من علماء اللغة ، ويتراءى له أن يجعله ينتزه في الجنة ، فيسلّقى طائفة من شعراء الجاهلية ، ثم يعنّ له أن يرجع به إلى يوم الموقف فبرّدّه إليه ليصف ما هنالك من أهوال ، ويمر به على الصراط حتى يصل إلى الجنة فيحاور رضوان محاوره

(١) تعريف القسما بأبي العلاء ص ١٨٩ .

طريفة ، إذ يسأله : هل معك من جواز؟ فيقول : لا ، فيقول رضوان : لا سبيل لك إلى الدخول بغير جواز ، ويرى ابن القارح إبراهيم بن محمد صلوات الله عليه فيتمشبت به وهو يدخل الجنة . فيجذبه معه . ويدخل ابن القارح الجنة ويلتقي مرة أخرى بالشعراء ويحاورهم ويشاركهم في مأدبة وغناء وقصص ، ثم يركب بعض دواب الجنة ويسير فيصل إلى مدائن غريبة ، ويطالع فيرى طائفة من الجن فيسألهم عن الأشعار التي تنسب في العربية إليهم ، ثم يُرْخى من عنان دابته حتى يصل إلى أقصى الجنة ، حيث يلتقي بالخطيئة والخنساء وهي تنظر إلى أخيها صخر في الجحيم ، وينظر كما تنظر الخنساء فيجد إبليس وبشاراً وبعض شعراء الجاهلية ويحاورهم جميعاً ثم يعود فيلتقي ببعض الحيات التي ظلمت في الدنيا ثم كوفئت في الآخرة بدخول الفردوس ، ويمر في جنة الرُّجَّاز ، وأخيراً يُقبل على كأس من كؤوس الجنة التي لا تُنْزَف عقلاً .

وهذا هو القسم الأول من الرسالة ، وهو يعطيها لوناً مدرسياً ، إذ قصد فيه أبو العلاء - من خلال حوار ابن القارح مع الشعراء - أن يظهر علمه بأشعارهم وما فيها من مسائل عويصة في لفظها ونحوها ووزنها . وينتقل من هذا القسم إلى القسم الثاني وهو خاص بالرد على سؤال ابن القارح عن الزنادقة والزندقة ، وتعرض في أثناء هذا القسم لكثير من النحل في عصره ، ومن ثم كان هذا القسم في الرسالة ذا قيمة خاصة . على أن أهمية الرسالة إنما ترجع إلى القسم الأول منها ، إذ قرنها الباحثون بسببه إلى « الكوميديا الإلهية » لدانتى^(١) ، محاولين النفوذ إلى بيان تأثيره بها ومدى هذا التأثير ، وهو تأثر تقوم عليه أدلة كثيرة ، وبذلك لم يصنع أبو العلاء للعرب « كوميديا إلهية » فحسب بل أثر بها أيضاً أثراً عميقاً في الآداب العالمية . ولسنا نريد الآن أن نتحدث عن هذا الجانب في رسالته ، إنما نريد أن نتحدث عن صياغته فيها وطريقته في التعبير ، ولعل من المهم أن نعرف أن أبا العلاء لم ينجح في هذه

(١) انظر ترجمة أبي العلاء في دائرة المعارف الإسلامية .

الرسالة بصياغة جديدة غير الصياغة التي رأيناها آنفاً ، ونراه يُعْنَى فيها بالتزام ما لا يلزم في قرائن سجعته ، كما يعنى باللفظ الغريب ، وإنه يعنى عناية خاصة بالجناس ، ولكن دائماً في ثنايا ألفاظه الغريبة بل المهجورة أحياناً ، وهو يحشد مع ذلك كثيراً من الإشارات التاريخية ، واستمع إليه يصف أنهار الجنة فيقول : «إنها الراح الدائمة ، لا النسيمة ولا الدائمة» ، ويستطرد من ذلك إلى وصف الشعراء للخمر ثم يقول (١) :

«كم على تلك الأنهار من آنية زبرجد محفور ، وياقوت خُلق على خُلُق
القور (الظباء) من أصفر وأحمر وأزرق ، يُخال إن لُمس أحرق ، كما قال
الصنوبرى :

تَخِيلُهُ ساطِعاً وَهَجُهُ فَتَأْبَى الدَنُوَ إِلَى وَهَجِهِ

وفي تلك الأنهار أوان على هيئة الطير السابحة ، والغانية عن الماء السائحة ،
فنها ما هو على صور الكراكي ، وأخر تشاكل المكاكي ، وعلى خُلُق طواويس
وبط ، فبعض في الجارية وبعض في الشط ، ينبع من أفواهاها شراب ، كأنه من
الرقعة سَراب ، لو جرع جرعة منه الحكيم (أبونواس) ، لحكم بأنه الفوز القَدَمَى ،
وشهد له كل وصاف للخمر ، من محدث في الزمن وعتيق في الأمر ، أن أصناف
الأشربة المنسوبة إلى الدار القانية كخمر عانة وأذرعات ، وهي مظنة للنعمات ،
وغزة وبيت راس ، والفيلسطينية ذوات الأحراس ، وما جلب من بَصْرَى في
الوسوق ، تُبَغَى به المراجعة عند سوق ، وما ذخره ابن بُجْرَة بوج (الطائف) ، واعتمد
به أوقات الحج ، قبل أن تُحَرَّم على الناس القهوات ، وتُحْظَر لخوف الله
الشهوات ، قال أبو ذؤيب :

ولو أن ما عند ابن بُجْرَة عندها

من الخمر لم تبطل لها تى بناطل (٢)

وما اعتصر بصخر خد أو أرض شام ، لكل ملك غير عتّام (أحمق) ،

(٢) الهاء : أقصى سقف الحلق . والناتل :

الجرعة من الخمر .

(١) رسالة الغفران (طبعة أمين هندية)

وما تردد ذكره من كبت بابل وصريّفين ، واتخذ للأشراف المنيفين ، وما عمل من أجناس المسكرات ، مفوّقات للشارب وموكرّات (مثقلات) ، كاللّجعة والبّتنع والميزر ، والسكّر كة ذات الوزر^(١) ، وما ولد من النّخيل ، لكريم يغترف أوبخيل ، وما صنّع في أيام آدم وشيث ، إلى يوم المبعث من معجّل أومكّيث . . . ويعارض تلك المدامة أنهار من غسل مصفى ، ما كسبته النّحل الغادية إلى الأنوار ، ولا هو في موم (شمع) متوار ، ولكن قال له العزيز القادر كن فكان ، وبكرمه أعطى الإمكان ، واهأ لذلك عسلا ، لم يكن بالنار مبسلا ، لوجعله الشارب المحرور غذاءه طول الأبد ، ما قلدر له عارض موم (الجلدري) ولا لبس ثوب المحموم . . . فليت شعري عن النمر بن تولّب العكلى هل يُقدّر له أن يذوق ذلك الأثرى ، فيعلم أن شهد الفانية إذا قيس إليه وجديشاكه الشرى^(٢) وهو لما وصف أم حصن وما رزقته في الدعة والأمن ، ذكر حوّارى بسمن وعسلا مصفى ، فرحمه الخالق متوفى ، فقد كان أسلم وروى حديثاً منفرداً ، وحسبنا به للكلم مسرّداً ، قال المسكين النمر :

ألمّ بصحبتي وهم هجوع خيال طارق من أم حصن
لها ما تشهى عسلا مصفى إذا شئت وحوّارى بسمن

وهو أدام الله تمكينه يعرف حكاية خلف الأحمر مع أصحابه في هذين البيتين ، ومعناها أنه قال لهم : لو كان موضع أم حصن أم حفص ما كان يقول في البيت الثانى ؟ فسكتوا ، فقال حوّارى بلمص يعنى الفالودج .

وهنا نجد أبا العلاء يغير قافية البيت الأول من أم حصن إلى أم جزء ، ويأتى بقافية في البيت الثانى على نسقها ، ثم يستمر فيصنع ذلك بكلمات أخرى على سائر حروف المعجم عدا حرف الطاء . وما من شك في أن هذا التصنيع يدل على حال هى حال الاستطراد ، وهى تعم في الرسالة كلها ، وكان يريد

(١) أنواع خور .

(٢) الشرى : الجنظل ، والأرى : العمل .

بها أن يدل على قدرته في رواية الشعر الغريب وما يتصل به من أصحابه ، وإنه ليقف عند كثير من صعوباته ، وكما كان يعنى بالوقوف عند الشعر الغريب كان هو نفسه يلتزم الإغراب في كثير من ألفاظ رسالته على عادته في كل ما يكتب ، وهو يضيف إلى ذلك حقاً زخرف السجع كما يضيف زخرف البديع وخاصة زخرف الجناس ، ولكن الإنسان يحس كأن هذه الزخارف تأتي عنده تابعة للفظ الغريب فهو الأساس أو هو الخيط الذى تنسج عليه هذه الزخارف أو هذا الوشئ وما يطوى فيه من تنميق ، وقد عبر هو عن ذلك خير تعبير إذ يقول في إحدى رسائله : « قد كان فيمن مضى قوم جعلوا الرسائل ، كالوسائل ، تزينوا بالسجع ، تزين المَحْضُول بالرجع ، ما رَقُوا في درجته ، ولا وضعوا قدماً على محجته ، لكنهم تعابنوا ، فما تباينوا ، وتناضلوا ، فلم يتفاضلوا ولو طمعوا في الوصول ، إلى مثل هذه الفصول ، لاختراروا الرتب (الشدة) على الرتب ، ورضوا اعتساف السبيل ، وارتعاء الوبيل » ^(١) . فانظر أين يضع أبو العلاء سابقه من أصحاب مذهب التصنيع ! هو يعترف لهم بالسجع ، فذلك شيء لا يستطيع أن يدفعه ، ولكنه يدعى عليهم بعد ذلك أنهم قصروا عن معرفة طريقه الصحيحة ، لأنهم لم يرقوا في درجة مذهبه ، ولا وضعوا قدماً على محجته ، وحقاً ما يقوله أبو العلاء من أنهم لو طلب إليهم أن يكتبوا على نسق كتابته لاختراروا عليها شظف العيش واعتساف السبيل وارتعاء الوبيل ، لأنهم كانوا يفهمون الفن في صورة أخرى تباين الصورة التي علفت بنفس أبي العلاء . إن الفن كان عندهم زخرفاً وتصنيعاً ، أما عند أبي العلاء فقد تقدم الزمن وتطور الفن وأصبح الفنان يأبى أن يخرج نثره في زخرف وزينة فقط ، بل لا بد أن يخرج في كُلف وعقد ، ولا بد له أن يبلغ من ذلك كل مبلغ ممكن . ومن أجل ذلك كان طبيعياً أن يلوم أبو العلاء الكتّاب الذين سبقوه في فن الكتابة لأنهم لم يكونوا من مذهبه ولا من ذوقه ، لم يكونوا يعقدون فنهم على هذا النحو الذى

(١) رسائل أبي العلاء ص ٦ . والوبيل :

المرعى الوخيم .

تبدو فيه الآثار الفنية وكأنها متون صعبة يُراد بها إلى إظهار المهارة اللغوية، وإنما لمهارة يبيث أبو العلاء بين طياتها كثيراً من الأمثال والإشارات التاريخية والأدبية، حتى ليضطر أثناء ذلك إلى كثير من الاستطراد في كتاباته، بل لقد اضطر إلى شيء أهم من ذلك لم نعوده من قبل وهو شرحه لكثير من آثاره النثرية، وما من شك في أنه عمد إلى هذا الشرح لأنه يعرف أن آثاره لا تفهم إلا مع التفسير البسيط لكثرة ما يحشد فيها من ألفاظ عويصة.

ومهما يكن فإن اللغة هي أهم الجوانب التي استمد منها أبو العلاء أكثر عقده في صناعة نثره، وقد أضاف إليها عقداً أخرى تتصل بها من كثرة الأمثال والإشارات التاريخية والاستشهاد بالشعر الغريب خاصة. وإذا نظرت بعد ذلك في سجعته برسالة الغفران وجدته يلتزم في أكثر جوانبه أن تكون نهاية السجعة لا حرفاً بل حرفين أو أكثر، كما يلتزم - غالباً - الجناس في عباراته، ولكننا نحس إزاء استخدامه لهذا اللون من ألوان البديع أنه فارق بعض ألوانه البهيجة التي كنا نعرفها عند أصحاب مذهب التصنيع، وما ذلك إلا لأن أبا العلاء يعتمد في جناسه كثيراً على الإغراب في الألفاظ، ومن ثمّ كنا نشعر إزاء كثير من جناساته أنها جناسات لغوية أكثر منها فنية، فهي إلى اللغة والإغراب اللغوي أقرب منها إلى الفن الخالص. والحق أن أبا العلاء عمد في فنه إلى التعقيد من حيث هو، ولذلك إذا ذهبنا إلى أنه زعيم مذهب التصنع لعصره لم نكن مبالغين ولا مغالين.

٤

التعقيد في الفصول والغايات

لعل أهم كتاب عقده أبو العلاء وضعه هو كتاب الفصول والغايات، وهو كتاب قصد به إلى تمجيد الله^(١)، ومع ذلك فقد كان سبباً في حملة شعواء

عليه ، إذ ذهب خصومه إلى أنه ألّفه معارضة للقرآن ، ويظهر أنهم واجهوا
 أبا العلاء بهذه التهمة منذ أخرج الكتاب ، يقول ناصر خسرو الذى زار المعرة
 عام ٤٣٨ هـ : « وضع أبو العلاء كتاباً سماه الفصول والغايات ذكر به كُليّات
 مرموزة وأمثلة في لفظ فصيح عجيب بحيث لا يقف الناس إلا على قليل منه
 ويفهمه من يقرؤه عليه ، وقد اتهموه بقولهم : إنك وضعت هذا الكتاب معارضة
 للقرآن »^(١) . وقد استمرت هذه التهمة عالقة بأذهان الناس . يقول الباخرزى :
 « أبو العلاء ضرير ، ما له في أنواع الأدب ضريب ، وإنما تحدثت الألسن
 بإساءته لكتابه الذى زعموا أنه عارض به القرآن وعنوانه بالفصول والغايات في
 محاذاة السور والآيات ، وأظهر من نفسه تلك الحناية ، وجذّت تلك الهوسات
 كما يجذّ العيسر الصليّانة »^(٢) . ويقول ابن الجوزى : « رأيت للمعري كتاباً سماه
 الفصول والغايات . يعارض به السور والآيات ، وهو كلام في نهاية الركة »^(٣) .
 وإذا فُهمه أبى العلاء بأنه عارض القرآن بكتاب الفصول والغايات تهمة
 قديمة وُجدت في عصره واستمرت من بعده ، وقد أضاف الرواة إلى هذه التهمة
 أن بعض الأدباء قال له : إن كتاب الفصول والغايات جيد إلا أنه ليس عليه طُلاوة
 القرآن ، فقال : حتى تصقله الألسن في المحارب أربعمائة سنة وعند ذلك
 انظروا كيف يكون »^(٤) . وأكثر الظن أن هذه الرواية لفقت على أبى العلاء كما
 لفقت عليه فكرة معارضة القرآن بالكتاب ، ولعل مما يشهد لذلك أن نجد تلميذه
 ابن سنان الخفاجى يردّها ردّاً عنيفاً إذ يقول : « وهذا الكتاب إذا تأمله العاقل
 علم أنه بعيد عن المعارضة ، وهو بمعزل عن التشبيه بنظم القرآن العزيز والمناقضة »^(٥)
 ومن يرجع إلى الكتاب يرفض رفضاً باتاً ما ادعاه خصومه عليه فيه من هذه
 المعارضة المزعومة إذ كله تسبيح وتمجيد في الله ، وانظر إليه يقول : « علم ربنا

(١) سفر نامه لناصر خسرو (الترجمة العربية) طبع لجنة التأليف والترجمة ص ١١ .
 (٢) دمية القصر للباخرزى (طبع حلب) ص ٤٢٦ .
 (٣) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٢١ .
 (٤) تعريف القدماء ص ٤٢٦ .
 (٥) تعريف القدماء ص ٤٢٦ .

ما علم ، أنى ألفت الكلم ، أملُ رضاه المسلم ، وأتقى سخطه المؤلم ، فهبْ لى ما أبلغ به رضاك من الكلم والمعاني الخراب ^(١) ، وتسيطر على الكتاب كله روح التقوى والزهد والخوف العظيم من ربه ، وقد انتشرت هذه الروح فى جميع صفحات الكتاب كقوله فى بعض الفصول : « إن كان اللمع يطفى غضبك فهبْ لى عيسين كأنهما غمامتا شتى تبلان الصباح والمساء » ^(٢) . ويقول فى مكان آخر : ليت أعظمى تحولت عيدان أراك يتفلفل بها المتعبدون لله بالعشيش والأبكار ، وليت أدمى جعل منه ذات طِراق يمسح عليها المسافرين فى سبيل الله أوقات الصلوات ، أو صنع منه شعيبٌ يُحمَلُ فيها الماء حتى تُعَدَّ فى الشنان الباليات ، وليت شعري عشبٌ عبثٌ به ركابُ الناسكين ، على أصلُ بذلك إلى الفلاح ^(٣) ، وانظرُ إليه يقول فى موضع آخر ^(٤) :

« لوفلقت مياه اللّجج على منكي فى قُدا ف ، وأفرغت على مناكب الجبال ، وجرت كُشبان الأرض وصرائمها فى جرّ أوميشاة ، فألقيتها فى الخُصّر الدائمات ، حَقْدًا لله كنت أحد العجزة المقصرين ^(٥) ، ولو أذلى وأيدت فابتنيت مراهيص من الثرى الأسفل إلى الثرىّ وحضار ، ومن الود المتخذ من عود ، إلى ساحة وتد السعود ^(٦) ، لم أؤدّ ما يوجبه جلال الله ، فكيف وأنا أقصر الصلاة ، وأداني بين الركعات » .

وأنت تحس هنا بروح رجل مؤمن مبالغ فى إيمانه يخاف ربه ويخشاه ، ولأنه ليتصور نفسه يأتى بالمعجزات فى طاعة الله ، فلا ترفعه هذه المعجزات — إن استطاع أن يقوم بها — عن الشعور بأنه أحد العجزة المقصرين ، ولأنه ليحس

(١) الفصول والغايات (طبعة محمود زقاق)

(٤) نفس المصدر ٥٩/١ .

٦٢/١ .

(٥) القذا ف : الجرة . الحر : الزبيل .

(٢) نفس المصدر ٢٥٩/١ شتى : من الشتاء

المشاة : زبيل من آدم . الخضر : اللجج .

تبلان : تسحان من الوبل وهو المطر الغزير .

الحقد : الخدمة .

(٣) نفس المصدر ٣٩٠/١ . يتفلفل :

(٦) المراهص : المراتب . وتد السعود : سعد

يستاك . ذوات الطرق : النعال . الشعيب :

الأخبية : نجوم معروفة .

القربة من أديمين .

إحساساً عميقاً بأنه مهما صنع من آيات فلن يؤدي ما يوجبه جلال الله ، وعلى هذا النحو يمضي أبو العلاء في كتابه يستشعر العجز والضعف أمام ربه معدداً لنعمه ومآثره ، مصوراً لإرادته وقدرته ، وقد جعله هذا الجانب يقف عند طائفة من المستحيلات في وقائعنا المادية ، فيظهر كيف أن قدرة الله التي تسع كل شيء تستطيع أن تحولها من باب المستحيلات إلى باب الممكنات كقوله في بعض فصوله^(١) :

« يقدر ربنا أن يجعل الإنسان ينظرُ بقلمه ويسمع الأصوات بيده ، وتكون بنانه مجارى دمه ، ويسجد الطعم بأذنه ، ويشم الروائح بمنكبه ، ويمشي إلى الغرض على هامته ، وأن يقرن بين النير وسنير ، حتى يريا كفتَرسِي رهان ، ويُنزل الوعلَ الرّعلَ من النّيقِ ، ومجاوره السّودّ نيق^(٢) ، حتى يُشَدَّ فيه الغرض ، وتُكْرَب عليه الأرض ، وذلك من القدرة يسير ، سبحانه ملك الملوك وعظيم الضعفاء » .

ونرى من ذلك أن الفصول والغايات لم يقصد بها إلى إلحاد ولا إلى زندقة ، ولا إلى معارضة القرآن ومناقضة ، ومن أين يأتيها هذا وهي تنساق كلها في التمجيد والتحميد والثناء على الله ، ولعله من أجل ذلك قال ابن سنان الخفاجي : إن العاقل إذا تأملها علم أنها بعيدة عن المعارضة ، وقد يكون السبب في أن الناس واجهوا أبا العلاء بهذه التهمة أنهم رأوه يسمى كتابه باسم (الفصول والغايات في محاذاة السور والآيات) فظنوا أنه يقصد بذلك إلى المعارضة في الأسلوب وهو إنما يقصد إلى أن هذه الفصول محاذاة للقرآن من حيث ما فيها من تسبيح وحمد وتمجيد وثناء على الله سبحانه وتعالى . وقد يكون من أسباب هذه التهمة ما في الكتاب من بعض أقسام تشبه أقسام القرآن^(٣) . كقوله في بعض فصوله^(٤) :

(١) الفصول والغايات ٣١/١ .

أو الشاهين .

(٢) النير : جبل بأعلى نجد . سنير :

(٣) معجم الأدباء ١٤٠/٣ .

جبل بين حمص وبعليبك . السوذنيق : الصقر

(٤) الفصول والغايات ص ٢٥٣ .

« أقسم بخالق الحَبِيل ، والعيسِ الواجفة بالرُّحَيْيل ، تطلب مواطن حُلَيْيل ^(١) ،
والريح الهابئة بَلَيْيل ، بين الشَّرَط ومطامع سُهَيْيل ، إن الكافر لطويل الوَيْيل ،
وإن العُمر لمكفوف الذَّيْل . شِعْرُ النابغة وهُدَيْيل ، وغناء الطائر على الغَيْيل ،
شهادة بالعظمة لمقيم المَيْيل ، فانعش سائلك بالنَّيْل ، وليكن لفظك بغير هَيْيل ^(٢) .
وإياك ومدارج السَّيْل ، وعليك التوبة من قُبَيْيل ، تنسجُ وما إخالك بناجٍ .
ومع ذلك فلم تأت هذه الصورة من الأقسام في الكتاب كثيراً ، ولعل مما
يتصل بها ما يلاحظ على الكتاب أحياناً من النسج على أساليب مشبهة للقرآن
الكريم ، وقد لاحظ القدماء ذلك في قوله ^(٣) :

« أَذَلَّتْ العائِدة أباهَا ، وأصاب الوحدة وربَّاهَا ، والله بكرمه اجتباها ،
أولاهَا الشرف بما حبَّاهَا ، أرسلَ الشمال وصَبَّاهَا ، ولا يخاف عُقْبَاهَا » .

وربما كان من الأساليب التي تدخل في ذلك ما يلاحظ عليه أحياناً من
استخدام صوره الفواصل في بعض جوانب من كتابه كقوله ^(٤) :

« إن الله إذا أذن أروى الشَّعب من القَسَب ، فسبحان مَرُوى الهامِين ،
والحليب ، يطلب من ذوات الصليب ، وربك رازق الممترين ^(٥) ، هل تقدر
على التَّحْجِيب ، لأسد الحَجِيب ، وإذا شاء الله وُثِّمَتْ أنوفُ الأعزاء . من
الرَّتَب ، ركوب القَتَب ، والله منعم الخافضين ^(٦) ، ذهب شعوب ، وفي يدها
لعوب ، وكلُّ للمنية أكيل ، إلا ملكَ الملوك ومذلَّ المتكبرين . يذهب الخُلْبُ ،
ويبقى القُلْبُ ، وكل محدث من الذاهبين ^(٧) ، يقع الشَّبَبُ في السبب ، وكذلك

(١) العين الواجفة : الإبل المسرعة . الرحيل : (٤) الفصول والغايات ١/ ٢٢٧ .

موضع بين مكة والكوفة . حليل : شخص كانت
(٥) القعب : قدح صغير . الهائم : العطشان .
إليه سدانة الكعبة . ذوات الصليب : النوق .

(٢) الشرط : واحد الشرطين وهما نجان من
(٦) التحجيب : سمة حول الحاجب . الحجيب :

الاجمة . الرتب : غلظ الميش القتب : الرجل
الميل : العوج . النيل : العطاء . الميل : ضد الكيل

(٧) شعوب : المنية . لعوب : امرأة . الخلب :

(٣) معجم الأدباء ٣/ ١٤٠ ، والعائدة :

حديقة النتاج .

الليف . القلب : قلب النخلة .

غاية المُطْلَقين ، شكا الطَّلَبُ ، داء في الخَلْب ، وربك شافي المشتفين ^(١) ،
قد تقف الطُّرَاب ، على رؤوس الظُّرَاب ، تَرْمَقُ آثار المَحمَمَين ^(٢) ولو شاء الله
جعل جَنَاحاً كالحُضْر وأباً مَهْدِيَةً مثل قُبَاث ^(٣) .

ولكن هل ظهور هذه الأساليب وما يُطَوَّى فيها من صور مشبهة لبعض
صور القرآن الكريم في أساليبه تجعلنا ننتقل إلى اتهام أبي العلاء بمعارضة القرآن
الكريم ، أو ينبغي أن نريث وأن لا نحكم هذا الحكم إلا إذا دعمناه بأدلة أشد
من ذلك وضوحاً ؟ والحق أن همة أبي العلاء لا تثبت بمثل هذه الصور وخاصة
أن أبا العلاء لم يُشْعِمْها في فصوله وغاياته ، بل لقد جاء بها في القليل النادر جداً ،
ومن يدري ؟ ربما قلد أبو العلاء أساليب القرآن الكريم في بعض جوانب من
كتابه ، ولكنه لم يرد بتقليده إلى المعارضة والتحدى ، وإنما أراد مطلق التقليد
الخالى من أى غرض من أغراض الإلحاد ، وقد يكون من الأدلة على ذلك
أن الكتاب كله ينساق في موجة عظيمة من تحميد الله وتمجيده ، وأيضاً فلأننا
إذا تركنا هذه الجوانب القليلة في الكتاب ونظرنا في أساليبه نظرة عامة وجدنا
أبا العلاء يختار لنفسه فيه أسلوباً معقداً تعقيداً شديداً ، وهو تعقيد يقوم على
استخدام اللفظ الغريب وما يُطَوَّى فيه من أمثال وكلمات رمزية ، وإن ذلك
ليباعد الكتاب جملة عن أسلوب الذكر الحكيم ، ويعمله أسلوباً من طراز آخر
هو طراز مذهب التصنع ، وما انتهى إليه هذا المذهب عند أبي العلاء من عُقْدٍ
وكلف كثيرة .

ولعل أول ما يلاحظ من عقد أبي العلاء وكلفه في هذا الكتاب أنه قسمه
على حروف المعجم عدا حرف الألف ، فخرج له من ذلك ثمانية وعشرون
فصلاً ، وجعل كل فصل كالهزمة مثلاً ينقسم إلى فقرات ، وكل فقرة تختتم

(٣) جناح : بيت لأبي مَهْدِيَةِ الأعرابي الذي
يروى عنه أبو عبيدة . الحضر : حصن ملك
يسمى الساطرون . قُبَاث : ملك من ملوك الفرس
يسمى قَبَاذ .

(١) الشب : الثور الوحشي . الطلب : الذي
يطلب النساء . الخلب : غشاء القلب .
(٢) الطراب : الجبال الصفراء . المتحملين :
المسافرين .

بغاية هي الفصل ، ففصل الهمزة غاياته كلها الهمزة ، وأبو العلاء لا يكتفى بذلك ، بل يلتزم حرفاً قبل جميع غاياته هو الألف ، ولا تظن أنه يصنع هنا ما صنعه في ديوان اللزوميات من التزام حرف قبل الروى وتوحيده في المقطوعة التي ينظمها ، فهناك كان يستطيع أن يغير الحرف كما يريد ، أما هنا فهو يعيّن بحرف الألف ، ففصل الهمزة مثلاً تختتم فقراته كلها بجملة فيها ألف وهمزة ، وكذلك فصل الباء والتاء والثاء وهلم جراً . وانظر في الفقرة السابقة التي عرضناها عليك فغاياتها قباث وهي مختومة بباء بعد الألف ، وكذلك جميع فقرات فصل التاء تختتم على هذا النحو ، فإذا رجعت إلى الكتاب وجدتها تتوالى هكذا : وراث ، أحداث ، حثاث ، جشجاث . . . ويستمر على هذا النمط حتى يختتم الفصل .

وليست هذه العقدة هي كل ما فزع إليه أبو العلاء في فصوله وغاياته ، فهناك عقد كثيرة كان يلجأ إليها ، لعل من أهمها أنه كان يلتزم داخل فقره كثيراً أن تتوالى السجعات وقد اشتركت نهايتها في حرفين أو أكثر . على أن هذه العقدة سبق أن لاحظناها عنده في رسالة الغفران . وربما كانت أهم عقدة استمد منها أبو العلاء كل ما يريد من تعقيد في أسلوبه وتصعيب هي عقدة اللغة ، ولعل القارئ لاحظ ذلك فيما رويناه حتى الآن من الكتاب ، ولذلك عمدنا في الهوامش إلى تفسير بعض الألفاظ ، وحقاً ما قاله ناصر خسرو من أن هذا الكتاب أودع كلمات مرموزة وأمثالا وأنه لا يفهمه إلا من قرأه على أبي العلاء نفسه ، وقد قالوا إنه فسره بكتاب يسمى السادن^(١) . ومن يرجع إلى القسم الذي نُشر من الكتاب يجد أنه يُصحّب بتفسير ، فالفقرة تكتب ثم يلحقها التفسير ، فإذا انتهى التفسير جاءت كلمة «رجع» للدلالة على الرجوع إلى أصل الكتاب وفقره ، وأكبر الظن أن هذا التفسير من صنع أبي العلاء ، وقد يكون هو نفسه كتاب السادن الذي شرح به الكتاب ، ألحقه به أحد تلاميذه ، أو ألحقه به شخص متأخر .

(١) تعريف القدماء ص ٣٩ .

ومهما يكن فإن الإغراب اللغوي أهم أصل عقّد به أبو العلاء كتاب الفصول والغايات ، وإنه ليعقده حقاً بالسجع والجناس ، ولكن الإنسان يحس أن هذه الأشياء تأتي تابعة للإغراب اللغوي ، وإنه لإغراب ينتهي به إلى استخدام أكثر ما يمكن من الألفاظ المهجورة . وهذا هو معنى ما نذهب إليه من أن أبا العلاء أخذ النثر العربي في عصره بعقد بل قل بأثقال ، وإنها لأثقال تعجز عنها العصبية من الأدباء الذين يبالغون في تعقيد فهم وتصعيبه ، وأى عصبية هذه التي تستطيع أن تبلغ من كلفها ما بلغه أبو العلاء في فصوله وغاياته ، واختار لنفسك أى صحيفة منه ، ثم اقرأ ، فإنك لن تفهم وتحسن الفهم إلا إذا رجعت إلى المعاجم اللغوية مراراً ، ولن تشفى غائتلك المعاجم دائماً ، فإن في الكتاب كثيراً من الأمثال والإشارات التاريخية ، إذ كان أبو العلاء يرى أن هذه الأشياء ضرورية في تجويد فنه وتحجيره ، ولذلك كان ينثرها في كتابه نثراً كما كان ينثر كل ما يتصل بالعرب وتاريخهم وعلمهم بالنجوم والحيوان وما يعرفونه من أمكنة وآبار وأزهار ، وحتى أصنامهم نجده يسلمكها في بعض كلمة كقولـه (١) :

« من عبد وُدّاً ، لم يجد عند الله وُدّاً ، والدّسر لمعظّم نسراً ، وصاحب سُواع ، ليس بواع ، ما أغاثهم يَغُوثٌ ، بل عوق خيرهم يعوق ، وأذلت العزى — وهى ذليلة — مَنْ جعلها من الطّاغوت ، ولات القوم اللات » (٢) .

فقد ذكر أبو العلاء في هذه الفقرة من أصنام العرب وُدّاً ونسراً وسواعاً ويغوث ويعوق والعزى واللات ، ولم يكتف بكل هذا التصنع لذكر الأصنام وحشدها ، بل ذهب يجانس بين ودا وودا كما جانس بين الدسر ونسر ، وسواع وواع ، وأغاث ويغوث ، وعوق ويعوق ولات واللات ، ولم يكتف بذلك فقد طابى بين العزى والذلة ، وما من ريب في أنه عانى كثيراً قبل أن يصل إلى كل هذه الصور من الجناس والطباق ، وحقاً كان أصحاب مذهب التصنيع يستخدمون

(١) الفصول والغايات ١/١٤٨ .

من دون الله . لاته : نقصه حقه .

(٢) الدسر : الهلاك . الطاغوت : ما يعبد

هذا الزخرف قبله ، ولكن الإنسان يحس عند أبي العلاء أنه فارق طاقته القديمة من الحلية والزينة إلى طاقة جديدة من الإغراب والتعمق في تصعيب الأداء ، وإنه ليلتزم ذلك دائماً في كل ما يكتب ، وهل هناك أثر نثرى لأبي العلاء لم يبسّنه على اللفظ الغريب وهذا الجناس المعقد وما يطوى فيهما من التزام حرفين في روى سَجَّعه غالباً . ثم يأتي بعد ذلك ما يستخدمه من أمثال وما يحشده من إشارات تاريخية . وهذا كله كان يلتزمه في آثاره ، بحيث لا تكاد تخلو صحيفة من أعماله إلا وقد انبسطت عليها عُقد اللفظ الغريب أو قل اللفظ المهجور ، كما انبسطت عليها زخارف الجناس المعقد وما يندمج في هذا الجناس من أمثال وإشارات .

وبجانب هذه العُقد الدائمة التي ينمق بها فنه تنميماً نجده يقترح عقداً أخرى لم يكن يستعملها دائماً ولكنه كان يستعملها على كل حال ، وقد عرضنا لها في بيان تعقيده لرسائله ، ونقصد ما كان يتصنع له في كتاباته من ذكره لمصطلحات العلوم بطرق وصور مختلفة ، وقد غالى في هذا الجانب في أثناء صناعته للفصول والغايات غلوّاً بعيداً ، إذ نراه يحاول أن يرد كثيراً من أفكاره إلى علل أصحاب النحو والعروض ومصطلحاتهما كأنما أعياء التفكير المستقيم الصحيح فهو يفرع إلى النحو والصرف وما يتصل بهما يحاول أن يفسر آراءه ومشاكله كقولهِ (١) :

« لا أختار شبه الظالمين ، فإن الشيثين يتشابهان ، فينقلهما التشابه إلى الاتفاق كأنَّ المكسورة المشددة أشبهت الأفعال فجاء بعدها اسمان آخرهما كالفاعل وأولهما كالمفعول ، وكذلك ما قاربها من الأدوات ، لا تجعلني ربّ معتلاً كواو يقوم ولا مبدلاً كواو موقن تبدل من الياء ، ولا أحب أن أكون زائداً مع الاستغناء كواو جدول وعجوز ، فأما واو عمرو فأعوذ بك ربّ الأشياء ، إنما هي صورة لا جرس لها ولا غناء مُشَبَّها لا يحسبُ من النسبات » .
وبين أن هذه الفقرة لا يستطيع أن يفهمها إلا من درس النحو والاشقاق

وعرف ما يقوله النحويون عن إن وأنها تشبه الأفعال لبنائها من ثلاثة أحرف ، ثم ما يقولونه في الصرف عن الإعلال والإبدال ، وما يقولونه عن وزن الأسماء وحروف الزيادة. وكأتماسدات أمامه جميع طرق التعبير ، فهو يلجأ إلى هذه الأشياء يحاول أن يفتح بها الأبواب المنسدة ، وأنها لتنتفع على هذه الكلفة التي لم يكن يعرفها النثر على هذا النحو قبل أبي العلاء ، ولكن ما لأبي العلاء والكتّاب من قبله ؟ إنه يريد أن يتفوق عليهم ، وهو يجد هذا التفوق في مثل هذه الصور التي لم يكن يلجأ إليها الكتّاب السابقون لأنهم كانوا يفهمون الفن في كتابتهم بصورة أخرى ، كانوا يفهمونه على أنه تنميق وزخرف ، أما عند أبي العلاء فقد تطور الزمن وأصبح الفن يُفهم على أنه قبل كل شيء عقد وكلف ، واستمع إليه يقول في فقرة أخرى^(١) :

« ألفت إلى ذنوبي فأجدها متتابعة كحركات الفاصلة الكبرى ، واستقبل جرائم تشرى ، طوالا كقصائد الكُسميت الأسدى ، مختلفة النظم كقصيدتي عبّيد وعدى ، وأجلى ركيكاً في الدين ، ركاكة أشعار المولدين سبقتهم الفصاحة وسبقوا أهل الصنعة ! وأعمالى في الخير قصار ، كثلاثة أوزان رفضها المنجزون في قديم الأزمان ، ولا بد للوتد من حدّة ، والسبب من جدّ^(٢) ، ورب قرّح ، طوى طوى المنسرح^(٣) ، فارحمني ربّ إذا صرتُ في الحافرة ، كالتقارب وحيداً في الدائرة ، وهجرني العالمُ هجر النون العجّومات »^(٤).

أرأيت كيف يجنح أبو العلاء إلى علم العروض يستمد من مصطلحاته ما يُغرب به على الناس في نسيج فصوله وغاياته ؟ ! ولا يكتفى بذلك ، بل نراه

(١) نفس المصدر ١/١٣١ .

(٢) الود : جزء التفعيلة المكون من حرفين بعدهما أو بينهما ساكن ، والحد : القطع وهو حذف وتد من التفعيلة كحذف علقن من متفاعلين في الكامل . والسبب : جزء التفعيلة المكون من حرف متحرك بعده ساكن أو متحرك

مثله ، والحد : القطع ، ويقصد حذف السبب مثل تن في فاعلاتن .

(٣) الطى : حذف الرابع الساكن من مستفعلن في المنسرح فتصبح مستعلن .

(٤) النون : الحوت . العجّات : مجامع الرمل .

يشير إلى قصائد الكميت وما اشتهرت به من طول ، كما يشير إلى قصيدتين لعبيد وعدى عرفتَا باضطراب الوزن، وهما على الترتيب (أَقْفَرَمِنْ أَهْلِهِ مَسْلُوحٌ) و (قد حان أن تصحو لو تُقْصِر) كما يشير إلى الأوزان الثلاثة التي استحدثها الشعراء ولم يستخدمها القدماء وهي المبحث والمقتضب والمضارع ، أما الدائرة التي يشير إليها فهي إحدى دوائر الخليل واضع علم العروض ، إذ جعل كل مجموعة من أوزان الشعر في دائرة وأفرد المتقارب بدائرة على حدة . ولكن أين نحن الآن ؟ لقد فارق النثر طبيعته وأصبحنا نقرأ في الصحيفة منه بل في الفقرة ، فإذا بنا نضطر إلى أن نعرض لأشياء لا تتصل بدوائر الفن من حيث هو وإنما تتصل بعلوم اللغة . وهذا هو معنى ما نذهب إليه من أن أبا العلاء عقد لغته في نثره تعقيداً شديداً ، فقد أخذ النثر يستحيل عنده إلى هذه الصورة المعقدة الملتوية ، فإذا صاحبه يلجأ إلى مصطلحات من العلوم يسلكها في عمله ، ولنا لنعجب الآن كيف غلا أبو العلاء في تعقيد فنه كل هذا الغلو ، ولكن هذا العجب يزيله من نفوسنا أن نعرف أن الفن في النثر العربي تطور أخيراً إلى هذه الصور من التصعيب في الأداء ، وكأنما جفت المنابع التي تؤهل له صورة صحيحة من الزخرف إذ انتقل إلى هذه الصورة المعقدة من استخدام مصطلحات العلوم فإن تركها أبو العلاء فإلى الألفاظ المهجورة والأمثال والإشارات المرموزة . ويستخدم أبو العلاء الجناس ولكننا نحس عنده أنه فارق صورته القديمة إلى صورة هندسية جديدة ، إذ أصبح عقداً خالصة أو ما يشبه العقد الخالصة ، لا لسبب إلا لأنه كان يطلبه دائماً في اللفظ الغريب المتعمق في الإغراب ، كأنما الإغراب شيء يقصد لذاته ، واستمع إلى هذه الفقرة القصيرة ^(١) .

« بَلِّ يا جَعْنُ ، وابْلِّ يا جَسْم ، وابْلِّ يا نَفْس ، يَبْلِّ من المرض الدِّين ، ليس يَبْلِّ عند الله أَبْلُّ ، فاطوِ صديقك على بَلْسَتِه ولا تثنِّ بلباسِ حُبْلَات » .
هل يقع في ذهنك أنك تقرأ الآن نثراً كالنثر المألوف لك ؟ طبعاً لا ، فإن

هذا نثر جديد من صُنْع أبي العلاء، وإن الإنسان ليحس إزاءه كأنه يقرأ مادة من مواد لسان العرب، قد مَثَّل لها ابن منظور بأمثلة مختلفة باختلاف استخدام الكلمة، ولكن فكَّر قليلاً فسترى أن أبا العلاء لم يعمد إلى هذا اللعب إلا لأنه يريد أن يعرض عليك أوسع صور للجناس في هذه العبارات، وإنه ليذهب بعيداً في الإتيان بجناساته إذ يبدأ بكلمة «بَلْ» وهي من ويل ويل أى يسقط ويهطل، ثم يثنى بكلمة «أَبْلَ» وهي من بلى بلى، ويثالث بكلمة «وَأَبْلَى» وهي من أَبَلَ الوحش إذا اجتزأ بالكلاً عن الماء يريد: امتنعى عن المحارم أيها النفس، ويستمر أبو العلاء فيأتى بكلمة «يُبِيلُ» وهي بمعنى يبرأ ويصح، ثم يأتى بكلمة «يَبَلُّ» وهي بمعنى يظفر، أما الأَبْلُ فهو الخبيث، وأما قوله: «اطو صديقك على بُلَّتته» فثل يُضْرَبُ في السَّقاء يُطْوَى وهو مُبْتَلٌ، فإن بالله أبقى له. وقد ختم الفقرة بكلمة «حُبُلَات» وهي ضرب من الحلى. ووضح ما في ذلك كله من العنت في الإغراب والتعقيد الشديد.

والحق أن أبا العلاء يعتبر في نثره مرحلة قائمة بنفسها في تاريخ لغتنا العربية، فقد أخذ هذه اللغة من أيدي سابقيه فلم يقف بها عند الصورة التي تركوها بل خرج بها إلى مذهب التصنع الجديد، ولكنه حين خرج إلى هذا المذهب أوغل فيه لا يغالا لم يوغله أحد من قبله، بحيث يمكن أن يقال إن المذهب ابتدأ به وانتهى به أيضاً، فقد عقَّد لغة نثره تعقيداً لم يقع في وهم أحد لامن سابقيه ولا من معاصريه حتى لتتحول جوانب من أعماله إلى ما يشبه الألفاظ والأحاجي، وما من شك في أن معرفته الواسعة باللغة وألفاظها المستعملة والمهجورة ساعدته على كل ما يطمح إليه في هذا الصدد وإنها لمساعدة تخرج بجوانب كثيرة من آثاره إلى ما يشبه المعاجم، فهي متون لغوية قبل أن تكون متوناً أدبية أريد بها إلى اللغة قبل أن يراد بها إلى الفن، وذهب أبو العلاء يعقد هذه المتون ويصعبها بكل ما يستطيع من أدوات ووسائل، وهل هناك أداة أو وسيلة لا يحسنها أبو العلاء؟ إن اللغة مسخرة له، وهذه ألفاظها المهجورة يستطيع أن يتخذ منها ما يريد من مواد لبناء نماذجه، وإنه ليغرب في هذه المواد ما شاء له هواه حتى يقع

على كل ما يمكن من طرائف الفن في رأيه أو قل طرائف التعقيد والتعصيب وهل هناك طُرْفَةٌ من كُلفَةٍ أو عقدة لا توجد في عمله ؟ أتريد الجناس المعقد أو تريد الأمثال المبهمة أو تريد الإشارات المرموزة أو تريد مصطلحات العلوم ؟ إن كل ذلك تجده مجموعاً في عمله على نحو لم نألفه من قبله ولا من بعده ، فقد عجز من جاءوا بعد أبي العلاء عن أن يحملوا عنه مذهب التصنع كما تركه في هذه العقد والمنحنيات الكثيرة ، وسنقف عند كاتبين جاءا على أثره وهما الحريري والحصكفي لتبين صورة المذهب بعد أبي العلاء تبييناً دقيقاً .

٥

الحريري وتعقيده

هو القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري ، وُلد بضاحية من ضواحي البصرة تسمى المشان^(١) عام ٤٤٦ هـ ، وتوفي في عام ٥١٦ هـ^(٢) ، ولما شَبَّ ذهب إلى البصرة حيث « سمع الحديث وقرأ الأدب واللغة »^(٣) . وسرعان ما أصبح بفضل فطنته وذكائه صاحب الخبر في ديوان الخلافة ، وهي وظيفة تشبه وظيفته « مصاحبة الاستعلامات » في العصر الحديث^(٤) ، واستمرت هذه الوظيفة في أولاده إلى آخر العهد المقتفوى نحو سنة ٥٥٦ هـ إذ زار العماد الأصهباني البصرة ورأى أولاده يقومون عليها^(٥) . وكان الحريري يسكن في البصرة بمحلة بني حرام^(٦) ، وكان قبيحاً دميم الحلقة قدراً في لبسته وهيئته مُبْتَلًى بتنفٍ لِحَيْتِهِ^(٧) . ومن الطُرف التي تُروى بصدد ذلك « أن رجلاً قصده ليقراً

(١) معجم الأدياء طبع مصر ١٦/٢٦١ . العراق - تحقيق محمد بهجة الأثرى

٦٠١/٢/٤ .

(٢) نفس المصدر ١٦/٢٦١ .

(٣) المنتظم لابن الجوزي ٩/٢٤١ . معجم الأدياء ١٦/٢٦١ والخريدة

٦٠١/٢/٤ .

(٤) انظر تاريخ الطبري القسم الثالث ص

١٢٦٠ .

(٥) معجم الأدياء ١٦/٢٦٢ .

(٥) انظر الخريدة للعماد الأصهباني (قسم

عليه ، فاستدل على مسجده الذي يقرأ فيه ، فلما أراد الدخول ، رأى شخصاً دميم الخلقة ، فاحتقره ، وقال : لعله ليس هو هذا ، فرجع ، ثم قال في نفسه : لعله يكون هذا ثم استبعد أن يكون هو ، والشيخ يلحظه ، فلما تكرر هذا منه ، نفرّس الشيخ فيه ذلك ، فلما كان في المرة الأخيرة ، قال له : ارحل ، فأنا من تطلب ، أكبر من قِرْدٍ مَحْنَك ^(١) ، وربما كان هذا القبح هو الذي ولّد فيه ميله إلى الدعاية في أعماله وآثاره .

وكان مما خفف قبح الحريري أنه كان ذكياً ذكاء شديداً يقول ابن الجوزي : « إنه فاق أهل زمانه بالذكاء والفطنة » ^(٢) ، ويقول العماد الأصهباني : « طلعت ذكاء ذكائه في المغرب والمشرق ، وامتلاً ببضائع فوائده ، ونواصع فرائده حقائب المشتم والمُعَرِّق » ^(٣) ، ويقول يا قوت : « كان غاية في الذكاء والفطنة » ^(٤) واستغل هذا الذكاء في جانبيين ، أما الجانب الأول فالأدبُ شعره ونثره ، وقد ترك في هذا الجانب مجموعة من الشعر كما ترك مجموعة من الرسائل ، وأيضاً فإنه ترك أهم مجموعة ألّفت في المقامات ، وأما الجانب الثاني فهو جانب التأليف في النحو ، إذ نراه يترك - كما يقول ياقوت - كتاب « ملحّة الإعراب » وهي قصيدة في النحو ، كما يترك كتاب شرح ملحّة الإعراب ، وأيضاً فله كتاب « درّة الغوّاص في أوّهام الخواص » ، وهو معروف .

على أن الحريري إنما اشتهر بجانبه الأول ، إذ يعتبر أهمّ كاتب ظهر في المشرق بعد أبي العلاء ، وقد نال شهرة مدوية في عصره وبعد عصره ، لما كان يقوم به من عناية بآثاره عناية تُحيلها إلى ضروب خالصة من الزخرف والوشى الأنيق حتى ليقول العماد الأصهباني : إنّ « وِشْيَ بلاغة الحريري ذهبي الطراز ، سَحْبَانِي الإعجاز قُسِّي الإسهاب والإيجاز ، ومتى قد رُقِسَ على ترصيع كلمه ، وتصريع حكمه ، حريري الوشّي ، عراقى الوشْم ، لؤلؤي النظم ، كلامه يتيمة

(١) طبقات الأدباء لابن الأنباري ص

ورقة ٤٨٧ .

(٣) الحريرة ٦٠٠/٢/٤ .

٤٥٦ .

(٤) معجم الأدباء ١٦٠/٢٦٢ .

(٢) المنتظم : القسم الثاني من المجلد السابع

البحر ، ونجمة النحر^(١) . ولكن لا تظن من وصف العماد أن الحريري كان من ذوق أصحاب التصنيع ، فقد انتهى هذا المذهب في المشرق وانتهى أنصاره وحل محله مذهب جديد هو مذهب التصنع ، وهو مذهب كان يعتمد على التلفيق ، والتعقيد ، وإحالة الزخرف القديم إلى أشكال هندسية جديدة ، وقد تشبث أصحابه بزخرف الجناس واستخرجوا منه كل ما يمكن من عبث وعقد على صور مختلفة .

والحريري لم يكن يشذ على هذا المذهب الجديد ، بل كان ينساق فيه وفيما اقترحه أبو العلاء من تصعيب وعرف القدماء ذلك فقالوا إنه يستعير منه بعض صوره^(٢) ، ولكن ليس هذا هو الجانب المهم ، فقد استعار منه كثيراً من عقده التي بشَّها في أعماله وخاصة عقدة الجناس ، إذ ذهب يستعين بها في تعقيد فنه تعقيداً شديداً . وإن من يرجع إلى ما اقتبسه العماد الأصبهاني في خريدته وياقوت في معجمه من رسائله يجد ظاهرة التعقيد واضحة فيها ، وقد روي له جميعاً رسالتين غريبتين بناهما جميعاً على حرف واحد ، أما الأولى فبناها على حرف السين ، ولذلك سميت بالرسالة السينية ، وأما الثانية فبناها على حرف الشين ، ولذلك سميت بالرسالة الشينية ، وكتب الأولى على لسان بعض أصدقائه يعاتب صديقاً له أخلَّ به في دعوة دعا غيره إليها ، وهو يستلها على هذا النمط^(٣) .

« باسم القدُّوس أستفتح ، وبإسعاده أستنجح ، سَجِيَّة سيدنا سيف السلطان سُدَّة سيدنا الإسْفَهْسِلَار ، السيد النفيس سيد الرؤساء حُرِسَتْ نفسه ، واستنارت شمسُه وبَسَقَ غرسه ، واتسق أنسه ، استمالهُ الجليس ، ومساهمة الأنيس ، ومواساةُ السحيق والنسيب ، ومساعدة الكسير والسليب ، والسيادة تستدعى استدامةُ السُنن ، والاستحفاظ بالرسم الحسن ، وسمعتُ بالأمس

(١) الحريدة ٦٠٠/٢/٤ .

(٣) الحريدة : ٦١٦/٢/٤ وانظر معجم الأدباء

٢٧٦/١٦ .

(٢) نقد مقامات الحريري لابن الحشاش طبع

المطبعة الحسينية ص ٨ .

تدارسَ الألسن سُلالة خَنَدَ رِيَسِه ، في سلسال كُتُوسِه ، ومحاسن مجلس مسرته ، وإحسان سُمُعة سيادته ، فاستسلفت الاستدعاء ، وتوسمت السَّراء ، وسَوَّفت نفسى بالاحتسَاء ، ومؤانسة الجلساء ، وجلست أَسْتَقْرَى السبل ، وأستطلع الرُّسُل ، وأستبعد تناسى اسمى ، وأسامر الوسائس لاستحالة رَسَمِي^(١) . . . وحسبنا السلام وسلامه على رسول الإسلام .

أُرِيتَ إلى هذه المقدرة الجديدة عند الحريرى ؟ لقد حكهاها العماد في شيء من الدهشة والإعجاب وحتى له فقد كان ذلك ذوق عصره ، بل لقد كان ذوق الكتاب منذ أبى العلاء ، فهم يبحثون عن كل صعوبة في الأداء يجتذبونها إلى آثارهم ونماذجهم كي يدلوا على مهارتهم وبلاغتهم ، ولكن أى مهارة وبلاغة هذه ؟ لقد أصبحت النماذج الأدبية أشبه ما تكون بعمل عمال المطابع إذ يرصون الكلمات بعضها بجانب بعض ، فتتكون صناديق من الكلمات ولكن لا يتكون شعور ولا إحساس ، وأى إحساس وشعور في مثل هذه الرسالة التى شُغل فيها الحريرى بأن يجمع ألفاظاً من ذوات السين ويرصّها على هذا النمط ، فإذا بنا نقرأ سينيات ، لا أفكاراً ولا شعوراً ، وإنما كلمات بنيت بناء من حرف السين ! وما من ريب في أنه كان يريد بذلك أن يدل على مدى تفوقه على معاصريه في استخدام طرق مذهب التصنع ، وإنه ليبحت عن طرق جديدة فإذا هو يهتدى بعد البحث إلى هذه الفكرة البديعة ، وهى أن يؤلف رسالة سينية وأخرى شينية ليثبت مقدرته وبراعته ، وانظر إليه كيف يسوق رسالته الشينية التى كتب بها إلى طلحة بن محمد النعماني الشاعر لما قصده في البصرة يمدحه ويشكره ويتأسف على فراقه^(٢) :

« شغنى بالشيخ شمس الشعراء ريشَ معاشه، وفشا رِيَاشُهُ^(٣) وأشرق شهابه ، واعشوشبتُ شعابه^(٤) ، يشاكل شغف المنتشى بالنشوة، والمرتشى بالرشوة، والشادن

(١) استحالة رسمى : يقصد تغير المتاد . (٢) الرياش : الثياب الفاخرة . ريش :

(٢) الحريدة ٦١٩/٢/٤ ومعجم الأدباء زين .

(٤) اعشوشبت شعابه : كثر عشب نواحيه . ٢٧٨/١٦

بشَرخ الشباب، والعطشان بشيم الشراب، وشكرى لتجشمه ومشقته، وشواهد شفقتة، يشابه شكر الناشد للمنشد، والمسترشد للمرشد، والمستبشر للمبشر، والمستجيش^(١) للجيش المسمّر، وشعارى لإنشاد شعره، وإشجاء المكاشر والمكاشح ينشّره، وشغلى إشاعة وشائعه، وتشيد شوافعه^(٢)، والإشادة بشُدوره وشفوفه، والمشورة بتشفيعه وتشريفه، وأشهد شهادة تشده المقشّر المكاشف^(٣)، والمنشع الكاشف لإنشاده يُدهش الثائب والناشي، ويُلأشى شعر الناشي^(٤) ولمشافهته تباشيرُ الرشد، واشتتار الشَّهْد^(٥)، ولمشاحنته تشقى المشاحن؛ وتنشر المشاين، ولمشاعبته تُشظى الأُسْطان^(٦)، وتُشيط الشيطان، فشرفاً لشيخ شرفاً، وشغفاً بشننِشنتِه شغفاً :

فأشعارُه مشهورةٌ ومشاعرُه وعشرته مشكورةٌ وعشائره^(٧)
شأى الشعراء المشمعلين شعرُه فشانيه مشجواً الحشا ومُشاعره
وشوّه ترقيش المرقش رَقْشُه فأشياعه يشكونه ومعاشره

وأشهد شهادة شاهد الأشياء، ومُشيع الأحشاء، ليُشعلن شواظ اشتياق شحْطه، وليُشعلن شمل نشاطى نشطه، فناشدت الشيخ أيشعر باستيحاشي لشُسوعه، وإجهاشي لتشييعه، ووُشايي بنشيدِه الموشى، وتشكى شخصه بالإشراق والعشى، حاشاه تعتشيهِ^(٨) شُبّه وتغشاه، فليستشف شُرح شجوى بشُطونه، وليرشحنى لمشاركة شُجونِه ... عاش متعش الحشاشة، مُستشرى^(٩) البشاشة، مشحوذ الشُّفار، مُتشر الشرار، شتأماً للأشرار، شحاذاً بالأشعار، يَشْرخُ ويَحْوش، فيتنفّس المنقوش ... » .

(١) المستجيش : مجمع الجيش .

(٢) شوافعه : شفاعاته، وشائعه : طرائقه .

(٣) المقشّر : المجرح . المكاشف : المعلن

ما عنده .

(٤) الناشى الأول بمعنى الصغير والثانية إشارة

إلى شاعر عباسى يسمى الناشى .

(٥) اشتتار : جنى .

(٦) تشظى : تفرق . الأُسْطان الحبال .

(٧) شأى : سبق . المشمعل : الفائق .

مشاغر : معادى .

(٨) تعتشيهِ : تقصده .

(٩) مستشرى : قوى .

ونحن لا نشك في أن الحريري استحوذ على إعجاب معاصريه بهذه الطريقة الغربية ، كما استحوذ على هذا الإعجاب بطُرفته السابقة ، وهل يستطيع أحد أن يجرى على هذه السنة الحريرية ، فإذا هو يؤلف رسالة من حرف واحد ؟ وإن نفسه ليمتد على هذا النحو الذى نجده في تلك الرسالة الشينية ، وليس كل ما في هذه الرسالة من تعقيد ، هو هذا الإغراب في بنائها على حرف واحد ، فهناك عقد أخرى خلف هذه العقدة لا بد أن القارئ لاحظها ، ولعل في رأس هذه العقد التزامه مالا يلزم في نهاية أسجاعه ، إذ كان يتقيد غالباً بحرفين أو أكثر ، وأيضاً فإنه عني بالجناس على جميع صوره ، إذ نراه يحشد جناس الاشتقاق بكثرة كما يحشد الجناس الناقص بوفرة ، وإنه ليعدل في أثناء ذلك إلى ضروب من اللفظ الغريب كما نرى في الكلمات التى ختم بها الرسالة : يشرخ ويحوش ويقتفش ؛ ومعانيها على الترتيب : يعلو ويظفر ويجمع . وأكبر الظن أننا قد تعرفنا الآن على فن الحريري ، وهو فن يندمج في مذهب التصنع وما اقترحه له أبو العلاء من عقد مختلفة ، وإن الحريري ليحاول أن يأتي ببعض عقد جديدة ، فإذا هو يقع على هذه الفكرة وهى أن يبنى كلمات رسالته من حرف واحد ، ولكن لا تظن أن هذا هو كل ما عند الحريري فإن رسائله لم تستوعب جميع ألوان مهارته في هذا الجانب ، إنما الذى استوعب مهارته حقاً هو مقاماته .

٦

التعقيد في مقامات الحريري

تُعَدُّ مقامات الحريري أهمَّ نموذج أدبي ظهر في العصر العباسي بعد نماذج أبي العلاء ، وقد أخذ الناس يشيدون بها منذ ظهورها ، وعبروا عن هذه الإشادة بعبارات مختلفة ، لعل من أطرفها ما جاء عن الزمخشري وكان يعيش في عصر الحريري تقريباً ، إذ يقول^(١) :

(١) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (طبع

أقسمُ بالله وآياته ومَشْعَرِ الحج وميقاته
إن الحريرىَّ حرىَّ بأن نكتب بالتَّبَرِّ مقاماته

أما ياقوت فيقول: إن الحريرى «أبرَّ بكتاب المقامات على الأوائل وأعجز الأواخر»^(١)، ويقول أيضاً: لقد وافق كتاب المقامات (للحريرى) من السَّعْد ما لم يوافق مثله كتاب؛ فإنه جمع بين حقيقة الجودة والبلاغة، واتسعت له الألفاظ وانتقدت له البراعة... حتى لو ادَّعى بها الإعجاز لما وُجد من يدفع في صدره ولا من يرد قوله ولا يأتى بما يقار بها فضلاً عن أن يأتى بمثلها، وقد رُزقت — مع ذلك — من الشهرة وبُعْد الصيت والاتفاق على استحسانها من المُوافِق والمخالف ما استحقت وأكثر»^(٢)، ويقول ابن خلكان: إن الحريرى «رُزق الحظوة التامة بعمل المقامات»^(٣)، وبينما يشيد هؤلاء بعمل الحريرى في مقاماته نجد آخرين يحطون من هذا العمل وعلى رأسهم ابن الطقطقى، إذ زعم أن المقامات البديعية والحريرية تصغر الهمة لأنها بنيت على السؤال والاستجداء والتحليل القبيح^(٤). والطريف أن الحريرى أشار في مقدمة مقاماته إلى أنه سيغضُّ منها بعض الناس إذ يقول: «إنى وإن أغمض لى القطن المتغابى، ونصح عنى الحبُّ الحبابى، لا أكاد أخلص من غُمرٍ جاهل، أودى غُمرٍ (حقد) متجاهل، يَضَع منى لهذا الوضع، ويندد بأنه من مناهى الشَّرْع، ومن نقد الأشياء بعين المعقول وأنعم النظر فى مبانى الأصول، نظم هذه المقامات، فى سلك الإفادات، وسلوكها مسلك الموضوعات، عن العجماوات والجمادات، ولم يُسْمَعْ بمن نبا سمعه عن تلك الحكايات»^(٥). وواضح أن الحريرى يحتج على صواب عمله بكتاب كليله ودمنة وأمثاله من القصص التى بُنيت على الحيوان، فإن أحداً لم يذمها لما فيها من حكم وآداب، ولكن هل يُفهمُ من ذلك أنه قصد إلى بَسْ

(٤) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٠.

(٥) مقامات الحريرى مع شرح الشريشى

(الطبعة الثانية ببلاق) ١٨/١.

(١) معجم الأدباء ٢٦٢/١٦.

(٢) نفس المصدر ٢٦٧/١٦.

(٣) وفيات الأعيان (طبع المطبعة الميمنية)

معان أخلاقية في مقاماته ؟ إن من يقرأها قلما يرى شيئاً من ذلك إلا في المقامة الدمشقية والمقامة الساوية ، ويظهر أنه كان مشغولاً عن هذه المعاني بتدبيج أساليبه وتحجيرها .

وتبلغ عدة مقاماته خمسين وهي كمقامات البديع ، كلها حكايات درامية تفيض بالحركة التمثيلية وإن كان الحريري لم يقصد بها إلى القصص من حيث هو ، وإنما قصد بها إلى تعليم الناشئة الأساليب الأدبية . وقد بناها على الرواية إذ يروي الحارث بن همام أحاديثها ، ويقول ابن خلكان : إنه عَنَى بهذا الحارث نفسه أخذاً من قوله صلى الله عليه وسلم : « كلكم حارث وكلكم هَمَام » والحارث : الكاسب ، والهمام : كثير الاهتمام ^(١) . أما الأديب المتسول الذي تُروى عنه المقامات والذي يقابل عند الحريري أبا الفتح الإسكندري عند بديع الزمان ، فهو أبو زيد السروجي ، وهو من أهل الكدْية الذين احترفوا التسول متخذين وسيلتهم إلى ذلك الخُلب بصوغ اللسان وسحر البيان . وصوّر الحريري في المقامة الساسانية دواعي هذا التسول ودوافعه ، ويزعم ياقوت ^(٢) وكذلك ابن خلكان ^(٣) أن شخصية أبي زيد شخصية حقيقية ، ولكن الباحثين المحدثين يتهمون ذلك ويردونه ^(٤) ، لأنه لا مبرر له ، وما أبو زيد إلا كأبي الفتح الإسكندري صاحب بديع الزمان ، بل كأى بطل لقصة أخرى ، ليس من الضروري أن يكون معبراً عن حقيقة خلفه .

والمعروف أن الحريري استهل كتابه مقاماته بالمقامة الثامنة والأربعين وهي المسماة باسم المقامة الحرامية ، ثم أخذ في كتابة بقية المقامات ^(٥) ، وقد بدأ في هذا العمل عام ٤٩٥ هـ ، وانتهى منه عام ٥٠٤ هـ ^(٦) ، وأقرّ في مقدمتها بأن الذي أشار عليه بكتابتها شخص « إشارته حكم وطاعته غنم » ^(٧) وهو

-
- | | |
|---|--|
| (١) وفيات الأعيان ١/٤٢٠ . | الحريري ومادة مقامه . |
| (٢) معجم الأدباء ١٦/٢٦٣ وكذلك ص ٢٧٢ . | (٥) معجم الأدباء ١٦/٢٦٣ . |
| (٣) وفيات الأعيان ١/٤١٩ . | (٦) معجم الأدباء ١٦/٢٨٣ . |
| (٤) انظر في دائرة المعارف الإسلامية ترجمة | (٧) مقامات الحريري مع شرح الشريشي ١١/١ . |

السياسى الفارسى المشهور أنو شروان بن خالد^(١) الذى كان وزيراً تحت إمرة الخليفة المسترشد بالله والسلطان مسعود السلجوقى^(٢) ، ورأى ابن خلكان على نسخة من المقامات كتبها الحريرى نفسه أنه صنفها لوزير آخر للمسترشد يسمى ابن صدقة^(٣) ، فشك فى الرواية الأولى التى تذهب إلى أن أنوشروان بن خالد هو الذى أشار عليه بها ، ولكن من يدرى ؟ ربما كانت المسألة لا تزيد على أن الحريرى كتب نسخة وأهداها إلى ابن صدقة ! ويقال إن الحريرى كتب خطّه على سبعمائة نسخة من مقاماته قرئت عليه^(٤) ، وأكبر الظن أن اهتمامه بها على هذا النحو هو الذى حال بينها وبين البتّر والحذف والتغيير ، ولذلك كانت مقاماته من هذه الوجهة أتم وأطرف من مقامات البديع التى تبدو مبتورة فى كثير من الأحيان .

ولعل أهم جانب تفرق به مقامات الحريرى من مقامات بديع الزمان هو أنها كُتبت فى ظلال مذهب التصنع وعقده ، بينما كتبت مقامات البديع فى ظلال مذهب التصنيع وزخرفته ، وليس معنى ذلك أن الحريرى لم يبين مقاماته على السجع ولا على وشى البديع ، بل لقد بناها على أساس هذه المواد ، ولكنه أخرجها فى صورة جديدة هى صورة مذهب التصنع وما يمتاز به من تصعيب الأداء ، إما بجلب أشياء غريبة عن دوائر الفن من حيث هو ، وإما بتعقيد ما يندمج فى هذه الدوائر من جناس وغير جناس ، وإما باستحداث طرق جديدة كالطريقة التى قابلتنا فى رسائله ، إذ وجدناه يبنى بعضها على حرف واحد ، ومن يرجع إلى مقدمة مقامات الحريرى يجده يقول فيها : إنها تحتوى على « ما وشّحتنا به من الآيات ومحاسن الكنايات ، ورصّعتنا فيها من الأمثال العربية ، واللطائف الأدبية ، والأحاجى النحوية ، والفتاوى اللغوية والرسائل المبتكرة ، والخطب المحبّرة »^(٥) . وهذا نفسه الذى يجعلنا نقول إن الحريرى عقّد أسلوب الكتابة

(١) معجم الأدباء ٢٦٣/١٦ ووفيات (٣) وفيات الأعيان ١/٢٢٠ .

(٤) معجم الأدباء ١٦/٢٦٧ .

(٥) مقامات الحريرى مع شرح الشريشى Nicholson, Lit. Hist. of Arabs, (٢)

p. 329. ١٣/١

في مقاماته ، فهو يعترف منذ السطور الأولى فيها بأنه سيوشحها بالآيات القرآنية ، وكان هذا التوشيح إحدى سمات أصحاب التصنع ، وهو ، لا شك مقصد جميل في ذاته ، ولكنه يقترن بأشياء أخرى تتصل بتصعيب الأداء وتعقيده ، ولعل أول ما يلاحظ من ذلك هو الكنايات التي يشير إليها الحريري ، ولإنها لتحيل كثيراً من جوانب مقاماته إلى ما يشبه الألغاز ، وارجع إلى المقامة التاسعة عشرة الملقبة بالمقامة النَّصِيبِيَّة تجده يكثر من الكنايات على نحو مبعث في الإغراب ، إذ يكتفي عن الموت بأبي يحيى ، وعن الجوع بأبي عمرة ، وعن الخوان بأبي جامع ، وعن الحبس الحواري بأبي نُعَيْم ، وعن الجندى بأبي حبيب ، وعن الخل بأبي ثقيف ، وعن الملح بأبي عَمُون ، وعن البقل بأبي جميل ، وعن السكباج بأبي القُرى وعن الهريسة بأبي جابر ، وعن الفالودج بأبي العلاء ، وعن الطست والإبريق بالمرُجفَيْن وهو حقاً لا يكثر في مقاماته الأخرى من هذه الكنايات ولكنها على كل حال موجودة في جوانب كثيرة منها ، وهو كما يوشح مقاماته بهذه الكنايات كي يعقد أسلوبها ، نراه يرصعها — كما يقول في المقدمة — بالأمثال على نحو ما نجد في المقامة الوبرية ، وقد قال إنه وضع في المقامة الحجرية بضعة عشر مثلاً^(١) ، وكما عني بالأمثال عني بالحكم على نحو ما نجد في المقامة القهقرية . أما الأحاجي النحوية فقد خصص لها المقامة المسماة بالمقامة النحوية ، إذ عرض فيها طائفة من أحاجي النحو ومشاكله ، وكما عني بأن يخصص للنحو مقامة ، كذلك عني بأن يخصص للفقه مقامة سماها المقامة الطيِّبِيَّة ذكر فيها مائة مسألة فقهية .

أرأيت كيف تطور الفن في النثر العربي وأنه أصبح يعتمد على أشياء لم نكن نألفها عند الكتّاب قديماً ؟ فإذا الحريري يسلك في مقاماته مسائل النحو والفقه كما يسلك فيها الكنايات والأمثال ، وكل ذلك ليقدم لمعاصريه طرائفه الجديدة ، وهو لا يقف عند ذلك ، إذ نراه يعمد — كما يقول في مقدمته — إلى

(١) مقامات الحريري مع شرح الشريشي

الفتاوى اللغوية من ذكر بعض الاشتقاقات والأبنية الغريبة ، ولعل ذلك ما جعل ابن خلكان يقول : إنها « اشتملت على كثير من كلام العرب من لغاتها » ^(١) ، وشكا الشريشي شارحها في مقدمته من هذا الجانب فيها وصعوبته . وما من ريب في أن ذلك يدلنا على أن الحريري كان يبحث عن وسائل جديدة يوشئ بها عمله ، ولكنه حين اتجه هذا الاتجاه ضل سبيله ، فوقع في هذه الطرق الغريبة من التصنع لشوارد اللغة أو شوارد الأمثال أو مسائل النحو أو مسائل الفقه أو غرائب الكنايات ، كأن اللغة العربية قد أجذبت ولم تعد تستطيع أن تقدم من زخارف التعبير سوى هذه الطرق الملتوية المعقدة التي لا تتصل بالفن ولا بأى زخرف من زخارفه ، إلا إذا جعلنا التعقيد من حيث هو زخرفاً وفناً يقصد لذاته .

ويُشير الحريري — في مقدمة مقاماته — إلى رسائل مبتكرة وخطب محبّرة ، وإذا ذهبنا نبحت عن هذه الرسائل والخطب لنرى ما فيها من طرافة يُدِلُّ بها الحريري ، وجدنا هذه الطرافة تستقر في صور معقدة بل قل في صور ملتوية ، إذ مضى يؤلف رسالة على هذا النمط ^(٢) :

« أخلاقُ سيدنا تُحسَّبُ ، وبعقووته يُلسَّبُ ^(٣) ، وقربه تُحسَفُ ، ونأيه تَلَفُ ، وخلته نسب ، وقطيعته نَصَبُ ، وغربه ذَلَقُ ^(٤) ، وشُهبه تأتلق ، وظلُّفه ^(٥) زان ، وقويم نهْجُه بان ، وذهنه قَلَبُ وجَرَبُ ، ونعته شَرَقُ وغرب ... معاظم شرفه تأتلف ، وشؤبوب حباثه يَكِفُ ^(٦) ، ونائل يديه فاض ، وشُحُّ قلبه غاض ، وخِلَفُ ^(٧) سخائه يُحْتَلَبُ ، وذهب عيابه يَحْتَرَبُ ^(٨) ، من لَفَ لفه فَلَجَ وغَلَسَ ، وتاجرُ بابه جَلَسَ وخَلَسَ » .

والرسالة تمضي على هذا النحو الذي نرى فيه كل كلمة تتألف من حروف

-
- (١) وفيات الأعيان ١/٤١٩ .
 (٢) انظر الرسالة بأكملها في المقامة المسماة بالرقطاء .
 (٣) العقوة : الفناء ، يلب : يقام .
 (٤) الغرب : حد السيف ، ذلق : حاد .
 (٥) الظلف : العفاف .
 (٦) الحباء : العطاء . يكف : يسيل .
 (٧) الخلف : الضرع .
 (٨) العياب : الحقائق . يحترَب : يستلب .

منقوطة وغير منقوطة بحيث لا تتوالى بل دائماً تتفاصل هذا التفاصيل الذى يجعل الطرف ينتقل بين حرف منقوط وغير منقوط ، أرايت إلى هذا البدع الحديد بدع الحريرى ؟ وإنه لبدع يبرهن به على قدرته ومهارته فى صوغ الكلام ولكن أى صوغ ؟ طبعاً هذا الصوغ المعقد فى الأداء ، فإذا هو لا يستقيم فى كتابته ، بل يعوج هذا الاعوجاج الذى يتيح له مثل هذه الصعوبات والتعقيدات . وقد ألف خُطبة - فى المقامة المسماة بالواسطية - من كلمات لا تشتمل على أى حرف منقوط ، وقدمها بقوله : إنها « لم تفتق رتقى سمع ، ولا خُطب بمثلها فى جمع » . وليست هذه هى كل طرائف الحريرى ، فقد كان ما يزال يبحث عن طرائف جديدة يُظهر بها مهارته فى تعقيد أدائه بالقياس إلى من سبقوه وعاصروه ، وذهب يحاول محاولة غريبة ، هى أن يأتى بالجملة ثم يعكسها فى الجملة التالية ، وسمى ذلك فى المقامة المغربية ما لا يستحيل بالانعكاس ومثل له بقوله :

« لُمْ أَخَا مَلٍّ ، كَبَّرَ رَجَاءَ أَجْرِ رَبِّكَ ، مِنْ يَرْبٍّ ^(١) إِذَا بَرَّيْنَمُ ، سَكَّتْ كُلُّ مَنْ نَمَّ لَكَ تَكْسٌ ^(٢) ، لُذْ بِكُلِّ مُؤَمِّلٍ إِذَا لَمْ وَمَلِكٌ بَذَلْ » .

وهذه آخر صورة وصل إليها التعقيد عند الحريرى ، فقد ذهب يقلب تعبيراته هذا القلب لتطرد له صورٌ من الألفاظ المتعاكسة فى عباراته ، وكأن ذلك هو ما يحرص عليه الفن فى أساليبه ! ولكن أى أساليب ؟ إنها طبعاً أساليب التصنع وما يُطَوَّى فيه من تعقيد وتصعيب فى طرق الأداء على هذه الهيئة ، فإذا الكاتب يفر من الأداء المستقيم إلى الأداء الملتوى ، لا ليدل على شىء سوى مهارته فى اللعب والعبث بالألفاظ ، وإنه لعبث ينتهى به إلى هذه الصورة الهندسية التى لا تحوى فناً ولا جمالاً ، وإنما تحوى تعقيداً كأنما التعقيد غاية ينبغى أن يطلبها الكاتب فى آثاره وأعماله . ونحن فى الواقع نبحت عبثاً إذا حاولنا أن نجد كاتباً مهماً بعد أبى العلاء لا يركب مثل هذه الطرق الملتوية فى تعبيره الفنى ، إذ كانت هى المقاييس التى تقاس بها مقدرة الكاتب وبراعته . وليس معنى ذلك

(١) يرب : يصون الصنيعة .

(٢) تكس : تكن كيسا .

أننا ننكر جمال مقامات الحريري وتوفيقه في كثير من جوانبها ، وإنما نريد أن نلاحظ هذه الملاحظة ، وهي أن خير نموذج أدبي قدمته لنا العصور التالية بعد أبي العلاء لم يستطع صاحبه أن ينفذ به إلى إعجاب الناس من حوله دون أن يضع لهم فيه ضروباً من التعقيد والتصعيب في الأداء بجانب ما فيه من سجع رشيق وترصيع وبديع ، فقد مسح عليه لا بالتزامه ما لا يلزم في نهاية سجعاته ، بل باستخدامه الواسع للكنايات والأمثال والمسائل النحوية والفقهية والشعبذة برسالة رقطاء وخطبة من ذوات الحروف المهملة وما يتصل بذلك من استخدام ما لا يستحيل بالانعكاس ، فإن هذه الجوانب كلها سقطت إلى عمله عن طريق مذهب التصنع الذي كان يعجب به وبأصحابه ، ومن الخطأ أن نبحت في هذه العصور عن كاتب لا يستخدم مثل هذه العقد والطرق الملتوية في فنه ، فقد كان ذلك الذوق العام للناس ، وكان الكاتب ما يزام يحتال على إرضاء هذا الذوق بصور وطرق مختلفة . وما من شك في أن الحريري كان يعرف ذلك معرفة دقيقة ، ومن أجله ذهب يُعَرِّب على الناس في مقاماته بهذه المواد التي قدمناها حتى يظفر بإعجابهم ، وقد استمرت به رغبته تلك حتى استطاع أن يتحدث هذه الطُرُق الغريبة ، طُرُق ما لا يستحيل بالانعكاس ، وهي طريقة تعبرُ أبلغ تعبير عما انتهى إليه الفن لعصر الحريري من تصعيب وتعقيد .

٧

الحصكفي وتعقيده

وإذا كنا قد التقينا في القرن الخامس بالحريري فإننا نلتقي في القرن السادس بالحصكفي وهو يحيى بن سلامة خطيب ميفارقين « نشأ بحصن (كَيْسَفَا) وقدم بغداد واشتغل بالأدب على الخطيب أبي زكريا التبريزي وأتقنه حتى مهر فيه . . ثم رحل عن بغداد راجعاً إلى بلاده ونزل ميفارقين واستوطنها وتولى بها الخطابة . .

وكان يتشيع ، وهو في شعره ظاهر ، وتوفي سنة ٥٥١ هـ وكانت ولادته في حدود سنة ستين وأربعمائة ^(١) . وتلميذة الحصكفي للتبريزي تجعلنا نلاحظ أنه اتصل بمدرسة أبي العلاء ، فقد كان التبريزي تلميذاً لأبي العلاء ، وعنه لقف الأدب الحصكفي ، ومعنى ذلك أنه تلميذ غير مباشر لأبي العلاء ، ولذلك لم يكن غريباً أن يتأثر به في كل ما كتب ، فهو يستن بسننه ، إذ يعنى بتعقيد آثاره ، وهو تعقيد كان يعتبر الدليل الأول في تلك العصور على مهارة الكاتب وبلاغته . ومن يقرأ ما كتبه العماد الأصهباني عنه في الخريدة يجدّه يُشيد به وبطريقته الفنية إشادة عظيمة إذ يقول في مقدمة ترجمته : « علامة الزمان في علمه ، ومَعَرَّى العصر في نثره ونظمه ، بل فضل المعري بفضل وفهمه ، وبدء الحريري برقة طبعه ، وقوة سجعه ، وجودة شعره ، وغزارة أدبه ، وانفراده بأسلوبه في الشعر ومذهبه . . له الرصيع البديع ، والتجنيس النفيس ، والتطبيق والتحقيق ، واللفظ الجزل الدقيق ، والمعنى السهل العميق ، والتقسيم المستقيم ، والفضل السائر المقيم ، والمذهب المذهب ، والقول المذهب ، والفهم الشهم ، والفكر اليكر ، والقافية الشافية ، كأنها العافية ، والمعيشة الصافية ، والروى الروى ، والزند الورى والخاطر الجرى ، الجامع في الوزن ، بين در الحزن ودرّ المزن ، تود الشعري لو أنها شعار شعره ، والنثرة أنها نثار نثره ، والزهرة أنها كوكب سمائه ، والمشتري أنه مشترى ثنائه . غَنِيَّتُ الغانياتُ عن قلائدهن بفرائده ، وأحبت الخصور أن توشح عوض مناطقها بدُرّ منطقته ، وحسدت عيونُ الغواني عيونَ معانيه ، غبِطت أحداقُ الحسان أحداق محاسنه وحدائق قوافيه ما فارق ميافاقرين ، بل كان منزله محطّ رحال المسترشدين ^(٢) . وفي دار الكتب قطعة مخطوطة من نثر الحصكفي وشعره ، ومن ينظر فيها يحس العلاقة الوثيقة بينه وبين أبي العلاء ويهمننا هنا أن نعرض لنثره وهو ينساق جملة في طريقة أبي العلاء وحتى ما عند أبي العلاء من تشاؤم نجده عند الحصكفي ، وقد أهّل له تشيعه كما أهلت له

(١) وفيات الأعيان ٢٠/٢٣٧ وانظر معجم ، (٢) الخريدة : (قسم شعراء الشام - طبع

المجمع العلمي العربي بدمشق) ٤٧٢/٢ .

الأدباء ١٨/٢٠ .

وظيفة الخطابة وما تجر إليه من وعظ ديني ، ومع ذلك فله شعر في الخمر ، وربما صنعه من باب التقليد ، ومن شعره الطريف قصيدة كتب بها إلى كمال الدين الشهرزوري بالموصل بدأها بقوله :

أداروا الهوى صِرْفًا فغادرهم صِرْعَى فلما صَحُوا من سكرهم شربوا الدمعا

وأول رسالة تلقانا من مجموعة الحصكفي المخطوطة رسالة سماها الكُدُرية أرسلها إلى أصدقائه بآمد ، وقد كتبها على لسان قطاين تتناحيان ، وفيها إغرابُ أبي العلاء وبعد إشارات . وله رسالة طويلة كتبها على لسان قَصَّارِ صيادٍ لمداعية بعض أصدقائه ويقول العماد : إنها « مقامة مصنوعة مجنسة »^(١) . ولعل أهم ما يلاحظ في كتابة الحصكفي أنها مليئة بالجناس وهو لا يكتفي بالجناس الطبيعي بل ينجح إلى الجناس الصناعي الملفق الذي تستخدم فيه الصور المعقدة ، واستمع إليه في إحدى رسائله^(٢) :

« النفس بعقود التذرُّع حالية ، ولعقود التعذر حائلة ، ومن الودائع المعجزة مالية ، وإلى الدواعي المزعجة مايلة ، وفي بحار الحمد راسية ، وإلى رحاب المدح سارية ، تنجمح إلى مواصلة القمر ، وتحجم عن مصالوة القمر ، لتكف بأظفار الأمل ، وتفك من أظفار الأمل ، فهل كامل يُعنى ، ومالك يعين ، ومقتصد يدنى ومتصدق يُدين ، فالرغبة إلى الشهب ، من الغربة في الشبه ، رغبة من قصد بالإلهام ، مواقع السحاب الهام » .

أرأيت إلى هذه العبارات التي تتتابع في إحدى رسائل الحصكفي على هذا النحو ، فإذا كل كلمة في السجعة الأولى تعود في السجعة الثانية ولكن مع شيء من القلب والعكس في هيئتها وصورتها فإذا « عقود » في السجعة الأولى تصبح « قعود » في السجعة الثانية ، وإذا « التذرع » تصبح « التعذر » ، و « حالية » تصبح « حائلة » وهكذا السجعات التالية تُشتق كل كلمة في العبارة التالية من

(١) الحريدة (قسم شعراء الشام) ٥١٥/٢ . بدار الكتب) ورقة ١٩ وانظر الحريدة (قسم

(٢) انظر رسائل الحصكفي (نسخة مخطوطة شعراء الشام) ٤٩٧/٢ .

كلمة في العبارة السابقة . وهذه هي مهارة الحصكفي التي أشاد بها العماد الأصهباني فهو يستطيع أن يعقّد كتابته على هذا النحو ، فإذا هي تتحول إلى لعب وهي لعب كانت تستهوى الأدباء في عصر الحصكفي استهواءً شديداً ولعل ذلك ما جعله يكثر من الجناسات على اختلاف ألوانها في كتبه كقوله من رسالة أخرى^(١) :

« فأنس أجماً لا تُزَمّ ، وأحمالاً تُضَمّ ، وأحوالاً تهول ، وأهوالاً تحول ، وأوجالاً تصول ، وأصولاً تجول ، وسمع تنادر [القطان] بمفارقة الأوطان وتثويب الداع ، بوشك الوداع ، وللحدادة زَجَل ، وعلى القوم عجل ، وقد بُنيت القباب ، وحُشَّت الركاب ، وفي الخدور أشباه البدور ، وتحت الأكلّة ، أمثال الأهلّة ، وأيدي النوى لاعبة ، وغيرُ بانه ناعبة ، والحيُّ قد طُرِق ، والضّواع قد سُرق ، وضمن مؤذّن العير ، لمن جاء به حملٌ بغير ؛ يا له من عامري ، يش من عامري » .

وأنت ترى في هذه القطعة ضروب الجناس المختلفة من ناقص ومعكوس ومقطوع وموصول ، وكل ذلك كان يأتي به الحصكفي ليثبت تفوقه ومهارته وأنه يستطيع أن يستخرج كل ما يمكن من عقد التصنع وصعوباته ، وكان الناس من حوله يعجبون بهذا التصنع إعجاباً شديداً . ويظهر أنه كان يتأثر بالحريري كما كان يتأثر بالمعري ، إذ نراه يقلده في صنع رسالة سينية^(٢) كسينيته التي مرت بنا ، وأيضاً فإنه صنع رسالة ألفها من الحروف المهملة^(٣) على نحو ما أشرنا إليه عند الحريري في خطبته التي ألفها من حروف غير منقوطة . وليس ذلك كل ما نلاحظ عند الحصكفي من تأثر بالحريري ، فإن في رسالته رسالة فقهية^(٤) ، قلّد فيها المقامة الفقهية عند الحريري ، وهي التي تسمى المقامة الطيبية ، وبجانب ذلك نجده يؤلف مقامة كبيرة وقد افتخر بأنه ذكر فيها مائة وأربعين كلمة غريبة^(٥) . وما من ريب في أن ذلك كله يدل على مدى

(١) رسائل الحصكفي ورقة ٢١ والحريدة (قسم

(٢) رسائل الحصكفي ورقة ٧٣ .

(٣) نفس المصدر ورقة ٥٠ .

(٤) نفس المصدر ورقة ١٠٧ وما بعدها .

(٥) رسائل الحصكفي ورقة ٦٥ .

شعراء الشام ٤٩٨/٢ .

ما كان يحاوله الحصكفي من تعقيد في رسائله وآثاره ، وهو تعقيد دفعه إلى أن يجمع كل هذه الطرف في أعماله حتى يقع من معاصريه موقعاً بديعاً .

٨

التعقيد ظاهرة عامة

رأينا الحريري والحصكفي يعقدان كتابتهما ما استطاعا من تعقيد ، ولم يكن هذا دأبهما وحدهما ، بل كان دأب جميع الكتاب الذين خلفوا أبا العلاء في المشرق ، إذ انتهت الأعمال الأدبية إلى بث صور التعقيد التي اقترحها .

ولم يعد هناك إلا أن يضيف الكتاب صوراً مماثلة عملتها تثبت تفوقهم ومهارتهم ، ونحن نقف عند صدر رسالة كتب بها أديب من غزنة أشاد به ياقوت في معجمه ؛ وهو عطاء بن يعقوب بن ناكل وكان ينظم بالفارسية والعربية ، ويقول ياقوت في وصف بلاغته : « تشرَّبُ إلى قلائده أجياد الأنام ، وتباهى برسائله مواقع الأقلام ، ولم يزل منذ شبَّ إلى أن اشتعل الشيب برأسه ، ورسب قنْدَى العمر في آخر كأسه ، بين اقتباس يصطاد به وحوش الشوارد ، وإقباس ينثر منه لآلئ القلائد . . وقد سافر كلامه من غزنة إلى العراق ، ومن ثمَّ إلى سائر الآفاق . . وكيف لا وما من كلمة من كلماته إلا وحققها أن تملك بالأنفُس وتُقْتَتَى ، وتباع بالأنفُس وتشتري » ^(١) . ويستطرد ياقوت من ذلك إلى إعطاء نموذج من نثره فإذا هو صدر كتاب صدر منه إلى بعض الصدور ، وهو يعضى على هذا النمط ^(٢) :

« أطال الله بقاء الشيخ في عزّ مرفوع كاسم كان وأخواتها إلى فلك الأفلاك ، منصوب كاسم إنّ وذواتها إلى سَمَك السَّمَك موصوف بصفة النماء ، موصول بصلة البقاء ، مقصور على قضية المراد ، ممدود إلى يوم التناد ، معرّف به مضاف

(١) سجع الأدباء ١٧١/١٢ .

(٢) نفس المصدر ١٧٢/١٢ .

إليه ، مفعول له موقوف عليه ، صحيح سالم من حروف العلة ، غير معتل ولا مهموز همز المذلة ، يُشْنَى ويجمع دائماً جمع السلامة والكثرة ، لا جمع التكسير والقلة ، ساكن لا تغيره يد الحركة مبني على اليُسْمَن والبركة ، مضاعف مكرراً على تناوب الأحوال ، وزائد غير ناقص على تعاقب الأحوال ، مبتدأ به خبره الزيادة ، فاعل مفعوله الكرامة ، مستقبله خير من ماضيه حالاً ، وغده أكثر من يومه وأمه جلالاً ، له الاسم المتمكن من إعراب الأمانى ، والفعل المضارع للسيف اليماني ، لازم لرَبْنه لا يتعدى ، ولا ينصرف عنه إلى العدا ، ولا يدخله الكسر والتنوين أبداً ، يقرأ باب التعجب من يراه منصوباً على الحال إلى أعلى ذراه ، متحركاً بالدولة والتمكين ، منصرفاً إلى رَبْوَة ذات قرار ومعين .

وفي هذه القطعة ما يدل دلالة واضحة على مدى ما وصل إليه الكتاب من تعقيد لكتابتهم بمصطلحات العلوم يدخلونها في آثارهم على نحو ما أدخل عطاء بن يعقوب مصطلحات النحو في هذه القطعة ، وكانوا إذا تركوا مثل هذه العقد التي يستعبرونها من العلوم ذهبوا يعقدون وسائل الفن القديمة على نحو ما رأينا من تعقيد الجناس عند الحصكفي ، وقد عمت هذه الروح في العراق وخراسان والشام ، وكما عمت في هذه الأقاليم عمت في الأقاليم الأخرى ، فقد روى ياقوت رسالة كان يروها الحافظ السلفي المشهور عن أديب يمني ، هو ابن قم الزبيدي المتوفى عام ٥٨١ هـ ، وكان من المبرزين في النظم والنثر والكتابة^(١) ، والرسالة تمضي على هذا النحو^(٢) :

« كتب عَبدُ حُضرة السلطان الأجل ، ومولاي ربيعُ المُجْدِبين وقرِيع المتأدين ، جَلْوَةُ الملتبس ، وجَدْوَةُ المقتبس ، شهاب المجد الثاقب ، ونقيب ذوى الرشد والمناقب ، أطال الله بقاءه ، وأدام علوه وارتقاه ، ما قُدِّمَت العارية للمستعير ، ولزمت الياء للتصغير ، وجعل رتبته عالية المقام ، كحرف الاستفهام ، وكالمبتدأ إن تأخر في البنية ، فإنه مقدم في النية ، ولا زالت حضرته من الحادثات حِمَى ، وللوفود

(٢) نفس المصدر ١٣٢/١٠ .

(١) معجم الأدباء ١٣٠/١٠ .

مزدحمًا وملتزمًا ، حتى يكون في العُلا ، بمنزلة حرف الاستعلاء ، وهو من حروف اللين في حصون ، وما جاورها من الإمالة مَصُونٌ ، ولا زال عدوه كالآلف ، حالها يختلف ، تسقط في صلة الكلام ، ولا سيما مع اللام ، فإنه — أدام الله علوه — أحسن إلى ابتداء ونشر على من فضله رداء أراد أن يخفى وكيف يخفى ؟ لأن من شرف الإحسان ، سقوط ذكره عن اللسان ، كالمفعول رُفِعَ رَفَعَ الفاعل الكامل ، لما حُذِفَ من الكلام ذكرُ الفاعل . . . »

وواضح ما في هذه القطعة من رسالة ابن قم من تعمل لإدخال النحو ومصطلحاته في أساليب الرسائل وألفاظها ، فإذا هي تغدو وكأنها متن من متون النحو لا نموذج من نماذج الفن ، وإذا كان ابن قم يتعمل هذا التعمل في كتابته باليمن ، فإن كتاب الأقاليم الأخرى أيضاً كانوا يأتون بمثل هذه الصعوبات والعقد في كتابتهم ، وقد يتخففون من مصطلحات العلوم ولكنهم يفرطون في استخدام الوسائل الأخرى من الأمثال واللفظ الغريب أو من تعقيد السجع والجناس ، وستعقب في القسم التالي من هذا الكتاب المذاهب الفنية في الأندلس ومصر ، وسيرى القارئ أنه منذ القرن الخامس الهجري أخذ الكتاب في هذين الإقليمين يصدرن في أعمالهم عن هذا الذوق العام الذي نشره المشرق ذوق التصنع والتعقيد ، إذ اندفع الكتاب في هذه الموجة من القرن الخامس للهجرة إلى العصر الحديث ، وكأنما أجذب معين الفكر العربي ، أو قل : لقد أجذب معين الحضارة العربية ، فلم يعد يظهر من جديد إلا هذه الضروب من التعقيد والتصعيب ، وإن الإنسان ليشعر كأن الحياة العربية قد أصيبت بعطل شديد ، وإنه عطل يتسع فإذا مصانع النثر لا تستطيع أن تخرج ضرباً جديداً أو مذهباً حديثاً ، إلا هذه الطرق الملتوية المحملة بالتصنع لمصطلحات العلوم ، والتكلف لأشياء شاذة كالأمثال والإشارات التاريخية والأدبية ، وهذا كله كان يأتي تابعاً لأسجاع معقدة ، سيطر عليها الجناس المعكوس وما يَطْوَى فيه من تصعيب في طرق الأداء ، وقد جمدت العصور التالية عند هذا الأسلوب ، ولم تستطع أن تنحرف عنه إلى منهج جديد أو أسلوب حديث .

الكتاب الثالث

المذاهب الفنية في الأندلس ومصر

الفصل الأول

الأندلس والمذاهب الفنية

١

الأندلس

تقع الأندلس في الطرف الجنوبي الغربي من أوربا وهي تؤلف شبه جزيرة كبيرة تفصلها عن بلاد الغال في الشمال سلسلة جبال البرانس كما يفصلها عن أفريقيا في الجنوب زقاق ضيق هو مضيق جبل طارق ، بينما يقع في غربها هذا المحيط الواسع الذي كان في العصور القديمة والوسطى يشبه صحراء مائية لانهاية لها ، ونقصد المحيط الأطلسي الذي سماه العرب باسم بحر الظلمات ، أما في شرقها فيقع بحر الروم الذي كان صلتها بالمدنات الفينيقية واليونانية والرومانية ثم العربية . وقد سكن الأندلس — أول الأمر — أقوام من البسك والسلت والحلاقة ، وأتى عليها حين من الدهر ، وهي منعزلة عن الحضارات القديمة ، ولكن سرعان ما أتاها قبَسٌ من هذه الحضارات عن طريق الفينيقيين واليونانيين الذين استعمروا بعض جهاتها ، ولما نشب الصراع بين روما وقرطاجنة الفينيقية وانتصرت الأولى على الأخيرة استولت على ممتلكاتها ، وضمت الأندلس — فيما ضمت — بين جناحيها — وسمتها إسبانيا اسمها المعروف الآن . ومنذ ذلك الوقت أصبحت إسبانيا ولاية رومانية ، ونشرت روما بها المسيحية كما نشرت بها لغتها اللاتينية ، وكان ذلك سبباً في أن ساهمت الأندلس — من بعض الوجوه — في التراث اللاتيني القديم ، غير أن موجات القبائل الجرمانية لم تلبث أن اندفعت إلى الأندلس ، إذ أغار عليها قبائل الفندال ، وأسسوا بها دولة أقاموها على نهر الوادي الكبير سموها باسم دولة الفندال ، ومن اسم هذه الدولة اشتقت كلمة الفندالس التي حورها العرب إلى كلمة أندلس ، وأطلقوها على تلك البلاد

جميعاً ، وأقبلت بعد الفئدال موجة جديدة جرمانية هي موجة القوط ، وتم لها الغلب على الموجة القديمة موجة الفئدال ، وحكمت البلاد من القرن الخامس الميلادى حتى فتحها موسى بن نصير فى أواخر القرن السابع (عام ٩٢ هـ) .

وكان جيش موسى مؤلفاً من العرب والبربر إلا أن البربر كانوا أكثر نفراً ، ولما سمع العرب والبربر جميعاً بنخشب الأندلس وما فيها من كنوز ومعادن أكثروا من الرحلة إليها ، وقد رحلوا ومعهم خصوماتهم التى نعرفها بين القيسية والبنية ، وأضافوا إليها خصومات أخرى كانت تنشأ دائماً بين العرب والبربر . وليست هذه الخصومات هي كل ما فى الأندلس ، فقد كانت هناك خصومات أخرى دائمة بين الجيوش النازحة من العرب والبربر وبين سكان البلد الأصليين ، ومن المعروف أن العرب تساحوا فى إسبانيا مع سكانها وكان من نتيجة هذا التسامح أن ظل للمسيحيين هناك نظام خاص فى تقاضيههم ومعاملاتهم ، وبذلك كان لهم برونهم فى الهيئة الاجتماعية ، بل لقد كانت بعض البلاد — وخاصة الشمالية — مسيحية خالصة ، مما ساعد على قيام الفتن الدائمة بين المسيحيين والمسلمين ، وكان كثير من الشبان المسيحيين يستشهدون فى سبيل دينهم بصور فدائية مختلفة كأن يذهبوا إلى المسجد الجامع فيسبوا الدين الإسلامى ! وقد عرض « دوزى » فى كتابه (تاريخ مسلمى إسبانيا) لهذه الظاهرة .

وقد كانت الأندلس فى العهد الأموى يحكمها ولاية مختلفون ، حتى إذا قامت الدولة العباسية رأينا عبد الرحمن الداخل يفرُّ إليها ويؤسس بها دولة أموية تعتبر امتداداً لدولة الأمويين فى المشرق ، تلك الدولة التى قوضها العباسيون ، وقد سمي أبو جعفر المنصور عبد الرحمن باسم صقر قریش ، وهو جدٍر بهذه التسمية ، فقد استطاع أن يقيم لنفسه هناك دولة استمرت فى أبنائه وأحفاده من عام ١٣٨ هـ إلى عام ٤٢٢ هـ ، وكان عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) من أزهى عهود هذه الدولة ، وكذلك عهد ابنه الحكم (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) وعهد الوزير المشهور : المنصور بن أبى عامر المتوفى عام ٣٩٢ هـ ولكننا لا نترك هذه العهود كلها إلى القرن الخامس حتى تضعف الدولة وتختل ،

فيقوم نظام جديد هو نظام ملوك الطوائف ، وفيه تنقسم الأندلس الكبيرة إلى أندلسيات صغيرة ، ففي كل بلد كبير تظهر دولة مثل دولة المعتمد بن عباد في إشبيلية وابن الأفطس في بطليوس وذى النون بطليطلة ، وقد أدى ضغط المسيحيين في الشمال على هذه الأندلسيات أو هذه الدويلات أن تفزع إلى دولة المرابطين في المغرب فتلبّيها وتحتل البلاد للدفاع عن المسلمين هناك ، ثم تدخل الأندلس في حوزة دولة الموحدين ، ويظهر بنو هود في أوائل القرن السابع الهجري ثم بنو الأحمر ملوك غرناطة . وتستمر هذه الدولة الصغيرة في معارك مع المسيحيين حتى تخرّ جميع الأعلام التي تبقت للعرب في الدروب الباقية من الأندلس ، ويضطرّ من بقي إلى مغادرة البلاد بعد هذه الحقب المتطاولة التي قضّاها العرب هناك حيث أقاموا حضارة عظيمة لا تزال آثارها ماثلة في مباني غرناطة وغيرها من المدن الكبيرة .

٢

شخصية الأندلس

تبدو الأندلس من الوجهة الجغرافية وحدة متجانسة ، ولكن من ينعم النظر يجد أن هذه الوحدة تطوى في داخلها وحدات متباينة ، لكل وحدة شخصياتها الجغرافية المستقلة : هناك وحدة على ساحل بحر الروم تتأثر بجوّه ومناخه ، وأخرى على ساحل المحيط تتأثر بجو ومناخ آخر ، وثالثة تتوسط الوحدتين ، وهي هضبة مرتفعة تتخللها سلاسل من الجبال كما تتخللها طائفة من الأنهار يصبّ بعضها في المحيط وبعضها في البحر المتوسط . وهذه الشخصية الجغرافية للأندلس كان لها تأثير واضح في شخصيتها السياسية ، فإن انقسام البلاد على هذا النحو إلى وحدات متباينة أنتج فيها — مع مرور الزمن — فكرة الاستقلال المحلي ؛ فكل إقليم يُحس أنه مباين للآخر وأنه في حاجة إلى الاستقلال السياسي على نحو ما هو مستقل استقلالاً جغرافياً ، وساعد على نمو هذا الشعور في نفوس

الأندلسيين أنهم كانوا من أجناس مختلفة ، ففيهم بَسْكَ وسَكْت وجلالقة وفندال وقوط وفينيقيون ورومانيون وعرب وبربر . وهذا الخليط المتباين من شأنه أن لا يمتزج وأن يظل فيل خلل يدعو الناس للثورة والفتن وسفك الدماء ، ويكاد الإنسان يؤمن بأنه لم تَخْلُ بقعة في الأندلس في أثناء الحكم العربي من دم مسفوح .

وليس كل ما يميز الحكم العربي في الأندلس كثرة الفتن والثورات ، فهناك مميزات أخرى طريفة ، لعل من أهمها قوة رجال الدين إذ كانوا يقومون من الأمراء مقام المعارضة ، وكانوا كثيراً ما ينقدون ما يقررونه هم ومجلس وزرائهم من ضرائب فادحة ، وكانوا يستشارون في شئون الحكم عامة ، فإذا جاء أمير وحاول أن يقلل من نفوذهم ثاروا عليه على نحو ما كان من ثورتهم عام ٢٠٦ على الحكم الأول . ولما ثار رجال الدين حينئذ ثار معهم أهل قرطبة . ومعنى ذلك أن الشعب في الأندلس كان يحاول أن يدافع عن حقوقه ، وأن يعلن هذه الحقوق في شكل ثورة إن لم يستجب إليها الحكام استجابة سليمة ، وأوضح ذلك صاحب نفح الطيب إذ يقول : « الأغلب عند الأندلسيين إقامة الحدود وإنكار التهاون بتعطيلها وقيام العامة في ذلك وإنكاره إن تهاون فيه أصحاب السلطان ، وقد يابج السلطان في شيء من ذلك ولا ينكره ، فيدخلون عليه قصره المشيد ولا يعبأون بخيله ورجله حتى يخرجوه من بلدهم ، وهذا كثير في أخبارهم ، وأما الرّجْم بالحجر للقضاة والولاة للأعمال إذا لم يعدلوا فكل يوم » (١) .

وبجانب ذلك نجد للأندلس العربية شخصية اجتماعية تميزها — إلى حد ما — عن شخصية المشرق ، ويبدو ذلك في جانبين ، أما أولهما فكثرة الغناء والحوقات التي أهّلت لظهور الموشحات والأزجال هناك ، وأما ثانيهما فساهمة المرأة في الحياة الأدبية مساهمة تجعلنا نذكر سيدات فرنسا من صواحب المتنتديات (الصالونات) في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وكلنا نعرف أخبار ولادة بنت المستكفي مع ابن زيدون وغيره من أدباء الأندلس . على أن هذا ليس معناه

(١) نفح الطيب (طبع بولاق) ١٠٣/١ .

انفصال الأندلس انفصالاً تاماً من المشرق في حياتها الاجتماعية ، فقد كانت تتصل بها وكانت تأخذ منه كثيراً حتى في غنائها ، إذ نجد زرياب تلميذ إسحاق الموصلي يبدأ حركة الغناء هناك ، ويقولون إنه نقل إلى الأندلسيين — مع غنائه — كثيراً من آداب المشاركة في طعامهم وثيابهم وأدوات زينتهم^(١) ، ومما لا ريب فيه أن ذلك يوضح صلة ما بين الأندلسيين والمشاركة ، ولكن على كل حال كانت لهم حياتهم الاجتماعية الخاصة .

وإذا كانت الشخصية الاجتماعية للأندلس تتميز من الشخصية الاجتماعية المشرق فإن شخصيتها العلمية على الضد من ذلك ، إذ كان الأندلسيون يعتمدون في هذا الجانب اعتماداً شديداً على ما يأتيهم من المشرق ، ونحن نعرف أن الكثرة من أهل الأندلس في القرون الأولى للفتح العربي كانوا نصارى وكانوا يتكلمون اللاتينية العامية في حياتهم اليومية ويصطنعون اللاتينية الممتازة في كتاباتهم وخاصة في الكنيسة وما يتصل بها ، ولكن هذه اللاتينية الممتازة لم يتسرب منها شيء واضح للغة العربية في الأندلس . على أننا لا نصل إلى القرن الرابع حتى نجد أهل الأندلس يهجرون اللاتينية ، ويتخذون اللغة العربية مكانها حتى في طقوسهم الدينية^(٢) . ومهما يكن فإن عرب الأندلس لم يفيدوا شيئاً واضحاً في حياتهم العلمية عن طريق الأندلس نفسها بل جلّ ما أفادوه أتاها من المشرق إذ نقلوا الثروة العلمية المشرقية إلى بلادهم بكل ما فيها من فقه ودين ولغة ونحو وفلسفة وطب ، وساعدهم في ذلك الخلفاء الأمويون وعلى رأسهم عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم الذي يقال إنه كان يمتلك مكتبة تضم مائة ألف مجلد . ولما سمع المشاركة بتشجيع الدولة الأموية في الأندلس للعلم أخذوا يفدون هناك زرافات ووحدانا ابتغاء المجد والشهرة العلمية ، وكان الأندلسيون أنفسهم يستبقون في الرحلة إلى المشرق للترزود من ثقافته ومنابعه العقلية . وعقّد صاحب

Nicholson, Lit. Hist. of Arabs, (٢)

p. 415.

(١) انظر ترجمته في نفع الطيب ٧٤٩/٢

R. Dozy, : كتاب

Histoire des Musulmans d'Espagne, 1.

p. 312.

نفتح الطيب فصولاً طويلة استعرض فيها من رحلوا من الأندلس إلى المشرق ومن المشرق إلى الأندلس ، ومن هذه الفصول نتبين الصلة الشديدة بين الجانبين .

ومن يتابع الحركة العلمية في الأندلس يجد أن الأندلس كانت في القرون الأولى للفتح الإسلامي بطيئة في تلقي الحياة العقلية ، وعُنيّت في أول الأمر بالعلوم الدينية واللغوية ، أما العلوم الفلسفية فكانت تنفر منها ، لما فيها من زندقة ، وكان ملوكهم كثيراً ما يأمرّون بإحراقها إذا وجدوها ، « وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه »^(١) . ولعل ذلك هو سبب بطء ظهور المتفلسفة هناك ، فإن أول فيلسوف أندلسي هو ابن باجة المتوفى عام ٥٣٣ هـ ، وكان بطء تناوهم الفلسفة وما يتصل بها من منطوق أثر في أن عقولهم لم تصطبغ بالصبغة العلمية التي تؤهلهم لوضع دراسات نظرية كبيرة ، ولعل ذلك نفسه كان أحد الأسباب التي من أجلها لم تظهر عندهم دراسات أدبية جيدة .

وإذا كانت الأندلس لم تتميز في شخصيتها العلمية بصفات واضحة تفصلها عن المشرق ، بل كانت تؤسّس على الأصول المشرقية حركتها العلمية ، فإنها كذلك في شخصيتها الأدبية كانت تؤصل حركتها الفنية على الأصول المشرقية حتى ليقول صاحب الذخيرة في مقدمته لهذا الكتاب الذي عُنِيَ فيه بدراسة أدباء الأندلس في القرن الخامس للهجرة : « إن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل المشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعتق بتلك الآفاق غراب أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا صنماً ، وتلوا ذلك كتاباً محكماً » . وقد كتب ابن شهيد رسالة التوابع والزوابع وعرض فيها لشياطين الشعراء والكتاب الذين أجازوه ، وكلهم من شعراء المشرق وكتابه^(٢) ، وكانوا لا يزالون يرددون حتى عصر ابن خلدون في القرن

كلية الآداب بجامعة القاهرة) ٢١٠/١ .

(١) نفتح الطيب ١/١٠٤ .

(٢) انظر الرسالة بأكملها في الذخيرة (نشر

الثامن للهجرة أن « أصول علم الأدب وأركانه أربعة دواوين ، وهى أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبي على القالى البغدادى » (١) . وإن الإنسان ليخيل إليه كأنما أحست قوافل العرب فى الأندلس أنها افتقدت حياتها وأصولها جميعاً فى أثناء سفرها من المشرق فرجعت تستعيد هذه الحياة من شعره ونثره ، وساعد على ذلك كثرة الرحلات العلمية من الأندلس إلى المشرق وبالعكس ، كما ساعد عليه رحلتهم السنوية إلى مكة والمدينة للحج . وكل ذلك جعل الأندلس تنلمج فى الكتلة العربية إذ كانت طوابع الحياة الأدبية فيها — من الوجهة العامة — هى نفس طوابع المشرق ، وإن ظهر اختلاف فى الفروع لا فى الأصول ، فإن الأصول كانت أقوى وأعمق من أن تتأثر بالفوارق الإقليمية .

٣

النثر الأندلسى

رأينا الأندلس تندفع نحو تقليد المشرق فى علمه وأدبه ، وكان هذا الاندفاع طابع الأقاليم العربية عامة ، فهى جميعاً تتجه نحو الأم ، نحو بغداد ، تتغذى منها ، وتستمد صفاتها وخصائصها ، ومهما غربت وأبعدت عن بغداد فالخصائص الكبرى للأدب العربى فى كل إقليم من أقاليمه واحدة ، وكأنما اللغة العربية لا تعرف الاعتداد بالمكان، ولا تعتد به بل قل هى تعرفه ، وتعتد به ، ولكنها لا تقيم وزناً كبيراً لهذه المعرفة ولا لهذا الاعتداد ، بل إنها لتقسو على الأقاليم التى تدخلها ، فإذا أبناؤها لا يتصلون بها إلا اتصالاً بعيداً ، أما اتصالهم القريب فإنما هو بالنماذج الأدبية الممتازة التى اصطنعتها العربية لنفسها فى بغداد

(١) مقدمة ابن خلدون (طبع المطبعة البهية)

والمشرق . ومن أجل ذلك كنا لا نجد فروقاً جوهرية بين نماذجها في العراق وفي بلد كالشام ومصر ، وحتى الأندلس لا نحس فيها أننا بُدِّلنا بجو المشرق العام جواً يختلف عنه تمام الاختلاف . ونحن لا ننكر أثر الإقليمية من حيث هو ، فداًئماً توجد في كل إقليم صفات تميز أدبه بعض التميز من أدب الأقاليم الأخرى ، ولكن ينبغي أن لا ننزلق من ذلك إلى القطع بأن الأقاليم العربية أوجدت لأنفسها آداباً متخالفة بتخالفها ، فإن ذلك إنما ينزلق إليه من لم يقرأ شيئاً في آداب هذه الأقاليم فتراه يعتمد في حكمه على الحدس والتخمين كأننا بلزاء مسألة ميثافيزيقية ، أما الذين يكفون عقولهم عن مثل هذه الفروض لاجئين إلى الحقائق الحسية الصحيحة يستمدون منها أحكامهم وآراءهم فإنهم يعرفون أن جملة النماذج التي كوَّنها الأدب العربي في أي إقليم من أقاليمه لا تختلف اختلافات واسعة عن النماذج الأساسية لهذا الأدب التي كونها في المشرق .

على أنه ينبغي أن نلاحظ ظاهرتين مهمتين متصلان بالنثر الأندلسي ، أما الظاهرة الأولى فهي أن هذا النثر لا يظهر فيه كاتب كبير قبل القرن الرابع للهجرة ، وذلك لسبب بسيط ، وهو أن الشخصية الأدبية للأندلس لم تتكامل إلا في هذا القرن . وكان الناس قبل ذلك يكتبون نثراً ، ولكن أحداً منهم لم يستطع أن يرتفع بنثره إلى درجة تجعله يقف في صفوف كتاب العصر العباسي الممتازين . والحق أن الأندلس تبدأ نهضتها الأدبية منذ القرن الرابع وعهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم ، ذلك العهد الذي أُلِف فيه كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ، وأُمِلِي فيه كتاب الأمل ، أملاه أبو علي القالي في قرطبة . ومنذ ذلك العهد المزدهر أخذت الأندلس تشعر بشخصيتها وتحاول أن تصور هذه الشخصية في آثارها ونماذجها الأدبية ، وهذه هي الظاهرة الأولى . أما الظاهرة الثانية فهي أن الأندلسيين لم يتحدثوا لأنفسهم مذهباً جديداً في تاريخ النثر العربي يمكن أن نضيفه إلى المذاهب الثلاثة السابقة التي كوَّنها هذا النثر في المشرق ، فقد وقفوا عند المحاكاة ، وهي محاكاة اضطرتهم إلى ضروب من الخلط ، إذ ترى الكاتب الواحد يجمع في نماذجه بين المذاهب الثلاثة التي رأيناها في المشرق ،

فتارة يصنع لنفسه نموذجاً من ذوق أصحاب الصنعة ، وتارة يعدل عن ذلك إلى ذوق أصحاب التصنيع ، وتارة ثالثة تراه يعدل إلى ذوق أصحاب التصنيع . وقد فُتنت كثيرهم بالسجع ، ولكنها لم تفتن بالبديع الذي كان يصحبه عند أصحاب التصنيع ، بل فُتنت - إلى حد ما - بالغريب الذي رأيناه عند أصحاب التصنيع ، كما فُتنتوا بالأمثال ، وربما كان لكتاب الأمالى للقالى أثر مهم في ذلك ، فقد بناه صاحبه على هذين الجانبين . ونحن نقف عند أهم كاتب ظهر في العصر الأموى لئلا وصل إليه النثر الأندلسى في هذا العصر من رقى وازدهار ، وهو ابن شهيد الكاتب المشهور .

ابن شهيد

هو أحمد بن عبد الملك . . . بن شُهَيْد الأشجعي القوطي ، ولد بقرطبة عام ٣٨٢ هـ وتوفي عام ٤٢٦ هـ^(١) وهو من بيت أدب ومجد ، كان جده وزير عبد الرحمن الناصر^(٢) وأديباً من أكبر الأدباء في عصره ، وورث عنه حفيده أدبه كما ورث عنه صلته الحسنة بالأمويين وإن لم يستوزروه لثقل كان في سمعه . ويظهر أنه ورث عن آبائه ما لا كثيراً بعثه في اللهو والخلاعة حتى ليقول أبو حيان : « إن البطالة غلبت عليه فلم يحفل في آثارها بضيايع دين ولا مروءة »^(٣) . وهذا الشخص المترف الذي ساق حياته في اللهو والخلاعة كان مثقفاً ثقافة واسعة بمعارف عصره ، فقد ذكر في إحدى رسائله أنه درس ضروب العلم المختلفة من أدب وخبر وفقه وطب وصناعة وحكمة^(٤) ، ويقول ياقوت : « كان له من علم الطب نصيب وافر »^(٥) . على أن الجانب الذي تميز به إنما هو جانب الأدب فقد كان شاعراً كبيراً كما كان كاتباً كبيراً أيضاً ، ويدل ما رُوي عنه من آثار أن نثره كان أكبر من شعره ، وقد شهد له النقاد

(١) انظر ترجمته في المغرب (طبع دار

المعارف) وما بهامشها من مراجع ٧٨/١ (٤) الذخيرة ١٨٦/١ .

(٢) فتح الطيب ١٧٩/١ . (٥) معجم الأدباء ٢٢٣/٣ .

الفن ومذاهبه في النثر العربي

بمقدرته فيه وتفوقه . كتب عنه الثعالبي فقال : « إن نثره في غاية الملاحاة »^(١) وقال أبو حيان : « كان أبو عامر بن شهيد يبلغ المعنى ولا يطيل سَفَر الكلام ، وإذا تأملته ولستَ به ، وكيف يجزّ في البلاغة رَسنه ، قلت : عبد الحميد في أوانه ، والجاحظ في زمانه . . . وكان في تنميق الهزل والنادرة الحارة أقدر منه على سائر ذلك . . . وله رسائل كثيرة في أنواع التعريض والأهزال ، قصار وطوال ، برزّ فيها شأوه ، وبقاها في الناس خالدة بعده »^(٢) . وقدم له صاحب الذخيرة بقوله : « كان أبو عامر شيخ الحضرة العظمى وفتاها ، ومبدأ الغاية القصوى ومنهاها ، وينبوع آياتها ، ومادة حياتها ، وحقيقة ذاتها ، وابن ساستها وأُسَاتها ، ومعنى أسماها ومسمياتها ، نادرة الفلك الدوّار ، وأعجوبة الليل والنهار ، إن هزل فسجعُ الحمام ، أو جدّ فزير الأسد الضرغام . نظمٌ كما اتسق الدرّ على النحور ، ونثرٌ كما خلط المسك بالكافور ، إلى نوادر كأطراف القنا الأملود ، تشقّ القلوب قبل الجلود ، وجواب يجري مجرى النفس ، ويسبق رجوع الطرف المختلس »^(٣) . ومن قول صاحب المطمح فيه : « عالم بأقسام البلاغة ومعانيها ، حائز قصب السبق فيها ، لا يشبهه أحد من أهل زمانه ، ولا ينسّق ما نسّق من دُرّ البيان وجُمانه ، توغل في شعاب البلاغة وطرقها ، وأخذ على متعاطيها ما بين مغربها ومشرقها ، لا يقاومه عمرو بن بحر ، ولا تراه يغترف إلا من بحر »^(٤) .

ونرى من هذه النصوص المختلفة أن النقاد كانوا يكبرون من شأن ابن شهيد ومنزلته الأدبية ، وقد قرّنه إلى الجاحظ لهزل كان فيه وميل إلى الفكاهة ، وأكبر الظن أنه يتأثر في هذا الجانب بديع الزمان فقد ذكره في رسائله^(٥) ، وكتب رسالة في الحلواء ذهب فيها مذهبه في المقامة المتصيرية ، وحكى في التوابع والزواجع ما وصف به بديع الزمان الماء ثم أتى بأوصاف أخرى للماء يريد بها أن يثبت براعته^(٦)

(١) اليتيمة ٤٣/٢ .

(٢) الذخيرة ١٦٠/١ .

(٣) الذخيرة ١٦٠/١ .

(٤) مطمح الأنفس لابن خاقان (طبع مطبعة

الجواثب) ص ١٦ .

(٥) الذخيرة ٢٠٣/١ .

(٦) الذخيرة ٢٤٦/١ .

وأهم أثر تركه ابن شهيد هو رسالة التوايع والزوايع ، والتابع الجن والزوبعة الشيطان ، سماها بهذا الاسم لأنه بناها على شيطان تراءى له في وقت أُرْتَج عليه فيه وهو ينظم شعراً فأجازه . ولما تعارفا طلب إليه ابن شهيد أن يلقي به شياطين الشعراء والكتاب الذين غَبَرُوا ، فأجاب طَلِبَتَهُ ، وحمله على جناحه إلى وادي الجن حيث التقى بكثير من شياطين الشعراء الجاهليين والإسلاميين والعباسيين ، كما التقى بطائفة من شياطين كتّاب المشرق . وتدور القصة في الرسالة على أنه يلقي التابع للشاعر المشهور فينشده شعراً لصاحبه ، ثم ينشده ابن شهيد بعض شعره ، فيعجب به ويحيزه آية على قدرته البلاغية . وكذلك يلقي توايع الكتاب أمثال عبد الحميد والجاحظ وبديع الزمان فيعرض عليهم رسالته في وصف البرد والنار والخطب كما يعرض عليهم رسالته في الخلواء ، وأيضاً فإنه يعرض عليهم صفته لثعلب وبرغوث ، ويستحسنون ما يعرض ويحيزونه . ووقف تابع الجاحظ عند سجعه ، وقال له إن كلامك نظم لا نثر فزعم أن تلك صفة أهل بلده وأنهم يعجبون بالسجع وطابعه ، وهكذا تنفضُ جموع الجن وهي تشهد بأنه شاعر بديع وكاتب بليغ .

والرسالة تفيض بروح الفكاهة كأن نراه يعرض لبركة ماء بإحدى جوانب وادي الجن ، ومن حوالها طائفة من حمر الجن وبغالها وتتقدم له بغلة شهباء عليها جلُئُها وبرقعها فتنشده بعض الشعر وأخيراً تقول له : « أما تعرفني أبا عامر؟ قلت : لو كانت ثم علامة ، فأماطتُ لثامها فإذا هي بغلة أبي عيسى ، والحال على خدّها ، فتبا كينا طويلاً وأخذنا في ذكر أيامنا » . وما من شك في أن هذا الجانب في التوايع والزوايع يكسبها خفة ورشاقة ، ومن يرجع إليها يجد ابن شهيد لا يستخلم فيها دائماً أسلوب السجع بل تارة يسجع وتارة لا يسجع وهذا هو معنى قولنا إن الكاتب الكبير في الأندلس لم يكن يخضع في صنع نماذجه لمذهب معين من مذاهب المشرق ، بل هو — على نحو ما نرى الآن عند ابن شهيد — كان يتقلب بين المذاهب والمناهج المختلفة . ومع ذلك فلا تظن أن ابن شهيد حين يستخلم السجع كان يستخلم البديع الذي هو الشق الثاني للمذهب التصنيع ،

فإنه لم يكن يتصور هذا المذهب بكافة تفاصيله كما تركه أصحابه . وليس معنى ذلك أنه لم يقرأ لهم ما يفهم به هذا المذهب ، بل لقد قرأ لهم كثيراً ، وخاصة الصابي وبديع الزمان^(١) ! وأيضاً ينبغي أن لا تظن أن ابن شهيد لم يخرج في جوانب من رسائله إلى مذهب التصنع ، بل لقد خرج إلى هذا المذهب في كثير من جوانبها ؛ إذ نراه يعنى باستخدام الغريب ، واعترف بذلك في إحدى رسائله^(٢) . وكان إلى ذلك يكثر من الأمثال^(٣) كما كان يكثر من المبالغات والتهويلات^(٤) والافتباس من القرآن الكريم^(٥) ، إلا أنه لم يعن بتعقيدات زخارف البديع جملة ، بل إنه لم يعن بهذه الزخارف نفسها كما تركها أصحاب مذهب التصنيع ، ومع ذلك فقد كان ذوقه أقرب ما يكون إلى ذوقهم ، وتطرق من هذا الذوق إلى العناية بالفكاهة في آثاره على نحو ما نجد عند بديع الزمان في مقاماته . وكما أطرف في رسالة التوابع والزوابع أطرف أيضاً في رسالة أخرى تسمى حانوت عطار ، ويظهر أنه كان يميل إلى الإغراب في الموضوع ، ولعل ذلك ما جعله يقف عند وصف ثعلب وبرغوث وبعوضة ، ومهما يكن فقد كان ابن شهيد أكبر أديب في عصره ، ولكنه لم يستطع المخالفة على مذاهب المشرق ومناهجه ، بل ذهب يقلد هذه المذاهب والمناهج في غير نظام ولا نسق معين .

٤

ملوك الطوائف ونهضة النثر الأندلسي

إذا تركنا عصر الأمراء الأمويين وانتقلنا إلى عصر ملوك الطوائف وجدنا الأندلس تنهض نهضة واسعة في أدبها من شعر ونثر ، وكأنما انقسمها إلى وحدات صغيرة أهلها لنشاط أدبي واسع إذ أصبح لكل وحدة صغيرة ، أو عبارة

(١) الذخيرة ٢٠٣/١ وكذلك ٢٠٧/١ . (٤) الذخيرة ١٧١/١ .

(٢) الذخيرة ٢٠٠/١ . (٥) الذخيرة ١٩١/١ وكذلك ٢١١/١ .

(٣) الذخيرة ١٩٣/١ وما بعدها .

أخرى ، لكل مدينة ، حاكم مستقل ، وسعى كل حاكم - بسبب ما بينه وبين الحكام الآخرين من تنافس - إلى تشجيع الحركة العلمية والأدبية في وطنه ومقر حكمه وملكه ، وبذلك أضفى انقسام الأندلس إلى دويلات على العلم والأدب تقدماً ورفقياً عظيماً . وإن الأندلس في ذلك لتشبه إيران في القرن الرابع الهجري حين توزعت دول وإمارات مختلفة ، فقد لاحظنا في غير هذا الموضع أن هذا التوزع وما صحبه من قيام مدن ومراكز كثيرة أهلّ لهضة أدبية رائعة ، وكذلك الشأن في الأندلس في أثناء القرن الخامس للهجرة ، فإن انقسامها إلى أندلسيات متعددة جعل مراكز النشاط الأدبي فيها تتعدد أيضاً ، وكان كل حاكم أو أمير يُعنى بأن يكون في بلاطه أهم كاتب في إقليمه ، ومن ثم أصبحت كل مدينة تشتهر بكاتب مهم إن لم يكن بطائفة من الكتاب ، وتعتب صاحب الذخيرة هذه الظاهرة فعرض لكتاب كل مدينة عرضاً مفصلاً ؛ ومن يرجع إليه في كتابه المذكور يلاحظ أن الكتاب كلهم غمرهم ذوق السجع ؛ فهم جميعاً يسجعون . وكان الكتاب في العصر الأموي يتخففون من السجع أحياناً كما رأينا عند ابن شهيد ، أما في هذا العصر فإنهم يلتزمونه التزاماً ، بل قد يجد الإنسان في عصر الأمويين كاتباً لا يسجع مطلقاً وإنما يزواج مثل ابن برّد الأكبر ، أما في هذا العصر فإن الكتاب جميعاً يسجعون ، ومن أبرعهم في ذلك ابن برد الأصغر حفيد ابن برد الأكبر ، وقد روى له صاحب الذخيرة مجموعة كبيرة من رسائله كما روى له مناظره بين السيف والقلم ، ومن يقرأ المناظرة والرسائل لا يحس جديداً فقد جمعت الأندلس عند صياغة المشاركة ، ولم تستطع أن تضيف إليها من جديد ، وهل يستطيع الإنسان أن يجد في الذخيرة لهذا العهد اتجاهاً جديداً أو لوناً جديداً ؟ إنه ليس هناك إلا التقليد والمحاكاة وأن يحتذى الكاتب على نموذج مشرق ، فإذا هو يصنع رسائل كرسائل المشاركة أو يصنع مقامة كمقاماتهم على نحو مقامة أبي حفص عمر بن الشهيد التي رواها صاحب الذخيرة . ونحن نلاحظ عند هؤلاء الكتاب عامة أنهم لم يعنوا بالبديع لكنهم استمروا - كما رأينا عند ابن شهيد - يعنون بالغريب وبالأمثال والاقتباس

من القرآن ، كما عنوا كثيراً بجلّ الشعر وتضمينه ، وليس معنى ذلك أنهم عقّدوا
نثرهم على نحو ما رأينا عند أبي العلاء وأصحابه فإن حياتهم التي كانت
تقوم على الفتن من جهة وعلى الحروب مع المسيحيين من جهة أخرى لم تُنح
لهم الفرصة للتأني والتمهل ، فلم يُطَبِّعْ أدبهم بطابع التعقيد ، وإن كان ذلك
يظهر فيه من حين إلى حين ، ونحن نقف عند أهم كاتب ظهر في هذا العهد ،
وهو ابن زيدون ، لنطلع على الصورة الفنية للكتابة حينئذ .

ابن زيدون

هو أحمد بن عبد الله . . بن زيدون الخزومي القرطبي ^(١) ، ولد بقرطبة عام
٣٩٤ للهجرة وتوفي بإشبيلية عام ٤٦٣ ^(٢) ، وكان من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة ^(٣) ،
ولما قامت الفتن في أواخر حكم الأمويين أسهم فيها إذ كان هواه مع الثائرين ،
ومن أجل ذلك قرب به أبو الحزم جمهور أمير قرطبة إلا أن هذه المكانة لم تدم له
طويلاً إذ نسبت إليه مؤامرة على السلطان وتصادف أن كان هناك أدبية شاعرة
يتعلق بها ابن زيدون وهي ولادة بنت المستكفي ، ولهما مطارحات ومجالس
محفوظة ^(٤) ، وكان ينافسها فيها ابن عبدوس فاصطلم كل منهما بالآخر ،
وكان ابن زيدون كاتباً فكتب رسالة هزلية طويلة على لسان ولادة إلى ابن
عبدوس يزعم فيها أنه أرسل لها سيدة تمدحه لها ، وتحاول أن تعقد الصلة بينه
وبينها ، فنهرتها نهراً شديداً ، ولم تكتف بذلك ، بل كتبت له هذه الرسالة وكلها
تهكم به وسخرية . ولم يرد ابن عبدوس على خصمه برسالة أخرى بل دبّر له مؤامرة
واسعة النطاق جعلت أبا الحزم بن جمهور يحبس ، وقد كتب إليه ابن زيدون
من السجن برسالة طويلة تسمى الرسالة الجدّية يستعطفه بها ، وكذلك استعطفه
برسائل وقصائد أخرى إلا أنه لم يرق له ، وأخيراً يعفو عنه مستجيباً فيه لشفاعته
ابنه أبي الوليد ولما ولى بعده سنة ٤٣٥ اتخذه سفيراً بينه وبين رؤساء الأندلس

(١) انظر في ابن زيدون كتابنا عنه في سلسلة
نوايغ الفكر العربي (طبع دار المعارف) .
(٢) وفيات الأعيان ٤٤/١ .
(٣) الذخيرة ٢٩٠/١ ووفيات الأعيان .
(٤) الذخيرة ٣٧٦/١ .

غير أن الأمور لم تلبث أن فسدت بينهما ففر ابن زيدون على وجهه إلى إشبيلية عام ٤٤١هـ^(١)، فلقية أميرها المعتضد لقاء حسناً ، واصطنعه لنفسه كما اصطنعه ابنه المعتمد من بعده ، واستطاع المعتمد بفضل مشورته أن يستولى على قرطبة ، وما زال يرعاه خير رعاية حتى إذا كان عام ٤٦٣ أرسله إلى إشبيلية في مهمة إلا أن القدر عاجله ، ويقولون : إن أهل قرطبة حزنوا لوفاته حزناً شديداً .

وهذا كله يرينا أن حياة ابن زيدون كانت مليئة بمتاعب ومصاعب جمة ، ومع ذلك فهو يوضع على رأس شعراء وكتّاب عصر ملوك الطوائف ، يقول صاحب الذخيرة فيه : « كان أبو الوليد بن زيدون غايةً منشور ومنظوم ، وخاتمة شعراء بني مخزوم ، أحد من جرّ الأيام جرّاً ، وفات الأنام طرّاً ، وصرف السلطان نفعاً وضراً ، ووسع البيان نظماً ونثراً ، إلى أدب ليس للبحر تدفقه ، ولا للبدر تألقه ، وشعر ليس للسحريّانه ، ولا للنجوم الزهر اقتارانه ، وحظ من النثر غريب المباني شعريّ الألفاظ والمعاني »^(٢) ، ويقول أيضاً : « فأما سعة ذرّعه وتدفق طبعه ، وغزارة بيانه ، ورقة حاشية لسانه ، فالصبح الذي لا ينكر ولا يرد ، والرمل الذي لا يحصر ولا يُعَد »^(٣) ، ولعل أطرف ما ترك ابن زيدون من آثاره الكتابية هو الرسالة الجديّة ثم الرسالة الهزلية ؛ أما الرسالة الجديّة التي كتبها في الاستعطاف فهي تبدأ على هذا النمط :

« يا مولاي وسيدى الذى ودادى له ، واعتمادى عليه ، واعتدادى به ، وامتمادى منه ، أبقاك الله ماضىَ حَدِّ العزم وارىَ زَنْدَ الأمل ، ثابتَ عهد النعمة ، إن سلبتنى — أعزك الله — لباسَ نعمائك ، وعطّلتنى من حَلَى إيناسك وأظمأتنى إلى برود إسعافك ، ونفّضتْ بى كَفَّ حياطتك ، وغضضتْ عنى طرّف حمايتك ، بعد أن نظرتُ الأعمى إلى تأميلي لك ، وسمعتُ الأصمُّ ثنائى عليك »^(٤)

(١) الذخيرة ٢٩١/١ ووفيات الأعيان ٤٣/١ . (٤) يشير إلى قول المتنبي :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى

(٢) الذخيرة ٢٨٩/١ .

وأسمعت كلمائى من به صم

(٣) الذخيرة ٢٩٢/١ .

وأحسّ الجهاد باستحمادي إليك ، فلا غرو قد يَغْصُ بالماء شاربه ، ويقتل
الدواءُ المستشفَى به ، ويؤتَى الحَدِرُ من مَأْمَنِهِ ^(١) ، وتكون منية المتمنى في
أمنيته ، والحينُ قد يسبق جهد الحريص ^(٢) :

كلُّ المصائب قد تمرُّ على الفتى وتهون غيرَ شاته الحسادِ

وإني لأتجلد وأرى الشامتين أنى لريب الدهر لا أتضعض ^(٣) ، فأقول :
هل أنا إلا يد أذماها سوارها ، ^(٤) وجينٌ عضّه إكليله ومشرقُ ألصقه
بالأرض صاقله ، وسمهرىٌ عرضه على النار مثقفه ، وعبد ذهب به سيده مذهب
الذى يقول ^(٥) :

فقساً ليزدَجِرُوا ومن يك حازماً فليَقْسُ أحياناً على من يَرْحَمُ

هذا العتبُ محمود عواقبه ، وهذه النَّبْوةُ غمرةٌ ثم تنجلي ^(٦) ، وهذه النكبة
سحابةٌ صيفٌ عن قليل تقشع ^(٧) ، ولن يرينى من سيدى أن أبطأ سَيْبُهُ ، أو
تأخر — غيرَ ضنين — غَنَاؤُهُ ، فأبطأ الدّلاءُ فيضاً أملؤها ^(٨) ، وأثقل السحاب
مشياً أحفلها ، وأنفع الحياء ^(٩) ما صادف جمدً باً ، وألذ الشراب ما أصاب
غليلاً ، ومع اليوم غد ، ولكل أجل كتاب .

وأكبر الظن أن خصائص ابن زيدون اتضحت لنا الآن ، فهو يعنى
عناية شديدة بحل الشعر في كلامه كما يعنى بالأمثال وحشدتها حتى لتغدو

(١) هذا المثل مقتبس من بيت لعدى بن زيد

العبادى .

(٢) مثل قديم . والحين : الموت .

(٣) مأخوذ من قول أبي ذؤيب :

وتجلدى للشامتين أريهم

أنى لريب الدهر لا أتضعض

(٤) مأخوذ من قول المتنبي :

بنو كعب وما أثرت فيهم

يدٌ لم يدمها إلا السوار

(٥) هو أبو تمام :

(٦) مأخوذ من قول بعضهم :

وما هى إلا غمرة ثم تنجلي

سريعاً وإلا نبوة تتصرم

(٧) مثل قديم . وتقشع : تطلع .

(٨) مثل أيضاً .

(٩) الحيا : المطر . أحفلها : أملؤها .

رسالته في حاجة إلى الشرح ، لأن كثيراً من عباراتها أمثال مرموزة وأبيات مثورة وشطور من الشعر مرصوفة . وهذا نفسه هو الذي يجعلنا نقول إن ذوق ابن زيدون في نثره كان قريباً من ذوق أصحاب التصنع في المشرق ، وحقاً هو لم يستخدم البديع ولا ما يتصل به من تعقيد بعض زخارفه ، ولكنه استخدم لغة مبهمة بعض الشيء . وإذا استمررنا معه في الرسالة وجدناه يلجأ إلى شيء أكثر صعوبة ، وهو ذكر كثير من وقائع القرآن الكريم وحوادث الإسلام الخفيف . ورأى هذا الجانب في الرسالة القلماء لأنهم عثروا به على مادة غنية للشرح والتفسير ، واستمع إليه بصور لابن جهور أنه لم يرتكب جرماً كبيراً فيستهدف لما مضى من جنایات وأحداث في الديانات ، على هذا النحو :

« قد بلغ السيل الزبى^(١) ، ونالني ما حسبي به وكفى ، وما إراني إلا أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت ، وقال لي نوح : اركب معنا ، فقلت : (ساوى إلى جبل يعصمني من الماء) وأمرت ببناء الصرح لعلني أطلع إلى إله موسى ، وعكفت على العجل ، واعتديت في السبب ، وتعاطيت فعقرت ، وشربت من النهر الذي ابتلى به جيوش طالوت ، وقُدْتُ القيل لأبرهة ، وعاهدت قريشاً على ما في الصحيفة ، وتأولت في بيعة العقبة ، ونفرت إلى العير ببدر ، وانخذلت بثلاث الناس يوم أحد ، وتخلفت عن صلاة العصر في بني قُريظة وجئت بالإفك على عائشة الصديقية ، وأنفت من إمارة أسامة وزعمت أن بيعة أبي بكر كانت قلّة » .

وترك ابن زيدون هنا السجع لأنه لا يستقيم وما يريد أن يروى من هذه الأحداث وهي أحداث لا يفهما إلا من قرأ سير الأنبياء والسيرة النبوية خاصة ، ولا بد له بعد ذلك أن يقرأ شيئاً عن حياة المسلمين بعد الإسلام . ونحن نراه في الرسالة ينتقل بعد ذلك إلى تعلق ابن جهور مع شيء من الزهو والخيلاء ، وقد

(١) مثل يضرب حين يتفاقم الأمر : الزبى : جمع زبية . وهي الحفرة في المكان المرتفع .

امتد به نفسه طويلا ، فأكثر من الحكم والأمثال ، كما أكثر من تضمين الشعر وحلته في نثره ، وكذلك أكثر من اقتباس آي الذكر الحكيم . وما من ريب في أن هذه صورة أخرى من صور التصنع ، وهي صورة لا تبلغ ما بلغه المذهب في المشرق من تعقيد عند أبي العلاء وأصحابه ، ولكنها على كل حال تأخذ من التصنع بأطراف قوية . وتذهب هذا المذهب نفسه الرسالة الهزلية ، إذ نراه يسخر من ابن عبدوس متطرقاً في أثناء سخريته إلى ذكر كثير من الأمثال وحوادث التاريخ وأعلامه ، واستطاع في أثناء ذلك أن ينفذ إلى التأثير باللاحظ في رسالة الترييع والتدوير ، وانظر إليه يقول في بعض جوانبها عن السيدة التي أرسلها ابن عبدوس : إنها زعمت لولادة :

« أن بطليموس سوى الأخطار لاب بتدبيرك ، وصور الكرة على تقديرك ، وأبقراط عليم العلل والأمراض بلطف حسك ، وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدقة حدسك ، وكلاهما قللك في العلاج ، وسألك عن المزاج ، واستوصفك تركيب الأعضاء ، واستشارك في الدواء والداء ، وأنتك نهجت لأبي معشر طريق القضاء ، وأظهرت جابر بن حيان على سر الكيمياء ، وأعطيت النظام أصلاً أدرك به الحقائق ، وجعلت للكندي رسماً استخرج به الدقائق ، وأن صناعة الألحان اختراعك ، وتأليف الأوتار والأنغام توليدك وإبتداعك ، وأن عبد الحميد بن يحيى بارى أفلامك ، وسهل بن هرون مدون كلامك وعمرو بن بحر مستمليك ، ومالك بن أنس مستفتيك ، وأنتك الذي أقام البراهين ، ووضع القوانين ، وحد الماهية ، وبين الكيفية والكمية » .

والحق أنك مهما قرأت في آثار الأندلسيين فستراهم يرجعون دائماً إلى أصول مشرقية يقلدونها ويستمدون منها ، إما في تنسيق الموضوع على نحو ما استفاد ابن زيدون من الجاحظ في رسالته الهزلية ، وإما في العناصر التي يؤلفون منها نماذجهم على نحو ما رأيناه في الرسالة الجدية ، إذ ذهب يستعين فيها بشعر لأبي ذؤيب والمتنبي وغيرهما ينثره في أثناءها وكما ذهب يستعين بأمثال قديمة . وهو يضيف إلى ذلك آيات من القرآن الكريم ألفاظاً يجمّل بها عمله وأيضاً فإنه يتصنع لذكر

كثير من حوادث الديانات وخاصة حوادث الإسلام كما يتصنع لكثير من أعلام التاريخ . وهذا هو الحديد الذي كان يأتي به ابن زيدون لبيان تفوقه وبراعته ، وهى أشياء كلها تُرَدُّ إلى المشرق ، وليس للأندلس فيها إلا فضل النموذج الذى يجمعها بعضها إلى بعض ، فإذا هى تستوى فى صورة أدبية خاصة ، ومع ذلك فليس من شك فى أن ابن زيدون يوضع فى الطبقة الأولى من كتاب الأندلس وأدبائها على مر العصور !

٥

جمود النثر الأندلسى

يذهب عصر ملوك الطوائف وندخل منذ عام ٤٨٤ للهجرة فى عصر جديد هو عصر سلطان المغاربة ، إذ فزع الأندلسيون فى حروبهم مع المسيحيين إلى يوسف بن تاشفين صاحب دولة المرابطين لينصرهم عليهم ، فيذهب إليهم يرد عنهم كيد أعدائهم ، ولكنه لا يتركهم ، بل يُدخلهم فى حوزته ، واستمرت الأندلس تابعة لدولته حتى استولت عليها دولة الموحدين ، وقد اشتهرت الدولة الأولى دولة المرابطين بالتعصب فى مسائل الدين وأصبح للفقهاء فى عصرها شأن كبير ، إذ كان لهم أثر واسع فى دخول البلاد فى هذا الحكم الجديد ، وكان المرابطون لذلك يعتقدون بهم ، فهم عدتهم وعتادهم ، ومن أجل ذلك سلموا لهم شئون الدولة فاضطهدوا المتفلسفة ورموهم بالزندقة وتعقبوهم فى كل مكان . أما دولة الموحدين فكان حكامها أوسع عقولا وتفكيراً وقد اشتهر من بينهم أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ) بحجة الفلسفة وأصحابها ، ومن ظهر فى عصر هذه الدولة ابن باجة وابن رشد وابن طفيل ، ونستمر حتى نلتقى فى القرن السابع ببنى هود وكذلك ببنى الأحمر أصحاب غرناطة . واستطاعت الأندلس أن تتقدم فى الحركة العقلية فى أثناء تلك العصور ،

ولكنها لم تستطيع أن تتقدم في الحركة الأدبية ، إذ استعلى الفقهاء أول الأمر في الحكومة وأصبح الحكام يتخذون منهم كتابهم ، فطبعوا النثر بطابعهم العلمي الجامد ، وكانوا يسجعون في كتابتهم ، ويحلون سجعهم بالتصنع لبعض المصطلحات العلمية التي عرفوها في دراستهم ، وهم من هذه الوجهة أقرب إلى ذوق أصحاب التصنع في المشرق من كتاب عصر ملوك الطوائف ، ولعل مما يتصل بذلك أنهم تصنعوا في كتابتهم للبديع ، وما يتصل به من طباق وجناس ، وأخذوا يعممون السجع في الكتابة التاريخية ، وخاصة تلك التي تتصل بالترجمة للآدباء على نحو ما نجد في (الذخيرة) لابن بسام و (قلائد العقيان) و (مطمح الأنفس) لابن خاقان ، وقد جنح لسان الدين بن الخطيب ، إلى السجع في بعض جوانب من كتبه ، وكذلك صنع المقرئ في (نفع الطيب) و (أزهار الرياض) ، وكل هذه الأعمال يحس الإنسان فيها بضروب مختلفة من التلفيق والتصنع واللف والدوران حول المعاني والصور التي يجترُّها الأدباء اجتراراً ، وقد سرّت حينئذ ظاهرة مهمة ، وهي التعبير بالأساليب المحفوظة التي لا تفصح عن فكرة محدودة ، وارجع إلى الذخيرة أو إلى مطمح الأنفس أو إلى قلائد العقيان ، فسترى هناك مقدمات يقدم بها الأدباء لا تعبر عن معان واضحة وإنما تعبر عن صور جامدة متبلورة ، وهذا هو معنى ما نقوله من جمود النثر الأندلسي ، والبحث ما شئت في هذه العصور فلن تجد جديداً ولا ما يشبه الحديد ، إنما تجد أدباً مكرراً معاداً ، قد كُدرت أساليبه وأعيدت عباراته مئات المرات بل آلاف المرات ، ولا جديد فيه إلا ما يتصنع له الكاتب من مصطلح علمي ، أو لون بديعي ، أو إشارة إلى مثل ، أو استخدام لغريب ، أو نحو ذلك مما كان يعد آية في هذه العصور على بلاغة الكاتب ومهارته الفنية ، ونحن نقف قليلاً عند أهم كاتب ظهر في الأندلس لهذه العهود ، ونقصد لسان الدين بن الخطيب لتتكشف لنا صورة الكتابة الفنية حينئذ انكشافاً تاماً .

لسان الدين الخطيب

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطي ، ولد عام ٧١٣ للهجرة ، وهو من بيت عُرف قديماً ببني الوزير وحديثاً ببني الخطيب^(١) ، وهو بيت اشتهر بالعلم والفقه والأدب والطب ، وقد روى صاحب نفح الطيب لأبيه شعراً منه قوله^(٢) :

الطبُّ والشعرُ والكتابه سماننا في بني النّجابه

وقد نسج لسان الدين على منوال أبيه ، فكان « نفيس العُدْوَتين » ، ورئيس الدولتين ، بالاطلاع على العلوم العقلية ، والإمتاع بالفهوم النّقلمية^(٣) ، وقد ذكره ابن خلدون وهو معاصر له فقال : « قرأ وتأدب على مشيخة غرناطة ، واختص بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هُذَيْل ، وأخذ عنه العلوم الفلسفية ، وبرّز في الطب ، وانتحل الأدب ، وأخذ عن أشياخه ، وامتلأ حوض السلطان من نظمه ونثره مع انتقاء الجيد منه ، ونبيغ في الشعر والترسل بحيث لا يجارى فيهما ، وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بني الأحمر لعصره ، وملأ الدنيا بمدائح ، وانتشرت في الآفاق ، فرقاه السلطان إلى خدمته ، وأثبتته في ديوان الكتابة ببابه مرفوساً بأبي الحسن بن الجيّاب شيخ العُدْوَتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية^(٤) » ، فلما توفي ابن الجيّاب ورث رتبته من بعده^(٥) ، ثم توفي أبو الحجاج فازدادت منزلته عند ابنه أبي عبد الله إلى أن نشبت ثورة أبعدت السلطان عن عرشه وقُبض فيها على ابن الخطيب وصودرت أملاكه ، ولكنه تخلص من ذلك بشفاعه السلطان أبي سالم المريني صاحب المغرب ولحق بسيد أبي عبد الله هناك وصحبه في غربته . ولما رجع أبو عبد الله أخيراً إلى عرشه في غرناطة ، استدعاه وألقى إليه بمقاليد الملك والسياسة « وانفرد بالحل »

(٤) تاريخ ابن خلدون ٧/٣٣٢ .

(٥) نفس المصدر ٧/٣٣٣ .

(١) نفح الطيب ٣/٣ .

(٢) نفس المصدر ٧/٣ .

(٣) نفح الطيب ٣/٣٣٤ .

والعقد ، وانصرفت إليه الوجوه ، وعُلِّقت عليه الآمال ، وغَشِيَ بابَه الخاصة والكافة ، وغصَّت به بطانة السلطان وحاشيته ، فتوافقوا على السَّعاية فيه ^(١) ، وأحسَّ لسان الدين بذلك فقرَّ إلى أبي فارس المريني وكان قد ملك تلمسان فأكرمه ^(٢) إلا أن رجال حاشيته سرعان ما أوغروا صدره عليه إذ اتهموه بالزندقة ، فألقى به في غياهب السجون ودُسَّ إليه من قتله عام ٧٧٦ ، وبذلك انتهت حياته هذه النهاية الدامية .

وقد كان لسان الدين أبرع كاتب أخرجته الأندلس في عصورها الأخيرة حتى قيل : إنه كاتب الأرض إلى يوم العرض ، وخصَّصَ له المقرئ مجلدين من نفح الطيب عرض فيهما عرضاً واسعاً لأساتذته وحياته السياسية والأدبية . وإذا كان لسان الدين لم ينجح في حياته السياسية فقد نجح نجاحاً عظيماً في حياته الأدبية ، وهي حياة كانت متنوعة ، إذ لم يقف بكتابته عند الرسائل الديوانية أو الشخصية ، بل كتب كتباً كبيرة في التاريخ والتصوف والموسيقى والفقه والطب ، وقد نهج لسان الدين في هذه الكتب نهج السجع وإن كان لا يلتزمه دائماً على نحو ما نعرف في كتابه (الإحاطة في أخبار غرناطة) وهو مطبوع فإنه قلما يسجع فيه . ومن يرجع إلى رسائله يجدها تمتاز بالإطناب المسرف ، وما يُطَوَّر في هذا الأطناب عادة من لفٍّ ودوران يجعلنا نذكر أصحاب التصنع في المشرق ، وإنه ليتسع بإطنابه حتى يفقد قارئه نشاطه لأن منظر المعاني ينسبط أمام بصره انبساطاً يخرجها من حيز التنوع إلى حيز الاستمرار والإملال ، وتنبه لذلك بعض السابقين فقال : « هو كاتب مترسل بليغ لولا ما في إنشائه من الإكثار ، الذي لا يخلو من عثار ، والإطناب ، الذي يفضى إلى الاجتناب ، والإسهاب ، الذي يَـقْدُ الإهاب » ^(٣) ، وليست ظاهرة الإطناب هي كل ما افترضه في سجعه برسائله من أصحاب التصنع من المشاركة ، بل تقرن بها ظاهرة أخرى معروفة لديهم ، وهي ظاهرة التصنع لمصطلحات العلوم

(١) تاريخ ابن خلدون ٣٣٥/٧ . ١٩٣/١ .

(٢) أزهار الرياض (طبع لجنة التأليف) (٣) نفح الطيب ٣٣٥/٣ .

وخاصة العلوم اللغوية ، وحقاً إن ابن الخطيب لا يكثر منها ، ولكنها موجودة — على كل حال — في نثره ورسائله ، ونحن ننقل إلى القارئ صدر رسالة كتب بها عن سلطانه إلى خليفة الموحدين بالآندلس ، وهي رسالة طويلة تقع في نحو عشرين صحيفة من القطع الكبير وهو يستهلها على هذا النمط ^(١) :

« الخلافة التي ارتفع عن عقائد فضلها الأصيل القواعد الخلاف ، واستقلت مباني فخرها الشائع ، وعزها الذائع ، على ما أسسته الأخلاف ، ووجب لحقها الجازم وفرضها اللازم ، الاعتراف ، وسعت الآملين لها الجوانب الرحبة والأكتاف ، فامتزجنا بعلائها المنيف ، وولائها الشريف ، كما امتزج الماء والسلاف ، وثناؤنا على مجدها الكريم ، وفضلها العميم ، كما تأرجت الرياض الأفواف ، لما زارها الغمام الوكّاف ، ودعاؤنا بطول بقائها ، واتصال علائها ، يسمو به إلى قرع أبواب السموات العلا الاستشراق ، وحرصنا على توفية حقوقها العظيمة وفواضلها العميمة ، لا تحصره الحدود ، ولا تدركه الأوصاف ، وإن عذّر في التقصير عن نيل ذلك المرام الكبير ، الحق والإنصاف » .

واستمر لسان الدين في هذه المقدمة طويلاً ، ونحن نكتفي بهذه القطعة منها لأننا نستطيع أن نتبين فيها الصفات العامة للسان الدين ، فهو يعتمد على السجع ، وهو يعتمد على التصنع لبعض مصطلحات العلوم ، إذ تصنع لألفاظ القواعد والمباني والجزم والحدود ، وليس ذلك كل ما يميزه في هذه القطعة ، فهناك جانب لعله أهم وأدخل في باب التصنع ، وذلك أنه بنى سجعاته في هذه القطعة كلها على الفاء ، ولكن تأمل في القطعة فلأنك تراه استخرج من كل سبعة سبعين داخليتين ، وما من شك في أن هذا ضرب جديد من التصعيب ، وصل إليه لسان الدين لأنه يريد أن يثبت تفوقه في عصره ، فإذا هو لا يسجع سجعاً بسيطاً على طريقة الكتّاب الآندلسيين من قبله ، وإنما يسجع هذا السجع المركب إن صح هذا التعبير ، واستمر معه في الرسالة فستره يصف حصار

(١) انظر الرسالة بأكملها في صبح الأعشى

سلطانه لقرطبة على هذا النحو :

« ثم تأهبنا لغزو أم القرى الكافرة ، وخزائن المزاين الوافرة ، وربة الشهرة
السافرة والأنباء المسافرة ، قرطبة ، وما أدراك ماهية ، ذات الأرجاء الحالية
الكاسية ، والأطواد الراسخة ، والمباني المباهية ، والزهرء الزاهية ، والمحاسن غير
المتناهية ، حيث هالةٌ بدر السماء ، قد استدارت من السور المشيد البناء ونهر
الحجرة من نهرها الفياض ، المسلول حسامه من غُمود الغياض ، قد لصق بها
جاراً ، وذلك الدولاب ، المعتدل الانقلاب ، قد استقام مداراً ، ورجع الحنين
اشتياقاً إلى الحبيب الأول وادِّكاراً ، حيث الطَّودُ كالتاج ، يزدان بلسجِين العذب
المُججاج ، فيزرى بتاج كسرى ودارا ، حيث قِسيُّ الجسور المديرة ، كأنها عوج
المطى الغريرة ، تعبر النهر قطاراً ، حيث آثار العامرى المجاهد ، تعبَّقُ بين تلك
المعاهد شَدَى معطارا ، حيث كراثم السحائب ، تزور عرائس الرياض الحبايب ،
فتحمل لها من الدرّ نثارا ، حيث شَمول الشَّمال تدار على الأدواح ، بالغُدُو
والرَّواح ، فترى الغصون سُكارى وما هى بسكارى ، حيث أيدى الافتتاح ،
تفتضُّ من شقائق البِيطاح ، أبكارا ، حيث ثغور الأفاح الباسم ، تقبلُّها بالسحر
زوار النواسم ، فتخفق قلوب النجوم الغيَّارى ، حيث المصلَّى العتيق قد رحب
مجالا وطال مناراً ، وأزرى ببلاط الوليد احتقاراً ، حيث الظهور المثارة بسلاح
الفلاح تجبَّ عن مثل أسنمة المهارى ، والبطون كأنها - لتدميث الغمام - بطون
العذارى » .

وأنت ترى لسان الدين فى هذه القطعة يلتزم لازمة السجع المركب التى
لاحظناها فى القطعة السابقة ، وقد ظهرت هنا عليه آثار التكلف بأوسع مما ظهرت
فى القطعة السالفة لأنه كان هناك بادئاً للرسالة ، أما هنا فقد طال به النفس
فظهرت علامات التعب عليه ، وكلمة التعب لا تكفى ، فإن ما أداه فى هذه
القطعة لا تنهض به هذه الكلمة ، وإنما تنهض به كلمة أخرى كالتصعيب أو
التعقيد . والحق أن لسان الدين كان يسعى حثيثاً فى أعماله إلى التمسك بأهداب
مذهب التصنع الذى شاع فى المشرق ، وقد ذهب يقترح على الكتَّاب هذا

السجع المركب ليدل على مبلغ تفننه وجودة ترسله ، وإنه ليضيف إلى ذلك تكلفاً واسعاً لألوان البديع وزخارفه ، وخاصة السجع والجناس ، وكان يُشغَفُ - كما نرى في هذه القطعة - بالجناس الناقص ، ولكن لا تظن أن هذا هو منهج لسان الدين الدائم ، فقد كان الكاتب الأندلسي ينتقل بين المفاهيم المختلفة للمشاركة ، ومن أجل ذلك كنت ترى عند لسان الدين رسائل كهذه الرسالة تندمج في ذوق أصحاب التصنع ، وما تلبث أن ترى له رسائل أخرى تندمج في ذوق أصحاب التصنيع ، وقد ينفر من الدوقين جميعاً كما نرى في كتابه (الإحاطة) . وإذاً فابن الخطيب لا يرتبط بمذهب معين من مذاهب المشرق ، بل هو ينتقل بين هذه المذاهب ، وإن كان أقرب مذهب إلى ذوقه وذوق عصره هو مذهب أصحاب التصنع ، ولكن ذلك لا يمنع أن نجد عنده نماذج يحاكي بها أصحاب الصنعة والتصنيع ، وهذا شيء لا يختص بلسان الدين ولا بنماذجهم ، بل هو عام في الأندلس لعصره وقبل عصره ، فداًئماً نجد الكاتب الواحد يتوزعه مذاهب المشرق المختلفة ، وغاية ما في الأمر أن الأندلسيين كان يغلب عليهم في العصر الأموي ذوق أصحاب الصنعة ، بينما كان يغلب عليهم في عصر ملوك الطوائف ذوق أصحاب التصنيع ، أما بعد ذلك فقد غلب عليهم ذوق أصحاب التصنع ، ومع ذلك فقد درسنا ابن شهيد فوجدناه يتوزعه المذهبان الأولان ، بينما كان ابن زيدون في عصر ساد فيه ذوق التصنيع ، ومع ذلك فقد رأيناه في بعض رسائله ينحو نحو أصحاب التصنع من بعض الوجوه ، وهذا لسان الدين ذوقه وذوق عصره تصنع ، واندماج في التصنع ، ومع ذلك فله رسائل تخلو من هذا التصنع ، بل قد تخلو من التصنع والتصنيع جميعاً ، وهذا نفسه هو ما نريد أن نصل إليه ، وهو أن الكتّاب في الأندلس كانوا يخلطون في محاكاة المذاهب المشرقية ونماذجها ، فلم يتقيد أحد منهم بمذهب معين من جهة ولم يدرسوا مذاهب المشرق دراسة علمية منظمة من جهة أخرى ، بحيث تتيح لهم هذه الدراسة أن يبتكروا مذهباً أو يتحدثوا اتجاهاً ، فقد كانوا جميعاً يعيشون في إطار المذاهب المشرقية معيشة تجعلنا نزع أن أصول هذه المذاهب كانت أثبت وأروع في تاريخ النثر العربي من أن تصيها الأقاليم المختلفة بتبديل أو تغيير .

الفصل الثاني

مصر والمذاهب الفنية

١

مصر

تمتد مصر على ضفاف النيل من مشارف أسوان إلى تخوم بحر الروم ، مطلّة عليها من الغرب الصحراء الغربية ومن الشرق الصحراء الشرقية ، وقد استطاعت أن تنهض نهضة واسعة في العالم القديم ، بل لقد استطاعت أن تلعب أقدم دور في تأسيس الحضارة الإنسانية ، وهو دور لا تزال أهراماته وصروح آثاره ماثلة تحت أعيننا تعبر أروع تعبير عن مدى ما بلغته مصر من مدنية ، وقد أخذت تنشر هذه المدنية في الأمم المجاورة متخذةً ضمّماً إلى ممتلكاتها سبيلها إلى ذلك ، فضمّت في أطوار مختلفة الشام وأجزاء من بابل وآشور ، وتمضى أحقاب متطاولة ولمصر المكانة الأولى بين الأمم القديمة ثم يدور الزمن دورة ، فيغزوها الرعاة الهكسوس ، ولكن سرعان ما تعود إلى نفسها فتطردهم منها ، وتخرج مرة أخرى إلى آسيا فتستولى على بعض أجزائها ، ولكن الزمن يدور دورة بل دورات فإذا مصر يغير عليها الحيثيون ثم الآشوريون ثم الفرس ، وتستمر تابعة لهم منذ عام ٥٢٥ ق.م ، حتى يخرجهم منها الإسكندر المقدوني عام ٣٣٣ ق.م ، وبذلك تنتقل إلى حكم الإغريق ويختطّ بها الإسكندر مدينة الإسكندرية ، كما يختطّ بها بطليموس أحد قواد الإسكندر دولة كبيرة استطاعت أن تنهض بها نهضة واسعة ، وهي دولة البطالسة التي أقامت في الإسكندرية داراً كبيرة للكتب ، كما أقامت داراً أخرى سمّتها دار المتحف ، وكانت جامعة كبيرة أضاعت منها أنوار الثقافة اليونانية وخاصة بعد أن استولى الرومان على أثينا ، فإن كثيراً من أسانديتها فسّروا ومعهم ما تبقى من مصابيح تلك الثقافة إلى

الإسكندرية ، وقد رجعت هذه المصابيح نضىء متوهجة بمصر طوال عصر البطالسة ، وبعد البطالسة ، فإن جامعة الإسكندرية ظلت قائمة في عهد الرومان الذين استولوا على مصر منذ عام ٣١ م ، ونحن نعرف أن روما لم تحاول أن تبعث في مصر نهضة ثقافية إذ كانت تتخذها مخازن لما يلزمها من قمح ، وكم أثارت فيها من حروب وسفكت من دماء وأزهقت من أرواح !

وتدور عجلة الزمن دورة فلماذا عمرو بن العاص يأتي على جيش عربي كبير عام ٦٤٠ م متخذاً طريقه تلك الدروب والمسالك التي كانت تشق طور سيناء إلى مصر ، ويتعقب الروم في غير موقع ، ويستطيع — بما أوتي من قوة — أن يطردهم منها ، وبذلك تدخل مصر في عصر جديد هو عصر الإسلام والعروبة ؛ وهو عصر امتاز منذ أوائله بالعدل وأن يكون الناس سواسية أمام حاكمهم فلا يُضطهد أحدٌ في نفسه ولا في ماله ولا في دينه ، وقد أخذ المصريون يدخلون في دين الله أفواجا ، وهاجر إليهم كثير من قبائل العرب ونزلوا ريف مصر ، فكان ذلك عاملا من عوامل الاندماج بين المصريين والعرب . على أنه ينبغي أن لا يُفهم من ذلك أن المصريين تقبلوا الحكم العربي وخضعوا له خضوعاً ، بل كانوا كثيراً ما يثورون^(١) ، وخاصة من أجل الضرائب التي كانوا يؤدونها ، ولولا أن موجة الإسلام كانت حادة ما استطاع العرب أن يستمروا بمصر ، فإن المصريين نزعوا عن دينهم أو قل نزعت كثرتهم عن دينها إلى الدين الجديد ، وحتى من بقي منهم على دينه أخذ يهجر لغته القبطية وما كان يعرف من اليونانية إلى اللغة العربية بحيث لا نصل إلى القرن الرابع حتى نجد أسقف أشمون يشكو من انعدام اللسانين القبطي واليوناني في قبط مصر^(٢) ، وما من ريب في أن ذلك يؤكد اندفاع مصر اندفاعاً شديداً نحو التعرب واتخاذ العربية لساناً لها ، فقد نزعت عنها ثيابها اللغوية القديمة واتخذت مكانها ثياباً عربية جديدة .

(٢) انظر كتاب سير البطارقة لساويرس (طبع بيروت) ص ٦ وهو مؤلف بعد عام ٤٠٠ هـ بقليل .

(١) Stanley, Lane-poole, A History of Egypt in the Middle Ages, pp. 28, 32

شخصية مصر

من يبحث مصر في مختلف عصورها يجدها أشبه ما تكون بمعبد كبير أغلقت أبوابه على طائفة من الرسوم والطقوس لا تتغير ولا تتبدل ، بل دائماً تظل كما هي في كل حكم وفي كل عصر . وهذا المعبد الكبير أتيحت له أسباب طبيعية جعلته يعيش معيشة مستقلة في عاداته وتقاليده ، ونقصد بتلك الأسباب ما قام على أسواره من الصحراء الشرقية والغربية ، فإنهما عززلتاه عن الاختلاط والانسياح في الأمم الأخرى ، وحقاً قد تمرّ بهذا المعبد العظيم عاصفة هوجاء فتفتّح أبوابه ويدخل جيش فاتح على رأسه قائد مظفر ، ولكن سرعان ما يذوب هذا الجيش ويفنى في أبناء المعبد وطقوسهم وعاداتهم . وفي هذا المعبد يحرق نهر النيل نافثاً لُعابه من حوض إلى حوض في أوان « يَدِرْ حِلَابِه ، ويكثر فيه ذبابه » ، وحول هذا النهر يعيش المصريون من عصر الفراعين إلى العصر الحديث « يحرقون بطون الأرض ، ويبذلون بها الحب » ، يرجون بذلك النماء من الرب » ، وقد ظلوا يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام وجيلاً بعد جيل يعملون على وتيرة واحدة ، ينقلون الماء من هنا إلى هناك بهذه الأواني من الطّوابير وما يتصل بها ، يبعثون الحياة في وديان مصر وأحواضها « فبينما مصر لؤلؤة بيضاء ، إذا هي عنبرة سوداء ، فإذا هي زمردة خضرة ، فإذا هي ديباجة رَقْشاء » . وهكذا مصر دائماً : كتاب أحكمت سطوره ونقوشه منذ أقدم الأزمنة ، وما تزال هذه السطور والنقوش واضحة غير مطموسة ، فالناس يعيشون كما كان يعيش آباؤهم وأسلافهم يربضون في وديان النيل في تلك المياة المُشبعة بالطّمني ، يديرون آلات لا تكاد تختلف في شيء عن آلات أجدادهم ، وإنهم ليحيون بطرق لا تختلف أيضاً كثيراً عن طرق أسلافهم . ومن ثمّ كانت مصر بلداً محافظاً يحفظ بشخصيته ومقوماتها على مر العصور ، وقد كان لذلك أثر جليل

فى تاريخ مصر ، فإنها استطاعت أن تحتل الفتوح المختلفة ، وأن تصمد لها دون أن يُطمس شىء مهم من معالمها لما لديها من امتناع عن التحول وقدره على الإساعة والهضم ، فإذا هى تهضم ما يدخل إليها من عناصر أجنبية ، هضمت قديماً الرعاة المكسوس وما دخلها من عناصر الأشوريين والحيثيين والفرس واليونان والرومان ، بل لقد هضمت عناصر العرب أنفسهم مع اتساع تأثيرهم فيها من الوجهتين الدينية واللغوية .

وهذه المحافظة فى مصر وما يطوى فيها من مقدره على الاستمرار ليس معناها أن مصر تستعصى على العناصر الثقافية عند الأمم الأجنبية ، فكثيراً ما تقبلت قديماً وحديثاً هذه العناصر وحاولت أن تهضمها وتعيد لها فى صورة جديدة تلائمها ، ولعل أوضح ما يفسر ذلك ما كان من استقباليها فى الإسكندرية للثقافة اليونانية ، فقد استطاعت أن تستوعبها ، وأن تنفذ من ذلك الاستيعاب إلى مذهب جديد فى الفلسفة هو مذهب الأفلاطونية الحديثة ، وهو مذهب يعتمد على العناصر اليونانية من جهة والعناصر المصرية وما يتصل بها من معتقدات من جهة أخرى . ولم تحاول مصرُ الاتصال بثقافة اليونان الذين فتحوها فقط ، بل نراها تحاول الاتصال بثقافات أخرى لم يكن لأهلها نفوذ سياسى بها ، ولعل خير مثال لذلك اتصالها بالثقافة السريانية فى أثناء الحكم الرومانى ، وخاصة فيما يتصل بدراسة الطب ، يقول بتلر : « قد كان ثمة اتصال خاص بين لغة السريان ودراسة الطب ، وإنه لا يبعد أن أعظم كتب الطب فى القرنين السادس والسابع كانت باللغة السريانية ، ولا شك أن تلك اللغة كانت ذاتة بين الناس وأن آدابها كانت دائماً تدرّسُ فى الإسكندرية حتى قبل أن تفد جموع العلماء إلى مصر من سوريا عند غزو الفرس لها »^(١) ومن هذه اللغة تُرجم لعمر بن عبد العزيز كتاب أهرن القس فى الطب^(٢) ، ولم تنس مصر لغتها القبطية ، فقد كانت تتخذها فى طقوسها الدينية كما كتبت

(١) فتح العرب لمصر (الترجمة العربية) (٢) تاريخ الحكاء (مختصر الزوزنى) طبع
(طبع لجنة التأليف) ص ٨٤ . ليبرز ص ٣٢٤ .

بها بعض كتابات تاريخية^(١). على أنه ينبغي أن نعرف أن جامعة الإسكندرية اليونانية هجرها أساتذتها إلى مدرسة أنطاكية في عهد عمر بن عبد العزيز ، ولذلك لا نسمع بعد عصره عن خليفة أو أمير يطلب علماء الإسكندرية على نحو ما طلب خالد بن يزيد بن معاوية جماعة منهم لترجمة ما عندهم من كتب في الكيمياء^(٢) . ومع ذلك فإغلاق هذه الجامعة إنما اقتصر تأثيره على الجانب الإغريقي ، أما الجانب السرياني وما يتصل به من الطب فقد استمر في مصر ، إذ كان العلماء السريان منبثين في الأديرة ، فكان يقصد الطلاب إليهم ، وكان الطب يتوارث فيهم ، ولذلك ظلت مصر تشتهر بأطبائها حتى عصر متأخر ، ومن اشتهروا فيه سعيد بن توفيل النصراني طبيب ابن طولون^(٣) ، وسعيد بن البطريق : « وكان طبيباً نصرانياً من أطباء فسطاط مصر . . وقد عيّن بطريقاً على الإسكندرية سنة ٣٢٨هـ ، وله كتب في الطب والجلد »^(٤).

ومهما يكن فقد استمرت بمصر بقايا من التراث اليوناني ، حتى بعد إغلاق جامعة الإسكندرية ، إذ ظلت بها رواسب من علم إقليدس في الفلك ومن علم الكيمياء ومن الأفلاطونية الحديثة وما يتصل بها من غنوسطية ودراسات لاهوتية ، وما من ريب في أن الحركة الصوفية التي ظهرت بمصر في القرن الثالث وعلى رأسها ذو النون المصري الإخيمي كانت تتأثر متأثراً مباشراً بما بقي من هذه الجامعة ، وخاصة إذا عرفنا أن أول انبعاث لهذه الحركة كان في الإسكندرية عام ٢٠٠هـ^(٥) ، وأيضاً فهم يقولون إن ذا النون المصري كان عالماً في الكيمياء ، وقد ردوا كثيراً من آرائه إلى منهج الأفلاطونية الحديثة . وكما تأثر التصوف بالأفلاطونية والغنوسطية الإسكندرية تأثر كذلك التشيعُ بهما في العصر الفاطمي ولعله من أجل ذلك كان الفاطميون يدعون إلى التثقف بالثقافة الفلسفية ،

(١) فتح العرب لمصر ص ٨٥ .

(٢) الفهرست لابن النديم (طبع مصر)

ص ٣٣٧ ، ٥٠٧ .

(٣) النجوم الزاهرة طبع دار الكتب ١٧/٢ .

(٤) طبقات الأطباء ٨٦/٢ .

(٥) الولاة والقضاة للكندي ص ١٦٠ وانظر

أيضاً ص ٤٤٠ .

إذ كانت هذه الثقافة فعلاً مؤثرة آثاراً عميقة في عقيدتهم الشيعية .

وقد سارعت مصر بعد إسلامها إلى العناية بالدراسات الدينية من تفسير وحديث وفقه وقراءات ، كما سارعت إلى العناية بالعلوم اللغوية من نحو وعروض ولغة وأدب ، فكان منها اللغويون والنحويون ، كما كان منها الفقهاء والمحدثون والقراء ، وأيضاً كان منها المؤرخون الذين أروخوا لفتوحها . وكان جامع عمرو بن العاص هو الجامعة الكبرى التي تدرس فيها العلوم الإسلامية ، وهي دراسة كانت تنساق نحو تقليد بغداد في علمها وما وصلت إليه في الدراسات المختلفة ، ومصر من هذه الوجهة تشبه الأندلس تمام الشبه ، فكما أن الأندلس قلدت المشرق في علومه الدينية واللغوية ، أو قل بعبارة أدق لأنها نقلت هذه العلوم منه ، كذلك مصر فإنها اعتمدت على النقل أكثر مما اعتمدت على الابتكار ، ولم يكن هذا شأنها فقط في العلوم الدينية واللغوية ، بل كان شأنها أيضاً في حركتها الأدبية ، فإنها كانت تصوغ نماذجها على مثال النماذج البغدادية ، إذ كان الأدباء يعجبون في مختلف الأقاليم العربية بهذه النماذج ، وهو إعجاب طبع أدبهم من شعر ونثر بطابع أصيل من التقليد ، وسرى هذا الطابع يستمر في جميع ما أنتجت مصر من نثر في أثناء عصورها الوسيطة ، ومن ثم لم تستطع أن ترفد مجرى النثر العربي العام بجدول جديد تتميز مياحه من مياه المجرى العام ، فليس هناك مذهب جديد ، وإنما الذي هناك دائماً هو التقليد والمحاكاة على نحو ما رأينا في الأندلس ، وكان ذلك سمة الأقاليم جميعاً ، فهي تقرأ نماذج المشرق التي صنعت داخل مذاهب الصنعة والتصنيع والتصنع ، ثم تحاول أن تصوغ نماذج مشابهة لتلك التي تقرأها ، ذاهبة أحياناً مذهب أهل الصنعة ، وأحياناً أخرى مذهب أهل التصنيع أو التصنع في غير نسق ولا نظام مطرد ، وإن الإنسان ليعجب إذ يرى هذه المذاهب التي صنعها المشرق تكتسح أمامها جميع الحدود القومية في الأقاليم العربية دون أن يعترضها حاجز أو يقف أمامها عائق ، ومن العيب حقاً أن نبحث عن مذهب جديد يحدّثه أي إقليم ، وكأنما ضاقت أبواب التجديد أمام الأدباء فهم

يُؤَلِّقُون وجوههم دائماً شطر بغداد يتعبدون أمثلتها ويحتنون على ما أخرجته من نماذج في الشعر والنثر .

٣

النثر المصري

إذا أخذنا نبأ عن وثائق الكتابة الأدبية في مصر في أثناء الفترة الأولى ، ونقصد فترة الولاية من عمرو بن العاص إلى أحمد بن طولون لم نكد ننبين شيئاً واضحاً ، وليس معنى ذلك أنه لم يكن في مصر كتابة ولا كتّاب ، فالمقرئ يقول : « لما كانت مصر إمارة كان بها ديوان البريد . ويقال لمتولّيه صاحب البريد . . وهو الذي يطالع بأخبار مصر ، كما كان لبعض أمراء مصر كتّاب يُنشئون عنهم الكتب والرسائل »^(١) ، وبجانب ديوان البريد الذي يشير إليه المقرئ كان بمصر ديوان للخراج ، وكانوا يكتبون فيه أولاً باليونانية ثم كتبوا فيه منذ عهد عبد الملك أو ابنه الوليد بالعربية ، ومن يستعرض ما جاء في كتاب الوزراء والكتّاب للجهشياري عن دواوين مصر وكتّابها في العصر الأموي وأوائل العصر العباسي يلاحظ أن الكتاب الرسميين الذين يتصلون بديوان البريد وديوان الخراج كانوا غالباً من غير المصريين ، فهو يروى أن عبد العزيز بن مروان والى مصر كان يكتب له يناسُ بن حُمّايا من أهل الرُّها^(٢) ، كما يروى أن سليمان بن عبد الملك ولّى رجلاً من موالى معاوية الخراج بمصر^(٣) . هذا في العصر الأموي ، أما في العصر العباسي فيروى للجهشياري أن هرون الرشيد ولّى على مصر عمر بن مهران كاتب الخيزران ، فأخذ معه رجلاً استكتبه على الديوان^(٤) ، وكذلك يروى أن الخصب استكتب جابر بن داود جدّ البلاذري ،

(١) خطط المقرئ طبع بولاق ٢٢٦/٢ . (٣) نفس المصدر ص ٥١ .

(٢) الوزراء والكتّاب للجهشياري ص ٣٤ . (٤) الوزراء والكتّاب ص ٣١٧ .

المؤرخ المشهور^(١) ، وهو فارسي الأصل ، ولما ولي عبد الله بن طاهر مصر في عصر المأمون اصطحب معه إسحق بن أبي ربيعي ليكون كاتبه ، وفيه يقول بعض الشعراء^(٢) :

أرى كاتباً جاهُ الكتابةَ يَبيِّنُ عليه وتأديب العراق مُنيرُ
له حركاتٌ قد تشاهد أنهُ عليمٌ بتقسيم الخراج بصيرُ

وقد سقنا ذلك لندل على أن مصر لم تستفد كثيراً في عهد الولاة من حيث النشاط الأدبي في باب الكتابة الرسمية ، إذ كانت تستورد كُتَّاب دواوينها من الخارج ، ومن أجل ذلك لم يكن لها نشاط واضح في هذا الجانب إلا ما رواه المقرئ من أنه كان لبعض أمراء كُتَّاب ينشئون عنهم بعض الرسائل ، ومن هؤلاء الكُتَّاب عبد الله بن صالح كاتب الليث بن سعد^(٣) ، ولعل مما يتصل بذلك ما يقال من أنه كان لعبد الحميد الكاتب عقبٌ يسكنون مصر منذ قُتل في موقعة الزَّاب وكانوا يكتبون لأمرائها^(٤) . على أنه ليس عندنا نصوص لهذه الطائفة من كتاب الأمراء ، ولا للطائفة الأخرى من كتاب الولاة ، ومن ثمَّ كنا لا نُبعد إذا قلنا إن مصر لم تستولها صورة واضحة من الكتابة الفنية في عصر الولاة غير أننا لانصل إلى عصر ابن طولون الذي استقل بها ، وأسَّس فيها دولة كان لها شأن مهم في القرن الثالث للهجرة حتى نجد مصر تبدأ عصرًا جديدًا في تاريخ النثر الأدبي ، وذلك لسبب بسيط ، وهو أن ابن طولون اتخذ لنفسه ديوان رسائل ، وبذلك وجدت الوسيلة لنشوء حركة أدبية تماثل ما نشأ في دمشق وبغداد حول دواوين الرسائل ، يقول صاحب صُبْح الأعشى : « لم يكن لديوان الإنشاء بالديار المصرية في مدة نواب الخلفاء صرفُ عناية تقاصرُ عن التشبه بديوان الخلافة ، إذ كانت الخلافة يومئذ في غاية العز ورفعة السلطان ، ونيابة مصر بل سائر النيابات مضمحلة في جانبها ، والولايات الصادرة

(١) الوزراء والكتاب ص ٢٥٦ والفهرست (٣) الوزراء والكتاب ص ٥٤ .

(٤) نفس المصدر ص ٨٢ .

ص ١٦٤ .

(٢) النجوم الزاهرة ١٩٣/٢ .

عن التواب في نياتهم متصاغرة متضائلة بالنسبة إلى ما يصدر من أبواب الخلافة من الولايات، فلذلك لم يقع مما كُتِبَ منها ما تتوافر الدواعي على نقله، وتنصرف الهمم لتكوينه، مع تطاول الأيام وتوالي الليالي . . ولا أخذ أحمد بن طولون في تدبير الملك وإقامة السلطنة بالديار المصرية، وشمخ بها سلطانه، وارتفع بها شأنه، أخذ في ترتيب ديوان الإنشاء (ديوان الرسائل) لما يحتاج إليه في المكاتبات والولايات فاستكتب ابن عبّيد كان فأقام منار ديوان الإنشاء ورفع مقداره^(١)، ولم يكتف ابن طولون باین عبّيد كان، فقد جاء بجماعة من كتاب العراق تعاونه مثل أبي عبّيد الله الواسطي^(٢) ويعقوب بن إسحق^(٣) وأحمد بن أيمن، وكان يكتب في خطاته للعباس بن خالد البرمكي^(٤) وضمّ إلى هؤلاء الكتاب آخرين من كتّاب مصر وعلى رأسهم الحسن بن محمد بن أبي المهاجر وإخوته على وأبو القاسم وأبو عيسى، وكلهم من عقب عبد الحميد الكاتب^(٥). وبذلك كله نهض ابن طولون بديوان الرسائل في مصر نهضة عظيمة، وهي نهضة جعلت بعض كتاب العراق يهاجر إلى مصر طلباً للتوظيف في هذا الديوان على نحو ما يحدثنا ياقوت عن إسحق بن نصير^(٦) الكاتب البغدادي، فقد قدم على ابن عبد كان رئيس الديوان والتمس منه التصرف ولم يزل معه إلى أن توفي، فاستخلفه مكانه خمارويه وأجرى عليه أربعمئة دينار في الشهر ثم رفعها إلى ألف دينار^(٧). ويذهب عصر الطولونيين وتدخل مصر مرة أخرى في عصر الولاة فيضعف بها ديوان الإنشاء ويستمر على ضعفه في عصر الإخشيديين، إذ لا نجد لمصر - على عهدهم - كاتباً مشهوراً يمكن أن نقرنه إلى ابن عبد كان الذي كان يباهي به ابن طولون كُتّاب بغداد

-
- (١) صبح الأعشى (طبع دار الكتب) ٢٨/١١.
 (٢) المكافأة لأحمد بن يوسف طبعة (وزارة التربية والتعليم) ص ٢٠.
 (٣) المكافأة ص ٥٦.
 (٤) نفس المصدر ص ٩١، ١٦٧.
 (٥) الوزراء والكتاب ص ٨٢.
 (٦) هكذا في ياقوت، وفي صبح الأعشى وحسن المحاضرة والنجوم الزاهرة: نصر.
 (٧) انظر معجم الأدباء ٨٥/٦.

والعراق ، ونحن نقف عند هذا الكاتب وقفة قصيرة لنطلع على ما كانت تخرجه مصر في عهده من نماذج الكتابة الفنية .

ابن عبد كان

هو أحمد بن محمد بن مودود ^(١) ، وقد نال شهرة واسعة في عصره وبعد عصره ، ولكن كُتُاب التراجم لم يهتموا به ، وأغلب الظن أن ابن طولون اصطحبه معه من بغداد ، فاسمه يدل على أنه فارسي ، إذ الألف والنون تأتي في الفارسية القديمة للنسبة بينما تأتي الكاف للتصغير ، وإذا فَعَّبد كان تقابل في العربية عُبَيْدِيّ ، وقد أحضره ابن طولون إلى مصر وبقى بها حتى وفاته ، ويظهر أنه توفي بعد سيده ، إذ تتفق المصادر القديمة على أن إسحق بن نصير تولى ديوان الرسائل من بعده لخمأرويه بن أحمد بن طولون ^(٢) . وعُرف ابن عبيد كان بجودة أدبه وفنه ، قال صاحب الفهرست : « كان بليغاً مترسلاً فصيحاً ، وله ديوان رسائل كبير » ^(٣) ، ويقول ياقوت : « كان أبو جعفر محمد بن عبد الله بن عبد كان على المكاتبات والرسائل منذ أيام أحمد بن طولون ، ومكاتباته وأجوبته موجودة » ^(٤) ، وقد أشاد به صاحب صبح الأعشى في غير موضع من كتابه ، وما قال فيه : إن أهل بغداد كانوا يحسدون أهل مصر على طبطب المحرر وابن عبد كان ، ويقولون : « بمصر كاتب ومحرر ليس لأمر المؤمنين بمدينة السلام مثلهما » ^(٥) ، ومر بنا في غير هذا الموضع أن الصاحب بن عباد سأل رجلاً من أهل الشام : رسائل من تُقرأ عندكم ؟ فقال : رسائل ابن عبد كان ، قال : ومن ؟ قال : رسائل الصابى ، وفي اقتران ابن عبد كان ، وهو من كتاب القرن الثالث ، بالصابى وهو من كُتُاب القرن الرابع قرن

(٣) الفهرست لابن النديم ص ١٩٧ .

(٤) معجم الأدباء ٨٥/٦ .

(٥) صبح الأعشى ١٧/٣ .

(١) صبح الأعشى ٩٥/١ .

(٢) صبح الأعشى ٩٥/١ والنجوم الزاهرة

٣٣٦/٧ وحسن المحاضرة للسيوطي (طبع مطبعة

الموسوعات) ١٤٦/٢ .

التصنيع ما يجعلنا نقف — من بعض الوجوه — على مبلغ مكانته الأدبية . على أن للمسألة وجهاً آخر ، وهو أن الناس في النصف الثاني من القرن الرابع كانوا يعتقدون بآبن عبد كان ورسائله مع أننا نعرف أنهم لم يكونوا يابهون لغير السجع والبديع في تلك العصور ، وفي ذلك ما يجعلنا نحس شيئاً من الصلة بين آثار آبن عبد كان وآثار أصحاب التصنيع من أمثال الصابي ، والمسألة لا تحتاج كل هذا الاستنتاج فإن من يرجع إلى رسالته التي كتبها عن آبن طولون إلى ابنه العباس ، وكان قد شغّب عليه بالإسكندرية أثناء رحلة له بالشام ، وهي الرسالة التي احتفظت له بها المصادر القديمة بجده فيها يُعنى بالسجع عناية شديدة ، وحقاً قد يتخفف منه ولكنه يلتزمه في أكثر جوانب الرسالة مما يجعلنا نؤمن بأنه كان يعتمد عليه اعتماداً دقيقاً في صنع رسائله ، وانظر إليه كيف يستهل تلك الرسالة ^(١) :

« من أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين إلى الظالم لنفسه ، العاصي لربه ، الملم بذنبه ، المفسد لكسبه ، العادى لطوره ، الجاهل لقدره ، الناكص على عقبه ، المركوس في فتنته ، المبخوس من حظ ديناه وآخرته ، سلامٌ على كل مُنيب ومستجيب ، تائب من قريب ، قبل الأخذ بالكظم ، وحلول الفوت والندم . . . أما بعد فإن مثلك مثل البقرة تُثير المدينة بقرنها ، والنحلة يكون حنقها في جناحيها ، وستعلم هبيلتك الهوابل — أيها الأحق الجاهل ، الذى ثنى على الغنى عطفه ، واغترّ بضجاج المواكب خلفه — أى مورد هلكة بإذن الله تورّدت إذ على الله عز وجلّ تمرّدت وشردت ، فإنه تبارك وتعالى قد ضرب لك في كتابه مثلاً (قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) ، وإنا كنا نقربك إلينا ، وننسبك إلى بيوتنا ، طمعاً في إنابتك ، وتأميلاً لفيستك ، فلما طال في الغنى انهماكك ، وفي غمرة الجهل ارتباكك ، ولم نر الموعظة تُلين

كبدك ، ولا التذكير يُقيم أودك ، لم تكن لهذه النسبة أهلاً ، ولا لإضافتك إلينا موضعاً ومحلّاً . . . واعلم أن البلاء — بإذن الله — قد أظلك ، والمكروه — إن شاء الله — قد أحاط بك ، والعساكر — بحمد الله — قد أتتك كالسيل في الليل ، تؤذئك بحرب وويل ، فإنما تُنقسم ، ونرجو أن لا نجور ونظلم ، أن لا تَشْتَى عنك عِنا ، ولا تؤثر على شأنك شأنًا ، فلا تتوقل ذروة جبل ولا تلج بطن واد إلا تبغناك بحول الله وقوته فيهما ، وطلبناك حيث أمت منهما ، منفقين فيك كل مال خطير ، ومستصغرين بسببك كل خطب جليل ، حتى تستمر من طعم العيش ما استحلّيت ، وتستدفع من البلايا ما استدعيت ، حين لا دافع بحول الله عنك ، ولا مزحزح لنا عن ساحتك ، وتعرف من قدر الرّخاء ما جهلت ، وتودّ أنك هُبلت ، ولم تكن بالمعصية عجلت ، ولا رأى من أضلّك من غواتك قبلت ، فحينئذ يتفرّى لك الليل عن صبحه ، ويُسفر لك الحق عن مَحْضه ، فتنظر بعينين لا غشاوة عليهما ، وتسمع بأذنين لا وقر فيهما ، وتعلم أنك كنت متمسكاً بجبال غرور ، متبادياً في مقابح أمور ، من عقوق لا ينال طالبه ، وبغى لا ينجو هاربه ، وغدر لا ينتعش صريعه ، وكفران لا يُودى قتيله ، وتقف على سوء رويّتك ، وعظم جريرتك ، في تركك قبول الأمان إذ هو لك مبدول ، وأنت عليه محمول ، وإن السيف عنك مغمود ، وباب التوبة إليك مفتوح ، وتلهف والتلهف غير نافعك إلا أن تكون أجبت إليه مسرعاً ، وانقذت إليه منتصحاً » .

وأنت ترى ابن عبد كان في هذه القطعة يعنى بموازنة عباراته موازنة تخرج به إلى السجع فإن تركه فإلى الازدواج ، وهذا يدل على أنه كانت تتأصل عنده رغبة في إحكام عباراته وتنسيقها تنسيقاً بديعاً ، وهو تنسيق كان يعتمد دائماً على الملاءمات الصوتية ، وكأنما كان أساس الكتابة الفنية في رأى ابن عبد كان هو الموسيقى وإحسانها ، وقد طبعت هذه الموسيقى أسلوبه بطابع خاص من الترادف حتى يلاحم بين أصواته من جهة ، وحتى يحدث ما يريد من سجع وازدواج من جهة أخرى . وليس ذلك كل ما يميز صناعة ابن عبد كان ، فهناك

جانب تظهر بعض شياته في تلك القطعة ، وهو جانب التصوير . والحق أن ابن عبد كان من أهم الكتّاب الذين ظهروا في القرن الثالث لا في مصر وحدها ، بل أيضاً في بغداد نفسها ، وهو حقاً ليس مصرياً وإنما هو بغدادى ، ولكن مصر هى التى ظفرت به ، وقد استطاع أن يحقق لها كثيراً من أحلامها فى منافستها لبغداد على عهد ابن طولون . وليس كل ما يذكر لابن عبد كان فى هذا الباب هو صورة كتابته وما بها من فن وجمال ، بل إن هناك وجهاً آخر لعمله ، وهو أنه وضع للكتاب فى مصر رسوم الكتب وبماذا تنتهى وكيف تُعَسَّنُونَ^(١) . على أنه ينبغي أن نلاحظ أن ظهوره بمصر كان طفرة ، وربما كان اعتباره تكميلاً للحلقة بغدادية أدق من اعتباره ابتداء حلقة مصرية ، فإن مصر تراجعت بعده فلم تستطع أن تخرج كاتباً ممتازاً فى عصر الولاة بعد الطولونيين ولا فى عصر الإخشيديين ، وكأنها أبقت الكاتب الممتاز لعصر الفاطميين .

٤

الفاطميون ونهضة النثر المصرى

ما نكاد نشرف على النصف الثانى من القرن الرابع حتى تبدأ مصر صفحة جديدة ، وهى صفحة زاهية من جميع جوانبها السياسية والاجتماعية والفنية ، فقد دخلها الفاطميون فاتحين عام ٣٥٤ هـ وأسسوا فيها إمبراطورية عظيمة دانت لها شعوب أفريقيا الشمالية وبلاد الشام والعرب وخُطِبَ باسمهم فى العراق وبغداد نفسها^(٢) وحتى بلوخستان كانت تخضع لهم ، فابن حوقل يقول : إن أهلها كانوا يرسلون للخليفة الفاطمى بأموال و ذخائر كثيرة^(٣) ، ويقول ناصر خسرو الذى زار مصر عام ٤٣٩ للهجرة : إنه رأى بالقاهرة طائفة من أبناء الملوك والأمراء

(١) انظر صبح الأعشى ١٦٠/٨ وما بعدها . (٣) المسالك والممالك لابن حوقل (طبعة ليدين)

(٢) انظر النجوم الزاهرة ٤/٥ وما بعدها . ص ٢٢٢ .

الذين جاءوا من أطراف العالم مثل أبناء ملوك جورجيا وملوك الديلم وأبناء خاقان تركستان^(١) ، وأكبر الظن أن هؤلاء الأبناء كانوا بعوثاً لبلادهم تريد أن تنهل من منابع الثقافة الشيعية بمصر . وكل ذلك يؤكد عظم المكانة التي احتلتها مصر في العصر الفاطمي ، وهي مكانة أهل لها نظام الدعاة الذي أقاموه ، فقد كان لهم دعاة منبثون في كل صقع وفي كل ناحية يدعون لهم ، يقول المعز في كتاب أرسله إلى أحد قواد القرامطة : « ما من جزيرة في الأرض ولا إقليم إلا ولنا فيه حُجَجٌ ودعاة يدعون إلينا : يدلُّون علينا ، ويأخذون بيعتنا ، ويذكرون رجعتنا ، وينشرون علمنا ، ويُسنِّدُون بأسنا ، ويبشرون بأيامنا ، بتصاريف اللغات واختلاف الألسن »^(٢) .

استطاع الفاطميون أن يرتفعوا بالقاهرة في عصرهم إلى مرتبة لا تقل عن مرتبة بغداد في أيام مجدها الأولى ، فقد بنوا فيها القصور الفخمة والمساجد الضخمة وزركشوا هذه القصور والمساجد بضروب مختلفة من الزخرف لا نبعد إذا قلنا إنها كانت منتزعة من حياتهم التي كانت تقوم على التأنق وهو تأنق ساعد عليه ثراء مصر الذي يبالغ المؤرخون في وصفه ، ولعل مما يدل عليه من بعض الوجوه ما يقوله ابن ميسر من أن خراج دمياط وتينيس والأشمونين كان يزيد على مائتي ألف دينار في العام^(٣) ، ويقول ناصر خسرو : إنه رأى بالقاهرة رباطاً يحصل منه كل شهر ألف دينار ، وأن بالقاهرة مائتي رباط أكبر منه أو مثله^(٤) . ويظهر أن هذا الثراء كان يعم الشعب وخلفاءه ووزرائه ، يقول ناصر خسرو : « رأيت في مدينة مصر نصرائياً من سراتها قيل أن مراكبه وأمواله وأملاكه لا يمكن أن تُعَدَّ ، وحدث في سنة ما أن كان النيل ناقصاً وكانت الغلة عزيزة ، فأرسل الوزير إلى هذا النصراني ، وقال ، ليست السنة رخاء ،

(١) سفرنامه لناصر خسرو (الطبعة العربية) (٣) أخبار مصر لابن ميسر (طبع أوروبا)

ص ٤٦ .

طبع لجنة التأليف ص ٥٣ .

(٢) الاتعاظ للمقريزي (طبعة بونتر) (٤) سفرنامه ص ٦٣ .

ص ١٣٩ .

والسلطان مشفق على الرعية ، فأعطى ما استطعت من الغلة إما نقداً وإما قرضاً ، قال النصراني : أسعد الله السلطان الوزير ، إن لدى من الغلة ما يمكننى من إطعام أهل مصر الخبز ست سنوات . وكل من يستطيع الحكم يدرككم ينبغي أن يكون لهذا الثرى لتبلغ غلته هذا المقدار ، وأى سلام كانت فيه الرعية ، وأى عدل كان للسلطان بحيث يكون شعور الناس وأموالهم بهذا القدر^(١) .

ويتكلم ناصر خسرو عن قصر الخليفة فيقول : إن قصره به نحو ثلاثين ألفاً من الخدم والحوارى ، وإنه رأى يوم فتح الخليج - وكان أحد الأعياد في العصر الفاطمى - سرادقاً نُصِب للسلطان على رأس الخليج ، وكان هذا السرداق من الديباج الروى ، موشى كله بالذهب ، ومكمل بالجوهر ، وهو من الكبر بحيث يتسع ظله لمائة فارس ، وأمام هذا السرداق خيمة من أبى قلمون ، وسرداق آخر كبير ، ويسير فى ركاب السلطان عشرة آلاف فارس ، على خيولهم سروج مذهبة وأطواق وألحمة مرصعة ، وجميع لبد السروج من الديباج الروى وأبى قلمون ، وكذلك كانت تسير إبل كثيرة عليها هوداج مزينة وبغال غمارياتها (هوداجها) مرصعة بالذهب والجوهر وموشاة باللؤلؤ^(٢) . ويستطرد ناصر خسرو إلى وصف مائدة رآها للمستنصر يوم العيد فيقول : إنه رأى فى هذه المائدة شجرة أعدت للزينة تشبه شجرة الترنج ، كل غصونها وأوراقها وثمارها مصنوعة من السكر ، ومن تحتها ألف صورة وتمثال مصنوعة كلها من السكر أيضاً^(٣) . ومن يرجع إلى ما روى عن ثورة الأتراك فى عصر المستنصر أثناء المجاعة العامة بمصر يرى مبلغ ما كان فى دور الفاطميين من بذخ وترف يقصر عنهما الوصف ، فقد هجم الأتراك فى ثورتهم على قصر المستنصر ونهبوا ما فيه من مجاميع التحف والطُرف وباعوه بأبخس الأثمان ، فمن ذلك سبعة من الأحجار الكريمة قُوِّمت بثمانين ألف دينار وصندوق من الجوهر قوم بثلاثمائة ألف دينار ، وأربع عشرة كيلة من

(٣) سفر نامه ص ٦٤ .

(١) سفر نامه ص ٦٢ .

(٢) سفر نامه ص ٥٢ .

الجواهر ، وكثير من أواني الذهب والفضة ، وأربعمائة صندوق من القطع الذهبية ، وحصيرة منسوجة بالذهب زنتها ثمانية عشر رطلا وشطرنج رقعته من الحرير ، وقطعة من الذهب والفضة والعاج والأبنوس المحلى بالأحجار الكريمة ، وطاووس من الذهب رُصع بالجواهر وكانت عيناه ياقوتتين وريشه من الزجاج المموه بالذهب ، وديك من الذهب مرصع باللؤلؤ ، ومنضدة قوائمها من العقيق . . . ومضرب للخليفة الظاهر كان منسوجاً بالذهب ، ومضرب آخر للوزير اليازورى كلفه ثلاثين ألف دينار ، إذ اشتغل في صنعه مائة وخمسون فناً مدة تسع سنوات ، وما لا يحصى من الطيب والعطور والثياب^(١) . وبجانب ذلك نجد المقرئ يقول : إن بنتاً للمعز تركت بعد موتها ألف ألف دينار وسبعمائة ألف^(٢) ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة : إن ابنة للحاكم تركت نيفاً وثمانين زيراً صينياً مملوءة مسكاً ، ووجد لها جوهر نفيس من جملته قطعة ياقوت زنتها عشرة مثاقيل ، وكان إقطاعها في السنة خمسين ألف دينار^(٣) . وإذا تركنا قصر الخلفاء إلى الوزراء وجدنا ابن منجب يقول : إن إقطاع يعقوب ابن كلثوم أول وزراءهم كان مائة ألف دينار في العام ، وقد خلف بعد موته من الجواهر ما قيمته أربعمائة ألف دينار ومن البز (الثياب والسلاح) ما قيمته خمسمائة ألف دينار^(٤) ، وقد ترك الأفضل بن بدر الجمالي الذي قتله الخليفة الأمر ستمائة ألف ألف دينار عيناً ومائتين وخمسين إردباً دراهم نقد مصر وخمسة وسبعين ألف ثوب أطلس^(٥) . وهذه كلها صور تشبه أن تكون أقاصيص ، ولذلك اتهمها بعض الباحثين ، ولكن اتهامه لا دليل عليه ، فقد أجمع المؤرخون على صدقها وتوثيقها .

ونحن إنما سقنا هذا الوصف الطويل لثراء الفاطميين لتنفيذ منه إلى أنهم أوتوا مادة كفيلاً بإحداث نهضة واسعة في مصر سواء في عقلها أو في أدبها وفنها .

(١) خطط المقرئ ٤١٥/١ وما بعدها . (٤) الإشارة إلى من نال الوزارة لابن منجب

ص ٢٣ .

(٢) الخطط ٤١٥/١ .

(٣) النجوم الزاهرة ١٩٢/٤ . (٥) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٢٢/١ .

أما من حيث العقل وما يتصل به من الحركات العلمية ، فإن مصر شهدت في العصر الفاطمي نهضة علمية واسعة ، إذ شجع الفاطميون على الدراسة والثقافة ، وأكبر الدلالة على ذلك أنهم عملوا على تأسيس أكبر جامعة في الشرق ، وهي جامعة الأزهر ، ذلك المسجد الذي بناه جوهر الصقلي ، سماه بالأزهر تيمناً باسم فاطمة الزهراء ، ويرجع الفضل في تحويل هذا المسجد إلى دار كبيرة للدرس والتثقيف إلى وزير الفاطميين الأول يعقوب بن كلس ، فهو الذي حوله إلى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية والمدنية^(١) ، وكان بيته يعتبر نادياً (صالوناً) كبيراً في عصره ، فقد «رتب لنفسه مجلساً في كل ليلة جمعة يقرأ فيه مصنفاته على الناس ويحضره القضاء والفقهاء والقراء والنحاة . . وأصحاب الحديث ، فإذا فرغ من مجلسه قام الشعراء ينشدونه المدائح ، وكان في داره قوم يكتبون القرآن الكريم ، وآخرون يكتبون كتب الحديث والفقه والأدب حتى الطب»^(٢) ، وتبع الوزراء يعقوب بن كلس يعنون بتشجيع الحركة العلمية . وبنى الحاكم داراً عظيمة للكتب سماها دار العلم «وحمل إليها الكتب من خزائن القصور المعمورة ، ودخل سائر الناس إليها يقرءون وينسخون، وأقيم لها خزانون وبوابون ورُتب فيها قوم يدرسون للناس العلوم»^(٣) . ولعل من الطريف أن الفاطميين — مع أنهم كانوا مقيدين بنحلة خاصة فيها تحجر عقلي واسع — كانوا في الوقت نفسه يدعون لدراسة الفلسفة والتعمق فيها حتى ليقول المقرئزي : «إن من جملة المعرفة عندهم أن الفلاسفة أنبياء حكماء الخاصة»^(٤) . ولعل سبب دعوتهم إلى التفلسف أنهم كانوا يؤولون الديانات والشرائع تأويلاً يؤدي إلى تبديلها ، فاحتاجوا إلى اللسان الجدل المزود بالفلسفة حتى يُحسن ذلك . ومهما يكن فإن مصر ظفرت في العصر الفاطمي بنهضة علمية واسعة ، ولعل مما يدل على ذلك ما رواه المقدسي الذي زارها في أواخر

(٣) خطط المقرئزي ١/٤٥٨ .

(٤) خطط المقرئزي ١/٣٩٥ .

(١) Margoliouth, Cairo, Jerusalem and

Damascus, p. 40.

(٢) وفيات الأعيان ٢/٣٣٤ .

القرن الرابع للهجرة من أنه رأى في المسجد الجامع بها مائة مجلس وعشرة^(١) ويقول ناصر خسرو : إن من رآهم في مسجد الفسطاط لا يقلون في أى وقت عن خمسة آلاف من طلاب العلم والغرباء والكتّاب الذين يحررون الصكوك والعقود^(٢).

وهذه النهضة العلمية الواسعة كان يؤازرها نهضة أدبية واسعة أيضاً، فقد كان الفاطميون يرون من الضروري لدعوتهم أن يكون حولهم مجموعة نفيسة من الشعراء والكتّاب تنافح عن مذهبهم ، وقد أتوا من المغرب وفي ركبهم ابن هاني الأندلسي يريدون أن يفخروا به ويشعروا على المشرق كما قال المعز أول خلفائهم بمصر^(٣) ، وهو فخر لم يقفوا به عند ابن هاني ، فقد عرفوا كيف يذيعون في مصر نشاطاً واسعاً في الشعر وصنّعه بفضل جوائزهم ومكافآتهم ، وقد خصص العماد الأصبهاني مجلداً كبيراً في خريدته وصف فيه آثار الشعراء الفاطميين وما كان من نماذجهم . وإليّاء الشعراء وجدت طوائف من الكتّاب الممتازين استخدمهم الفاطميون في دواوينهم ، وعنى الفاطميون بديوان الرسائل خاصة وسموه ديوان الإنشاء^(٤) ، وتكثر الإشارة في الكتب التاريخية عن كتبوا في هذا الديوان . وهناك نص طويل تتناقله هذه الكتب ، يصف تسلسل رؤساء الكتاب في ديوان الإنشاء الفاطمي ، نجده في صبح الأعشى وفي النجوم الزاهرة وحسن المحاضرة ، وجاء في الكتاب الأول على هذا النحو : « لما ولي الفاطميون الديار المصرية صرفوا مزيد عنايتهم للديوان الإنشاء وكتبابه ، فارتفع بهم قدره ، وشاع في الآفاق ذكره ، وولى ديوان الإنشاء عنهم جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم ، ما بين مسلم وذمي ، فكتب للعزیز بالله ابن المعز أبو المنصور ابن نسطوروس النصراني ، ثم كتب بعده لابنه الحاكم ومات في أيامه فكتب للحاكم القاضي أبو الطاهر النهري ، ثم كتب بعده لابنه الظاهر ، وكتب للمستنصر القاضي ولي الدين بن خيران

(١) أحسن التقاسيم (طبع أوروبا) ص ٢٠٥ (٤) انظر مفاتيح العلوم للخوارزمي (طبع فان

(٢) سفرنامه ص ٥٩ . فلوّتن ص ٧٨ وكذلك كتاب تاريخ الوزراء

(٣) وفيات الأعيان ٥/٢ . للهلل بن المحسن ص ١٥١ .

ثم ولى الدولة موسى بن الحسن قبل انتقاله إلى الوزارة ، وأبو سعيد العميدى ،
وكتب للأمر والحافظ الشيخ الأجلّ أبو الحسن على بن أبي أسامة الحلبي
إلى أن توفي سنة اثنتين وعشرين وخمسة فكتب بعده ولده الأجلّ أبو المكارم
إلى أن توفي في أيام الحافظ ، وكان يكتب بين يديهما الشيخ الأمين تاج الرئاسة
أبو القاسم على بن سليمان بن منجب المعروف بابن الصيرفى ، والقاضى كافى
الكفاة محمود بن القاضى الموفق أسعد بن قادوس وابن أبي الدم اليهودى ، ثم
كتب بعد الشيخ أبي المكارم بن أبي أسامة المتقدم ذكره القاضى الموفق بن
الخلال أيام الحافظ وإلى آخر أيام العاضد ، وبه تخرج القاضى الفاضل
البيّسانى ، ثم أشرك العاضد مع الموفق ابن الخلال فى ديوان الإنشاء القاضى
جلال الملك محموداً الأنصارى (وهو ابن قادوس السابق) ثم كتب القاضى
الفاضل بين يدى الموفق بن الخلال قرب وفاته فى سنة ست وستين وخمسة فى وزارة
الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكتب من إنشائه عدة سجلات
ومكاتبات عن العاضد آخر خلفائهم»^(١) وهذا النص الطويل له طرافته من
حيث إنه يذكر أن الفاطميين لم يفرقوا بين مسلم وذمى فى وظائف ديوان الإنشاء ،
وما من ريب فى أن ذلك يدل على أنهم كانوا يطلبون لهذا الديوان من تفوّق
فى تحبير الكلام وصوغه دون تفريق بين من هو من دينهم ومن هو من غير
دينهم ، ومن هو من نخلتهم ومن هو من غير نخلتهم ، فالبلغ التام يتولى
هذا الديوان بغض النظر عن دينه ومذهبه ، فالبلاغة هى مقياسه وهى موضع
تقديمه ، ولعل مما يدل على مدى تقدير الفاطميين للكاتب الممتاز فى تلك العهود
ما يرويه ياقوت عنهم من أنهم جعلوا راتب صاحب ديوان الإنشاء ثلاثة آلاف
دينار فى الشهر غير رسوم يتناولها عن السجلات والعهود وكتب التقليدات^(٢) ،
وبينما يروى ناصر خسرو أن راتب قاضى القضاة كان أثنى دينار فقط^(٣) .

على أنه ينبغى أن نلاحظ أن النص الطويل السابق لكتاب دواوين الإنشاء

(٢) معجم الأدباء ٥/٤ .

(٣) سفرنامه ص ٦٥ .

(١) انظر صبح الأعشى ٩٦/١ والنجوم

الزاهرة ٣٣٧/٧ وحسن المحاضرة ١٤٦/٢ .

في العصر الفاطمي إنما عرض لرؤسائهم فقط ، ومن يرجع إلى كتب التراجم ليجت هؤلاء الرؤساء يجدها لا تهتم بهم في الغالب ، وخاصة بالمقدمين منهم ، وكتب القلقشندي بتفصيل وإسهاب عن دواوين الإنشاء في مصر ومع ذلك لم يعرف تعريفاً واضحاً بهؤلاء الكتاب ، وأيضاً فإنه لم يُعَنَّ بحكاية آثارهم إذا نحن استثنينا قطعاً منشورة فيه عن ابن الصيرفي وابن قادوس والموفق ابن الخلال^(١) ، ومع ذلك فإن ما رواه عن هؤلاء الثلاثة لا يفسر فهم تفسيراً كاملاً ، وهل نستطيع أن نحكم برسائل عارضة على فن كاتب إن لم تكن تلك الرسائل من أمهات رسائله ، ويتصل بذلك أن هؤلاء الثلاثة جميعاً إنما كانوا في أواخر العصر الفاطمي ، فما شأن سابقهم ؟ وأى آثار تركوها ؟ والحق أن المؤرخين خاصمو كتاب الفاطميين ولم يصفوهم وصفاً واضحاً ، بسبب ما كانت عليه دولتهم من تشيع ، وكان ينبغي أن يفصل هؤلاء المؤرخون بين بغضهم للفاطميين وتشيعهم ، وبين تقديرهم لآثار من نشأوا في ظلال دواوينهم ، وإن الإنسان ليعجب حقاً إذ يرى نهضة الكتابة في العصر الفاطمي لا تكاد تسين إلا من خلال السطور ، ومن أجل ذلك لم يتبين مؤرخو الأدب مدى ما كان في هذا العصر من حركة أدبية مزدهرة ! وإن من يقرأ في معجم الأدباء لياقوت يجده يذكر أن ابن خيران المتوفى عام ٤٣٢ هـ أرسل بمجموع رسائله إلى بغداد ليعرض على الشريف المرتضى كي يودعه في دار العلم هناك^(٢) . ويذكر عن العميدى الذى رأس ديوان الإنشاء بعد ابن خيران أن له كتاباً في تنقيح البلاغة يقع في عشر مجلدات ، وأن له كتاباً يسمى الإرشاد إلى حل المنظوم والهداية إلى نظم المنشور ، وكتاباً آخر يسمى انتزاعات القرآن ، وإن في هذين الكتابين ما يدل على ميل العميدى إلى نثر الشعر في رسائله واقتباسه الكثير من القرآن الكريم ، وهما صفتان استمرتتا في النثر المصرى من بعده ، روى له ياقوت

٣١٨/١٠ .

(٢) معجم الأدباء ٥/٤ .

(١) انظر في رسائل ابن الصيرفي وابن قادوس

صبح الأعشى ٣٢٤/٨ وما بعدها وانظر في رسائل

ابن الخلال صبح الأعشى ٣١٠/١٠ وكذلك

شعراً واضحاً فيه أثر الجناس^(١)، ولسنا ندري هل كان يستخدمه في نثره أولم يكن يستخدمه، لهذه السدود التي أقامها المؤرخون بيننا وبين آثار العصر الفاطمي، وأيضاً ليس لدينا نصوص واضحة عن ولوا الديوان بعده في عصر المستنصر، فقد توفي العميدى عام ٤٣٣ هـ وخلفه أبو الطاهر النهركى، وليس تحت أيدينا له رسائل نتعرف منها على فنه، إنما الذى تحت أيدينا حقاً هو مجموعة من رسائل كاتب آخر لعهد المستنصر، ولم يكن من رؤساء ديوان الإنشاء، ولكنه كان من كتّابه وهو ابن أبى الشخباء المتوفى عام ٤٨٢ هـ وربما كان أهم كاتب فاطمى احتفظت لنا المصادر بصورة واضحة من عمله، ونستمر بعد ابن أبى الشخباء فنلتقى بابن الصيرفى الذى خدم فى الديوان من عام ٤٨٥ هـ إلى عام ٥٣١ هـ، ويقول ياقوت: إن له رسائل تزيد على أربع مجلدات، ولكن هذه المجلدات فقدت، وما بقى من نثره لا يصوره تصويراً واضحاً، وكذلك الشأن فى ابن قادوس الذى خدم من بعده فى ديوان الإنشاء على الرغم من أن القاضى الفاضل كان يسميه صاحب البلاغتين، ولعل ما رواه صبح الأعشى عن الموفق بن الخلال يفصح بعض الشيء عن فنه، ففى رسالة له تصنع واضح لاصطلاحات النحو، إذ يقول فى بعض جوانبها^(٢):

« وراقب الله فيما ألقاه إليك، فقد فوّض إليك مقاليد البَسْطِ والقبض، والرفع والخفض، والولاية والعزل، والقطع والوصل، والتولية والتصرف، والصرف، والإمضاء والوقف، والغض والتنبيه، والإخمال والتنويه، والإعزاز والإذلال، والإساة والإجمال، والإبداء والإعادة، والنقص والزيادة، والإنعام والإرغام، وكل ما تحدثه تصارييف الأيام ».

وإن مما لاشك فيه أن كتابة الرسائل باغت فى العصر الفاطمى مبلغاً عظيماً من الرقى والاكتمال، بدت فيها منذ أوائل هذا العصر نزعة إلى السجع، فإن من يرجع إلى الكتاب الذى كتبه المعز لأحد قواد القرامطة - وهو كتاب

(١) انظر ترجمة العميدى فى معجم الأدباء (٢) صبح الأعشى ١٠/٣١٦.

طويل - يجد أكثره بُنى على السجع^(١) ، وقد روى صاحب صبح الأعشى عن العزيز نزار كتاباً فيه سجع كثير^(٢) . وإذا تركنا القرن الرابع إلى القرن الخامس وجدنا صاحب النجوم الزاهرة يروى كتاباً صدر عن الخلافة الفاطمية ، بُنى كله على السجع مع أنه طويل^(٣) . ونستمر حتى نلتقى بابن الشخباء ثم ابن الصيرفي ثم ابن قادوس والموفق بن الخلال ، وكل هؤلاء بُنيت كتابتهم على السجع والتصنع فيه ضرورياً من التصنع ، وربما كان ابن الشخباء كاتب عصر المستنصر خير من يعبر عن ازدهار النهضة الفنية للنثر الفاطمي ، فقد بقيت لنا من أعماله طائفة صالحة تفسر طابع فنه ، بل طابع عصره في الكتابة ، ولذلك سنقف عنده وقفة قصيرة .

ابن أبي الشخباء :

هو الحسن بن عبد الصمد بن أبي الشَّخْبَاء العَسْقَلَانِي « من البلغاء الأفراد ، وأهبر نجوم تلك البلاد ، طلوعاً من ثنانيا الأدب ، واجتناء نخبايا لسان العرب ، فقد كاشف حقائقها ، واستخرج دقائقها ، وأحرز مسبقها وسابقتها ، وكانت وفاته - رحمه الله - مقتولا بخزانة البنود - وهي سجن بمصر - سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة »^(٤) ، ويقول ياقوت : كان ابن الشخباء « يلقب بالحجيد ذى الفضيلتين (الشعر والنثر) ، أحد البلغاء ، الفحصاء ، الشعراء ، له رسائل مدونة مشهورة ، قيل إن القاضي الفاضل عبد الرحيم البيسانى منها استمد ، وبها اعتد . . . كتب في ديوان الرسائل للمستنصر صاحب مصر ، لأن في رسائله جوابات إلى البساسيرى إلا أن أكثر رسائله إخوانيات وما كتبه عن نفسه إلى أصدقائه ووزراء أمراء زمانه »^(٥) ، وذكره العماد الأصهباني في الخريدة فقال : « الحجيد مجيد كمنعته قادر على ابتداع الكلام

(١) الاتعاظ للمقريزى ١٣٣ - ١٤٣ .
 (٢) صبح الأعشى ٤٣٤/٦ .
 (٣) النجوم الزاهرة ٢٤٩/٤ .
 (٤) الذخيرة : القسم الرابع من نسخة
 فوتوغرافية بمكتبة جامعة القاهرة ورقة ١٨٣ .
 (٥) معجم الأدباء (طبع مصر) ١٥٢/٩ .

وَنَحْتُهُ، له الخطب البديعة ، والمُلَحُّ الصَّنِيعَةُ «^(١)» ، ويقول عنه ابن خلكان :
« الشيخ المجيد أبو علي الحسين بن عبد الصمد بن الشخباء العسقلاني ، صاحب
الخطب المشهورة والرسائل المحبَّرة ، كان من فرسان النثر ، وله فيه اليد الطولى ،
ويقال : إن القاضي الفاضل - رحمه الله - كان جُلُّ اعتماده على حفظ كلامه
وأنه كان يستحضر أكثره »^(٢) . وواضح من هذه النصوص أن من كتبوا
عن ابن أبي الشخباء أشادوا وبلاغته ، كما أشاروا إلى أن القاضي الفاضل كان
يحتذى على أمثلته ، وينهل من معين صياغته ، ولو بقيت رسائله إلى عصرنا
لأمكن تتبع هذا الحكم ، وبيان الصلة بين الأدبيين الكبيرين : أديب العصر
الفاطمي وأديب العصر الأيوبي ، ولكن رسائله فقدت ، ومع ذلك بقيت
منها بقية في الذخيرة لابن بسام ومعجم الأدباء لياقوت ، وهي حقاً تؤكد الصلة
بين عملي الرجلين ، وانظر إلى ابن الشخباء يقول من رسالة يهني فيها بهزيمة أُنسَز
ابن أَوْق الغزّي الذي خرج في الشام وقد كتب بها سنة تسع وستين وأربعمائة^(٣) :
« قد ارتفع الخلاف بين الكافة أن الله ذَخَرَ للدولة الفاطمية - ثَبَّتَ الله
أركانها - من الحضرة العلية المنصورة الجيوشية - خَلَّدَ الله سلطانها - من
حمى سوادها ، ونَصَرَ أعلامها ، وضمَّ نَشْرُها ، وحفظ سريرها ومنبرها ، بعد
أن كان الأعداء - الذين ارتضعوا درّ إنعامها ، وتوسَّموا بشرف أيامها ، فطردت
يدُ الاصطناع إملاقهم ، وأثقلت قلائدُ الإحسان أعناقهم - خفروا ذمم
الولاء ، وكفروا سوايغ الآلاء ، ففجأتهم الحوادث من كل طريق ، ونعَبَ
بهم غراب الشتات والتفريق واستباحتهم يد الشدائد ، وأتى الله بُنْيَانهم من
القواعد ، ولم تزل النفوس منذ طرق « أُنسَز » اللعين هذه البلاد ، وأنجم فيها أنجُمَ
الفساد ، وتعدّى حدود الله وكلماته ، وتعرَّض لمساخطته ونقماته ، عالمة
بأن إملاء الحضرة العلية - مدَّ الله ظلها على الكافة - لم يكن عن استعمال
رُخْصَة في هذه الحال ، ولا سكون إلى عوارض من الإغفال والإهمال ، بل هو

(١) الحريرة : الجزء الخاص بشعراء مصر (٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ١٣٣/١ .

(٣) معجم الأدباء ١٦٤/٩ .

وفلسطين ورقة ١٤ .

أمرٌ رُكِبَ فيه مَتْنُ التدبير ، وجرتْ بمثله المقادير ، واتبَع فيه قوله تعالى :
 (فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ ذِكْرُكَ) ، في حين خدعته المطامع
 المُردية ، إلى الأعمال القاهرة ، مؤملاً انفصام عروة الله المتينة ، وأقول ما توقد
 من شجرة مباركة زيتونة . . . والله المحمودُ على ما منح من هذه النعمة والمسئولُ
 أن يشدَّ ببقاء الحضرة العلية قواعد الإسلام ، ويسمِّ بمحامدها أغفال الأيام ،
 ويستخدم لها السيوف والأقلام ، حتى لا يبقى على وجه الأرض مَفْـحَصٌ
 قطاة إلا وقد دوّخها سنانك خيولها ، ولا مَسْقَطُ نواة إلا وقد ركزت فيه
 صدور رماحها ونُصُولها ، فقد دفعت . . خطباً جسيماً ، واستلحقت من السياسة
 أمراً عقياً ، وأعادت شمل الأمة ملموماً نظيماً ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ،
 وكان فضلُ الله عظيماً .

وأنت ترى من هذه القطعة أن ابن الشخباء يعنى بالتشخيص والتصوير كما
 يعنى بالاقْتِباس من القرآن الكريم . وهذان عنصران أساسيان في فن القاضى
 الفاضل ، وهو كما يعنى بذلك يُعْنَى أيضاً بأن يضمَّ كل لفظة إلى أختها ، وكل
 صورة إلى شاكلتها ، فإذا ذكر مفحص القطاة مثلاً ذكر السنانك والخيول ،
 وإذا ذكر مسقط النواة ركز فيه الرماح والنصول ، وسرى القاضى الفاضل يبالغ
 في استخدام هذا العنصر من مراعاة النظر . وليس ذلك كل ما نجده عند ابن
 الشخباء من عناصر استمد منها القاضى الفاضل ، فهناك عناصر أخرى ،
 منها تصنعه لمصطلحات العلوم كقوله في مطلع رسالة لبعض الوزراء وقد بلغه
 أن شخصاً هجاه عنده : « لو لم تَقْضُ الشريعة - أطال الله بقاء سيدنا - برفض
 المقالة ، عارية من البرهان والدلالة ، لكان ذلك في الغريزة راتباً ، وفي حكم
 العقول واجباً » ^(١) ، فقد تصنَّع هنا لذكر المقالة والبرهان والواجب وحكم العقول
 والدلالة . وكل ذلك يسوقه في خفة تجعلنا لا نلاحظه ومن أمثلة ذلك أيضاً
 أنه استهل رسالة للأفضل بن بئر الجمالى بقوله : « خلَّد الله أيام الحضرة
 الأفضلية ما فضلت الأسماء حروفاً ، وتقدَّمت واو العطف معطوفاً ، ولزمت

الأفعالُ اشتقاقاً وتصريفاً^(١)، وكما كان ابن الشخباء يتصنع لمصطلحات العلوم كذلك كان يتصنع للإتيان بجناس متكلف شبيه بجناسات أصحاب التصنع كقوله من رسالة إلى من يسمى صارم الدولة بن معروف^(٢) :

« جاءته مناقبُ الحضرة العلية فتمَّ بها مناقبُ تميم ، وحكم لآل القعقاع أمر حكيم ، ونُصر لواء بني نصر ، وأبدرت أهلة بني بدر ، ونبت منه هوازن ، وظهرت مزينة ومازن ، وضحك لعبس عابس الدهر ، وراحت الكملةُ كاملة الفخر ، وزادت مغايط الأرد ، وقشرت قشِير عن بلوغ المجد ، وأغمدت سيوف بني غامد ، وصارت همدان كالجمر الهامد ، ومذحج كالعنس مذلة ، وحمير بالراية الحمراء متظلة ، وطوت طيئ عملها استخذاء وغطت جفنة جفونها استيحاء ، فحرس الله محاسن الحضرة السامية التي جباهُ الأنام بها موسومة ، وتم نعمها التي هي بينها وبين الناس مقسومة » .

أرأيت إلى هذه المبالغة في استخدام الجناس والاحتيال عليه بذكر هذه القبائل الكثيرة ؟ وأكبر الظن أن القارئ قد أحسَّ هنا روح أصحاب التصنع ، ولكن لا تنظن أن ابن الشخباء كان يعمم ذلك في رسائله ، بل هو يَظْهَرُ فيها من حين إلى حين ، وهذه سُنَّة الكتاب في الأقاليم المختلفة ، فهم لا يستمرون عند مذهب معين من مذاهب المشرق ، بل هم دائماً يتقلدون بين المذاهب والأذواق المختلفة ، فبينما ترى الكاتب يكتب رسالة من ذوق أصحاب التصنع ، إذا هو يكتب أخرى من ذوق أصحاب التصنيع ، أو من ذوق أصحاب الصنعة . وهذا هو معنى ما نذهب إليه من أن الأقاليم العربية لم تستحدث مذهباً جديداً في تاريخ الأدب العربي لا نثره ولا شعره ، فقد وقفت عند صورة المذاهب الثلاثة من الصنعة والتصنيع والتصنع ، وكل ما أضافته إلى هذه المذاهب هو التنقل بينها في غير نظام . وهذه الظاهرة كما تتصل بابن الشخباء تتصل بجميع كتاب العصر الفاطمي المتأخر ، فليس بينهم من استطاع أن يبتكر مذهباً جديداً أو طريقة جديدة ، إنما دائماً الجُمود عند المذاهب المسبوقه والطرق الموروثة .

ومهما يكن فقد كان ابن الشخباء من كبار الكتاب في العصر الفاطمي ، وهو من هذه الناحية يعتبر سجلاً طريفاً لتطور الكتابة في هذا العصر ، فإن ما بقي من كتبه ورسائله يدل على خطأ من يذهبون إلى أن القاضي الفاضل هو أول كاتب كبير يظهر في مصر ، ويبالغ بعض مؤرخي الأدب في ذلك ، فينسبون إليه ما يسمى طريقة القاضي الفاضل ، وحقاً إن القاضي الفاضل كان أكبر شخصية ظهرت في الكتابة بعد العصر الفاطمي ، ولكن ينبغي أن لا نبالغ في ذلك مبالغة تؤدينا إلى أن نرمي العصر الفاطمي بالتأخر في الكتابة ، فإن القاضي الفاضل نفسه تخرج في هذا العصر ، ولو لم يأت أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين إلى مصر لكان القاضي الفاضل من كتاب العصر الفاطمي ، بل لقد تمّ تكوّن القاضي الفاضل في هذا العصر نفسه ، وكان من كتّاب دواوينه ، بل لقد كان يقلد تقليداً شديداً آثار كتّابه من أمثال ابن الشخباء وغيره ، وسنرى أنه لا يكاد يأتي بمجديد في استخدام العناصر الفنية بالقياس إلى صناعة ابن الشخباء ، إنما كل ما هنالك أنه اتسع بها ، ووسّع طاقتها ، واستطاع أن ينفذ بها إلى كل ما أراد من تجويد وتحجير .

٥

الأيوبيون ونهضة النثر في عصرهم

لا نكاد نتقدم في النصف الثاني من القرن السادس الهجري حتى يقوم الخلاف العنيف بين شاور وضرغام وزيرى العاضد، وسرعان ما تتأجج نيران الحروب بينهما ، فيستعين شاور بنور الدين صاحب حلب ، وهو أكبر شخصية حينئذ كانت تُعنى بحرب الصليبيين ودفع موجاتهم إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وحدث أن ضرغاماً استعان بهم ضد خصمه ، فخشى نور الدين أن يستولى الصليبيون على مصر وأن يندفعوا منها إلى الاستيلاء على العالم العربي ، لذلك أرسل إلى شاور بنجدة كبيرة ، على رأسها أحد قواده وهو أسد الدين

شريكوه ، وجاء أسد الدين إلى مصر ومعه ابن أخيه صلاح الدين فهزم الصليبيين وردَّ الأمر إلى شاور إلا أنه قُتل فحلَّ محله أسد الدين في وزارة العاضد ، ولكن الموت عاجله ، حينئذ نرى صلاح الدين يتولى الوزارة مكان عمه ، وينسبهم الموقف فالخليفة شيعي ، ووزيره سني ، وهو يتبعه من جهة كما يتبع نور الدين من جهة أخرى . ويُرسَل نور الدين إلى صلاح الدين أن ينقل الخطبة في المسجد الجامع إلى الخليفة العباسي ، ويقضى على نظام الحكم الشيعي ، فيصدع صلاح الدين بالأمر ، وينفذ مشيئة نور الدين . ثم تخدم الظروف صلاح الدين ، فإذا نور الدين يتوفَّى بعد قليل ، فيستقل هو بمصر ، بل نراه يذهب إلى الشام فيستولى على ممتلكات نور الدين حتى يوحد العالم الإسلامي أمام الصليبيين ، ويستمر فيستولى على أجزاء من الموصل ، كما يستولى على بلاد العرب ، ويؤسس في مصر دولة عظيمة هي الدولة الأيوبية التي كان أصحابها يلقبون أنفسهم بالملوك .

كانت الدولة الأيوبية دولة سُنِّيَّة ، لذلك أخذت تناهض التشيع الفاطمي ومظاهره في مصر ، واتخذت لذلك طريقة منظمة هي إنشاء المدارس والمعاهد السُنَّية ، وقد بدأ صلاح الدين هذه الحركة ، فأنشأ طائفة من المدارس كي يدعم الدعوة السنية ، يقول ابن خلكان : « لما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية لم يكن بها شيء من المدايس ، فإن الدولة المصرية كان مذهبها مذهب الإمامية ، فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء ، فعمل في القرافة الصغرى المدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعي رضى الله عنه . . . وبني مدرسة بالقاهرة في جوار المشهد المنسوب إلى الحسين بن علي رضى الله عنهما ، وجعل عليها وقفاً كبيراً ، وجعل دار سعيد السعداء خادم الفاطميين خانقاه ، ووقف عليها وقفاً طويلاً ، وجعل دار عباس المذكور في ترجمة الظاهر العُبَيْدِي والعادل ابن السلاّ مدرسة للحنفية ، وعليها وقف جيد كبير أيضاً ، والمدرسة التي بمصر المعروفة بزين التجار وقفاً على الشافعية ، وقفها جيد أيضاً » ^(١) . وكما عُنِيَ صلاح الدين بمحاربة التشيع في مصر عُنِيَ أيضاً بمحاربة التفلسف عناية

شديدة ، يقول القاضي ابن شداد فى سيرته : « كان مبغضاً لكاتب الفلاسفة وأرباب المنطق ومن يعاند الشريعة ، ولما بلغه عن السهروردى ما بلغه أمر ولده الملك الظاهر بقتله »^(١) وأكبر الظن أن لصلاح الدين يداً فى ضعف الحركة الفلسفية بمصر منذ عصره ، فقد تبعه العلماء يعنون بالدراسات الدينية والتاريخية واللغوية مهملين للدراسات الفلسفية ، واستمر ذلك طوال العصر الأيوبرى وعصر المماليك أيضاً ، يقول بهاء الدين السبكى وهو من علماء عصر المماليك : « إن أهل مصر صرفوا همهم إلى علوم اللغة والنحو والفقه والحديث وتفسير القرآن بخلاف أهل المشرق الذين استوفوا همهم الشائخة فى تحصيل العلوم العقلية والمنطق »^(٢) . ومعنى ذلك أن مصر استمرت مطبوعة بالطابع الذى أرادته لها صلاح الدين حتى عصر المماليك وبعد عصرهم أيضاً ، وكأنما إعجاب المصريين بصلاح الدين وحروبه الصليبية جعلهم يقتدون بسيرته فى حياته العقلية .

ومن يرجع إلى سيرة ملوك الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين يجدهم يهتمون اهتماماً بالغاً بالدراسات السنية وخاصة دراسة الحديث ، وما يروى بصدد ذلك أن ابنه العزيز الذى خلفه على مصر سمع الحديث من الحافظ السلفى والفقيه أبى طاهر بن عوف الزهرى وأبى محمد بن برى النحوى وغيرهم^(٣) ، وكان عمه العادل الذى ولى مصر بعده معنياً بأرباب السنة ، صنف له فخر الدين الرازى كتاب تأسيس التقديس وذكر اسمه فى خطبته وسيّره إليه من بلاد خراسان^(٤) . وكان الكامل ابنه يحب العلماء والأماثل ويلقى عليهم المشكلات^(٥) ، وكان محباً للحديث وأهله ، حريصاً على حفظه ونقله ، وللعلم عنده شرف ، خرج له أبو القاسم بن الصفراوى أربعين حديثاً ، وسمعتها جماعة ، ويقولون : إن ابن برى وغيره أجازوا له رواية الحديث^(٦) ، وقد بنى مدرسة عرفت باسم دار الحديث الكاملية ، وهى ثانى دار تحملت للحديث ، أما أول

(٤) النجوم الزاهرة ١٦٣/٦ .

(٥) نفس المصدر ٢٢٧/٦ .

(٦) النجوم الزاهرة ٢٢٨/٦ .

(١) النجوم الزاهرة ٩/٦ .

(٢) عروس الأفراح للسبكى ٥/١ .

(٣) النجوم الزاهرة ١٢٧/٦ .

دار فهي الدار التي أسسها نور الدين بدمشق^(١) ، ونستمر حتى نلتقى بالملك الصالح نجم الدين أيوب فنراه يبنى المدرسة الصلاحية، وكانت تدرّس فيها المذاهب الأربعة^(٢) ، وما من ريب في أن ذلك كله يدل عن أن الأيوبيين بعثوا في مصر اهتماماً واسعاً بالدراسات الدينية .

ولإذ تركنا الدراسات الدينية إلى الكتابة الأدبية ، وجدنا الأيوبيين يحنون في عصرهم ثمار النهضة الفنية التي رأيناها في العصر الفاطمي ، وقد ظفروا فيما ظفروا من هذه الثمار بالقاضي الفاضل أحد كتّاب دواوين العصر الفاطمي ، وقربه منه صلاح الدين واتخذوه وزيره وكتابه ، وكان أبلغ كتّاب عصره ، فدفع العصر الأيوبي كله من ورائه في دوائر نماذجه ، وما أتاحه لهذه النماذج من صفات أدبية ، وأعانت في ذلك شخصية كبيرة أتت من المشرق ، هي شخصية عماد الدين الأصبهاني الذي نشأ بأصبهان ثم قدم بغداد وتخرّج في المدرسة النظامية ، ولما تخرج فيها خدم الوزير يحيى بن هبيرة ببغداد ، ثم انتقل إلى دمشق وسلطانها يومئذ نور الدين ، فألحقه بديوان الإنشاء ، وتعرّف أثناء ذلك بصلاح الدين وقامت بينهما مودة وثيقة ، ولما أنشأ نور الدين المدرسة النورية في دمشق أسندها إليه ، واستمر في هذا العمل حتى توفى نور الدين ، فانتقل إلى صلاح الدين وتعلق به ومدحه كثيراً كما مدح القاضي الفاضل ، رجاء أن ينظمه في سلك سلطانه ، وعمل القاضي الفاضل على ذلك فقربه من صلاح الدين ، وأصبح الكاتب الثاني في الدولة الصلاحية بعد القاضي الفاضل . وكان العماد أديباً كبيراً ، له ديوان شعر ورسائل كثيرة ، كما أن له الكتاب المشهور: «الفتيح القُسيّ في الفتح القُدُسيّ» ، يصف فيه فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين ، وأيضاً له الخريدة . وهو ينهج في كتاباته نهج أصحاب التصنع في عصره ، وقد كان القاضي الفاضل يذهب غالباً هذا المذهب مستنّاً في ذلك بكتّاب العصر الفاطمي وعلى رأسهم ابن الشخاء ، فنألف الكاتبان فتسياً كما نألفا اجتماعياً ، ولعل مما يثبت عناية الشيخين بالتصنع ما يروى من أن

(١) النجوم الزاهرة ٦/ ٢٢٩ .

(٢) حسن المحاضرة ٢/ ١٥٦ .

العماد لقي القاضي الفاضل يوماً وهو راكب على فرس فقال له : سرّ فلا كِباً بك الفرس ، فقال له القاضي الفاضل تَوّاً : دام عُملاً العماد^(١) وأكبر الظن أن القارئ لا يزال يذكر ما مر بنا عند الحريريّ مما كان يسميه « ما لا يستحيل بالانعكاس » وكان الحريريّ يأتي به ليدل على مقدّته البالغة ، وها نحن الآن في مصر بعد الحريريّ بنحو نصف قرن نقراً في آثار مشاهير الكتّاب ، فإذا هم يتجهون نفس الوجهة من الإطراف بغرائب العبارات ، وهو إطراف لا يأتي من المعنى ، وإنما يأتي من الشكل الخارجي ، إذ يستطيع الأديب أن يستخدم عُقْدة من عقد التعبير ، وهو غالباً لا يأتي بعقد جديدة ، وإنما يستخدم بعض العقد السابقة ، فإذا القاضي والعماد جميعاً يعمدان في جملتين إلى استخدام « ما لا يستحيل بالانعكاس » فهما حتى يدلّان على مقدّتهما وبراعتهما وأنهما يستطيعان أن يأتيا بعبارات تُقَرَأ طَرْداً وعكساً. والغريب أن العماد مع أنه جاء من المشرق موطن التصنع لم يستطع أن يتفوق على القاضي الفاضل الذي تخرج في ديوان الفاطميين ، وهذا نفسه دليل واضح على أن هذا الديوان ارتقت فيه الكتابة في العصر المتأخر رقيّاً لا يقل عن رقيها في المشرق . ومهما يكن فإن القاضي الفاضل كان أستاذ عصره غير منازع ، وشهد له ابن خلكان بذلك ، إذ وازن بين كتبه في فتح بيت المقدس وما كتبه العماد وغيره ، فقال : « إنه رئيس هذا الفن ، وإذا شرع في شيء من هذا الباب لا يستطيع أحد أن يُجاريه ولا يباريه »^(٢) ، ومن أجل ذلك سنقف عنده لنتبين نهضة الكتابة الفنية في العصر الأيوبي وما امتازت به من خصائص أدبية وهي خصائص استمرت تخضع لها الأجيال التالية خضوعاً شديداً .

القاضي الفاضل

هو عبد الرحيم البَيْسَانِي ، ولد في عَسْقلان ، فهو عسقلاني الأصل كابن الشخباء ؛ وولي أبوه قضاة بَيْسَان من قبل الفاطميين فنُسب هو إليها . ولما

(١) معجم الأدباء ١٨/١٩ وفيات الأعيان ٧٥/٢ . (٢) وفيات الأعيان ٣٩٥/٢ .

شب أرسل إلى ديوان الإنشاء في القاهرة ليتخرج فيه ، فحضر إلى مصر في عهد الحافظ ^(١) (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) وتلمذ على أشهر الكتّاب وكان الموفق ابن الخلاّ حينئذ رئيس ديوان الإنشاء ، وكان معه ابن قادوس الأديب المشهور ، فلزمهما ، ويقول الرواة : إنه لما مثل بين يدي الموفق سأله : ماذا أعددت لفن الكتابة ؟ فأجابه : إني أحفظ القرآن الكريم وديوان الحماسة ، فأمره أن يحلّ شعر الحماسة كله ^(٢) ، ثم ما زال به يدرّبه على الكتابة حتى نبغ فيها ، ولكنه لم يستمر مع الموفق ، بل ذهب إلى قاضي الإسكندرية المسمى بابن حديد فكتب عنه كتباً جبرها تحبيراً ممتازاً ، ويقال إن الوزير : العادل ابن رزيك (٥٥٦ - ٥٥٨ هـ) اطلع على بعضها : فأعجب بها ، وطلبه ليسلكه في كتاب ديوانه ، فعاد إلى القاهرة . ومكث في ديوان الإنشاء حتى وفد أسد الدين شيركوه فقربه منه واتخذ كاتبه ، ولما توفي استخدمه صلاح الدين . ويظهر أنه أخلص لهذه الأسرة منذ قدومها ، فإننا نجد صلاح الدين يتخذ وزيره ومشيره كما يتخذ كاتبه ، وروى عنه أنه قال : « والله ما ملكت البلاد بسيفكم ولا برماحكم ، ولكن بقلم القاضي الفاضل » ، ويقول ابن فضل الله العمري : « كان القاضي الفاضل هو الدولة الصلاحية كان كاتبها ووزيرها ، وصاحبها ومشيرها ، والحاكم في كلها ، والمجهّز لبعوثها ، ومع هذا كله كان لا يزال منكداً مُبتلى بضنا قلبه وجسمه ، ومرض همه وسقمه . . . ولهذا كان لا يتكلف مع السلطان سفراً في كل مرة ، وكان العماد ينوب عنه » ^(٣) ، وذكر القاضي نفسه علته في أحد خطاباته فقال : « والمملوك في حال تسطير هذه الخدمة جامع بين مرضى قلب وجسد ، ووجع أطرافٍ وعليل كبد » ^(٤) ، وكما كان القاضي عليلاً كان - على ما يظهر - تزور عنه العين ،

(٢) وفيات الأعيان ٤٠٨/٢ .
 (٣) مسالك الأبصار : نسخة خطية بدار الكتب منقولة عن نسخة فوتوغرافية بها ، الجزء السابع ، ورقة ٦٥٦ .
 (٤) النجوم الزاهرة ١٢٨/٦ .

(١) تختلف الروايات في الخليفة الذي جاء القاضي الفاضل في عصره إلى مصر هل هو الحافظ أو هو ابنه الظافر ، ورجحنا الأول لأنها هي التي تتلاءم مع تاريخ القاضي الفاضل ، انظر ابن خلكان ٤٠٨/٢ .

قال الاسعد بن ممتا : « كان القاضي الفاضل دميم الحلقة ، وكان له حذبة ظاهرة خلف ظهره وكان يسترها بالطيلسان ، حتى لا تظهر للناس »^(١) . وهذا الرجل العليل القبيح بلغ من فن الكتابة وتجويده ما لم يبلغه أحد في عصره ، يقول العماد الأصمباني في حقه : « رب القلم والبيان ، واللسن واللسان ، والقريحة الوقادة والبصيرة النقادة ، والبديهة المعجزة ، والبديعة المطرزة ، والفضل الذي ما تُسمع في الأوائل ، ممن لو عاش في زمانه لتعلق بغُباره ، أو جرى في مضماره ، فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع ، ورسخت بها الصنائع ، يخترع الأفكار ، ويفترع الأبيكار ، ويُططلع الأنوار ، ويبدع الأزهار »^(٢) . ويقول النويري : « إلى القاضي الفاضل انتهت صناعة الإنشاء ووقفت ، وبفضله أقرت أبناء البيان واعترفت ، ومن بحر علمه رويست ذوو الفضائل واغترفت ، وأمام فضله ألفت البلاغة عصاها ، وبين يديه استقرت به نواها ، فهو كاتب الشرق والغرب في زمانه وعصره ، وناشر ألوية الفضل في مصره وغير مصره ، ورافع علم البيان لا بحالة ، والفاضل بغير إطالة »^(٣) . وقد أشاد به وبفنه كل من تعرضوا لترجمته كما أشار كثير منهم — وعلى رأسهم العماد الأصمباني — إلى أنه صاحب طريقة ، أو كما يقول العماد شريعة جديدة ، ولكن ينبغي أن لا ننظر من ذلك أن القاضي الفاضل ابتكر مذهباً جديداً في تاريخ النثر العربي ، إنما كل ما هناك أنه قلّد أصحاب التصنع فأحسن التقليد . ومن المهم أن نعرف أن الكتّاب في الأقاليم المختلفة منذ القرن السادس أخذوا يُغمّرون بذوق التصنع في الكثير الأكثر ، وقلما تركوا هذا الذوق إلى ذوق التصنيع ، وبدأت هذه الموجة في مصر لا بالقاضي الفاضل ولكن بابن الشخفاء الذي عرضنا له في العصر الفاطمي ، والقاضي الفاضل نفسه حين كان يكتب في العصر الفاطمي كان يكتب بهذا الذوق ، وانظر إليه يستهل رسالة كتب بها عن العاضد آخر الخلفاء الفاطميين^(٤) :

(١) بدائع الزهور لابن إلياس (طبع بولاق) ٧٥/١ . (٣) نهاية الأرب (طبع دار الكتب) ١/٨ .

(٢) وفيات الأعيان ٢٨٤/١ . (٤) صبح الأعشى (طبع دار الكتب) ٧٩/٧ .

« كتابنا - أطل الله بقاء المليك - عن مودة ظاهرة الأسباب ، متظاهرة الأنساب ، ضافية جلباب الشباب ، وعوائد عوارف لا يتنكّر معروفها ، ووفود فوائد لا يتصدّع تأليفها ، ومسامي مساعد لا ينقض معروفها ، ولا ينقض مسؤوفها^(١) ، وسعادة بالخلافة التي عَدَقَ^(٢) به أمرها ، وأوضح سرها ، وملأ سرائرها وسريرها ، وأطلع شمسها وقمرها . »

وهذه الصورة من التعبير وما يطوى فيها من تشخيص وجناس وإمعان في هذا الجناس هي الصورة العامة لكتابة القاضي الفاضل ؛ ومن يرجع إلى بقية هذه الرسالة في صبح الأعشى يجد فيها ما اشتهر به من اقتباسه لآي الذكر الحكيم ، كما يجد اهتمامه البالغ بالتنظير ، بحيث لا نغلو إذا قلنا إن فن القاضي الفاضل استوى له نهائياً في العصر الفاطمي . ونحن نعرض على القارئ قطعاً من رسالة تعتبر أشهر ما دَبَّجَه - وهي رسالته عن صلاح الدين إلى الخليفة ببغداد يزف إليه البشرى بفتح بيت المقدس - حتى يطالع على خصائصه الأدبية في أروع أثر أدبي عُنى به وبتدبيجه ، وهو يستهلها على هذا النمط^(٣) :

أدام الله الديوان العزيز النبوي الناصري ، ولا زال مظفر الجدّ بكل جاحد ، غنيّ التوفيق عن رأى كل رائد ، موقوف المساعي على اقتناء مُطلقات المحامد ، مستيقظ النصر والسيف في جفنه راقد ، وارد الجود والسحاب على الأرض غير وارد ، متعدد مساعي الفضل وإن كان لا يُلْقَى إلا بشكر واحد ، ماضى حكم القوم بعزم لا يمضى إلا بنسل غويّ وریش راشد ، ولا زالت غيوث فضله إلى الأولياء أنواء إلى المرباع وأنواراً إلى المساجد ، وبعوث رعبه إلى الأعداء خبيلاً إلى المراقب وخيالاً إلى المراقد .

وأنت ترى القاضي الفاضل في هذه القطعة الصغيرة عُنى - كما عُنى في مستهل الرسالة العاضدية - بألوان البديع وخاصة لون الجناس ، وذهب يطيل في عباراته حتى يحقق ما يريد من جناس وتنظير وتشخيص ، وما من شك في

(٣) صبح الأعشى ٤٩٦/٦ وابن خلكان

. ٣٩٢/٢٠

(١) مسؤوفها : مؤجلها .

(٢) عَدَقَ به : اختص .

أننا نحس في كل ذلك ذوق أصحاب التصنع ، إذ نراه يحاول أن يبرهن أسلوبه على أن يحمل أوسع ما يمكن من جناسات منقوصة وغير منقوصة واستمر في الرسالة فستره يقول عن صلاح الدين وفتح بيت المقدس إنه :

« فاز من بيت المقدس بذكر لا يزال الليل به سميراً ، والنهارُ به بصيراً ، والشرق يهتدى بأنواره ، بل إن أبدى نوراً من ذاته هتف به الغرب بأنّ واره ؛ فإنه نور لا تكنه أغساق السُدُف ، وذكر لا تواريه أوراق الصحف . وكتابُ الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدو الذي تشظّت قناته شفقاً ، وطارت فيرقه فرقاً . . وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة ، وغَضَضَتْ عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة ، ونام جفن سيفه وكانت يقظته ترقيق نُطْفَ الكرى من الجفون ، وجُدَعَتْ أنوف رماحه وطالما كانت شاحخة بالمنى أوراغةً بالمنون ، وأضحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث ، والرب المعبود الواحد وكان عندهم الثالث ، فبيوت الشرك مهلومة ، ونيوب الفكر مهتومة ، وقد ضُربت عليهم الذلة والمسكنة ، وبذل الله مكان السيئة الحسنة ، ونقل بيت عبادته من أصحاب المسأمة إلى أصحاب الميمنة . »

وواضحٌ أن سمات القاضي الفاضل التي رأيناها منذ مطلع الرسالة لا تزال هي نفسها ، فهو يعمم في جميع جوانبها ميله الشديد إلى التشخيص كما يعمم ميله إلى ألوان البديع وخاصة لون الجناس ، وكان ما يزال يستخدمه في جميع أشكاله من تامة وغير تامة ، واستهدفت في أثناء ذلك لأن يُورث بين كلمة « بأنواره » وكلمة « بأنّ واره » وقاده استهدافه لهذا النوع من الجناس إلى أن يستخدم التورية كثيراً في نثره ، وقد نسب القدماء إليه استخدامه هذا اللون لأول مرة في تاريخ أدب مصر الإسلامية^(١) ، ولكن من يقرأ شعر الشريف العقيلي في المغرب^(٢) والخريدة^(٣) يجد أن هذا اللون عُرِف في مصر منذ أوائل القرن

(١) خزائن الأدب للحموي (طبع المطبعة

ص ٢٠٧ ، ٢٤٤ .

الخيرية) ص ٢٤١ .

(٣) الخريدة : قسم شعراء مصر . (طبع

لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٦٣/٢ .

(٢) المغرب لابن سعيّد (طبع جامعة القاهرة)

الخامس ، وكل ما يمكن أن يضاف إلى القاضي الفاضل أنه ربما كان من أوائل من نقلوه من الشعر إلى النثر . ومهما يكن فقد كان القاضي الفاضل يُعنى بأن تضمّ كُتبه عناصر مذهب التصنع وخاصة عنصر الجناس والتشخيص وتضمين الشعر ثم عنصر الاقتباس من آى القرآن الكريم على نحو ما نجد فى القطعة السابقة إذ نظم فى عباراته قوله تعالى : « وضربت عليهم الذلة والمسكنة » ، وكذلك قال : « وبدّل الله مكان السيئة الحسنة » وقال : « من أصحاب المشأمة إلى أصحاب الميمنة » وفى هاتين العبارتين ألفاظ من القرآن الكريم . ومع ذلك فعناصره الفنية التى يستخدمها لم ننبينها كلها حتى الآن ، فهناك عنصر مهم كان يستخدمه فى كتابته وهو عنصر التصنع لمصطلحات العلوم ، واستمر فى الرسالة الآتفة فستره يقول :

« كان يبدّل المذاهب منائر والكنائس مساجد ويؤى بعد أهل الصلّبان أهل القرآن للذب عن دين الله مقاعد ، ويُقرّ عينه وعيون أهل الإسلام أن تعلق النصرُ منه ومن عساكره بجارٍ ومجرور ، وأن ظفر بكل سور ما كان يُخاف زلزاله وزِياله إلى يوم النفّخ فى الصور . »

ولا شك أن القارئ قد لاحظ ما نريد أن نشير إليه ، وهو أن القاضي الفاضل تصنّع هنا لذكر الجار والمجرور وراعى النظير فذكر كلمة « تعلق » وكل ذلك ليستّم ما يدل به على براعته فى فنه ، وهو حقّاً لم يكن يكثر من التصنع لمصطلحات العلوم ، ولكنه يظهر على كل حال فى رسائله ، واستمع إليه يقول من رسالة أخرى (١) :

« سلام الله الأطيب ، وبركاته التى يستدرّها الحُضَر والغُيَّب ، وزكواته التى ترفع أوليائه إلى الدرّج ، ونعمه التى لم تجعل على أهل طاعته فى الدين من حرج ، على مولانا سيد الخلق ، وسادّ الخرق ، ومسدّد أهل الحق ، وواحد الدهر الذى لا يُشنى ، وإليه القلوب تُشنى ، ولا يقبل الله جمعاً لا يكون لولائه

جمع سلامة لا جمع تكسير ، ولا استقبال قبله ممن لا تكون محبته في قلبه تقيم ، واسمه في عمله إلى الله يسير .

وقد بدت هنا رغبة القاضى فى التصنع لمصطلحات النحو بأكثر مما بدت فى رسالة فتح القدس ، فهناك كان يتخفف ، أما هنا فإنه يطيل فى تصنعه لمصطلحات النحو إطالة تجعل الإنسان يلاحظها ، إذ نراه يذكر الواحد والمثنى ثم الجمع ، ولا يكتفى بذلك ، بل يقف ليدكر جمع السلامة وجمع التكسير ، وأكبر الظن أن فن القاضى الفاضل قد اتضح لنا الآن ، فهو لا يعدو فى عناصره الأساسية ما سبق أن رأيناه عند ابن الشخباء . وهذا نفسه هو ما يجعلنا نؤمن بأن القاضى الفاضل لم يأت بطريقة جديدة تخالف الطرق الموروثة ، بل لقد كان يعيش - كغيره من أدباء عصره - فى الإطار الفنى العام للمذاهب المشرق ، وكان يعجب خاصة بمذهب التصنع وما وصل إليه ابن الشخباء مواطنه فى استخدامه ، فذهب يتعلق بطرائقه من مصطلحات العلوم والمصطلحات الأخرى من التشخيص ومراعاة النظير وألوان البديع من طباق وغيره ، وتعلق بالجناس خاصة على سُنَّة أصحاب التصنع فاستخرج منه غرائب كثيرة كقوله فى إحدى رسائله^(١) :

« الحمد لله الذى صدقه وَعَدَه ، وأورثه الأرض وحده ، وجدَّدَ علاه ، وأعلى جَدَّه ، وأسعد نجمه ، وأنجم سعده ، ووعدَه نُجُجَحه ، وأنجح وعدَه ، وأورده وصفه ، وأصنى وِرْدَه . »

وفى هذه القطعة ما يدل على مدى احتفال القاضى الفاضل باستخراج كل ما يمكن من أشكال الجناس الهندسية ، ولعل القارئ يلاحظ أنه تفد عليه الآن صور الجناس المعقدة التى مرت بنا عند الحريرى والحصكى خاصة ، إذ كان يعجب بهذا الضرب من الجناس المقلوب ، ونما هذا الذوق فى الأقاليم المختلفة ، وكان القاضى الفاضل داعيته فى مصر إذ كان ينحو بأسلوبه

جملة نحو أصحاب التصنع ، وليس معنى ذلك أن أسلوبه كان ضعيفاً أو رديئاً فقد كان لديه من البراعة الفنية ما جعله ينهض بصعوبات التصنع دون أن يستشعر الإنسان ما فيها من أثقال ، ولكننا لا نستمر بعده حتى نحس أنها أصبحت أثقالاً غليظة . وقد ذكرنا أنه عُنِيَ في كتابته بالتورية ، وساق صاحب خزانة الأدب من أمثلتها قوله ^(١) :

« في يوم شديد المطر والبرد ، وانخادم في رأس جبل يتلقى الرحمة غَضَّةٌ قبل أن يبتلها الناس ، ويصافح الرياح عاصفة قبل أن تقتسمها الأنفاس ، ويتلقى الرعد بالرعدة ، وإذا السماء انشقت استصحها المملوك بالسَّجْدَةِ .
فقد ورَّى تورية واضحة في كلمتي « وإذا السماء انشقت » و « السجدة » ولكن يظهر أن القاضي لم يكن يكثر من ذلك في رسائله . ونحن لا نستطيع أن نزعم بأن هذا العمل مذهب جديد للقاضي الفاضل ، فهو ليس أكثر من لون من ألوان البديع وجده مستخدماً قبله عند الشعراء الفاطميين فأدخله في نثره ، ومن يدرى ؟ ربما سبق بمن استخدمه قبله من الكتاب في العصر الفاطمي نفسه . ومهما يكن فلإن القاضي الفاضل كان أبلغ كتَّاب العصر الأيوبي ، وقد ظلت المصطلحات التي يستخدمها في فنه أساسية عند جميع الكتَّاب المصريين من بعده ، حتى ليقول النويري : « إن كل فاضل بعد القاضي الفاضل فضلة » ^(٢) ولم يكن هذا إحساس النويري وحده ، بل كان إحساس جميع الكتاب بعده ، فقد اتخذوا آثاره مثلهم الأعلى الذي يحتذونه ويقلدونه ، ومن أجل ذلك كنا لا نخطئ إذا قلنا إن العصور التي تلتها في مصر كان أصحابها يصوغون دائماً على مثاله ، وينسجون على منواله .

المماليك وامتداد النهضة في عهدهم

تُطلق كلمة ممالك على ضرب من الرقيق كان يؤسّر في الحروب أو يباع في الأسواق . وأول من استخدم هؤلاء المماليك في شئون الحكم والسياسة المعتمد الخليفة العباسي ، فقد جلب منهم جماعة كبيرة استخدمها في حروبه ، وكان يجلبهم من شباب أواسط آسيا الأشدّاء . ونحن نعرف قصة هؤلاء المماليك الأتراك في الدولة العباسية ؛ إذ سرعان ما انتقل إليهم تصريف الأمور ، وأصبحوا هم الحاكمين بأمرهم ، أما الخليفة فكان يحكم حكماً اسمياً . وكان صلاح الدين ومولاه نور الدين يستعينان في حروبهما ضد الصليبيين بقبيل من هؤلاء الأتراك : ولما جاء الصالح أيوب جمع حوله جيشاً كبيراً منهم وبنى لهم قلعة في جزيرة الروضة ، لذلك سُمّوا المماليك البحرية ، وسرعان ما أصبحوا هم المتحكمين في كل أمور الدولة كما أصبح لهم سلطان كبير ، فقتلوا «توران شاه» آخر الملوك الأيوبيين وولوا عليهم «شجرة الدر» زوج أبيه ، فتزوجها أيلك التركماني وأدار هو دفّة الأمور بنفسه ، ولكنها اختلفت معه فقتلته ، فتولى ابنه ، وفي عهده قتلها المماليك انتقاماً ، ثم عزّل ، وتولى الحكم من بعده قُطُز ، وفي عهده هزمت جيوشه وعلى رأسها الظاهر بيبرس جيوش هولاكو التتار ، وكان ذلك سبباً في التماع اسم الظاهر ، فولى الحكم ، وفي عهده انتقلت الخلافة العباسية من بغداد إلى القاهرة عام ٦٥٦ للهجرة ، وخلفه سلاطين أشهرهم قلاوون وابنه الناصر ، ويظل الحكم في تلك الأسرة حتى يسلبه منها برقوق زعيم المماليك الجراكسة الذين جلبهم آل قلاوون وأسكنوهم بروج القلعة ، ولذلك سمو المماليك البرّجية ، ويخلف برقوق سلاطين مختلفون ، منهم السلطان «شيخ» الملقب بالمؤيد ، وما تزال مصر في أيدي المماليك البرجية حتى يفتحها العثمانيون في عام ٩٢٣ للهجرة .

وكانت مصر في عهد المماليك تعتبر زعيمة العالم الإسلامي ، إذ وقفت دون موجة التتار التي اكتسحت شرق هذا العالم حتى الشام ، كما وقفت دون موجة الصليبيين وردتهم عن بلاد الإسلام ، وقد انتقل إليها الخليفة العباسي ، وفي هذا الانتقال ما يرمز إلى أهميتها في تلك العصور ، إذ أصبحت موئل الإسلام من طرف ، كما أصبحت موئل العلم والأدب من طرف آخر ، فقد هاجر إليها العلماء والأدباء من كل صوب حتى ينعموا بما فيها من حياة آمنة مرفهة ، ويظهر أن مصر كانت على جانب عظيم من الرخاء واليسر في هذا العصر المملوكي ، ولذلك كثرت فيها العمارة حتى قالوا إنه « بُنى في أيام الملك الظاهر ما لم يُبْنَ في أيام الخلفاء المصريين ولا ملوك بني أيوب من الأبنية والرباع والخانات والقواسير والدور والمساجد والحمامات »^(١) وكذلك اشتهر عصر الناصر بن قلاوون بكثرة العماثر في مصر والشام . وفي هذا ما يدل - من بعض الوجوه - على ثروة مصر في هذا الحين ، ولعل مما يدل على ذلك أيضاً ما يقال من أن الناصر حجَّ ذات مرة فكانت تُسمدُّ له مائدة في طريقه وسط حديقة مصنوعة ، وعليها الفاكهة والزهور ، وكان هذا المنظر يبهج الناس في صحراء بلاد العرب ، وقد قالوا إن إحدى زوجاته أنفقت في حجها مائة ألف دينار ، كما قالوا إنه أنفق في زواج كل بنت من بناته ثمانمائة ألف دينار^(٢) ، وما من ريب في أن ذلك يدل بعض الدلالة على ما بلغته مصر في عصر المماليك من ترف وثراء .

ولعل من الغريب أن المماليك - على الرغم من أنهم كانوا من الرقيق - عُنُوا بالحركة العلمية على نحو ما صنع سادتهم من الأيوبيين ، فبنوا المدارس وأغدقوا عليها الأموال ، وكان أول من استنَّ هذه السنة الظاهرُ بيبرس ، فقد أنشأ مدرسة كبيرة هي المدرسة الظاهرية ، وكان لها أربعة إيوانات لتدريس الفقه الشافعي والحنفي وتدريس الحديث وقراءات القرآن ، كما كان بها مكتبة

(١) النجوم الزاهرة ١٩٦/٧ .
 (٢) تاريخ دولة المماليك في مصر تأليف ص ٩٠ .

وليم موير وترجمة محمود عابدين وسليم حسن

تشتمل على أمهات الكتب في سائر العلوم^(١) ، وقد احتذى الظاهر المنصور قلاوون ، فبنى مدرسة كبيرة سميت المدرسة المنصورية ، وكان يُدرس فيها الفقه على المذاهب الأربعة ، كما كان يُدرس فيها التفسير والحديث ، وأيضاً كان يُدرس فيها الطب^(٢) ، ثم جاء الناصر ابن قلاوون فأنشأ مدرسة عظيمة ورتب فيها دروساً للمذاهب الأربعة ، ويقول المقرئى إنه أدرك هذه المدرسة^(٣) ، وبني السلطان حسن من بعده مدرسة كبيرة ، يقول المقرئى عنها إنه لا يُعرف ببلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذه المدرسة في كبر قائلها وحسن هندامها وضخامة شكلها ، ويقول إن العمارة استمرت فيها مدة ثلاث سنين لا تنقطع ، وإنه كان يُصرف على عمارتها يومياً عشرون ألف درهم ، وكان يُدرس فيها الفقه على المذاهب الأربعة^(٤) . ثم جاء المماليك البرجية وعلى رأسهم برقوق الذى أنشأ مدرسة للدرس المذاهب الأربعة ودَرس التفسير والحديث وقراءات القرآن^(٥) ، وتبعه الملك المؤيد شيخ فابتنى هو الآخر مدرسة كبيرة^(٦) . وكل ذلك يدل على مبلغ عناية المماليك بالحركة العلمية وتشجيع العلماء ، وقد عرف المؤيد شيخ من بينهم بأنه كان شاعراً وموسيقياً^(٧) ، ويقول السيوطى نقلاً عن ابن حجر إنه « كان معه إجازة بصحيح البخارى من شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى » ، فكانت لا تفارقه سفيراً ولا حضراً^(٨) .

وإذا كان المماليك عُنوا بالحركة العلمية فإنهم عُنوا كذلك بالحركة الأدبية ، وقد كان لديوان الإنشاء عندهم منزلة كبيرة ، وكان لا يوظف فيه إلا من اشتهر بالبلاغة ، وأوتى أسرار البيان والفصاحة ، وكثيراً ما ارتقى كاتب

-
- (١) خطط المقرئى ٣٧٨/٢ وحسن المحاضرة (٤) حسن المحاضرة ١٦٢/٢ .
 (٥) حسن المحاضرة ١٦٣/٢ . والنجوم الزاهرة ١٢٠/٧ .
 (٢) خطط المقرئى ٣٧٩/٢ وحسن المحاضرة (٦) حسن المحاضرة ١٦٣/٢ .
 (٧) تاريخ دولة المماليك لمويرس ١٣٢ .
 (٣) خطط المقرئى ٣٨٢/٢ وحسن المحاضرة (٨) حسن المحاضرة ٨٩/٢ .
 ١٦٠/٢ .

الإنشاء عندهم إلى مرتبة الوزارة . وقد كُتبت في هذا العصر أكبر الموسوعات الأدبية من مثل مسالك الأبصار لابن فضل الله العُمرى ، و«صبح الأعشى في صناعة دواوين الإنشاء» للقلقشندي ، و«نهاية الأرب» للتوئري ، و«الخطط» و«السلوك» للمقريزي . ولولا هذه الكتب ما استطعنا اليوم أن نؤرخ للحركات الأدبية في مصر أثناء العصور الوسطى ، ويظهر أن القوم اتجهوا هذا الاتجاه في التأليف مخافة ضياع العلم ، إذ فقد كثير من الكتب حتى عصرهم ، فرأوا أن يكتبوا موسوعات تغني عن الكتب المختصة بكل عهد وكل عصر ، ومن أهم كتب التاريخ الكبيرة في هذه العصر كتاب النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ، وعقد الجُمان للعيني .

وأكثر كتابات هذا العصر ينتشر فيها السجع ، ومن الكتب التاريخية التي بُنيت على السجع بناء كتاب «عجائب المقدور في نواب تيمور» لابن عرب شاه ، واستمرت كتابات الرسائل في هذا العصر مطبوعة بالطابع الذي رأيناه عند القاضي الفاضل من ميل إلى استخدام ألوان البديع من جناس وطباق وتصوير ثم الاقتراض من ألفاظ العلوم ومصطلحاتها . ومن أشهر كتّاب هذا العصر ابن فضل الله العمرى ، وابن نباتة ، وبحي الدين بن عبد الظاهر ، وهو أشهر الثلاثة ، وكتاباتهم جميعاً تمتاز باستخدام فنون البديع وألفاظ العلوم ، وعُنىوا عناية خاصة بلون التورية كقول ابن نباتة من توقيع لشخص بنظر مدرسة^(١) :

«وكيف لا وهو نعم الناظر والإنسان ، وفي مصالح القول والعمل ذو اليدين واللسان ، وذو العزائم الذي تقيّدت في حبه الرتب ومن وجد الإحسان» .

فقد ورى في الناظر والإنسان تورية واضحة ، ولم يكتف بذلك بل رأيناه يعتمد إلى الاقتضاب في آخر العبارة أو ما كانوا يسمونه حينئذ بالاكتهاء ، إذ ختم عبارته بقوله «ومن وجد الإحسان» وقطع وهو يريد الشطر المشهور «ومن وجد الإحسان قيدا تقيّدا» ، وهذا الاكتهاء إنما جاء من استخدام

(١) صبح الأعشى ١/٣٠٤ .

أساليب القرآن الكريم لأن فيها حذفاً كثيراً فذهبوا يتأثرونها في هذا الجانب ، ولا تظن أن الاكتفاء ظهر لأول مرة في تلك العصور فهو قديم إذ نجده في العصر الفاطمي عند ابن قادوس ^(١) كما نجده من بعده في العصر الأيوبي ^(٢) ، ونستمر فنجد في هذا العصر عند ابن نباتة وغيره ، وإنه لينبغي أن نقف وقفة قصيرة عند أشهر كتّاب هذا العصر وهو محي الدين بن عبد الظاهر حتى نترى لنا طبيعة الكتابة في العصر المملوكي وما تتسم به من شارات أدبية وسمات فنية .

محي الدين بن عبد الظاهر

عاش محي الدين في القرن السابع الهجري إذ توفي عام ٦٩٢ للهجرة ^(٣) ، وقد ولى ديوان الإنشاء في عهد بيبرس وقلاوون وابنه الملك الأشرف خليل ^(٤) ، وكان له فضل كبير في وضع مصطلحات ديوان الإنشاء لهذه العصور ، وقد استمر الكتّاب من بعده يلتزمون هذه المصطلحات ، وإن في هذا الالتزام ما يدل على قيمته لدى معاصريه فقد كانوا جميعاً يُشيدون به ، يقول النويري : « كان محي الدين أجلاً كتاب العصر وفضلاء مصر وأكابر أعيان الدول ، والذي افتخر بوجوده أبناء عصره على الأوّل ، له من النظم الفائت ما راق صناعةً وحسناً ، ومن النثر الرائق ما فاق بلاغة ومعنى ، فقصائده مدونة مشهورة ، ورسائله بأيدي الفضلاء ودفاترهم مسطورة ، وكلامه كاد يكون لأهل هذه الصناعة وعليهم حجة ، وطريقه في البلاغة أسهل طريق وفي الفصاحة أوضح محجة » ^(٥) ، وإذا رجعنا نبحت هذه الطريقة التي يشير إليها النويري وجدناها هي الطريقة الفاضلية نفسها ^(٦) ، فمحي الدين يستخدم البديع ويتصنع لاصطلاحات العلوم ويكثر من الاقتباس لآي الذكر الحكيم ،

(١) انظر الخريدة ٢٣٠/١ .
 (٢) خزانة الأدب للحموي ص ١٢٦ .
 (٣) بدائع الزهور ١٢٥/١ . وانظر فوات الوفيات ٢٧١/١ .
 (٤) انظر بدائع الزهور ١١٠/١ وكذلك ١٢٥/١ ، ١١٨/١ .
 (٥) نهاية الأرب ٣٠١/٨ .
 (٦) فوات الوفيات ٢٧١/١ .

كما يكثر من تضمين الشعر ، ونحن نسوق قطعة من كتاب تعزية كتب به عن المنصور قلاوون إلى صاحب اللين يخبره ب وفاة ابنه علاء الدين على ، وكان قلاوون عهد له في الأمر من بعده ، ثم أدركته الوفاة ^(١) :

« المملوك يخدم خدمة لا يذود المواصلة بها حادث ، ولا يؤخرها عن وقتها أمر كارث ، ولا تنقصها عن تحسينها وترتيبها بواعث الاختلاف ولا اختلاف البواعث ، ويطلع العلم الكريم على ورود مثال كريم ، يتضمن ما كان حدث من رُزء تلافاه الله بتناسيه ، وتوافى هو والصبر فتولّى التسليم بتبيين عاسيه ^(٢) ، وتمرين قاسيه ، فشكرنا الله على ما أعطى وحمدناه على ما أخذ ، وما قلنا هذا جزع قد انتبه ، إلا قلنا هذا تثبت قد انتبذ ، ولا توهمنا أن فلذة كبذ قد اختطفت إلا وشاهدنا حولنا من ذريتنا والحمد لله فلند ، وأحسننا الاحتساب ، ودخلت الملائكة علينا من كل باب ، ووفّانا الله أجر الصابرين بغير حساب . . وبكتاب الله ويسنة نبيه صلى الله عليه وسلم عندنا حسن اقتداء نضرب به عن كل رثاء صفحاً ، وما كنا مع الله - والمنة لله - نُعطى لمن يؤنب ويؤبّن أذنا . ولنا بحمد الله ذرية درية ^(٣) ، وعقود . . . والشكر لله كلها ذرية :

إذا سيد منهم خلا قام سيد قوّل لما قال الكرام فعول

ما منهم إلا من نظر سعدَه ومن سعدَه يُستَظَرُّ ، ومن يحسن أن يكون المبتدا ، وأن تسدّ حاله بكفالاته وكفايته مسدّ الخبر ، (والشمس طالعة إن غُيِّبَ القمر) لاسيما من الدين به إذ هو صلاحه أعرف ، ومن قيل لبناء ملك هذا عليه قد وهى قيل هذا خير منه من أعلى بناء سعد أشرف . . . والرغبة إلى الله تعالى في أن يجعل تلك المصيبة للرزايا خاتمة ، وكما لم يجعلها للظهور قاصمة ، فلا يجعلها لعرا الشكر فاصمة ، وأن يجعلها بعد حمّل هذا الهم

(١) صبح الأعشى ٣٥٧/٧ . ونهاية الأرب (٣) درية : نسبة إلى الدر وهو اللين ، يريد

أنه أشبه أباه وأمه في الأخلاق والصفات .

١٠٧/٨ .

(٢) من عسى الليل : اشتدت ظلمته .

وفصاله على عليه فاطمة ، وأن يُحَبِّبَ إلينا كل ما يُلهي عن الأموال والأولاد من غزو وجهاد ، وأن لا تقصف أرواحنا إلا في فؤود أو في فؤاد ، ولا تُجَزَّ غيرُ شعور ملوك التتار تُتَوَّج بها رؤوس الرماح ويُصْعَدُ بها على قمم الصَّعَاد^(١) ولا شغل الله لُبَّ المولى بفادحة ولا خاطرة بسانحة من الحزن ولا بارحة ، ولا أسمعُه بغير المسرات من هواتف الإبهاج صادحة .

وأكبر الظن أنه قد اتضحت للقارئ طريقة محي الدين ، وهي طريقة تقوم على التصنع وهو تصنع ينتهى به إلى أن يكثر من الجناس المعكوس ، وهو لا يكتفى بهذا الجناس وما فيه من مشقة ، بل نراه يذهب مذهباً بعيداً في استخدام التورية ، وقد كان يستهدف لها في جميع كتاباته إذ كانت أهم لون شُغِفَ به الكتاب في عصره ، وكانوا يدلُّون بها على مهارة الكاتب وبراعته ، وقد ورَّى محي الدين في هذه القطعة مرتين مرة في قوله : « ومن قيل لبناء ملك هذا عليه قد وهى قيل هذا خير منه ومن أعلى بناء سعدٍ أشرف » ، فإن كلمة أشرف هنا لا يريد بها معنى الصفة ، وإنما يريد بها الإشارة إلى ولى العهد الجديد لقلاوون بعد وفاة على الملقب بعلاء الدين ، وهو الملك الأشرف خليل ، ونستمر فنجدُه يورِّى مرة أخرى في قوله : « وأن يجعلها بعد حمل هذا الهم وفصاله على عليه فاطمة » فقد جاء بفاطمة مع على وهو يريد هنا الصفة . وواضح أنه ذكر هنا الفصال حين ذكر الحمل كما ذكر فاطمة حين ذكر عليه ، وهو ما يسمى عند أصحاب البديع بمراعاة النظير . وليس هذا كل ما فى القطعة من تصنع ، ففيها اقتباس واسع من آى الذكر الحكيم ، وفيها أيضاً تضمين للشعر ، تارة يضمّن بيتاً ، وتارة يضمّن شطراً فى مثل قوله : (والشمس طالعة إن غُيِّبَ القمر) ، وأيضاً فى القطعة تصنع لذكر المبتدأ والخبر . أرايت كيف تؤلّف الرسائل عند أشهر كتاب العصر المملوكى ؟ إنها تؤلف من ألوان البديع واصطلاحات العلوم وتضمين الأبيات والأشعار والاقتباس من آى الذكر

(١) الصعاد : جمع صعدة وهي القناة التى

تنهت مستوية فلا تحتاج إلى تثقيف .

الحكيم ، وقد أصبحت هذه الأشياء تلصق إصافاً وتلفق تلفيقاً ، فليس هناك كاتب ممتاز لهذا العصر إلا وهو يسعى إلى جلب هذه الفنون في نثره يقتصرها اقتساراً وقد يعتسفها اعتسافاً ، وانظر كيف يحتلب محبي الدين التورية اجتلاباً في أثناء عهد المنصور قلاوون لابنه الملك الأشرف خليل ، إذ يقول ^(١) :

« كم جلا بهي جبينه من بهيم ، وكم غدا الملك بحسن روائه ويمن آرائه بهيم ، وكم أبتراً مورده العذب هيم عطاش ولا يُنكر الخليل إذا قيل عنه أبراهيم » .

فقد ورى في أبراهيم ، وأهّل لتوريته بذكر الخليل وهو لا يريد أبراهيم حقاً إنما يريد أنه « أبراهيم » فسهل الهمزة لتتم له التورية . ومن يرجع إلى رسائله المنشورة في صبح الأعشى يجد كثيراً من تورياته فمن ذلك قوله في كتاب يصف به فتوح قلاوون في الشام ^(٢) :

كم شكت منه حماة تُسبى بنكرها عن قلة الإنصاف ، وكم خافته مَعَرَّةٌ وما من مَعَرَّةٍ خاف ، ما زالت أيدي الممالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه تشكومن جُور جواره تلك الحصون والصياصي ، وتبكي بمدمع نهرها من تأثير آثاده مع عصيانها وناهيك بمدمع العاصي » .

فقد ورى في كلمة معرة كما ورى في كلمة العاصي إذ يريد بها النهر المعروف في الشام لا الصفة ، ومثل ذلك قوله في كتاب لأحد ملوك الفرنج :

« وكيف فارقتنا بلادك وما بقيت فيها ماشية إلا وهي لدينا ماشية ، ولا جارية إلا وهي في ملكنا جارية » ^(٣) ، فقد ورى تورية واضحة في ماشية وجارية . ومن ذلك أنه استهدف للقب قلاوون وهو المنصور ولقب الخليفة العباسي في عهده وهو الحاكم فقال في كتاب له : « وكيف لا والمنصور هو الحاكم » ^(٤) ومن ذلك قوله في نسخة توقيع برياسة اليهود ^(٥) :

(٤) نفس المصدر ١١٧/١٠ .

(٥) نفس المصدر ٣٨٧/١١ .

(١) صبح الأعشى ١٦٨/١٠ .

(٢) نفس المصدر ٣٥٥/٧ .

(٣) صبح الأعشى ٣٠٠/٨ .

« وليتق الله فيما يتدره ويأتيه ، ويحسن في اجتلاب القلوب واختلابها تأتبه ، وإياه والتية ، حتى لا يقال كأنه بعد لم يخرج من التيه . . . وجماعة القرأتين ، فانصب لأمرهم من لم يتوله حين يتوله . . . والجزية فهي لدمائكم وأولادكم عطية ، وعلى دفاعها لا دافعها وصمة . . . ومن قصد منها خلاصه ، فقل له في الملأ ماذا خلاصه » .

وواضح أنه ورى في التيه الثانية فلم يرد بها الصفة وإنما أشار بها إلى التيه الذي ضل فيه اليهود قديماً مع موسى ، واستمر فدرى في توله الثانية كما ورى في كلمة خلاصه الثانية وهي مركبة من « خلا » وكلمة « صه » بمعنى أسكت . وهذا كله كان يعتبر منتهى ما وصل إليه الفن في عصر محي الدين من مهارة وبراعة ، وهي براعة لفظية على نحو ما نرى في هذه الأمثلة . وإذا تركت هذه التورية لم تجد إلا صوراً متكلفة وجناساً معكوساً ولن تجد وراء ذلك إلا تكلفاً لمراعاة النظير وتضميناً للشعر وآى الذكر الحكيم ، وإن سألت عن جديد فلن تجد إلا التصنع لمصطلحات العلوم وخاصة علم النحو كقوله في رسالة لوزير بتقليد الوزارة في أثناء كلامه عما نيط به : « وإليه أمر قوانينها ودواوينها وكتتابها وحسابها ، وإليه التولية والصرف ، وإلى تقديمه البدل والنعمة والتوكيد والعطف » ^(١) ويقول في مطلع إحدى رسائله :

« نحمده على نعمه التي جمعت إلى الزهر الثمر ، وداركت بالبحر وباركت في النهر ، وأجملت المبتدأ وأحسن الخبر » ^(٢) . وهناك رسالة ذكرها له القلقشندي وقد بناها كلها على التصنع لاصطلاحات النحو ، وهو يستهلها على هذا النمط ^(٣) :

« حرس الله نعمة مولاي ! ولا زال كليم السعد من اسمه وفعله وحرف قلمه يأتلف ، ومنادى جوده لا يُرحم وأحمد عيشه لا ينصرف . . . ولا عذمت نوحاة الجود من نواله كل موزون ومعدود ، ومن فضله وظله كل مقصود وممدود ،

(٣) نفس المصدر ١/١٧٦ .

(١) صبح الأعشى ١١/٢٧٣ .

(٢) نفس المصدر ١٠/١٧٣ .

ولا خاطبت الأيام مُلْتَمِسَةً إلا بلام التوكيد ولا عدوّه إلا بلام الجحود . هذه
المفاوضة إليه — أعزه الله — تُفهمه أنا بلغنا أن فلاناً أضمر سيدنا له فعلا غدا به
منتصباً للمكايد ، ومعتلاً وليس موصولاً كالذى بصلة وعائد ، وما ذاك إلا
لأن معرفتها داخلها التنكير ، وقدّر لها من الاحتمالات أسوأ التقدير ، ونفوت
صحبته تكررت فجاز قَطْعُها بسبب ذلك التكرير . . وكان الظن أن الأشغال
التي جُمعت له لا تكون جمع تكسير بل جمع سلامة ، وآية لا تكلف تعليماً
على وصول ، لأنه في الديوان كالحرف لا يخبر به ولا عنه ، والحرف ليست
له علامة ، وحاش لله أن يصبح مُعَرَّبٌ إحسانه مَبْنِيّاً .

وتمضى الرسالة على هذا النمط من التصنع لمصطلحات النحو وكأن الكاتب
يريد أن يسلك كل ما يعرفه من هذه المصطلحات في كتابه ، ونعجب نحن
الآن من هذا التصنع الثقيل ، ولكنه كان بدعة العصور الوسطى ، وإنه
ليطوى في داخله مدى ما أصاب الكتابة من جمود وتبلور في هذه العصور
فإذا الكتاب لا يعنون بأساليبهم إلا هذه العناية التي تجعلهم يسلكون
اصطلاحات العلوم في كتاباتهم ، فإن تركوا ذلك فلم إلى الاقتباس من آى
الذكر الحكيم وتضمين الأشعار والأمثال ، وهم دائماً يوشّون كلامهم بفنون
البديع وخاصة فن التورية . ومن العبث أن نبحت بعد ذلك عن شيء طريف
يمكن أن نضيفه إلى عصر الماليك ، فقد كان كتابه مقلدين تقليداً شديداً
لفن القاضى الفاضل وما سبق أن رأينا عنده من تصنع وتعقيد ، ولم يستطيعوا
أن يستحدثوا من جديد ، سوى أن يغرقوا إلى آذانهم في هذه الأشكال البديعية
والعلمية . ومن الحق أن نلاحظ أن البديع لم يتعدّ يؤدى عندهم معنى التحسين
في صورة طبيعية فقد خرجوا به عن طاقته التي كنا نألفها وأصبح عندهم تلفيقاً
وتلزيقاً ، فالكاتب يتصيد في رسالته تورية أو جناساً معكوساً أو اصطلاحاً
علمياً ليدل على مهارته ، وما لا ريب فيه أن ذلك كان يفتن الأدباء حينئذ ،
وهي فتنة جعلت النثر العربى عملاً لفظياً يعنى فيه بالزخرف والتنسيق ، لا بالمعاني
ولا ما يتصل بالمعاني من فكر دقيق . وهذا كل ما عند القوم : تصنع وتلفيق
الفن ومذاهبه

وتلزيق . وما نصل إلى أواخر هذا العصر حتى نحس بأن الأساليب في النثر قد تجمدت وتبلورت ، أو هي تريد أن تتجمد وتبلور إلا أن نصيبها رجة شديدة تغير أوضاعها ، ولكن مصر لم يتح لها شيء من ذلك ، إنما أتيح لها ظلام مطبق ، فقد فتمتحتها العثمانيون واستقروا فيها بعد أن قوضوا الحكم المملوكي وأدالوا منه ، فاستولى على الكتابة الفنية جمود شديد ؛ وأصبحنا لا نكاد نجد كاتباً مهماً يمكن أن نقرنه حتى إلى كتاب الممالك .

٧

العصر العثماني والعقم والجمود

كان من سوء حظ مصر أن اشتبك الممالك في حروب مع الدولة العثمانية وانتهى الأمر بدخول سليم الأول مصر فاتحاً عام ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) . وبذلك أصبحت مصر جزءاً من الإمبراطورية العثمانية ولم يعد لها نفوذ في سوريا وبلاد العرب ؛ بل أصبحت ولاية من ولايات الإمبراطورية العثمانية ، واستمر شأنها كذلك حتى غزاها نابليون عام ١٧٩٨ للميلاد . وما من ريب في أن هذا الطور من حياة مصر يعتبر أسوأ الأطوار التي مرت بها ، فقد عمها ظلام كئيب وانتشر فيها جو خانق ، إذ أصبحت ولاية عثمانية بسيطة ؛ بعد أن كانت دولة كبيرة . ومن شأن مصر أنها لا تستطيع أن تتنفس وتزدهر فيها الحضارة إلا إذا كانت أمة مستقلة ذات شأن في التاريخ والسياسة ، أما إذا أصبحت مغلوقة على أمرها فإن أداة العقل والفن فيها تتعطل : وماذا تنتظر من شعب يفقد السيادة على جيرانه بل على نفسه ؟ لا شك أنه يكتئب ، وينكمش منزوياً في جُدر وطنه با كياً نفسه وتاريخه ولعل ذلك ما جعل المصريين يرثون الممالك رثاء حاراً^(١) بل لقد رثوا وطنهم رثاء مُراً^(٢) ، وحق لهم ، فقد بطش بهم

(١) بدائع الزهور لابن إياس ١١١/٣ . (٢) نفس المصدر ١٢٨/٣ .

العثمانيون وأخرجوهم من عزّ إلى ذل ، لا من حيث السياسة فقط ، بل أيضاً من حيث العلم والفن ، إذ أخذ سليم الأول معه كثيراً من العلماء والأدباء والمهندسين وأصحاب الحرف وأدوات الترف^(١) ، ولماذا يبقى هؤلاء في مصر ؟ لقد انتهى عصر المماليك ولم تعد هناك حاجة لفن ولالصناعة ، فليذهب أربابهما إلى القسطنطينية ، وليذهب معهم العلماء ورجال الفكر ، ولتذهب الكتب والمجلدات التي تعزّز بها مصر أيضاً حتى تفقد مصر كل ما لها من سيادة عقلية وفنية بجانب ما فقدته من سيادتها السياسية .

لم تعد مصر بلداً عظيماً ، كما كان شأنها في عصر المماليك إذ كانت بها الخلافة ، وكانت لها السيادة على جيرانها ، وكان لها في داخلها نشاط عقلي وفني واسع . أما في هذا العصر فقد أصبحت ولاية عثمانية يقيم فيها وال تركي ، وهذا الوالى له ديوان ، ولكن اللغة الرسمية في هذا الديوان هي التركية التي يتخاطبون بها مع الباب العالي . ومعنى ذلك أن الدواوين التي كانت تُخرج كبار الكتاب في العصور السابقة قد أغلقت أبوابها ، فلم يعد هناك مجال لأن يظهر مثل ابن الشخباء أو القاضي الفاضل أو محيي الدين بن عبد الظاهر .

واقرأ في الآثار الكتابية أثناء العصر العثماني فستجد هذه الآثار أضعف وأقل من أن تُقَرَّنَ إلى أي عصر من العصور السابقة ، وبون بعيد جداً بين كتاب مثل «بدائع الزهور» في التاريخ وكتاب آخر مماثل له في عصر المماليك، فأنت لا تجد عند المقرئ ولا ابن تغري بردي ركافة ولا أخطاء نحوية ولا أخرى لغوية كما لا تجد ألفاظاً تركية ، أما عند ابن إياس فلنجد ضعف التأليف عامة ، فالأسلوب واه ، والأخطاء النحوية كثيرة والألفاظ التركية متشرة . وإذا تركت هذا الجانب من الكتابة التاريخية إلى الكتابة الفنية وجدتها تلقيقاً خالصاً من أساليب السابقين ، وهو تلقيق ليس فيه جديد إلا التصنع الشديد لألوان البديع ومصطلحات العلوم . وقد كانت هذه الأشياء توجد في عصر

الممالك فتُقبَل ، لأن الأسلوب كان جزلاً رصيناً فيستطيع القيام بها ، أما في هذا العصر فالأسلوب واه ضعيف لا يكاد يقوم ، ولعل ذلك ما جعل الشهاب الخفاجي يقول في مقدمة كتابه « ريحانة الألباء » : « إن الأدب في هذه الأعصار ، قد هبت على رياضه ريح ذات إعصار ، حتى أخلقت عُرى المحامد ، واسترخت في جُريه عنان القصائد ، وتقلصت أذيال الظلال ، وخطب البلاء على منابر الأطلال ، وعفا رَسْمُ الكرام ، فعليه منى السلام » ^(١) ، وامنض في ريحانة الألباء فستجد صاحبها يتصنع لمصطلحات النحو كما يتصنع لألوان البدع ، وما نزال في أساليب غثة حتى ندُوفى على آخر الكتاب فإذا صاحبه يؤلف مقامات كلها مأخوذة من مقامات الحريري بألفاظها ومعانيها وأساليبها ، ونحن لا نتلومه كما تلوم هوسرى الدين بن الصائغ « لمكاتبات معسولة الألفاظ مدّنة المعاني جرت بينه وبين ابن نُجَيم وأكثرها من رسالة ابن زيدون منحولة المبانى » ^(٢) فإن هذه كانت طاقة العصر ، إذ لم يعد هناك مجال للتجديد والابتكار ، فالقوم يعيشون على التقليد واجترار أعمال السابقين ، فإن هم تركوا هذا الاجترار والتقليد لم نكد نجد لهم شيئاً قيمياً يمكن أن نُعنى به ، فقد جمدت الكتابة الفنية بمصر جموداً ، بل قل لقد تحجرت تحجراً ، إذ أجذبت الحياة الفنية ، وأصبحت مواتاً خالصاً أو ما يشبه الموات ولم يعد من الممكن أن تعود لها النضرة أو تدب فيها الحركة ، إلا إذا تضافرت جهود هائلة حتى تخرج من عالمها الكئيب المظلم إلى عالم جديد مشرق ، فيه نور ، وفيه حياة ، وفيه بعث وأمل وابتسام .

(٢) ريحانة الألباء ص ٢٨١ .

(١) ريحانة الألباء طبع الامتانة ص ٤ .

خاتمة

١

الصورة العامة للبحث

رأينا النثر العربي في العصر الجاهلي محدود الموضوعات ، فهو لا يتجاوز الخطابة والأمثال وسجع الكهان ، وقد وفر له أصحابه حينئذ ضرورياً من الجهد الفني اصطلاحنا على تسميتها باسم الصنعة . ولما خرجنا من الجاهلية إلى الإسلام وجدنا سجع الكهان يخفى أو يكاد ، بينما تتسع الخطابة وتتوسع تحت تأثير الحوادث الدينية والسياسية . وقد أخذ يظهر بجانب الخطابة نوع جديد لم يكن العرب يعهدونه في العصر الجاهلي ، وهو الكتابة الفنية ، وتتبعنا نشأة هذا النوع ووضحنا كيف أن الحياة العربية نفسها وما أحدث الإسلام فيها من انقلاب هي التي هيأت لظهوره وتطوره ، وبيّنا كيف أن العناصر الأجنبية أخذت تؤثر فيه ، وما زال ينمو ويرقى ، حتى تمت له صورته النهائية في دواوين هشام ابن عبد الملك ، تلك الصورة التي عبر عنها — فيما بعد — عبد الحميد الكاتب أجمل تعبير .

ولما انتقلنا إلى العصر العباسي وجدنا طائفة من الأدباء تُعنى بالكتابة الطويلة ، أو بعبارة أخرى بالكتب ، وبدأت هذه العناية أولاً عن طريق الترجمة على نحو ما كان من ابن المقفع وترجمته لبعض الكتب الفارسية ، ثم أخذ الأدباء بعده يتحدثون ما يشبه هذه الكتب ، فظهرت الرسائل الطويلة عند سهل بن هرون والجاحظ . ولاحظنا أن هؤلاء الأدباء أصحاب الكتابات الطويلة كان شأنهم شأن كتّاب الدواوين في العصر الأموي ، فهل يخضعون في نماذجهم لطاقة محدودة من الفن هي طاقة الصنعة والتكلف المخلود . ونحن لا نترك هذه الطائفة في العصر العباسي إلى كتّاب الدواوين حتى

نجدهم يعنون بحرفة الكتابة عناية بالغة ، وهى عناية كانت تقوم على الزخرف والتنميق ، حتى تتحول كتبهم السياسية إلى وشى وحكلى خالصين . وما زالت هذه العناية تتكامل حتى كان مذهب التصنيع ، وهو مذهب كان يعتمد على السجع من جهة والبديع من جهة أخرى ، وأستاذ هذا المذهب — غير مدافع — هو ابن العميد فهو الذى وسّع — لأول مرة — طاقة الزخرف فى تعبير النثر وتحبيره ، وخلفته جماعة أوفت بهذا المذهب إلى الغاية التى كانت تنتظره فإذا كتبهم زركشة خالصة وما يطوى فى هذه الزركشة من تطريز بالسجع وترصيع بالبديع .

ونستمر حتى أواخر القرن الرابع فإذا الحضارة العربية تتحول إلى فنون من التعقيد فى جميع جوانبها ، ولم يشذ النثر عن هذه الحال ، فقد رأينا يتعقد تعقداً أتاح لظهور مذهب جديد فى النثر العربى ، وهو مذهب التصنع ، وهو مذهب كان يقوم على تصعيب طرق الأداء وتعقيدها ضرورياً مختلفة من التعقيد ، وحقق أبو العلاء لهذا المذهب كل ما يمكن من صور التصعيب ، وتبعه الكتّاب من أمثال الحريرى والحصكى محاولون — بكل ما فى وسعهم من جهد — أن يضيفوا عقداً جديدة إلى عقد أبى العلاء كأنما التعقيد غاية فى ذاته ! واستمر هذا المذهب مسيطراً فى المشرق فلم يخرج بعده مذهب جديد ، وإن الإنسان ليخيّل إليه كأنما تعطلت الأداة العباسية التى كانت تُخرج المذاهب ، فلم يعد هناك إلا الجمود والتحجر الشديد .

وهذه هى موجات الفن أو الصناعة فى تاريخ نثرنا العربى ، وقد ذهبْتُ أتبع هذه الموجات فى أهم الأقاليم العربية وأقصد الأندلس ومصر فوجدتهما تعيشان على تقليد المشرق دون أن تحاول إحداهما أن تحدث توجيهاً جديداً ، فقد كان التقليد يعم الأقاليم المختلفة ، وهو تقليد قام على محاكاة النماذج المشرقية فى صور من الاضطراب والاختلاط ، إذ نرى الكتّاب يجمعون فى نماذجهم بين صور المذاهب المختلفة ، وقلما وجدنا من يعيش فى مذهب واحد . وليس معنى ذلك أن مصر والأندلس لم تعبّرا عن شخصيتهما فى أدبهما بل لقد عبّرنا عنها من حين إلى حين ، ولكن فى شكل شاحب ضئيل .

النثر المصرى الحديث

استطاعت مصر فى العصر الحديث أن تنهض نهضة واسعة فى النثر العربى ، وقد بدأت هذه النهضة فى القرن التاسع عشر منذ أرسلت البعث إلى أوربا ، فإن هذه البعث لما رجعت أخذت تفكر فى إدخال بعض ما تعرّفت عليه من الآداب الأوروبية ، فظهرت فكرة الترجمة ، وبدأت هذه الترجمة مقيدة على نحو ما نعرف عند رفاة الطهطاوى فى ترجمته « تليماك » ، فإن من يرجع إلى هذه الترجمة يجدها مقيدة بالسجع المتكرر القوافى ، كما يجدها مقيدة بالبديع ، وهو أسلوب لا يختلف كثيراً عما ألفناه فى العصر الأيوبى وما بعده من أساليب . ولكننا لا نتقدم إلى النصف الثانى من القرن الماضى حتى نجد تحولاً واسعاً يحدث فى النثر المصرى وصياغته ، إذ ملّ الكتاب زى السجع والبديع ، وهو ملل يرجع فى الواقع — إلى أن الذين تعلموا فى أوربا ثم عادوا وأرادوا أن يعبروا فى لغتهم عما تعلموه وجدوا هذه اللغة لا تستطيع أن تؤدى ما فى نفوسهم وعقولهم من معان بسبب ما صارت إليه من التحجر فى أساليب السجع والبديع . حيثئذ فكرت هذه الجماعة أن تهجر هذا الزى القديم إلى زى أكثر ملاءمة لمعانيها وما تريد التعبير عنه ، وساعدها على ذلك أن مطبعة بولاق أخذت تخرج كتباً لأعلام العباسيين الأوّل من مثل كتاب كليله ودمنة ، وليس فيها سجع ولا بديع . وبالنسبة لغيرهم من هذه الجماعة فدعوا إلى نسيان اللغة العربية جملة ، وأن يستخدم المصريون مكانها اللغة العامية على نحو ما نعرف عند عثمان جلال . وسرعان ما اصطدمت هذه الجماعة المجددة التى تعلمت فى أوربا بجماعة محافظة لم تذهب إلى أوربا بل اكتفت بما تعلمته فى الأزهر ، وبما عرفته من صياغة السجع والبديع الشائعة ، فنفرت من آراء الجماعة الأولى ودعوتها التى عدّها خروجاً على التقاليد وانتهاكاً لحرماتها المقدسة .

وفي أثناء ذلك نفذ على مصر جموع من الشام ، إما فراراً من الحكم العثماني وما كان ينطوي فيه من ظلم ، وإما ابتغاء للنجاح الأدبي في مصر ، وكانت هذه الجموع تتأثر بالأدب الأوروبية أوسع مما تتأثر بها مصر ، وذهب فريق منها إلى أمريكا وأنشأوا صحفاً ومجلات هناك ، وهم جماعة أدباء المهاجر الأمريكي الذين امتازوا بثورة واسعة على اللغة العربية وأصولها .

ونرى من ذلك أن مصر كان بها في أواخر القرن التاسع عشر أربع طوائف ، وهي طائفة الأزهرين المحافظين ، ثم طائفة المجددين المعتدلين الذين يريدون أن يعبروا بالعربية دون استخدام سجع وبديع ، وطائفة المفرطين في التجديد الذين يدعون إلى استخدام اللغة العامية ، ثم طائفة الشاميين ، وكانت في صف الطائفة الثانية ، وما تزال المعارك تشتد بين الطائفة الأولى والطوائف الأخرى حتى تنتصر طائفة المجددين المعتدلين ، فيعدل المصريون في كتابتهم إلى التعبير بعبارة عربية صحيحة لا تعتمد على زينة من سجع وبديع ، وإنما تعتمد على المعاني ودقتها على نحو ما نرى في ترجمات فتحي زغلول وكتب قاسم أمين . وهكذا أتيج لمصر أن تخرج من هذه المعارك التي أقامت فيها لأواخر القرن التاسع عشر حول صياغة النثر بظفر محقق ، إذ اعتمدت على اللغة العربية الصحيحة الحرة الخالية من قيود السجع والبديع واتخذتها أداة للسانها في كتاباتها. أما العامية فسرعان ما خرجت من بيئة الأدب والأدباء إلى بيئة الفكاهة وصحافتها الهزلية ، فظلت تعيش فيها حتى عصرنا الحاضر ، وأما كتابة السجع والبديع فقد انحازت عن الكتابات الأدبية وإن ظلت تظهر - من آن إلى آخر - على نحو ما نعرف في «حديث عيسى بن هشام» ولكن الناس ينصرفون عنها تدريجاً ليمكن أن يقال : إنه لا يوجد في عصرنا الحاضر من يتشبع لهذه الصياغة أو يعنى بها عناية لها قيمة في أعماله وآثاره ، وربما كانت الصحف من أهم الأسباب التي أعدت لموت البديع والسجع ، فإن كتّاب الصحف مضطرون اضطراراً إلى أن يخاطبوا أوسع مجموعة ، وهذا لا يستقيم لهم مع اللغة المقيدة لأن الذي يفهمها قليلون ، من أجل ذلك عمد أدباء الصحف إلى هجر هذه اللغة المنمقة واعتبروها لغة

بالية ، بل قل لغة ميتة ، لا تصلح للحديث ولا لكتابة ، إذا أريد بالكتابة أن يفهمها الناس . ونحن لا نبعد إذا قلنا إن هذه الجماعة من أدبائنا المحدثين هي التي قصت نهائياً على السجع وأزيائه من بديع وغير بديع ، فتحت أيديها - ثم هذا التحول نهائياً ، وأصبح الناس لا يكادون يلتفتون إلى من يفرع إلى أساليب البديع والترصيع ، إذ يعتبرونه منفصلاً عنهم وقلما فكروا فيه أو شعروا به .

٣

بين القديم والحديث

من يتابع نهضة النثر المصري بعد القرن التاسع عشر يلاحظ أن الصراع بين المحافظين والمجددين يستمر ، ولكن دائماً ترجح كفة المجددين ، وأتاحت لهم الثورة المصرية التي قامت عام ١٩١٩ م أن ينتصروا انتصاراً مؤزراً على إخوانهم من المحافظين ، فقد ثار الناس على قديمهم في السياسة وثار الأدباء على قديمهم في الأدب ، وأصبحت لا تجد صوتاً يرتفع بالنصرة لفكرة السجع فضلاً عن فكرة البديع . واعدت هذه الحال لنهضة واسعة في النثر المصري الحديث ، فإن من يرجع إلى مكتبتنا الحاضرة يُشرف على اتساع ما احتوته من ترجمات عن الآداب الأوروبية ، وكذلك ما احتوته من أعمال أدبية صنعها طائفة من كتابنا وأدبائنا على غرار ما يصنع الأوروبيون أعمالهم الأدبية وآثارهم الفنية . ومعنى ذلك أن مصر الآن تعيش في عصر يعتمد على النقل الواسع من أوروبا كما يعتمد على إحداث نماذج أدبية ممتازة في عالم المقالة والقصة والمسرحية . وقد أخذ الأوروبيون أنفسهم يتصلون بما يصدره أدباء مصر من قصص فترجموه إلى لغاتهم المختلفة ، وبذلك كادت الدورة بين مصر وأوروبا أن تتم ، فصر تأخذ الآن وتعطى .

وهذا المركز الممتاز للنثر المصري الحديث جعل مصر تتزعم البلاد العربية

في الحركات الأدبية ، فهي الآن تقوم منها مقام الدفة والمجذاف في السفينة ، فهي التي توجه ، وهي التي تثير وتدفع ، ولا يقتصر الأمر على النثر الأدبي الخالص من القصص وما يتصل بها ، بل إنه يتجاوز ذلك إلى البحوث الأدبية وما تخرجه مصر في النقد الأدبي ، بل حتى ما تخرجه من مجالات وصحف فصحتها وآثارها تُقرأ في الشام والعراق وغيرها من البلدان العربية . وكان يحسن — بجانب ذلك — أن تهتم مصر بما تنتجه هذه البلدان ، ولكن هذا الاهتمام الآن قاصر ، فأنت لا تكاد تجد شيئاً عندنا لمجموعة أدباء العراق والشام وهم كثيرون ، وبينهم الممتازون الذين يحسن أن تقرأ آثارهم ، ومع ذلك فقلما تجد من يعنى بهم بيننا ، وكأنما شغل المصريين استيراد النماذج الأوروبية وألهاهم ذلك عن الاهتمام بنماذج إخوانهم في البلدان العربية .

ومهما يكن فإن مصر تنبعت فيها الآن نهضة أدبية واسعة ، وإلهاها لأوسع من أن نعرض لها في هذه الخاتمة القصيرة بشيء من الاستيعاب والتفصيل . على أنه ينبغي أن نلاحظ أن هذه النهضة يطبعها طابع من السرعة في الإنتاج الأدبي ، وخاصة عند كتاب الصحف المحترفين ، وقد أثرت — إلى حد ما — هذه السرعة على الصياغة الفنية للنثر المصري ، إذ باعدت بين صناعته وبين ما كنا نألفه قديماً من التحبير والتجويد . وحقاً إن كتاب مصر وفقوا في إبعاد السجع والبديع عن النثر ، ولكن بعضاً منهم تطرفوا في عدم العناية بأساليبهم وتنقيح عباراتهم ، ولذلك كنت تعثر في آثار هذه الطائفة على أساليب لم تصقل ولم تجود ، وأيضاً قد تعثر على أساليب كثيرة نقلت نقلاً من اللغات الأوروبية . ومن المحقق أن هذه السرعة ترجع — في أغلب جوانبها — إلى العامل التجاري ، فالأديب يخرج الأثر الأدبي ، ثم يرى أنه لو تأننى ما استطاع أن يظفر بربح آخر إلا بعد مدد طويلة ، فهو يعدل عن التأني والتمهل ويتعجل في إصدار آثاره ، غير مهتم بالتجويد الواسع . وقد يكون من دوافع ذلك أن الجمهور القارئ لا يعرف التجويد الفني منه إلا الأقلون عدداً ، فيعتمد بعض الكتاب على ذلك ويخرجون آثارهم من قصص وغير

قصص من غير تحبير أو افتنان في التحبير . وبون بعيد جداً بين الطبقة التي كان يُخرج لها أدباء العرب في العصور السابقة أعمالهم وبين الطبقة الحاضرة التي تَخْرِجُ لها الآن تلك النماذج ، فالطبقة الأولى كانت محدودة بالخليفة أو الأمير وحاشيته وما حوله من أدباء ممتازين وعلماء وفلاسفة ، من أجل ذلك كان الكاتب يجود آثاره منتهى ما يمكن من تجويد . أما في هذا العصر فالطبقة التي يوجه لها الكتاب أعمالهم طبقة واسعة من الجمهور ، وأكثر هذه الطبقة حظه من الثقافة العامة — فضلاً عن الثقافة الأدبية — ضئيل ومحدود، ولذلك كان يتقبل كل ما يقدم له . وترى طائفة من الكتاب في الجمهور هذه الخاصة فلا تریث ، بل تتعجل ، وتدفعها هذه العجلة إلى إهمال أساليبها إهمالاً من شأنه أن يسقط في أثنائه كثير من العيوب التي ينبغي أن لا تغتور الأثر الأدبي الممتاز . وإنا لنأمل أن تكون هذه الدراسة للنثر العربي ومذاهبه في مختلف عصوره وأقاليمه فاتحة لعناية كتابنا بأعمال أسلافهم وتراث آبائهم ، وأن يدفعهم ذلك إلى الصقل والتحبير حتى يحققوا لآثارهم ما يريدون لها من البقاء والخلود .

فهرس الموضوعات

صفحة	
٦ - ٥	مقدمة الطبعة الثالثة
١١ - ٧	مقدمة الطبعة الأولى
١٨٨ - ١٣	الكتاب الأول : مذهب الصنعة
٤١ - ١٥	الفصل الأول : الصنعة في النثر الجاهلي
١٥	(١) النثر الجاهلي
٢٠	(٢) الأمثال الجاهلية
٢٤	(٣) الصنعة في الأمثال الجاهلية
٢٧	(٤) الخطابة الجاهلية
٣٣	(٥) الصنعة في الخطابة الجاهلية
٣٨	(٦) سمج الكهان
١٢٠ - ٤٢	الفصل الثاني : الصنعة في النثر الإسلامي
٤٢	(١) الإسلام : القرآن الكريم ، الحديث النبوي
٥٢	(٢) الخطابة في صدر الإسلام
	(٣) الخطابة في العصر الأموي : الخطابة السياسية ، خطابة المحافل ،
٦٣	الخطابة الدينية والوعظ والمناسبات
٨٠	(٤) الصنعة في الخطابة الأموية
٩٥	(٥) الكتابة في صدر الإسلام
٩٩	(٦) الكتابة في العصر الأموي
١٠٥	(٧) الصنعة في الكتابة الأموية
١١٣	(٨) عبد الحميد الكاتب وخصائصه الفنية
١٨٨ - ١٢١	الفصل الثالث : الصنعة في النثر العباسي
١٢١	(١) النثر العباسي
١٣٤	(٢) ابن المقفع : أصله وحياته وزنلقته
١٣٨	(٣) صنعة ابن المقفع في كتبه ورسائله

- (٤) سهل بن هرون : أصله وحياته وثقافته ١٤٤
 (٥) صنعة سهل في رسائله وكتبه ١٤٨
 (٦) الجاحظ : نشأته وثقافته وحياته ١٥٤
 (٧) الصنعة الجاحظية : الواقعية ، الاستطراد ، التلوين الصوقي ، التلوين المعقل ١٦٠
 (٨) رسالة التربيع والتدوير ١٧٧

الكتاب الثاني
 أ - مذهب التصنيع
 ٣١٠ - ١٨٩
 ب - مذهب التصنيع

الفصل الأول : التصنيع والدواوين ١٩١ - ٢٢٥

- (١) التصنيع في الحياة العربية ١٩١
 (٢) التصنيع ودواوين الخلافة العباسية ١٩٤
 (٣) التصنيع ودواوين الإمارات الفارسية ٢٠١
 (٤) ابن العميد : حياته وثقافته ٢٠٥
 (٥) تصنيع ابن العميد ٢٠٨
 (٦) الصاحب بن عباد وتصنيعه ٢١٢
 (٧) تصنيع أبي إسحاق الصابي ٢١٧
 (٨) التصنيع عام بين كتاب الدواوين ٢٢٢

الفصل الثاني : التصنيع والتصنع ٢٢٧ - ٢٦٤

- (١) اشتداد موجة التصنيع ٢٢٧
 (٢) أبو بكر الخوارزمي وتصنيعه ٢٣٠
 (٣) التصنيع وتصنيع الخوارزمي ٢٣٥
 (٤) بديع الزمان وتصنيعه ٢٣٨
 (٥) التصنيع وتصنيع بديع الزمان ٢٤٢
 (٦) مقامات البديع وما فيها من تصنع ٢٤٦
 (٧) قابوس بن وشمكير وتصنيعه ٢٥٥
 (٨) ذبوع التصنيع وانتشاره ٢٦١

الفصل الثالث : التصنيع والتعقيد ٢٦٥ - ٣١٠

- (١) أبو العلاء : حياته وذكاءه وثقافته ٢٦٥

صفحة

- (٢) أبو العلاء وتعقيده ٢٦٩
 (٣) التعقيد في رسالة الغفران ٢٧٥
 (٤) التعقيد في الفصول والغايات ٢٨٠
 (٥) الحريري وتعقيده ٢٩٢
 (٦) التعقيد في مقامات الحريري ٢٩٧
 (٧) الحصكفي وتعقيده ٣٠٤
 (٨) التعقيد ظاهرة عامة ٣٠٨

الكتاب الثالث : المذاهب الفنية في الأندلس ومصر

٣٨٨ - ٣١١

الفصل الأول : الأندلس والمذاهب الفنية

٣٢٧ - ٣١٣

- (١) الأندلس ٣١٣
 (٢) شخصية الأندلس ٣١٥
 (٣) النثر الأندلسي : ابن شهيد ٣١٩
 (٤) ملوك الطوائف ونهضة النثر الأندلسي : ابن زيدون ٣٢٤
 (٥) جمود النثر الأندلسي : لسان الدين بن الخطيب ٣٣١

الفصل الثاني : مصر والمذاهب الفنية

٣٨٨ - ٣٣٩

- (١) مصر ٣٣٩
 (٢) شخصية مصر ٣٤١
 (٣) النثر المصري : ابن عبد كان ٣٤٥
 (٤) الفاطميون ونهضة النثر المصري : ابن أبي الشخاء ٣٥١
 (٥) الأيوبيون ونهضة النثر في عصرهم : القاضي الفاضل ٣٦٤
 (٦) المماليك وامتداد النهضة في عهدهم : محي الدين بن عبد الظاهر ٣٧٦
 (٧) العصر العثماني والعقمة والجمود ٣٨٦

خاتمة

٣٩٥ - ٣٨٩

- (١) الصورة العامة للبحث ٣٨٩
 (٢) النثر المصري الحديث ٣٩١
 (٣) بين القديم والجديد ٣٩٣

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

• دراسات في الشعر العربي المعاصر

الطبعة السابعة ٢٩٢ صفحة

• شوقي شاعر العصر الحديث

الطبعة الثامنة ٢٨٦ صفحة

• الأدب العربي المعاصر في مصر

الطبعة الثامنة ٣٠٨ صفحات

• البارودي رائد الشعر الحديث

الطبعة الثالثة ٢٣٢ صفحة

• الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر

بنى أمية

الطبعة الرابعة ٣٣٦ صفحة

• البحث الأدبي: طبيعته، ومناهجه،

أصوله، مصادره

الطبعة الخامسة ٢٧٨ صفحة

• الشعر وطوابعه الشعبية على مر

العصور

الطبعة الأولى ٢٥٦ صفحة

في الدراسات النقدية

• في النقد الأدبي

الطبعة السادسة ٢٥٠ صفحة

• فصول في الشعر ونقده

الطبعة الثانية ٣٦٨ صفحة

في الدراسات البلاغية واللغوية

• البلاغة: تطور وتاريخ

الطبعة السادسة ٣٨٠ صفحة

في الدراسات القرآنية

• سورة الرحمن وسور قصار

عرض ودراسة.

الطبعة الثانية ٤٠٤ صفحات

في تاريخ الأدب العربي

• العصر الجاهلي

الطبعة العاشرة ٤٣٦ صفحة

• العصر الاسلامي

الطبعة التاسعة ٤٦١ صفحة

• العصر العباسي الاول

الطبعة الثامنة ٥٧٦ صفحة

• العصر العباسي الثاني

الطبعة الرابعة ٦٥٧ صفحة

• عصر الدول والامارات

الجزيرة العربية - العراق - إيران

الطبعة الأولى ٦٨٨ صفحة

في مكتبة الدراسات الادبية

• الفن ومذاهبه في الشعر العربي

الطبعة العاشرة ٥٢٤ صفحة

• الفن ومذاهبه في النثر العربي

الطبعة التاسعة ٤٠٠ صفحة

• التطور والتجديد في الشعر الاموي

الطبعة السابعة ٣٤٠ صفحة

• المدارس النحوية

الطبعة الخامسة ٣٧٦ صفحة

• تجديد النحر

الطبعة الاولى ٢٨٢ صفحة

في مجموعة نوابغ الفكر العربي

• ابن زيدون

الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة

في مجموعة فنون الادب العربي

• الرثاء

الطبعة الثالثة ١٠٨ صفحات

• المقامة

الطبعة الخامسة ١١٢ صفحة

• النقد

الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

• الترجمة الشخصية

الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة

• الرحلات

الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة

في التراث المحقق

• المغرب في حلل المغرب لابن سعيد

الجزء الاول - الطبعة الثالثة

٤٦٨ صفحة

الجزء الثاني - الطبعة الثالثة

٥٧٢ صفحة

• كتاب السبعة في القراءات

لابن مجاهد

الطبعة الثانية ٧٨٨ صفحة

• كتاب الرد على النجاة

الطبعة الثانية ١٥٠ صفحة

في سلسلة اقرأ

• العقاد

الطبعة الثالثة

• البطولة في الشعر العربي

• معى

١٩٨٣/٣٢٣٦	رقم الإيداع
ISBN	الترقيم الدولي ٩٧٧-٠٢-٥٠٤-٤

١/٨٣/١٣٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)